ميغيل أنخيل أستورياس

البابا الأخضر

رواية

ترجمة: محمّد علي اليوسفي

ورد

البابا الأخضر

• ميغيل أنخيل أستورياس
• البابا الأخضر
• ترجمة: محمد علي اليوسفي
• جميع الحقوق محفوظة © Copyright
• الطبعة الأولى 2008
• موافقة وزارة الإعلام رقم 100149
• الناشـــــــــر: ورد للطباعــة والنشــر والتوزيــع
سوريــة ـ دمشق ☎ 5141441
• الاستشارة الأدبية: حيدر حيدر
• الإشـــراف الفني: د. مجد حيدر
• التوزيـــــــــع: دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

All rights reserved. No part of this publication may be reproduced or transmitted in any form or by any means, electronic or mechanical, inclouding photocopying, recording, or any information storage and retrieval system, without permission in writing from the publisher.

ميغيل أنخيل أستورياس

البابا الأخضر

رواية

ترجمة: محمد علي اليوسفي

تقديم

ولد ميغيل أنخيل أستورياس في غواتيمالا سنة 1899. وبعد دراسة الحقوق، سافر إلى باريس في الثلاثينات حيث درس في السوربون ديانات الهنود الحمر قبل فتح كولومبوس للقارة، وهناك ألّف كتابه الأول «أساطير من غواتيمالا»، (قدّم له بول فاليري)، تعرض فيه لبلاده قبل الغزو وبعده.

عام 1933 عاد أستورياس إلى غواتيمالا ومعه مخطوطة «سيدي الرئيس»، التي لم تنشر إلا عام 1946 بسبب الأوضاع السياسية التي كانت تحول دون التعرض لدكتاتورية استرادا كابريرا، التي كان قد مرّ عليها أكثر من نصف قرن.

شغل أستورياس منصب ملحق ثقافي بسفارة غواتيمالا في المكسيك عام 1946، ثم وزير مستشار بسفارة غواتيمالا في الأرجنتين عام 1947 حيث تزوّج بلانكا مورا أي أروغو. ثم تقلب بين مناصب دبلوماسية أخرى حتى سقوط حكومة أربنز الديمقراطية فالتجأ إلى الأرجنتين عام 1957. وطيلة أعوام المنفى أقام في الصين ورومانيا وإيطاليا وفرنسا التي عاد إليها عام 1966 سفيراً لحكومة مونتينغرو، وفي السنة نفسها حصل على جائزة لينين للسلام، أعقبتها عام 1967 جائزة نوبل للآداب.

مات ميغيل أنخيل أستورياس في مدريد عام 1974.

من أعماله الشعرية: «رسائل هندية»، «سهرات ربيع نيّرة»، وفي

الرواية، فضلاً عن «أساطير من غواتيمالا» و«سيدي الرئيس»، كتب: «العاصفة»، «عيون المدفونين»، «خلاسية ما»، «الهاخاديتو أو رامة الشحاذ»، «بشر الذرة»، «اللصّ الذي لا يؤمن بالسماء». وله مجموعة قصصية هي «مرآة ليداسال وقصص أخرى»، وتحقيق بعنوان «رومانيا اليوم».

أمّا «البابا الأخضر» فهي رواية تتمحور حول شاب أمريكي طموح يتردّد بين مهنة القرصنة ومهنة أخرى أكثر نفعاً هي زراعة الموز في جمهورية صغيرة وسط أمريكا اللاتينية كان قد بلغ شاطئها ذات يوم.

تكمن أهمية هذه الرواية في غنى الفصول وحركة الشخصيات الواقعية وخصوصاً في معاينة الحياة بكل مظاهرها من الصراعات العائلية الصغيرة إلى الصراعات الكونية.

صراع بين العقلانية الأنكلوسكسونية والروح الأسطورية الهندية، لم يسبق التعرض إليه بمثل هذه القوة وهذا العمق.

محمد علي اليوسفي

الجزء الأول

1

رفع رأسه ـ من ترى كان سيعرف جو ماكر تومبسون بهذا الوجه المضاء من أسفله إلى أعلاه بنور دودة حُباحب مبلّلة؟ بهذا الوجه الملوّث حتى جوزة العنق، حيث العرق يتلألأ بثوراً بللورية على الجبين الدهني، وحيث غضروفا الأذنين يبدوان كما لو تمّ قليهما في زيت محرّك؟ كان الوميض الخافت للمصباح الملقى عند قدمه، يرتفع حتى أطراف لحيته دون أن يتجاوز جفنيه، العينان مثل ثمرتين سوداوين، الجبين في الظلّ وأنفه حاد...

رفع رأسه فلم يكن شعره سوى دخان، دخان محمر، دخان فحم يخترقه شرر ذو جمر يمكن رؤيته في ظلمة الليل الدافئ. لم ير شيئاً، لكنه وضع أنفه خارج المرجل الذي كانت تفوح منه رائحة ألواح الخشب المتعفّنة وصدأ الحديد التالف بفعل الملح وبخار الماء. التنفّس!... التنفّس باستقبال الهواء في الرئتين، الهواء الذي كان يدفع أمامه الأمواج بظهورها الزّبدية، مثل راعٍ يسوق قطيعه.

وعندما كان ينتصب، منهوك الخاصرة، متلهّفاً للتنفّس والرؤية ولرفع رأسه، سقط المفتاح الكبير المستخدم في إغلاق المرجل، عند قدميه، فحرّكت الصدمة النور الذي كان يضيء وجهه من الأسفل. أمّا الآن فقد صار وجهه مضاءً بمصابيح السفن الدّامعة، السائلة، وكأنما سقتها الأمواج في اضطرابها.

أخرج أنفه قبل لحظات من توقّف الباخرة الصغيرة التي قاومت

الرّيح طيلة ساعات وساعات تحت المطر العنيف، ساعات أكثر من تلك التي كانت تسجلها ساعات الركاب، إذ ما إن شرع الليل يخيّم على بريق البحر الكاريبي الأسود الهائج، حتى توقف الزمن، في انتظار شيء ما، لم يكن له أن يدوم سوى رفّة جفن ولم يكن له أن ينتسب إلى مُلكه، وإنما إلى ملك الأبديّة، ولقد توقّف بحيث لم يعتقد أحد بأنّ الصباح كان قد بدأ عندما لاح أول وميض للفجر. عمّ الصفاء فجأة وبفعل معجزة، عندما دخلت الباخرة الصغيرة مياه الجون(*) الهادئة، مخلّفة وراءها قصف الأمواج في رأس «مانابيك» وتلال الزبد حيث ضاعت، ضياعها في ذيل نجم مذنّب، ثم وجدت نفسها قبالة درع الأخشاب الطافية على الساحل النائم.

كان وجهه الأبيض ذو الجبين العريض، والعينين الكستنائيتين المشدودتين، ولحية ذئب البحار النحاسيّة، والأسنان القصيرة المتساوية في لثتها الحمراء، تحت قشرة من العرق والزيت والفحم الحجري، يستقبل النضارة الصافية من امتداد الصباح والبحر، كما يستقبل جائزة اليانصيب الأولى، في حين كان الركاب، كابين، مرضرضين، وثيابهم الرثّة ممضوغة بأنياب أهول ليلة في حياتهم البائسة، كانوا في لهفة الوصول، يكتشفون في البعيد، عند أطراف السهول المبيضّة الشاحبة، أشجار النخيل وأبنية الميناء متقطّعة باللون الأزرق على خلفيّة سماء سفرجليّة اللون.

أيها المسافرون!...

كانت سيماؤهم أقرب إلى الغرقى. وكان لمثل هذه الرحلة البحرية في ليلة جعلها هذا السفر أبديّة، أن تنتهي بنوع من الغرق، بسبب الزوبعة واختلال الآليات.

لقد عانى الثلاثون رجلاً الذين كانوا على متن الباخرة، من سكرات الموت مراراً عديدة ثم قيضت لهم الحياة من جديد، كانت اللجة بعد أن تكون قد ابتلعتهم وقززتهم من شتائمهم، تبصقهم فضلة

(*) الخليج الصغير.

بين سائر الفضلات في قناة بنما، وكانت مسبّاتهم تحفر البحر حتى القاع.

كان المركب ذهبياً مومضاً، علبة ثقاب، كل لمعة للبرق تشعل فيها النار، فيتوافق ذلك مع ارتجاج المحرك الذي كان يجعل الباخرة تفقد القدرة على المناورة لتبقى تحت رحمة الأمواج، مُكَنَّسَة بالمطر في قلب المحيط أو ملفوظة مثل قشرة نحو الساحل المدوّي بأصداء رعود الزوبعة.

كان هيجان السفينة عندما يضعف ضغط المحرك، وترنّحها عندما يعود المحرك إلى ضغطه الطبيعي، يتعاقبان عند الرجال باليأس وبالأمل، رغم أن اليأس كان يكبر في كل مرة، لأن السفينة كانت تمكث وقتاً أطول وهي معرضة للعناصر الهائجة الحانقة، ولأنه لم يكن لهم من أمل آخر لمخادعة الزوبعة سوى في مقبض دفة المختص، وهو أحد مواليد «تروخيلو». وكان يتلافى هذه العناصر الهائجة بطريقة غريزية تقريباً.

أخذ المسافرون، قبل النزول إلى رصيف الميناء، يشكرون نوتي الإشارة بالمال والجواهر، ويصافحونه، ويكررون له مئات المرات: «شكراً! شكراً جزيلاً!» الأمر الذي يتناقض مع الحقد الذي كانوا ينظرون به إلى مالك السفينة البخارية، جو ماكر تومبسون، الذي انتهى بأن عوض الميكانيكي. «المتوحش! كانوا يتذمرون، كان بإمكانه تحذيرنا بأن المرجل يعمل بطريقة سيئة، أو عدم المخاطرة بالإبحار ليلاً، أو التراجع أمام الطقس المتقلب!» كان ضحايا دوار البحر ينزلون على أيديهم وأقدامهم وهم أكثر من سكارى، أما الآخرون، ففي اضطراب عصبي يشعرهم بعدم الأمان حتى على اليابسة فيتأرجحون: «اليانكي الوغد!»...» «أود لو أنهال عليه ضرباً!»... «الطماع: يعرضنا لكل ذلك من أجل أربعة فلوس!»... كانت الحالة التعيسة، التي أوصلتهم إليها هذه الرحلة الجانحة، هي وحدها التي منعتهم من أن يلحقوا الأقوال بالأفعال، وكذلك الخوف من ثقب في الجلد يحدثه رصاص حارق. لقد كان ماكر تومبسون،

خلال النزول من المركب، يتلاعب بمسدسيه اللّذيْن لا يفارقانه، وكل واحد منهما على أحد جانبيه لكي لا يباغت فجأة.

أرسل «التروخيلي» كي يبحث عن شخص كان يأمل أن يراه في الميناء، وعندما وجد نفسه وحيداً ـ إذ فر الميكانيكي والنوتية متخلين عن أجرتهم ـ سدد ضربة قوية إلى السفينة بقدمه، فليس الناس والحيوانات فقط هم الذين ينتهون إلى الألم، هناك الآلات أيضاً. وبعد ضربة القدم، الملاطفة: سألها برقة ماذا يؤلمها، كما لو أنها تمكنت من فهمه، وترجاها أن تشتكي عندما تسير بشيء آخر غير ذلك النفس الضعيف من البخار الذي لا يعني شيئاً. والآن لا ضربة قدم ولا مداعبة، فبعد ذهابها توقفت بطريقة عجيبة. لقد أحكم ونظف ونفخ وبَرَدَ: نفس الصفير دائماً. ولأنه متعب، اضطجع كي ينام. بعد القيلولة سيأتي رجل تركي أثارت اهتمامه هذه السفينة. ولكن، وهي في هذه الحالة، لا يمكن أن يشتريها سوى مجنون. وحسب قول التروخيلي، بيعها يعد صفقة خاسرة ولكن الأدهى أن يظل المرء مبحراً ـ آه، حقاً، بلى: مبحراً! ـ في هذه القرعة المخربة. كان من الأفضل تركها لمصيرها. التروخيلي سيعود بين لحظة وأخرى ليقول إن كان قد التقى هذا الشخص. إذا وصل التركي قريباً ووافقت السفينة على التحرك، فالصفقة تمت. وإلا... من الأفضل ترك كل شيء.

... كانت أسماك القرش تدور الواحدة حول الأخرى في وعاء من النرد الأزرق للبحر المضطرب تحت الرصيف. من ترى كان يلعب أمامه بحجارة النرد السوداء الضخمة هذه؟ إذا جاء هذا الشخص وباع له الباخرة: سوف يصير زارع موز. إذا لم يأت التركي ويوقع العقد، فسيعود إلى القرصنة البحرية.

على الرصيف سأله شخص متى سيرجع. أجاب بأنه لا يعلم. «الآليات لا تعمل جيداً» قال، كما لو كان يتحدث مع الدعائم المطلية بالقطران والتي كان يقف فوقها المعني بالأمر،... أو كما لو كان يتحدث مع أسماك القرش.

عاد التروخيلي ونزل. لاحت قدماه أولاً، ثم كاحلاه، فسرواله القصير، فذيل قميصه، فكماه، وأخيرا رأسه تحت قبعة «الباناما» ذات القش الملون. كان يحمل رسالة. لم يقدر «جو» على قراءتها، تصفحها بسرعة. سمع صوت التركي الغليظ الذي كان يقبل برفقة رجال آخرين.

ـ ماذا أصاب الباخرة إذن؟ سأل بالإنكليزية.

ـ لست أدري حقاً، أجاب ماكر تومبسون.

ـ من الأفضل أن يفحصها رجالي، وعلى أية حال، القضية منتهية. سآتي لك بالمال هذا المساء، وسوف نقلع في الغداة باتجاه الجنوب.

ـ إذن، أيها التروخيلي، ينبغي إنزال أمتعتي.

ـ سيأتي شخص آخر لإنزالك من المركب، همهم الرجل وهو يجمع أسرة نوم، وبنادق، وفراء، وحقائب ملأى، ومصابيح، وكللاً ناموسية، وغلايين، وأوراق لعب، وكتباً، وقناني...

أخذت الشمس الغاربة تلطخ جون «أماتيك» بخردل ناري. بينما كانت النسائم تداعب النخيل المشوي وكأنه من جمر، فتطفي لهيبه. نجوم في السماء، منارات صفراء، ضفاف سوداء طافية فوق البحر الأخضر... نهاية مساء لا تنتهي... متنزهون على الرصيف. سود. بيض. ما أعجب رؤية البيض في الليل! مثل رؤية السود في النهار! سود «أوموو ا»، سود بيليس، سود ليفنغستون، سود نيو أورليانز. خلاسيون لا شأن لهم ذوو عيون سمكية، أنصاف هنود، أنصاف أسبان، زامبو(*) ذوو سواد قاتم، مولدات متهتكات، آسيويات ذوات ضفائر، وبيض هاربون من جحيم بنما.

دفع له التركي مسكوكات فضية وذهبية، نقداً، وتم توقيع الوثائق المؤكدة على انتقال ملكية السفينة، التي ارتحلت فجراً، من

(*) الزامبو: الولد من أب زنجي وأم هندية أو العكس.

دون مسافرين، نحو الجنوب، من حيث أتى بها جو ماكر تومبسون، المضطجع حالياً على أرجوحة نوم في مزرعة، من دون نوم، من دون تدفئة، ومن دون ضوء، مستمعاً إلى السماء وهي تنهار سيولاً على الأرض، متأهباً للتقيد بتعاليم الرسالة التي سلمها له معاونه.

كانت أشجار النخيل، مثل مظلات عتيقة تقطر بحبيبات المزنة، بفعل همس الهواء المنعش، الذي كان يخفف من النار البيضاء، المتدفقة من شمس أخذت ترتفع قليلاً قليلاً، ساكبة على مدى الجون المائي قصديرها المصهور، فلا تكاد أجنحة السنونو والنوارس وزمج الماء تلامسه، في حين كانت العيون السمتيّة للحدآت والنسور ذات الرؤوس الحمراء وطيور «الزوبيليت» تخترق كثافته.

زارع موز، هكذا سيكون مصيره. ولجوعه الشديد أفطر بيض سلحفاة وقهوة ساخنة وقطعاً ملتهبة من ثمرة كان لها طعم الخبز: كان كل ذلك هدية من معاونه، التروخيلي المبحر في عرض البحر وحول سواحل «وسط الجنة الأمريكية»، كما كان يسمي أمريكا الوسطى، حيث كان يتاجر بالسكر والفشاغ والأكاجو، والذهب والفضة واللؤلؤ والأصداف والـ... نساء، وهذا الشخص، رغم العائق الذي يمثله المشي على رجليه بالنسبة له، رضي أن يرافقه إلى الأرض مقابل أجرة.

كلا ثم كلا. الغابة والمستنقع يضايقان، المطر يضطرم، ذلك المطر الذي، عدا في مارس وأبريل، يهطل بلا انقطاع وكل يوم تقريباً على امتداد السنة، والمجازفة أقل في احتراف القرصنة منها في تملك أراض لا تعرف إلى من تعود. الصفقة الجادة هي في شراء مركب ذي مسحوب ماء أكبر والقيام بتجارة الجلود والسلاح وصمغ العلكة وجلود التماسيح، بكل حرية ودون الركون إلى الرطوبة والخمول.

«ورغم أن مدينتي صغيرة فأنا أحبها أكثر. فهنالك حتى طيور الحذف نفسها تعرفني ـ كان التروخيلي يقول ـ ، ثم إنها تنتج التبغ.

ولماذا لن يكون هنا سوى الموز؟... وحتى إذا صار المرء مزارعاً، فمن الأفضل زراعة التبغ وقصب السكر...».

ثم دس السيكار «الهافاني» الممتاز الذي قدمه له جو ماكر تومبسون بين أسنانه الملوثة بالنيكوتين تماماً. وكانت عينا جو ماكر تومبسون تائهتين في الدخان (إذ كان يدخن بدوره)، وهما مفتوحتان جيداً على رؤية عالم كان الأقوياء فيه يتقاسمون الأرض والبشر. «أنا أُفضِّل زورق «بيبانتي»(*) على أكبر مزرعة موز، وكبداية فيما يتعلق بي بدأت أفاوض حول خمسين شحنة أرز، تقريباً. ومن حسن الحظ أن التركي لم يعلم بذلك وسيأتي صديق بمركب شراعي غداً».

وبعد تنهد طويل، كرر:

«نعم يا سيدي، بمركب شراعي».

لم يقل اليانكي شيئاً. كانت هناك ألسنة من عرق تلعق ظهره طويلاً. قدم له قيمة الخمسين شحنة من الرز ذهباً، قدم له البندقية والثياب، حصته من أرباح مزارع الموز عندما تصير ثمة مزارع، كل شيء، المهم أن يتبعه الآخر إلى اليابسة.

«من زمان كان يمكنني أن أجمع المال، لو أنني أحببت الأرض، ولكن منذ طفولتي الأولى وأنا أضرب في البحر ولا أخرج أبداً... الماء هو قدري!».

كان هذا الهجر، بالنسبة لـ جو ماكر تومبسون الذي اعتاد التصرف في معاونه وكأنه ذاته الأخرى، يمزقه قسمين. لقد قابله في بويرتو ليمون ثم أصبحا شريكين. كانا يقومان بنفس العمليات، تمكين الايطاليين والأسبان التعساء الذين يعملون في قناة بنما من وسيلة للهرب، وعدم ترك عظامهم على امتداد سكة الحديد التي بوشر بمدها والتي غدت بيضاء اللون تماماً من كثرة الهياكل

(*) زورق محلي من جذوع الأشجار.

العظمية، وكذلك لتمكينهم من عدم الرضوخ مع قبول أدنى الأجور بسبب التجويع.

لقد التقاه في بويرتو ليمون، وضحك إذ رآه يضاجع بكل ثيابه وقبعته مغروزة حتى أذنيه. كان للرجل، وهو مضطجع على الأنثى العارية، شكل فزاعة. وعندما رفع اليانكي مغلق الشباك المتحرك الذي كان يغطي الباب، لم يتحرك وجهه الأبيض بإشارة استياء مطلقاً. لم يكترث لمعرفة من القادم أو ماذا يراد منه، بالعكس، أطبق عينيه بشدة وواصل طرقه الصغير للمرأة. إذ أنه لم يكن مساعد إسكافي مجاناً.

كان ماكر تومبسون يبحث عن رجل من صنفه كي يساعده في البحر، فصادف قازباً،(*) حقيقياً، شبيهاً به تماماً، متماثلاً مع شخصيته إلى حد أنه يحس الآن وهما ينفصلان أنه يترك شيئاً منه، أناه الأخرى، نصف جسده، جزءاً من كيانه.

نعم، كان يترك في شخص التروخيلي جزءاً من كيانه سوف يبقى حراً في البحر، في صيد اللآلئ، والإسفنج عند صخور «بيليس»، في تهريب الأسلحة الخفيفة إلى قصر المستقلين والمتمردين الذين كانوا يغيرون على تلك الشواطىء، وكذلك في افتداء العمال اليدويين الهاربين من جحيم بنما. كان يترك في ذلك الخادم الأمين قليلاً من جامايكا، قليلاً من كوبا ومن جزر الجون، من الويسكي، والبارود، وأرداف النساء، والطبول، والبانجو والماراكاس(**) والنهود، والوشم، والرقص... ترك له الدفة كي يتجاوز منطقة «الرؤوس الثلاثة»، في حين كان هو يغوص في ذاته، مجسداً، البابا الأخضر، زارع الموز، والسيد صاحب الصك والسكين، المبحر في عرق البشر.

(*) حيوان برمائي.

(**) آلات موسيقية.

وعلى الامتداد الأزرق ذي البياض الفضي لاحت سفينة وكأنها مرسومة بالطباشير. كان بياضها الجبسي متضاداً مع سواد الرصيف ورجال السفينة المحليين المتهندمين، وكان خطها الأفقي يكسر صورة الدكاكين المسطحة ومكتب آمر المرفأ، والمزارع ذات النخيل المنتشر مثل حشرات عملاقة على الأراضي المنخفضة والمهذّبة، في الناحية الأكثر سكاناً من الشاطىء. وبين الركاب كان يوجد الشخص المنتظر من قبل جو ماكر تومبسون.

البدلة، الحذاء والخوذة كلها بيضاء. وعلى طريقة الفرسان القدامى، حياه بيد صلبة في آخر ذراعه التي كانت تبدو وكأنها مفصل إحدى اللعب الآلية، وكان في غضون ذلك يحمل بيده الأخرى دثاراً ومظلة ومحفظة كبيرة.

وبعد الشكليات المعتادة، تمكن ماكر تومبسون من الصعود إلى السفينة والالتحاق بالمسافر الذي تقدم كي يمد له يده اليسرى. كانت ذراعه اليمنى مجهزة بيد مطاطية. وكان يمسك بمحفظته تحت إبطه والدثار والمظلة على ساعده.

«هل أنت، السيد كاند؟

ـ وأنت، السيد ماكر تومبسون؟».

ثم نزلا، يتبعهما المتاع ـ صناديق وحقائب ـ محملة على ظهور الرجال الملونين الذين كانوا يتضاحكون ويسيرون بخطى حثيثة خلف السيدين. وبالنسبة للسود، في تلك الأنحاء المقفرة، عندما يتجاوز عددهم الواحد، يعتبرون حاشية، وعندما يتجاوزون الثلاثة يعدون مرافقين، وإذا تجاوز عددهم الأربعة فهم موكب، أما إذا تجاوزوا الخمسة فإنهم يعتبرون جيشاً.

امتلأت غرفة ماكر تومبسون، الضيقة قليلاً، بطرود المسافر الذي تسببت يده المطاطية، بعد أن ترك على أحد الكراسي الدثار الذي يستعمله لتغطيتها، في إثارة ذهول شديد لدى السود بحيث توجب تهديدهم للتوصل إلى إخراجهم من الغرفة. ولقد تجاسر

أوقحهم إلى حد لمسها وطفق يقوم بإشارات متصنعة مثل شخص مقيد الرجلين يجاهد كي يتخلص من أسره، وكان من شأنه أن يمكث هناك، لولا أن «جو» عاجله بضربة من حذائه.

كان القادم الجديد، خانجر كاند، يتميز بالتضاد ما بين بنية جسمه البائسة (التي لا تكاد تملأ ثيابه) ومؤسسة موز الكاريبي الجبارة التي يمثلها. كان شعره رمادياً وشفتاه رقيقتين وشاربه خفيفاً وعيناه المصفرتان والمكورتان من الطرفين، بالإضافة إلى وَهَنهما لفرط زيغانهما، لإبراز البؤبؤين الأسودين الصغيرين، كانتا تشبهان الكشتبان، وكل تلك الصفات كانت تجابه، إذا صح القول، الخمسة والعشرين عاماً من عمر جو ماكر تومبسون وشعره الأشقر الغزير وجبينه العريض وعينيه البنيتين ولحيته الصهباء وشفتيه المكتنزتين.

ومن دون التخلي عن بشاشته، تخلى خانجر كاند عن مجهود استعمال منديله لتجفيف العرق الحار الذي كان ينز من صدغيه وخديه ورقبته وياقته إلى حد أنه فتح أزرار قميصه كي يجفف صدره وكتفيه و«جدعة» ذراعه وكل موضع. وكان يخيل إليه أحياناً أن يده المستعارة تنز عرقاً هي الأخرى.

«هل علي أن أنام أرضاً؟ سأل بنبرة مرحة، لست أرى سريراً في أي مكان.

ـ كلا، يا سيد كاند، سوف تعلق لك أرجوحة نوم أخرى.

ـ لي أنا؟

ـ نعم. أرجوحة مثل هذه، مع كلَّة ناموسية.

ـ أفضّل سرير ميدان إذا أمكن. لي واحد في نيو أورليانز. لم آت به، ظننت أن بإمكاني إيجاد واحد هنا».

شعت عيناه بالضحك وامتلأت فرجتا شفتيه، ما بين الغضون المقوسة الصلبة، بقليل من اللعاب الجاف، ثم أضاف:

- في هذه الحالة، على رجال السفينة أن يتركوا لي مسنداً. وعلى ذكر السفينة، لقد جاءت لنقل البريد إلى الجنوب وعندما تعود سوف تحمل الموز فضلاً عن البريد. لقد قلت لخادمك ألا يعلق أرجوحة نوم وسوف نتناول الغذاء بسرعة لأنني جعت.

- إذا كنت تفضل النوم على سرير ميدان، فينبغي أن نحصل لك على «petate» قال الخادم الذي استمع إليهما من الباب، بالإنكليزية.

- ما معنى petate؟

- حصير صغير منسوج من سعف نخيل، أوضح ماكر تومبسون منزعجاً من تدخل الخادم، إنه دائماً يرصد ما أقول وما أفعل.

- ولم يستعمل؟ سأله كند.

- لتبريد السرير، أجاب الخادم نفسه، لأن سرير الميدان يسخن كثيراً في الليل بسبب اشتداد الحرارة.

- لقد فهمت، حسناً! الـ petate شيء جيد!

عطس السيد كاند لدى خروجه إلى الشارع الرملي باتجاه السفينة وتحت سماء محرقة مثل فرن. وعندما شعر بالدغدغة في أنبوبي أنفه، قلص بشرة وجهه الصغير المغضن ثم بسطها أثناء حفلة العطاس.

«لقد اخترنا أسوأ الساعات، لاحظ تومبسون.

- لا تهتم بالنسبة لي. أنا أعطس دائماً بهذه الطريقة. أحس أثناء العطاس أنني سأتلاشى قطعاً متناثرة، غير انه لا يحدث شيء من ذلك، فأمكث مثل شخص، بعد أن تنفجر مفرقعات في وجهه، يتمخط ويتنشق ويسترجع كل ما سلبه إياه العطاس. لا شك أنني صالح لأن أكون قيصراً لروسيا: مهما قذفني إرهابيون بقنابل، فإن ذلك سوف يكون، بالنسبة لي، كما لو أنهم عطسوا فقط».

ثم غير من نبرة صوته وعيناه ضاحكتان والرغوة الجافة على زاويتي شفتيه بين التجعدات المقوسة:

«إنه لأمر حسن يا جو ماكر تومبسون، أن نحصل عليك إلى جانبنا! لقد أوصيت عليك كثيراً في شيكاغو، رغم الاختلاف معك في وجهة نظرك المتعلقة بضم الأراضي واستعمال القوة. ولكن سوف يكون لنا متسع من الوقت للتحدث حول ذلك».

«أي صنف من الرجال هو آمر المرفأ؟

ـ لست أعرف حتى اسمه.

ـ ولكنك تعرفه على الأقل...

ـ بالنظر. إنه هندي أصيل. ولا يكاد يجيد التحدث، حسب قول «شيبو» الخادم.

ـ وهل شيبو هذا شخص مؤتمن؟

ـ كلا. أحتاج إليه لتنظيف المنزل والتسوق. إنه شيطان بائس، غير أنه يفهم الإنكليزية ويرطن بها، إنكليزية الزنوج التي يتكلمها الإنكليز في «بيليس». رجل ثقتي كان تروخيلياً، إلا انه رفض البقاء معي مهما كانت الشروط. يا للخسارة! قلة هم الرجال الذين يتحلون بذلك القدر من الرجولة. لقد قدمت له... بل ماذا لم أقدم له! لكنه فضل مواصلة الملاحة».

وبعد أن صمت قليلاً بحثاً عن الكلمات الدقيقة المعبرة:

«آه! يا له من يانكي(*) صغير مهرج! لقد ودعني بقوله: أريد أن أتفوق على القراصنة!» وسخر مني.

ـ وهل كان يعرف كل مشاريعك؟

ـ كلا، ما عدا كوني سأصبح زارع موز. أما قصة قرصنته فقد رواها لي لأنني أخبرته بكوني سأغدو قرصاناً تحت اسم «البابا الأخضر». فأصير بابا القرصنة، وأسيطر على هذه البحار بإشعال

(*) لقب كان يطلقه سكان أمريكا اللاتينية على الأجانب عامة ثم على سكان الولايات المتحدة الأنكلو ـ سكسونيين.

النار وسفك الدماء، على طريقة «درايك»، سيد القراصنة، وعلى طريقة «والاس» الذي عمَّد «بيليس»، والقبطان سميث الذي كان يرى أن على أمريكا الوسطى أن تعزي التاج البريطاني على فقدان الولايات المتحدة بأكثر مما يكفي.

ـ لقد قرأت رسائله في شيكاغو...

ـ إلا أن القراصنة، الذين كانوا سابقاً سادة الكاريبي، هم بهذا الحجم (وابرز خنصره) فيما يتعلق بثرواتهم، مهما كانت غنائمهم فاحشة، فإن غنائمنا، في المستقبل، سوف تكون أضخم بكثير. وأما فيما يتعلق بالأساليب، فإن الإنسان لم يتغير، يا سيدي كاند: لقد أسالوا الدماء في البحر، أما نحن فسوف نخضّب بها الأرض.

ـ لا أعتقد أنهم سيوافقون على ذلك في شيكاغو. فالقوم هناك يفضلون الحديث عن الدور الحضاري الممدِّن الذي نقوم به في هذه البلدان المتخلفة. السيطرة، نعم: ولكن ليس بالعنف. الإقناع أفضل من الإكراه. مع إبراز الفوائد التي سوف يحصلون عليها من الأراضي التي نزرعها لهم.

ـ في شيكاغو يفضلون الحديث عن حصص من الربح...

ـ ولكن الأمر لا يتعلق بالحصص...».

ثم إن كاند خفض طرف قبعته على عنقه بيده المزيفة، كي يتقي الشمس التي كانت تحرق جلده، فعل ذلك بحركة مضحكة تشبه إيماءة دمية متحركة. ثم تابع:

«الأمر يتعلق بتمدين شعوب، واستبدال أنانية الأوروبيين وعنفهم بسياسة وصاية من قبل من هو أجدر وأقدر.

ـ يا لها من موسيقى سماوية، سيد كاند! الأقوى يهيمن! ولماذا تراه يهيمن؟ لاقتسام الأراضي والناس!».

كانا يصعدان إلى السفينة عبر الجسر، تحت ظل بيرق برتقالي اللون، مزركش بالأبيض.

«القوة؟... صرخ الأكتع، قبل أن يلتفت إلى مواطنه الشاب. إذا كان الأمر كذلك، لماذا لا نذكر مثل بطليموس، تأثير النجوم لقهر الشعوب بتجزئتها إلى قسمين: أولئك الذين خلقوا من أجل الاستعباد، وأولئك الذين هم أهل للحرية وهكذا لا تبقى هنالك حاجة لذكر أولئك المحاذين لمدار السرطان، ولا ينبغي القول بأنهم متوحشون، ومحكوم عليهم بالعبودية الأبدية!».

ودون أن يفارق الضحك عينيه واللعاب شفتيه، بتَّ في الأمر قائلاً:

«من حسن الحظ، أننا تجاوزنا عقلية «العناصر الأربعة» كما أننا سوف نتجاوز المفهوم الأرسطوطاليسي للقوة، شرط أن يتقبل أناس مثلك الحد الوسط، الذي أُطلق عليه «الإيثار العدواني»، والذي تم تجريبه في مانيلا».

ثم خفض من نبرة صوته، وأقر، بهدوء أكثر:

«هذه الآلة تزعجني. الأكتع لا يناسبه أي مناخ، وخاصة في جهنم... يا لها من حرارة.

ـ أنت تخفي يدك جيداً.

ـ لست أدري. إنني أستخدمها، لأن الشيء يعني وجود الشيء، ولأنه لا يمكن لأحد بعد كأس الويسكي الخامسة، أن يقنعني بأنها زائفة، أشدها وأضرب: إنها يدي».

كان آمر المرفأ يتناول الغذاء في قاعة الأكل داخل الباخرة، بصحبة فتاة سمراء، يبدو عليها أنها مصطافة، بسحنتها الذهبية الشاحبة وعينيها السوداوين. تحرك سيل من الأقراط على عنقها وخاتمان مرصعان بالياقوت الأحمر، عندما تلفتت، بغنج أكثر مما كان ذلك بفضول، لترى من الذي كان يدخل.

ألقى كاند التحية بهزة من رأسه، فرد القائد التحية، ثم جلس القادمان الجديدان إلى طاولة مجاورة.

«مرق بارد، بفتيك وفواكه، طلب كاند دون أن يطلع على قائمة المأكولات، وهو ينفض منديله كي يبسطه على ركبتيه، ركبتي الرجل الضئيل الحجم.

ـ حساء بالطماطم، سمك بالزبدة وسلطة فاكهة، طلب ماكر تومبسون.

ـ بيرة؟ سأل النادل.

ـ بالنسبة لي، نعم، قال كاند.

ـ نعم، أعطنا بيرة» أكد الثاني.

كان اقتراب الطاولتين يزعج العسكري المتضايق من سماع لغة اليانكي. توجه بنظره شطر البحر المرغي والمزبد، دون أن تفوته، رغم ذلك، أدنى حركة من حركاتهما، فكان يراقبهما بلحْظِهِ، في حين كانت رفيقته تتململ في كرسيها، وتترك محفظتها تقع على الأرض لتعود فتلتقطها، ثم تتروح، وتمر بمنديلها على أنفها، وتلعب بأدوات المائدة، وترفع عينيها ببؤبؤيهما الأبنوسيين، وتفرج ما بين ساقيها تحت الطاولة ثم تجمعهما وتدير رأسها كما لو كانت تبحث عن هواء المراوح الكهربائية.

انتبه كاند للمناورة. وكانت حركات يده الزائفة، وهي حركات جد شبيهة بكماشتي سلطعون بحري، تبعث الرغبة في التأرجح بالفاتنة السمراء التي كان جسدها المختلج لا يكاد يغطيه قماش بخاري بمثابة لباس، وكانت تحس برغبة لا تقاوم في الضحك. كلا، لم تعد قادرة على المقاومة، لم تعد قادرة. فانفجرت ضاحكة.

وبعد استدارة من كاند، بحركة كراكوزية خفيفة، انفرط عنقود جلاجل من ضحك عم الجميع بمن فيهم العسكري، الذي لاحت أسنانه المذهبة.

«السيدان يودان الاستفسار إن كانت الباخرة ستنطلق اليوم» قالت، متوجهة قليلاً نحو الآمر، ومحاولة في الآن نفسه التخفيف من أثر المزحة بإبداء بعض الاهتمام بالرجل ذي العاهة.

ـ أعتقد أن ذلك سيتم خلال منتصف الليل، أسرع كاند بالإجابة، رغبة منه في التعجيل بمد الجسر الضروري بين شخصه المنتَّف الريش والحضور... «الجيولوجي» لصاحب السلطة العليا في المرفأ.

ـ وأنتما هل ستسافران؟ سألت الفتاة.

ـ حالياً، لا. رفيقي، السيد ماكر تومبسون، كان هنا منذ فترة، أما أنا فقد وصلت حديثاً على متن الباخرة «نيو ـ أرليانز».

ـ نعم، من أيام وهذا السيد هنا، تدخل الآمر قائلاً، بودٍّ لم يتوصل إلى تلطيف نبرة صوته المتسلطة. كما لاحظ شيبو تقريباً.

ـ بالضبط.

ـ والتركي، هل اشترى منك الباخرة الصغيرة؟

ـ لقد بعتها له. آلياتها لا تعمل جيداً.

ـ لقد نجحت في كل شيء إلا مع التروخيلي، استأنف العسكري قوله، مراكماً المعلومات كي يبين لابني الـ... العم سام بأنه ليس غراً، وأنه مطلع على كل ما يقومان به.

ـ بالفعل، لقد وهبته مالاً وأسمالاً، وبندقية الصيد التي كانت بحوزتي...

ـ المتوحش! قاطعه الآمر، ماسحاً شاربيه، كي يأتي على بقية النبيذ التي ظلت في كأسه.

وبعد أن تذوق السائل العنبري، أضاف:

«هؤلاء القوم، هؤلاء القوم، إنهم الهمجية... تمشي على قدمين... أليس كذلك؟

ـ تمشي إلى الوراء! صرخ كاند العجوز، دون أن يفارق الضحك عينيه، والرغوة زاويتي شفتيه.

ـ عذراً إن كنت أدافع عن التروخيلي، قال ماكر تومبسون رافعاً صوته، لم يكن همجياً في شيء. إنما، في الواقع، سكان الساحل

يحبون الحرية، وهم يفتقدونها في داخلهم، ولهذا السبب فإنهم يفضلون القصاص والبؤس...

ـ المتخلفون! قاطع الآمر. أعداء التقدم، إنهم قوم لا يريدون تحسين مصيرهم، لن تقول لي أبداً بأنهم ليسوا همجاً!

ـ نعم، أنت على حق! أجاب ماكر تومبسون، دون أن تفارق عيناه السمراء المتأملة التي كانت تبتسم له وهي تتروح. أنت على حق، المهم ألا يوهب لهم التقدم مقابل الشيء الوحيد الذي لا يريدون فقدانه: الحرية. ولهذا فأنا لا أعتقد البتة في الوصاية التحضيرية. ينبغي إخضاع الناس بالقوة، أو تركهم بسلام.

ـ برافو!» هتف العسكري.

ثبت كاند، جانبياً، يؤبؤي عينيه السوداوين في وجه مواطنه الشاب، لقد صدم بعد أن استمع إليه يتحدث بعبارات عارية تقريباً عن العنف كوسيلة أنجع في بلدان يفضل إخضاعها بطُعم التقدم الحديث.

لم يكن الخدم السود في قاعة الأكل يظهرون أي أثر للحياة باستثناء حضورهم الذليل وإيقاع حركات سواعدهم. وكان ثمة تشابك آلي لكواكب مظلمة يشرف على التغيير الصموت للأطباق والملاعق والسكاكين والصحون والقوارير، وعندما يسكت الآكلون لا يسمع في القاعة سوى طنين المراوح، وصرير سلاسل الشحن والتفريغ، والاختلاج البعيد في الجون.

«نعم، سادتي، نحن متخلفون، متخلفون جداً. قال الآمر بعد أن رأى من الضروري التعقيب. متخلفون جداً...

ـ صحيح! أكد كاند بصوت مفخم، بعد صمت مضن. «متخلفون» هي الكلمة المناسبة، لا «همج» كما سمعتك تقول. إنما عن جهل فقط نذهب إلى القول، عن البلدان القليلة التطور، أنها متوحشة أو همجية. في القرن العشرين نقول: شعوب متقدمة أو شعوب متخلفة وعلى الشعوب المتقدمة أن تساعد الشعوب المتخلفة على التطور.

ـ وماذا يتوجب كي تتمكن الشعوب المتخلفة، كما تسميها، من التقدم؟ تدخلت تلك التي ظلت حتى الآن مجرد مستمعة، مثبتة نظرتها الأبنوسية على عيني كاند الصغيرتين.

ـ نعم، لأنه لا بد من بلوغ الحضارة ذات يوم»، قال العسكري وهو ينظف أسنانه بالسواك.

فكر كاند لحظة، الأمر الذي أعطى لجوابه قيمة أكبر:

«أوه! لا شيء خارقاً، مقايضة بسيطة. مبادلة الثروة بالحضارة. وإذا كان ما تحتاجونه هو التقدم، فإننا مستعدون لتقديمه لكم مقابل ما تنتجه أرضكم. ودائماً عندما يتم اللجوء إلى مثل هذه المقايضة، فإن البلد الأكثر تطوراً هو الذي يقوم بأعباء إدارة ثروات البلد الأقل تطوراً. حتى يتوصل الأخير إلى بلوغ رشده. التقدم مقابل الثروة.

ـ من أجل التقدم يمكن التضحية بذلك، وأكثر أيضاً... فأنا، بوصفي عسكرياً يحترم نفسه، لا أؤمن بالله؟ ولكن، لو أنني أجبرت على عبادة أحد، لما ترددت في الإعلان بأن إلهي إنما هو التقدم.

ـ حسن للغاية! ـ كان كاند متحمساً ـ حسن للغاية! ومثلما هي الحركة، سيدي الآمر، لا يمكن البرهنة عليها إلا بالمشي، فإن أسطولنا قد بدأ بحمل ونقل المراسلات، باخرة في الأسبوع كبداية، مراسلات، سلع، ركاب...

ـ أنا، كامرأة، أبارك التقدم... وأي شيء سريع العطب مثل رسالة، نفثة قلب... نفثة روح...».

ولم تتم حديثها، لأن الآمر أشار إلى الأهمية التي يتسم بها، بالنسبة لحركة المرفأ، وصول باخرة كل سبعة أيام. كان يتكلم وفنجان القهوة في مستوى شاربيه، ليسهل عملية رشفه.

أصر كاند:

«كسر عزلة البلد وبعث الحياة في مرفئها الرئيسي على

الأطلنطي، هما مؤشران، لا جدال حولهما، على التقدم. حالياً، نحن بحاجة إلى الموز، إذ أننا نشتريه بأفضل الأسعار، ولكنني أعتقد أنه علينا أن نتولى زراعته لحسابنا وتحت مسؤوليتنا، لأن مزارعي البلد ينتجون قليلاً، ولأن الموز سيغدو غير كاف أكثر فأكثر، نظراً لكون الطلب يزداد في السوق، وثماركم هي المفضلة.

ـ إذن، يا أصدقائي الأعزاء، قال آمر المرفأ، لا توجد عراقيل في الداخل. وهناك توجد الأرض... فماذا تنتظرون؟

ـ إنما من أجل ذلك جئنا، السيد ماكر تومبسون وأنا، لتعزيز الإنتاج. إن الاستهلاك يزداد ونحن سنفقد اعتبارنا بل أنتم ونحن، إذا لم يعد هناك ثمار كافية في السوق. إن سمعة البلاد وثقة الناس بها، مهددتان. وسوف تنتج، على نطاق واسع، لا الثمار، وإنما الثروة. الثروة! الثروة! سوف تغدو القرى مدناً، والمدن عواصم، وسوف تربط بينها جميعاً السكك الحديدية، والطرقات، والهاتف، والتلغراف... وهكذا تنتهي العزلة، ينتهي البؤس، ينتهي الإهمال، تنتهي الأوبئة، ينتهي الفقر!... مزارع موز، أغصان مقطوعة، معادن مستخرجة... دون التوغل بعيداً، هنا بالقرب منا توجد مغاسل ذهب، ومناجم فحم حجري، وجزر لؤلؤ... أمبوريوم، أقول لكم، أمبوريوم(*) تقدم وحضارة!

ـ يا أصدقائي، قال آمر المرفأ وهو ينهض، إننا لسنا ننام واقفين فحسب، وإنما نحلم أيضاً...».

تقدم كاند كي يمد له يده اليسرى، ثم تبعه جو ماكر تومبسون، وفي نفس الوقت تبادلوا ذكر أسمائهم من أجل التعريف، وهو ما قاما به مجدداً مع المواطنة المحلية الجميلة الشاحبة ذات العينين الأبنوسيتين الناعستين تحت جفنيهما والتي تقول بأن اسمها ماياري.

(*) كان للكلمة في عهد الرومان معنى المتجر، الوكالة التجارية في أطراف الإمبراطورية.

سوف نواصل هذا الحوار مع رأسي جوز هند محروقين أقل ـ قال العسكري مشيراً إلى رأسيهما على سبيل الدعابة ـ ولهذا علينا أن ننتظر حتى الليل. هل تأتيان لتناول العشاء في الباخرة؟

ـ طبعاً، أجاب كاند ـ وتوجه بكلامه إلى التي كانت لتوها قد وفرت بضحكتها الكريستالية سبباً لخوض تلك المحادثة ـ شرط أن تَعِدي بعدم السخرية من الأكتع المسكين...

ـ المضايقة لم تبدأ بعد، ثم لا تنس أنني همجية!

ـ هذا كلام فظ!

ـ كنت أريد القول المقايضة، لا المضايقة!

ـ كلا، ليس بسبب ذلك، وإنما لأنه لا وجود لهمج! لقد اتفقنا بأن ليس ثمة همج، وأننا سنبادل الثروة بالحضارة.

ـ كم أنه صموت، السيد ماكر تومبسون! إنه لا يتكلم! قالت لكي تتجنب الرد على كاند، ولتحاول استدراج اليانكي الجميل الفتي، الرياضي، الأشقر، الذي لوحت الشمس الإستوائية جبهته العريضة، صاحب الذقن الصهباء والعينين الكستنائيتين.

ـ بعد استئذان السلطة وإذا سنحت الفرصة، أجابها بسرعة وهو يضحك، أقول بأنك لست جميلة فحسب! وإنما فاتنة أيضا.

أخذ خانجر كاند يتتبع ببصره ظهر الآمر ـ كان يبدو كما لو لم يكن له عنق، الظهر والرأس قطعة واحدة ـ بينما كان ماكر تومبسون يلاحق مشية مایاري المتبخرة.

«بالنسبة لي يمكن أن تكون هذه المرة هي بداية المقايضة المهم أن تعود لي مایاري! كان الأخير يحدث نفسه، إلا أنه غير فكرته وهتف:

ـ لقد تصرفت بمهارة فائقة، رغم كل شيء... يا سيد كاند». وكان يشوب صوته ما يشبه الضحكة المكتومة. وأثناء تقديم القهوة لهما، على الطاولة التي جلسا إليها لتوهما، اقترب كاند منه:

ـ هل سبق لك أن رأيت قطاً أكتع يلعب مع فأر يرتدي بزة عسكرية...

ـ يلعبان حتى اللحظة التي يكف فيها القط عن الإيمان بالتقدم...

ـ لم أقل مطلقاً أنني لا أؤمن بالتقدم. هل تدخن؟

ـ شكراً، أفضل واحدة من سجائري.

ـ أعتقد أن هذه البلاد يمكنها أن تصير أمبوريومات حقيقية. أمبوريوم الموز. أقول: «أمبوريوم» لا «إمبراطورية» كما يريد البعض.

أشرق جبين العملاق الشاب بالشرر الذي قذفته عيناه الداكنتان، عندما انفجر ضاحكاً وهو يصرخ:

ـ أمبورياليون بدل أمبرياليين، إذن!

ـ الاثنان معاً. أمبورياليون مع الذين يساعدوننا على أداء دورنا التحضيري، أما مع الذين لا يعضون الصنارة المذهبة، فنحن بكل بساطة: أمبرياليون.

ـ عدنا إلى نظرية العنف، يا سيد كاند.

ـ إلى غاية «الإيثار العدواني».

ـ بكل صراحة، علي أن أقول لك بأنني تعلمت أشياء كثيرة من سماعي لحديثك عن «الأمبوريوم»، أشياء كثيرة...

ـ بلا مزاح، أليس كذلك؟

ـ لقد توصلت إلى استشفاف تكتيك من الممكن توخيه. وبالنسبة للحكام ـ إذ مهما كان المرء سيئاً فإنه يطمح دائماً إلى ما فيه خير بلاده ـ يجب إيهامهم بأن الإتفاقيات التي يوقعونها معنا من شأنها أن تؤدي فوراً إلى تغيير في صالح أوضاع معيشة شعوبهم... الأمبوريوم...

ـ وسوف يحصلون على هذه النتائج! يا عزيزي، سوف يحصلون عليها!

ـ ذلك ما لست أصدقه، وأنت تخطيء هنا بالذات، يا سيد كاند، ولا أدري إن كان ذلك عن معرفة جيدة. هل تعتقد أننا ملزمون بتحسين أوضاع هؤلاء الشياطين البؤساء؟ هل خطر ببالك مثلاً أننا سنمد سككاً حديدية كي يسافروا وينقلوا قذارتهم؟ ومرافئ كي يشحنوا منتوجاتهم؟ وبواخر كي يملؤوا السوق ببضائع من شأنها أن تنافس بضائعنا؟ هل تظن بأننا مقبلون على إصلاح هذه المناطق كي لا يموتوا؟ إيه فليموتوا! وأقصى ما يسعنا القيام به، هو مداواتهم حتى لا يموتوا بسرعة وحتى يعملوا من أجلنا.

ـ ما لست أفهمه، إنما هو السبب الذي يجعل نفس الشجرة غير قادرة على إعطاء هاتين الثمرتين في آن: الثروة لنا، والرفاهية لهم.

ـ لأنهم، في شيكاغو، بكل بساطة، لا يفكرون إلا في هذا: استخراج الثروات، ولا شيء آخر، وبالتالي اطلاع هؤلاء القوم البؤساء بأن: سكك الحديد، والمرافئ، والمنشآت الزراعية، والمستشفيات، والمفوضيات، والرواتب العالية، استحدثت كلها لكي يتوصلوا ذات يوم إلى أن يكونوا مثلنا. الأمر الذي لن يحدث أبدا، بالتأكيد، ولكن ينبغي إيهام الحكام به حتى لا يتخلوا عن إغراء السلطة أو المال. رئاسة مدى الحياة للرؤساء، صكوك للنواب وللوطنيين، أوهام صغيرة، دخان التقدم القليل، الإله الذي بدل اليدين، له سندانان، وبدل العينين له منارتان ضخمتان، وبدل الشعر له دخان المداخن، مع عضلات من فولاذ، وأعصاب كهربائية وبواخر تجوب البحار مثلما الكريات الدموية في الدم.

ـ نعم، التقدم! قال كاند، التقدم باعتباره إكسيراً لتخدير الحساسية الوطنية لدى المثاليين، لدى الحالمين...

ـ وحتى بالنسبة للذين، سيكونون عمليين ويرغبون في إخفاء تواطئهم مع اشتراكهم في مخططاتنا فينبغي عليهم اعتبار التقدم ـ إن وجد ـ ليس من أجل الشعوب الدنيا، الشعوب التي يكمن دورها

الوحيد في العمل من أجلنا. و... ناولني يدك، يا سيد كاند، لقد فهمت أشياء كثيرة.

ـ كلا، ليس هذه، كلا! اعتذر الثاني، مبعداً يده المطاطية.

ـ هذه، هذه، المزيفة، يد التقدم المزيف، التقدم الذي سنأتيهم به، لأننا سوف نحتفظ باليد اليمنى الحقيقية من أجل مفتاح الصندوق وزناد المسدس!

كانت شخصية كاند بأكملها، في اللحظة التي كان محدثه يصافحه ممسكاً بيده المطاطية، تبدو وكأنما أصيبت بشلل مفاجئ ولقد فكر ماكر تومبسون بأنه لو فاجأه بضربة من قدمه ليلقي به إلى البحر، فإن من شأن القضاء على هذا الحالم أن يتسبب في غرق دمية متحركة تماماً.

2

في هذا الجانب من الجون، توجد الجزر الصغيرة. وكانت ريح نارية اللون تهب من الأرض المحرقة نحو الأفق الملتهب بجمر الظهيرة. تقدمت ماياري بعد أن اجتازت الشاطىء على اللسان الرملي الضيق، وهي تضحك، تضحك بملء ثناياها، بكل شعرها الأسود مقهقهة في الريح، كي لا ترد على جو ماكر تومبسون الذي كان يقتفي أثرها، مشتكياً من عدم جديتها، وبحمية متنامية في رغبته كان يود لو أنها تفي بوعدها هذا اليوم على الجزيرة الصغيرة حيث ها هي ذي الآن بعد أن تسلقت الصخور، تقفز فوق صف الحجارة المغمورة بالماء، حيث المد والجزر يتناوبان، في عزلتهما الزبدية على إيقاع الموت والولادة...

كانت الريح تعصف، تعصف من دون انقطاع، تعصف ثم تعصف دون كلل، فتثمل الصديقين، وتمنعهما من الكلام فيواصلان التوغل في الجزيرة. إلى أن كفت الجزيرة عن أن تكون جزيرة، بل غدت

عموداً فقرياً لا يكاد يدرك لإحدى الزواحف المتحجرة: كانت مايارِي تتقدم بقدم تلو الأخرى، وذراعاها على شكل صليب كي تحافظ على توازنها، كانت تشبه نحاماً(*) أسمرَ ممدود الجناحين، أما هو فكان وراءها، في صمت من تملكه الذهول، عملاقاً خائفاً لدخوله في عالم مجهول يتشكل من تلك المرآة التي تضيء من أثر انعكاس الماء على الفضاء. وكانت ثمة حيوانات غبية ذات أفواه مفتوحة وزعانف وفقاعات، أخرى ذات عيون زرقاء، وكأنها مغطاة بجروح حمراء وهي تلوح ضمن أسراب من الأسماك السوداء، كلها كانت تبدو مجسدة في عمق البحر الشفاف الهادئ حيث لم يتبق منهما سوى صورتيهما المنعكستين. ذلك أنهما فقدا جسديهما، هي، أمامه، وقدماها الحافيتان تتلمسان الصخور فتجدانها أحياناً، وأحياناً لا تجدانها، وهو، خلفها، دون أن يقدر على الإمساك بها، بشعره الأصهب القرصاني.

كان جو ماكر تومبسون يغوص في لغز تلك الوحدة اللامتناهية التي لا تتجزأ، بصدره الشبيه بصدر هرقل أبيض، وقميصه المفتوح والمشمر الكمين حتى المرفقين. أين كان يتوغل؟ عمن كان يبحث؟ ما الذي كان يجذبه؟ وندت منه زفرة عميقة، زفرة حيوان حزين، لتعلن له بأن ما فعله سابقاً مع كل النساء اللواتي امتلكهن ليس له أدنى علاقة بهذا الحب المستحيل. لم يكن ليستفهم، بل لم يكن قادراً على الاستفهام، لماذا كان يبدو له من المستحيل بلوغ تلك المخلوقة في فرارها المدوخ والشبيه بفرار كوكب ينفصل عن السماء ثم يتوارى؟ كان من السهل الإمساك بها جسدياً، طبعاً، غير أنها ما إنْ تمسك، ما أن يضمها بين ذراعيه، حتى تبدو وحيدة من جديد، كما هي هناك، وحيدة، منزلقة وصامتة، كما هي هناك.

فجأة، وفي المكان الذي تتلاشى فيه الجزيرة ولا يبقى منها سوى نتوءات صخرية تحت نتف الطحالب الطافية، توقفت صورة

(*) النحام: طير طويل الساق والعنق.

ماياري، ثم إنها التفتت لتنظر إليه، وكأنها تقول «نعم» بنظرها، شرط أن يتقدم خطوة أخرى ويلتحق بها إلى ذلك الموضع حيث لا يمكن سوى للحب أن يذهب، ومن حيث لا يمكن سوى للحب أن يؤوب.

أدركها. غير أن ذلك كان سدى، إذ ما أن حاذاها، حتى واصلت تلك الصورة الهاربة تأرجحها بجسدها الشهي.

«ماياري!...».

فكر أن يناديها، لكنه حدث نفسه:

«كلا، لن أناديها، سأتبعها. ما تريده هو أن أناديها. إذن، لن أناديها. أتبعها. سوف ينتهي هذا النتوء الصخري وتغوص هي في الماء، من دون أن أناديها، من دون أن أقر بهزيمتي. سوف يبقى لي متسع من الوقت دائماً كي أنقذها».

وخفف من سرعته ليرى إن كانت ستكف عن التقدم. غير أن ذلك كان سدى. الماء يبلغ ركبتيها وهي تتقدم، وتتقدم مهولة بإرادتها، مهولة، مهولة وهي في تمام امتلائها بجمالها، جمال ذلك الخشب الأسمر، بليل شعرها العاصف وعينيها وحدقتيهما السوداوين وكأنهما جمرتان غارقتان في الدموع.

«لا أناديها. أتبعها. ما تريده هو أن أناديها، هو أن أقر بهزيمتي».

أخذت الصورة تتشوش. وازداد الجزء الذي كان يطفو من ماياري، جذع عروس البحر، غموضاً. كان الشفق يتقدم ناشراً ظلاله الغسقية على الأمواج الصاخبة. إنما من اليم يأتي الليل، الذي يرغم الريح على رفع البحر كي يتساقط من جديد بزخاته البيضاء.

ثم إن صرخة رجل بحار، اخترقت الصمت الصاخب، صرخة القرصان الأشقر الذي كان يتخبط كي ينقذ الكنز الموشك على الغرق في أعماق البحر، صرخة مرتاعة هشمت حنجرته. لم يعد يراها.

كان ضائعاً. ومهما كان سباحاً ماهراً، أين عساه يجدها من جديد؟ كانت الريح تزداد قوة، الريح، الريح، الريح!... قناع من ملح يواجه اللانهاية، كان يصرخ بصوت غير مدرك، فمن يسمعه؟... لا أحد.

«ماياري ي!... ماياري ي ي!».

لم تنقض ثانية واحدة بعد، غير أنه كان في زمن الأبدية. عاد إلى الصراخ:

«ماياري ي ي! ماياري ي ي!»

كانت بين ذراعيه، ولم يكن ليصدق. كان يشدها بين ذراعيه، ولم يكن ليصدق، كان يضمها إلى صدره، ولم يكن ليصدق.

«ماياري! ماياري!...».

يجس... يجس حقيقة الصورة التي ابتعدت عنه، وانسحبت أمام حضور العاشق، كان يمسك بالواقع، ولم يعد ممسكاً بالصورة.

مدرج كبير ترصعه ألوف الكواكب المضيئة... رياح موحشة خارج الجون... قربت وجهها من وجهه. فقبل ذلك المحيا... اللباس المبتل على اللحم المختلج، والرهبة، والرهبة اللامحدودة من الوجود معاً، معاً أكثر فأكثر.

«يا قرصاني الحبيب!

ـ ماياري!

ـ جو

ـ ينبغي العودة.

ـ لنعد بسرعة...».

وكان كلاهما يتهجس بأن العودة لا تعني الرجوع عبر ظهر الجزيرة الضيق الذي كان المد قد بدأ يغطيه بلبدته اللبنية فحسب، وإنما تعني أيضاً اقتلاعهما من مرآة الأحلام، حيث الحب يجعل الموت شفافاً وحيث يمكن للمرء أن يرى من الجهة الثانية للحياة، إمكانية مواصلة العيش بذلك الحب وذلك الحلم.

كانا على قيد الحياة. ما أروع أن يكون المرء على قيد الحياة! الاقتراب من الموت ثم الحياة! وماذا عساهما أن يطلبا أكثر؟ شعور بالامتلاء والسمو، تولد من كيانهما وها هوذا الآن مهدد بخطر أكبر بسبب الموج الذي كان يدفعهما بكل صخب الغضب الإلهي، شاهراً سيوفاً هائلة بأيدي ملائكة البحر العمياء، البحر الذي كان فردوساً، قطعة من جنات عدن منعكسة في مرآة.

الخطوة الأخيرة على الجزيرة هي الخطوة الأولى على الشاطىء، ثم نحيب المرأة، نحيب سجينة مقيدة، وكانت الدموع تنذرف من جفنيها.

«جو!

- ماياري!»

يا للاسمين الحزينين!...

«إن أجمل نزهة، تمتمت في حين كان جو يمسك بخصرها، هي التي لا يمكن للمرء أن يؤوب منها... ولو لم تناديني لواصلت التقدم حتى الاختفاء.

- تتكلمين وكأنك تتكلمين في النوم.

- ولم الاستيقاظ؟

- إن الذي ينام دائماً لا يبدو لي عاقلاً تماماً.

- ذلك لأن الذين من عرقك، يا «جو»، هم دائماً مستيقظون. أما نحن، فلا. إننا نحلم ليل نهار. إن لقاءنا يبدو لي حلماً. ولو كنا مستيقظين لما التقينا. وفي ذلك اليوم لم تتكلم قط. كنت أنظر إليك: ألم تلاحظ ذلك؟ كنت صامتاً، شارداً في أفكارك، كنت أشاهدك برضى بالغ، في حين كان كاند يبشر: التقدم هنا... التقدم هناك... حلم آخر... ولكن لنعد... إن الظلام يخيم...»».

وبعد خطوات، أضافت:

«أطبق عينيك يا جو. لا تفكر. أحس فقط. أمر فظيع أن يعيش المرء قرب آلة حاسبة. أطبق عينيك. احلم!...

ـ ليس لدي متسع من الوقت...

ـ ولكن الذي يحلم يعيش قروناً. أنتم مثل الأطفال، لأنكم لا تشيخون البتة من الداخل. إنكم تشيخون من الخارج وتظلون دائماً راشدين، راشدين صبيانيين. ينبغي على المرء أن يحلم، كي يتمكن الدم من بلوغ الشيخوخة.

ـ كابوس فقدانك، ورؤيتك تفقدين التوازن كي يجرفك الموج... هذا ما تسمينه الحلم...

ـ يا لك من أبله! كم مرة كنت وحيدة، وقمت سابقاً، مع شيبو شيبو بنفس الرحلة!... ولقد أتيت بك إلى هنا كي أقهر كبرياءك، كي أسمع صرختك وأنت تناديني من أعماق قلبك!

ـ ليس لرجل مثلي...

ـ ولقد صرخت، يا جو، وناديتني كما لم تناد أحداً قط...

ـ ليس لرجل مثلي الحق في الخروج عن الواقع. لا شيء يوجد خارج الوقائع.

ـ مادي، وبكلمة واحدة...

ـ نحن، قوم business... أما أنتم، فنزوة وتخيل... ولهذا السبب نوجد دائماً في قطبين متضادين. وكلما صرنا نحن محسوسين وإيجابيين أكثر، صرتم غائبين وسلبيين أكثر. غير نافعين...

ـ ولكن، جو، أنا لا أحسدك على ربحك...

ـ لماذا؟

ـ لأنه من الشنيع العيش أبدياً ضمن الواقع... وامتلاك قدمين ضخمتين».

ثم، وهي نصف مبتسمة ونصف جادة، والمكر ملء عينيها:

«وفي حين تصغر أقدامنا، فإن أقدامكم تكبر، نحن لسنا على الأرض. فلماذا نطلب أقداماً؟ أما أنتم فتزدادون حضوراً على الكرة الأرضية، ولهذا السبب أنتم بحاجة إلى أقدام، أقدام كبيرة جداً».

كان شيبو شيبو قد جاء يبحث عنهما. اجتازوا الشاطىء، المزغب بالظلال والرطوبة والزبد، في صمت القمر المضيء، وبين ضجة النخيل.

«ثمة قاطرة جديدة وصلت لتوها، أوضح، شيبو شيبو، ويقال إنها تسير على ما يرام... وهي تتقدم مثل حيوان. كانت تقطر عدداً من الحافلات الملأى بالناس وبالثمار. لقد جاءت أمك.

ـ أين تركتها، يا شيبو؟

ـ عندي.

ـ من الغريب أنها لم تنزل عند عرَّابيَّ.

ـ لقد جاءت مع آمر المرفأ، ثم مكثا يثرثران مع مستر كاند. ولقد كادا يصافحانه من دون ساعده. إذ إنه لم يركّبه، المسكين! فأسرعت به إليه. عند اشتداد الحرارة يتخلى عنه، لأنه يضايقه، وهذا الضيق يزعجه كثيراً. أتساءل لماذا لا يفضل ترك كمه فارغاً؟ هذا ما أراه، أنا. إذ هكذا يكون المرء أخف. ولو كان المرء قادراً على التخلص من ذراع، أو ساق أو العظام التي هي أثقل ما في الإنسان، لاستراح كثيراً. إنما هذا الهيكل العظمي الكبير الذي نجره، هو الذي يتعبنا.

ـ ستتعرف على السيدة والدتي، إنها أكثر فتوة مني... إنها أصغر مني بكثير... ألا تصدقني؟ يا له من رجل!... لا هو يحلم ولا هو يصدق... سأعود إلى البيت كي أغير ثيابي... يا إلهي لو أن أمي تشاهدني أقطر ماءً هكذا!...».

قامت دونيا فلورا ـ كانت تفضل أن تدعى فلورونا، وكانت

تتصنع الصمم ولا تجيب عندما يستخدم أحد المقربين اسم التصغير (فلوريتا)(*)، بل تحتد قائلة، وهي تشير إلى سرتها: «زهرتك الصغيرة خبأتها هنا!» ـ إذن قامت دونيا فلورا، بعد تقديم جو ماكر تومبسون، بتقبيل ابنتها وهي ترتجف. كانت، في كل مرة تراها فيها من جديد، تقبلها بتلك الطريقة وتشعر بإحساس لا يمكن تفسيره. فمنذ أيام الدراسة، عندما كانت ابنتها تعود من المدرسة الداخلية في العاصمة، بعد سبعة أشهر من الفراق، أو عندما، كما هو حالها اليوم، تكون ابنتها، في المرفأ، حيث يعيش عرابوها آل زيتونو، كانت دونيا فلورا ترتجف، لأن ابنتها من فرط اختلافها عن المرأة العملية التي كانتها وهي في شبابها، تترك فيها، لدى تقبيلها، أثر كائن غائب، أثر كائن يسكن القمر.

ولقد رغب ماكر تومبسون في إطراء دونيا فلورا، عندما أعلن لها بأنه يجدها ربيعية تماماً مثل ابنتها، غير أن السيدة الشابة، بخريفها وربيعها، دون أن تصغي إلى الإطراء الذي لم يكن وارداً في جدول الأعمال، تابعت:

«كما يقول الآمر، يا سيد كاند... ـ نعم، نعم. أنا أقول بأن الخواص من شأنهم أن يبيعوا وعيونهم مغمضة إذا ما نحن دفعنا لهم جيداً. إنها أراض لا أهمية لها: مستنقعات، أدغال، ثعابين كثيرة، جروح، حمى، ولكن ينبغي الدفع لهم دون تقتير، أكثر من الثمن، لأن ذلك يعني بالنسبة لهم قطعة الأرض التي ولدوا عليها، والتي ورثوها عن آبائهم ولا يمكنهم التخلي عنها إلا إذا بهرناهم بكومة من المال مقابل ذلك.

ـ يمكننا أن نبدأ بالغراسة في أراضي البلدة كي لا نضيع الوقت، قالت دونيا فلورا، ونبدأ كذلك بالشّراء ممن يريدون البيع نقداً، مع إعطائهم الثمن الذي يريدونه.

(*) تصغير زهرة.

ـ المشكلة ليست هنا، قال كاند. المشكلة هي مع الذين لا يريدون البيع. فماذا عسانا نفعل، ماذا عسانا نفعل بأولئك الذين لن يقبلوا بيع أراضيهم مهما كان الثمن؟

ـ عندئذ، تنهدت دونيا فلورا، عندئذ يأتي دور السيد آمر المرفأ. بعد السيد المال، يأتي دور السيدة البندقية.

ـ وهل تظنون، سأل صاحب «السلطة العليا الأولى» وهو ينتف شاربيه، وهل تظنون أنني غير قادر على إعدامهم بالرصاص؟ عندما يكون الوطن بحاجة إلى التقدم، ويقوم رفضهم حائلاً دونه، إنما يعد ذلك خيانة من قبلهم: لنكن منطقيين.

ـ هذا، تابعت دونيا فلورا موافقة على ذلك وهي تلتفت ناحية آمر المرفأ متخلية عن مروحتها، هذا ما ينبغي عليك أن تفهمهم إياه: إما أن يبيعوا وإلا فإنهم مذنبون.

ـ المانع، قال كاند بعد أن فكر، هو أن السكان، حسب معلوماتنا، سوف يلتجئون في هذه الحال إلى البلديات، ومن شأن البلديات أن ترفع أصواتها مستنكرة.

ـ بلديتان فقط» حدد العسكري بدقة.

كانت بزته الكتانية تلوح بقعة بيضاء في عتمة الغرفة وكان يتكئ على مسند أريكته محاولاً، سدىً، أن يقرب ساقيه، ساقي الرجل البدين جداً، الواحدة من الأخرى.

«حسن! ولكن ذلك كثير. بلديتان اثنتان يعني أن هناك عدداً كبيراً من القوم ينبغي إعدامهم.

ـ حسن للغاية! سيدتي فلورونا، حسن للغاية!... ولكن هذا لا يمنع إمكانية تلقينهم درساً صغيراً بواسطة رصاص بندقية.

ـ كلاهما معدن بالفعل، سيدي الآمر، ولكننا جميعاً نفضل رصاصاً من ذهب.

ـ ولكن سوف تتأكدون من عكس ذلك، رد الآمر بحدة، وهو

يعبث من جديد بشاربيه، سوف يكون هنالك من يرفضون التخلي عن أراضيهم مهما كان الثمن. آه! فليكن! عندئذ لن يسعنا سوى التصرف. التقدم يستدعي منا تحرير الأراضي كي يتمكن هؤلاء السادة من جعلها تنتج لهم أكثر: بتجريد الملاكين من أملاكهم أو بتجريدهم من حياتهم... رصاصة بندقية أو رصاصة ذهبية، ولكن بلا تردد! إنما اليد الحديدية هي التي تكون ضربتها قاضية. وأفضل من يعين لهذه العملية، في رأيي، هو السيد ماكر تومبسون، الذي يعد من أنصار العنف، كما قال، ذلك اليوم، في قاعة الأكل. لقد بقيت كلماته منقوشة في ذاكرتي: «ينبغي السيطرة على الناس بالعنف أو تركهم في سلام». السيطرة ضرورية لجعلهم يتقدمون، مثل الأطفال الذين يعاقبون لما فيه خيرهم، وتقدمهم».

رفعت مایاري رأسها كي تسأل «جو» بالبريق الأبنوسي المنبعث من عينيها الجميلتين الثمينتين، غير أن الرجل، وقد أثملته الإيماءة وحمسته، كان قد انطلق في خطاب مطول يؤكد فيه بنبرة عالية، ضرورة توخي سياسة الاستعباد في غزو هذه الأراضي الضرورية بكاملها دون أن تكون مجزأة، لأنها هكذا، وهكذا فقط، تصبح مجدية لتقدم المنطقة، وفيها يمكن إنشاء مزارع موز شاسعة... ألوف الأشجار... ملايين الأعذاق...

ودون أي تفكير في الأمر، أيدت دونيا فلورا اقتراح قائد المرفأ. فكان على السيد كاند، وهو الأقدر دبلوماسياً، أن يسافر إلى العاصمة ويتشاور مع السلطات العليا كي يحصل على الأوامر الضرورية، أما السيد ماكر تومبسون، الرجل النموذجي لأولئك الذين جبلوا من أجل القيادة، ـ حسب تعبير دونيا فلورا نفسها، التي أثارتها بنية ذلك الطفل العملاق، الجسدية وأسلوب تفكيره ـ فكان عليه أن يتوغل في الغابة.

«وعندما يصل السيد كاند إلى العاصمة، أشار العسكري، عليه أن يتوصل إلى جعل وزير الداخلية يستدعي رؤساء البلديات رسمياً ويخبرهم بأن للحكومة مصلحة في أن يبيع الأهالي أراضيهم، سواء

أكانت مزروعة أم لا، لأن ذلك ضروري من أجل تقدم البلاد. لا أحد بوسعه الإنكار بأن تقدم الأمة أفضل بكثير من حقوق بعض الأفراد البائسين على الساحل، والمتعلقين بمزارع موبوءة تقريباً وذات إنتاج يكاد يكون منعدماً.

ـ وبما أننا سندفع لهم، فليس ثمة سرقة، إنه شراء! هتفت دونيا فلورونا.

ـ أما «جو» الشاب، جو، كما تقول ماياري...» إلام كان يلمح الآمر؟ لنر ذلك، لنر إن كان سيظل خالي البال. غمزات، تنهدات، مداعبات، نعم، كان ذلك من قبلها هي، أما هو، فكان هناك، متصلباً، بارداً مثل وتد. «أما الشاب «جو» ففي الغابة. في أراضيه، سيدتي فلورا، هذا السيد يمكنه أن يحصل على مركز قيادة، ويزرع كل ما يمكن زرعه. هناك على ضفتي النهر الكثير من المساحات الممتازة لغرس «الغينيو guineo»(*) ينبغي الاشتراء ممن يبيعون وسوف نرى الإجراءات التي يجب اتخاذها ضد أعداء التقدم...».

ثم، بعد أن انتصب واقفاً وهو يضرب على كتف ماكر تومبسون بضربات ودية:

«إذ ليست الجرأة هي التي تنقص البابا الأخضر. إن الاسم يلائمه تماماً.

ـ الآمر يجيد المزاح تماماً! عقبت دونيا فلورونا... إذن لا حرارة، ولا مستنقعات بالنسبة للسيد كاند... يا له من دبلوماسي!... العاصمة، بنهاراتها الفاترة الحرارة، ولياليها التي لا يمكن تخيلها!... هنا، على الساحل، أصير امرأة عملية، أما هناك فإن الهموم تساورني، وأهذي ساعات بكاملها كما لو كان غبار عوالم نائمة يتساقط من السماء فيغمر عيني. أما حوارنا فهو رائع، لكن لدي أشياء كثيرة ينبغي انجازها. لنذهب، يا ماياري!...».

ولكن، عندما كانت تفتح الباب المطل على الشارع كي تخرج،

(*) نوع ممتاز من الموز.

إلى حيث لم يكن يشاهد سوى امتداد الليل الساخن ـ كانت النجوم تحرق العيون مثل مسحوق الفلفل المذهب ـ أطلقت صرخة وهي تصطدم بجسم صلب:

«آه! صاحت، إنه شيبو الذي كان يسترق السمع!... حذار أن تروي ما سمعت، حذار يا شيبو! لأنها أمور خطرة جداً».

وبخطوتين انتصب الآمر أمام شيبو المباغت، كي يقتص منه. كان المسكين هناك، مرتجفاً، بلا مقاومة، ووجهه خال من التعابير، كما هي عادة وجوه الهنود، في حين كانوا يهددونه بالموت إذا ما تجرأ على ذكر كلمة واحدة من الحديث الذي سمعه لتوه، تغضن وجهه بألم أثر ضربة السوط الأولى...

«سنربطك من أجل الذهاب إلى العاصمة لقد تجاوزت الحد أيها الهندي، ولن تصل حياً إذا ما علمت بأنك ذكرت كلمة واحدة من حديثنا!».

تظاهر كاند بالتدخل. لم يسبق له بعد أن رأى رجلاً يضرب على وجهه، مثل بهيمة. لكن ذراع ماكر تومبسون القوية أمسكت به.

«لقد قلت لي بأنك من أنصار عدم التدخل.

ـ ولكنه يضرب!

ـ ذلك أجدر، إذ حتى لو توجب علينا التدخل فإن ذلك سوف يكون دائماً إلى جانب الذين يَضربون».

تناهت من البعيد صفارة باخرة. لم يقل الأكتع شيئاً ولكنه عندما صار على متن الباخرة البيضاء التي دخلت المرفأ كي تنقل المراسلات، أخطر الشاب بعزمه على العودة إلى نيو أورليانز، كانت أمتعته في السفينة، ولقد صرخ بالإنكليزية مغطياً بصوته القوي صليل السلسلة التي كانت ترفع بها المرساة، صرخ على سبيل الوداع:

«إنما نحن الأوباش! نحن الأوباش!».

ثم تلاشى صوته... ولم تعد تشاهد سوى يده الشبيهة بيد دمية متحركة.

«أوباش أمة متمتعة بأعرق التقاليد نبلاً!...».

3

شيبو شيبو... شيبو شيبو! شيبو شيبو! لقد جعله اسمه شخصاً يتعذر الإمساك به، ولذلك صار بالنسبة للدوريات التي كانت تطارده، شيئاً شبيهاً بالندى الجليدي، بذلك العرق المتجمد الذي يرش الصبار صباحاً ويتبخر لدى شروق الشمس عندما تصطبغ الأرض والسماء باللون الأصفر الذي كان، في الهواء الطلق، يحرق العيون وكل شيء آخر على مدى اضطرام الساحل.

باسم شيبو، كان شيبو يلوح في الدروب وبنفس هذا الاسم، كان شيبو يتلاشى، ويسبح في الهواء ويخرج تقريباً من جلده، جلد القط البري، كما لو كان ذلك بفعل السحر، ما بين القواطي(*) والسناجب وقرود «الماكاك» الصاخبة، لكي يلوح من جديد بنفس هذا الاسم شيبو شيبو، ولكي يستقر على نفس الاسم شيبو شيبو.

كان فوران المستنقعات بفقاقيعها الضخمة المنبثقة من المياه المختنقة تحت غياهب الأرض الخضراء الإسفنجية في الغابة الخرساء، والأضواء الفضية المسودة والحرارة المكتومة، كانت تضطرب من خطواته على الحجارة، ومن نفسه، كتنفس الأسماك تحت الماء، عندما ينتقل بواسطة الأغصان المعترشة، ما بين الأشجار وأجنحة الخفافيش الضخمة، أو عندما يتسلق جذوع الأشجار بعد أن يكون قد قضى ليلته نائماً فوق الأوراق اليابسة.

لا أحد كان قادراً على نطق اسمه أفضل منه، فيلوح أو يختفي في لحظة، فيكون أو لا يكون في مكان ما... كان لهاثاً في الأكواخ،

(*) coati حيوان لاحم ذو جسم وخطم طويلين، يعيش في أمريكا الجنوبية.

لهاث رجل يعجن الطحين من «اليوكا»(*)، لهاث رجل يقول مباشرة وبصرامة: «سيعلمون على أراضيكم كي يطردوكم من هنا!» كان الملاكون، ونساؤهم وأبناؤهم العديدون، ذكوراً وإناثاً، يلوحون وكأنهم سكارى، في عريهم وهزالهم ونتوء آذانهم وأنوفهم وأكتافهم،عندما يسمعونه يطلق صرخة الإنذار في الأكواخ وفي البيوت، داخل الأراضي وعلى ضفتي الموتاغوا.

«هكذا، دفعة واحدة، تبرز الأيام، كان يقول. نعم، الأيام التي لا يميزها شيء والتي هي كسائر الأيام، إنها تبرز هكذا، دفعة واحدة». كما كان الحال يوم غادر بيته المهجور حالياً والذي لم يعد يسكنه أحد، عندما مر أحد المسؤولين البارزين في المجلس البلدي ونبهه شيبو إلى ضرورة الذهاب إلى المدينة وطلب النجدة لمنع تجريد الناس من ممتلكاتهم هكذا. كم من الآمال انعقدت حول رؤساء البلديات وأعضاء المجالس البلدية الذين، من أجل الذهاب إلى العاصمة كانوا ينتعلون أحذية ضخمة وبدلات أعياد وأقمصة منشاة، بالإضافة إلى ربطات العنق السوداء ذات العقدة الثلاثية!... وكانوا يذهبون حاملين معهم سندات الملكية الرطبة ذات الأختام النحاسية اللون، والممحوة تماماً من أثر القدم، داخل أنابيب توتياء صغيرة كي يحافظوا عليها من التلف. كانت تلك الأوراق الأصلية في قدمها والتي تنص على حقوق مقدسة، بين أيدي قادة القرى الصارمين، في حين كان الشبان يتأهبون لإرضاء رغباتهم في الموت برصاص البنادق أو ضرب السواطير.

وكانت الدوريات تدخل المزارع أو تخرج منها من دون أمر أو إذن بالدخول، باحثة عن شيبو، إلا أن مرورها بالمزارع كان بالأحرى طلباً للأكل، بعد أن تكون قد ذاقت الأمرين في الأدغال وفي المياه، تلك المياه التي كانت تصطخب في النهر أو تهطل من السحب المتلبدة ناشرة ظلالها تحت السماء النارية.

(*) نبات من فصيلة الزنبقيات.

وعن الأسئلة التي كان يطرحها هؤلاء القوم حول الهارب، في الأكواخ وفي المزارع، إذا كان المجيبون رجالاً فإنهم يشددون على الحروف ويجيبون: شيبو؛ أما إذا كن نساء فإنهنّ يبتلعن الحروف كي ينطقن بنعومة: شيبو. أي رعب، أي لغز، أية قوة خفية كانت تكمن في ذلك النطق المختلف لدى الرجال والنساء عندما ينطقون اسم ابن شيبوبو شيبو، وحفيد شيبو شيبوبو؟

أنا، أنا وحدي، شيبو شيبو،

أعرف قصيدة الماء.

أنا ابن زورق جذعي

ولدت على الموتاغوا!

إلا أن أفراد الدورية بالإضافة إلى كونهم كانوا يبلون ويستهلكون أحذيتهم في ملاحقة الهارب ـ ومن فرط تفكيرهم في إلقاء القبض عليه صار يخيل إليهم أنه موجود بينهم ـ فقد كانوا يزرعون الرعب بحضورهم، في قلوب مالكي الأراضي مهددين إياهم بمصادرتها بالقوة.

ولقد أعقبت زيارتهم، زيارة البابا الأخضر «كاهن التقدم الأشقر» كما كانت دونيا فلورا تدعو خطيب ابنتها، جو ماكر تومبسون، الشبح الذي كان يلوح ليشتري نقداً ـ كانت له قطع ذهبية في عينيه ـ وبالثمن الذي يرغب فيه الملاكون.

أما الفلاحون، ومنهم النحيل القاسي الملامح، ومنهم المصاب بالملاريا، حمى المستنقعات التي تميل بلونهم إلى الأخضرار، فإنهم يجيبونه بالصمت دون أن ينبسوا بنعم أو بلا. العظم والشعر والعرق وكل عضو فيهم كان يلزم الصمت.

ولقد اندفعت دونيا فلورا بالتهديد والوعيد وبسيل الشتائم ضد أحد أكبر الفلاحين سناً، فما كان منه بعد لحظات إلا أن تمتم بجواب غامض:

«على كل، سوف نرى... سوف نرى».

وظل كل شيء معلقاً في الهواء، ذلك الهواء السائل، من الحرارة، معدناً تجمد بغطاء قِدْر تغلي: شتائم دونيا فلورا البذيئة، نباح الكلاب الحاد، خفقات أجنحة الديوك وهي تلاحق الدجاجات، كل شيء ما عدا هذه الـ «على كل، سوف نرى!» التي لم تسقط أمامهم ولكنها استقرت في داخلهم، مثل صدى بعيد، لأنهم لم يفكروا لا من بعيد ولا من قريب في التخلي عن أراضيهم.

«إذن هكذا؟ سوف نرى، سوف نرى...

- ولكن كلا لن نرى، لعنكم الله! قالت دونيا فلورا.

- سوف نرى، يا دونيا فلورا.

- ولكن ما الذي سوف نراه؟

- آه! هذا ما سوف ترينه!...

- هل تبيع أم لاتبيع، اللعنة، هل تبيعون أم لا تبيعون؟ أجيبوا معاً مرة واحدة. السيد مشغول كثيراً ولا يمكنه المكوث هنا طويلاً. بما أنكم ستقبضون ثمناً من ذهب، قطعة قطعة، وفوراً، لست أدري ماذا تنتظرون».

كانوا صامتين. بل كان يمكن سماعهم وهم يرفون بجفونهم، ويتنفسون ويبتلعون ريقهم.

«المزعج هو أن عدم البيع لهذا السيد سوف يكلفكم غالياً... ألحت دونيا فلورا. أنا أدرك ما أقول. اعملوا بنصيحتي، إذا ما تدخلت السلطة فإنكم سوف تفقدون كل شيء. سوف ترسل الدورية لطردكم ولن تقبضوا فلساً واحداً».

كانوا يصمتون، كان العظم والشعر والعرق منهم يصمت، كانوا يصمتون والجو الخانق في الأرض المحمومة يدوخ المشترين الذين قرروا العدول والعودة. خمود. ذباب، نعرات. لم يعد هناك داع للمجيء لزيارتهم ولعرض المال عليهم. ومن دون حتى النزول عن صهوات خيولهم، كانوا يرشون بعروضهم الرجال وعائلاتهم

المتكومة عند أبواب مزارعهم: قمل، قذارة وأحلام، أثواب مرقعة، الرجال بأقمصة بالية وبنطلونات أو في سراويل داخلية فقط، والنساء في تنانير داخلية باهتة من أثر المطر، اثداؤهن عارية، والأطفال مجردون من الثياب تماماً.

وفي نهاية التطواف، كان الذي يضنيهم أكثر من الإرهاق الجسدي، هو الإنهاك المعنوي الناجم عن الهزيمة، وحنقهم من الشعور بالعجز دون إلحاق الهزيمة، بواسطة المال، بمقاومة الملاكين الصغار كي يبيعوا أراضيهم. هؤلاء القوم من عساهم يكونون حتى يرفضوا الذهب، ويقبضوا أيديهم ويرفضوا حفنات من القطع اللماعة أكثر من الشمس مقابل رقع معروضة لفيضانات النهر، وتهديدات النمر، وآفات الجراد؟ لم يكونوا بشراً. كانوا جذوراً. جذوراً. ولا ينبغي إلا اجتثاثهم، القضاء عليهم، كما هو الحال في الأراضي البور بالنسبة للجذور التي من شأنها أن تعيق الغرس...

«لنسترح هنا في الغابة،اقترحت دونيا فلورا، وهي تنزل عن صهوة المهرة الداكنة التي كانت تمتطيها. لست أدري، غير أن عناد مواطني يرهقني. إنهم بهائم احتفالية. وكانت جدتي تقول لي دائماً إن أشد المصائب في مواجهة تلك الحيوانات. أما أنتم فإنكم محظوظون إذ ليس عندكم سوى أناس متحضرين! فماذا سنفعل نحن، هنا، بهذه الطبقة الكريهة؟...».

نزل اليانكي عن بغلته السوداء وجاء ليتمدد إلى جانبها، في فرجة صغيرة وسط الغابة، تحت شجرة تين.

«ما أشد لطفك! تدخن ولا تقدم لي وأنا الأخرى لي فم...!».

ثم أدنت شفتيها المضمومتين، كما لو كانت ستقبل، من السيجارة التي وضعها الآخر بين شفتيها.

«ليس لي غيرها، ولهذا لم أقدم لك واحدة.

ـ إذن دخنها أنت...

ـ كلا، بما أنها صارت بين شفتيك...

ـ حسن إذن! لندخنها معاً، إذا كان ذلك لا يثير اشمئزازك».

لم يرد ماكر تومبسون. كان الدخان يبعد الحشرات. ولم يعد إلى الحديث إلا بعد لحظات:

«لم تبق ماياري في البيت لأنها كانت مرهقة جداً... كنت أود الحديث معك حول ذلك...

ـ لم يكن ذلك بسبب الإرهاق أو عدمه... كم أنت قادر على الحديث بسرعة عندما يتعلق الأمر بلطيفتك الصغيرة!... الحقيقة أنها تمكث في البيت لأنها عدوة الـ business «بع لي أو أسرقك»... لقد درست كي تصير معلمة ولا ينقصها إلا التثبيت. التثبيت فقط لأن لديها كل ما عدا ذلك. عاطلة عن العمل ومتشددة على طريقتها، حزينة ومرحة «مثل البقدونس». يا لصغيرتي المسكينة، أفضل لها أن تذهب إلى الميناء عند عرابيها، آل زيتونو! إنني دائماً أرسلها إلى هناك عندما تضيق من البقاء معي هنا. وبما أنه ليس للعجوزين أبناء، فإنهما يدللانها. إنها تشعر باليأس لأنها لا تجد ما تفعله. لقد كنت كذلك أنا أيضاً، لكني ترملت وأنا لا أزال شابة، ولم يكن علي سوى الاستسلام، والإفراج ما بين ساقي لامتطاء الحصان مثل الرجال ـ عندما كنت فتاة، كنت امتطي الحصان جانبياً ـ وتغيير مخزن المسدس».

نفخت صدرها كي ترسل زفرة عميقة. وتحت البلوزة، ارتجف ثدياها الأسمران كما لو كانا سينبجسان.

«تبدو وكأنها خارجة من فكاك السحر، قال جو، وتنظر إلي كما لو كنت قاطع طرق، حيواناً، آلة...

ـ المسكينة! لقد كانت دائماً على النقيض مني، وحالمة إلى حد الجنون... الأمر الذي خلق نوعاً من الجفاء بيننا. ولهذا السبب أريدكما أن تتزوجا بسرعة، وتذهبا للعيش في الأراضي التي ورثتها من أبيها.

ـ المصيبة أنها لم تعد ترغب في الزواج مني.

ـ هل أعلمتك بذلك، أم أنك تختلق ذلك مسبقاً؟

ـ لقد أعلمتني...

ـ مؤخراً؟

ـ نعم.

ـ تلك نزوة طفلة غاضبة... سوف نتجاوزها... إنما أنت أيضاً... أنت أيضاً... آه! يا لكم من رجال أكفاء لمغازلة النساء!... لا روح ولا جرأة!... سأدلك أنا على علامات الحب الحقيقية!... يا لصغيرتي... صغيرتي... المسكينة مع هذا الطويل الرخو الذي لا يعرف حتى كيف... تقلب القنافذ!... أنا أقول لك بأنه ينبغي القيام بذلك هكذا!...».

وبعد أن أمسكت بيد العملاق الأشقر الذي كان يعبق برائحة عطر متبخر، وهو عطر لا يُعَدُّ له وجود مقارنة بمسك عرقها الأنثوي، تركته فوراً، وانقلبت على العشب، وهي تقهقه.

رفعت مطيتاهما، وكانتا ترعيان تحت «الشيلمات»(*)، رأسيهما وسددتا آذانهما باتجاه فرجة ومزرعة بن، من حيث كانت تقبل دورية: وهي تدفع أمامها رجلاً موثق الذراعين. نهضت دونيا فلورا، وقبل أن تتأكد من شخصية الرجل الذي كان يدفع بتلك الطريقة، حدثت نفسها قائلة:

«لقد أمسكوا بشيبو!»

ولكن ما عسانا نفعل به؟ قال الرقيب الذي كان يقود الدورية، وهو رجل أسود ذو عينين عموديتين تماماً.

«وهذا الشخص، لماذا تأتون به؟ سألت في حين كان جو يدنو من المطيتين.

(*) شجر استوائي.

ـ لأنه كان وقحاً... قال أشياء...

ـ ماذا قال؟

ـ لا يمكن تكرار ذلك هنالك جنحة، اعتذر الرقيب.

ـ ماذا قلت؟ سألت دونيا فلورا، وهي تقترب من الرجل، الذي كان موثق الذراعين إلى الخلف ومرفقاه مغروزان إلى ظهره، وقبعة القش مغروزة حتى أذنيه كي لا تطيرها الريح، كانت إحدى يديه ذات حمرة تميل إلى الصفرة بسبب مرض جلدي، والأخرى سليمة، وكان كامل جسمه له لون ديك أسود...

ـ ماذا؟ ماذا قلت؟»

مد له الأمريكي نصف سيجارة كانت في جيبه. وضعتها دونيا فلورا في فمه وأشعلتها له.

«جزاك الله خيراً، يا سيدتي...».

شكرها ثم أخذ يمتص السيجارة بلهفة ـ مثل خفاش موثق الجناحين ـ وجوع إلى التدخين. ثم أضاف:

«لقد قلت ما يقوله لنا الرجل شيبو في الحقول. هناك من يقولون بأنهم يجلبون لنا رفاه التقدم، غير أن ما يبيتونه لنا هو شيء آخر تماماً، زراعة المنيهوت(*) هنا، لتذهب ثمارها إلى مكان آخر، إلى بلدهم، حيث يربحون الأموال بالدولار. هذا ما قلته، يريدون منا أن نزرع لهم المنيهوت.

ـ أولست تدري بأن شيبو يخدعهم؟ أنك لست على علم بما يحدث، يا بني!

ـ هذا ممكن، يا سيدتي... ولقد قلت أيضاً بأنهم بدل تجريدنا

(*) نوع من النبات يستخرج من جذوره دقيق نشوي.

من أراضينا، عليهم بالأحرى أن يشتروا منا المحصول. فهذا حقاً من شأنه أن يكون تقدماً بالنسبة لنا.

ـ أيها الثرثار الحقير! سأذيقك طعم السوط، أنا!

تدخل الرقيب، وهو ينضح عرقاً، وجلده رمادي وعيناه مائلتان، ألقينا عليك القبض لأنك ادعيت بأن آمر المرفأ باع نفسه للبابا الأخضر. لهذا السبب نحن نحملك، وعليك أن تشكرنا لوصولك سليماً.

ـ ما هذه، يا بني، سوى إحدى حماقات اعتقادك! كيف يمكنك الاعتقاد بأن سلطة عسكرية يمكنها أن تبيع نفسها؟

ـ لست أدري كيف، يا سيدتي، لكن شيبو استمع بأذنيه للصفقة «وخاصة بالنسبة للآمر» المتعلقة بالأراضي.

ـ رأيي أنا، أيها الرقيب ـ قال ماكر تومبسون ـ أن الرجل الذي ينبغي إلقاء القبض عليه حياً أو ميتاً، إنما هو شيبو، ويجب إطلاق سراح هذا الشخص الذي لا ذنب له سوى أنه يردد ما يقوله الآخر.

ـ تحت أمرك! لقد قال الآمر بأن علينا، نظراً لعدم وجود قائد محلي، أن نطيعك أنت، ولهذا فنحن ممتثلون لأوامرك.

ـ نعم. أطلق سراحه. لا شيء يمكن ربحه من زرع الخوف في قلوب القوم، قالت دونيا فلورا، وهي تتظاهر بفك وثاق الرجل. فليذهب».

عبر الرجل عن شكره وأطلق ساقيه للريح عبر مزارع البن، حيث كانت سحب من الفراشات البيضاء تبدو وكأنها ندف قطن مزروعة فوق أوراق شجر البن القاسية.

«إلقاء القبض على شيبو، قول سهل! تذمر الرقيب، الذي مكث مرتاباً، ولكن ما العمل من دون زورق جيد لنزول النهر؟ إن الزورق هو ما ينقصنا... أما بزوارق البيبانتي»(*) فإن ذلك يعد مستحيلاً...

(*) زوارق محلية من جذوع الأشجار.

لقد شاهده رجالي، وأطلقوا النار، فكأنهم أطلقوا النار في الهواء...
أنا، أنا وحدي، شيبو شيبو،
أعرف قصيدة الماء،
أنا ابن زورق جذعيٍّ
ولدت على الموتاغوا!

أنا أعرف قصائد الماء،
وحدي أنا، وحدي، ولا غيري أنا،
بما أنني كنت في زورقي
عندما أنشدها لي الماء!...

* * *

أحس ماكر تومبسون بنداء البِحَار المخبأة في أوردتهم الزرقاء، وقال:

«أرى أيها الرقيب أن إلقاء القبض عليه حياً ينبغي أن يتم في الماء. لكنني أحتاج إلى رجال أشداء من أجل التجذيف. أين يمكن صنع مركب سريع هنا؟ سأتولى رسم واحد من تلك المراكب التي تبدو مزودة بحد قاطع لشق الماء.

ـ لنذهب جميعاً إلى المنزل، اقترحت دونيا فلورا. سوف نسلك بمطايانا الطريق الواسعة أما أنت أيها الرقيب، فلكي تصل بسرعة، عليك أن تسلك الدرب المختصر من هذه الجهة حتى تبلغ غابة خيزران ومن ثمة عليك أن تنعطف نحو اليمين. تذكر جيداً: نحو اليمين، لأن على اليسار توجد مستنقعات وأشواك كثيرة».

اقترب جو كي يساعدها على امتطاء المهرة، غير أنها أفلتت منه واثبة وحدها، دون أن تترك له فرصة لجس ما كان يود إن يجسه، هاتفة:

«كلا، لا تساعدني، يا صغيري!... هذا النوع من الخدمات، لا يساوي شيئاً!».

وثب اليانكي الشاب بدوره فوق سرجه واقتفى أثرها. غابات نخيل، بقايا رمال خلفتها فيضانات النهر، مروج مائلة إلى الزرقة ما بين المراعي الخضراء، حقول «ذاكات»(*)، مزارع «غينيو»(**) مذهبة، مزارع قصب ذات قنازع فضية مائلة إلى الحمرة ومتأرجحة بفعل الريح الحارقة.

«لا يمكن أن...» سمعته يهمز دابته، ففعلت مثله. وأدركت ببداهة متولدة من رغبتها، ومن الجو الحارق ومن يقينها بأن هذا الرجل النشيط، الصلب مثل المعدن، والعنيف ليس مجبولاً من أجل ابنتها، وأنه كان يهمز مطيته كي يقترب منها ويقول لها... كلا، لا يمكن أن يكون ذلك، فليقل لها ذلك، ولتسمعه...

كانت مهرتها، تحت تأثير المهماز، هي الأخرى، تحافظ على الفارق الذي كانت الدابة الأخرى تحاول أن تنقص منه بزيادة سرعتها. ما ألذ الشعور بأن فارساً يلاحقها خبباً، بل ركضاً تقريباً!... وعندما سمعته يتقدم بسرعة أكثر، عجلت في سرعة مهرتها. «فليدركني! كانت تحدث نفسها، فليدركني، فليمسك بي من خصري، فليوقعني عن مطيتي، فليطرحني أرضاً، وليقبلني!».

اجتازت المهرة وهي تركض، والبغلة وهي تعدو، مزارع ليمون، وبرتقال ونارنج، ومانغا، و«نانس»(***) وهناك كانت الشمس أخف وطأة، والأرض محترقة حارقة وطنين الحشرات يكاد يطغى عليه وقع سباقهما، وهناك أدركها. خففت المهرة سرعتها،

(*) نوع من الكلأ يزرع علفاً للخيول.

(**) نوع ممتاز من الموز.

(***) نانس NANCE نوع من الكرز الصغير الأصفر، لذيذ الطعم، قوي الأريج، وشجرته تسمى «نانس» أيضاً.

وقد أجفلت من ظل، فالتحق بها، ولكن قبل أن يتمكن من التوجه إليها بأية كلمة، سألته:

«متى قالت لك مایاري بأنها لا تريد الزواج منك؟

ـ منذ ثلاثة أيام تقريباً...

ـ يوم الثلاثاء، إذن؟

ـ نعم. آخر يوم رافقتنا فيه، عندما كنا عند أولئك الخلاسيين الذين كان لهم أطفال كثيرون. هل تتذكرين؟ أولئك الذين خضعوا أخيراً لبيع أرضهم لحاجتهم إلى المال من أجل شراء أدوية... لكنني كنت أريد التحدث إليك في موضوع آخر. لقد فكرت فيه كثيراً. لم تبق لنا أية وسيلة أخرى».

أحست دونيا فلورا أن مطيتها تفلت من تحت رجليها، وخالجها شعور بفقدان الرشد. كانت ملائكة الحب تحوم حولها، لما فيه الخير لها أو لما فيه الضرر. كان قلبها يخفق بشدة. وصدغاها مثل جهازي تلغراف في حالة نداء. وكان على جميع النساء اللواتي كن مشتتات فيها ـ الأم، الصديقة، والحماة ـ أن يتجمعن، ويذبن، ويصرن واحدة فقط من أجل هذا الرجل الذي كان يأمل أن يجد فيها رفيقته في كل شيء، الطموح، الفهم، الحب والخبرة في الحياة... «لم تبق لنا أية وسيلة أخرى... لقد فكرت كثيراً في الموضوع...» كانت تكرر لنفسها هذه الكلمات لجو، أبعد الناس انسجاماً مع ابنتها، الطفلة التي لا تزال غافية بل حمقاء، وهي دائماً حزينة، حالمة، غائبة... آه!... كيف يمكن مطالبته بعدم الإفصاح؟ بالتريث؟ بإعطائها مهلة؟... غير أن صوته الوقور كان قد بدأ بالتموج والرنين من شفتيه دون أن تتغير سحنته... يا له من رجل غريب! غريب!... عم كان يتحدث إذن؟...

ـ ينبغي أن يكون للمركب، قال، المقاييس النموذجية التي لمراكب المطاردة، المراكب السريعة جداً، لو أننا نحصل على مجذفين أقوياء. سنشرع بصنعه منذ الغداة، وسوف نؤجل زواجي من مایاري حتى إلقاء القبض على شيبو.

عادت الدابتان، وقد هدأتا، إلى السير خطوة خطوة، وهما تلمعان من العرق والشمس، وتروحان بذيليهما.

«سنرى، بعد أسر شيبو أو قتله، إن كانت الآنسة ابنتك ترغب في الزواج أم لا. حالياً هي تقول بأنه لا ينبغي التفكير في ذلك بالنسبة لي...

- ينبغي عليها أن تقدم مبرراً لذلك...» قالت دونيا فلورا بصوت مختنق. كانت جيوش النمال التي نملت في خلاياها، واحتشدت في جسدها، نحو السعادة، تتشتت، مسرحة...

«أوه! نعم! إنها تقدم الكثير من المبررات!

- لا يمكن أن يكون لها الكثير منها. أنت رجل شاب، شريف، وذو مستقبل عظيم!

- الكثير من المبررات!

ثم انحنى أثناء السير كي يعدل الركاب. وكان العرق يتصبب من جبينه العريض، وكأنه يتصبب من مزراب.

- أية مبررات؟ لقد أصبحتما ملغَّزين معاً! هي لا تتكلم وأنت لا تقول شيئاً!

- لست أدري. سأصنع المركب ثم نرى!

- أخبرني أولاً ماذا تقول تلك الحمقاء!

- سأخبرك فيما بعد...

- كلا، الآن - لم يعد صوت دونيا فلورا يفسح مجالاً للتملص - ستخبرني الآن بما تقوله!

- تمقت حاجتنا إلى التقدم «لأنكم أنتم الذين تأتون به، أنتم الذين لا شأن لكم عندنا، هوذا قدرنا المشؤوم، ولهذا السبب أثور من رغبتك في الزواج مني، ومن التفكير في أنه ينبغي علي أن اقتسم خبز مائدتي مع الرجل الذي افتك خبز ذوي من أفواههم، والحليب

مع الرجل الذي حرم بني جلدتي من أراضيهم ومن مساكنهم وحكم عليهم بالتشرد في الطرقات...».

ـ ولكنها مجنونة! صرخت دونيا فلورا، إنها مجنونة!

ـ لماذا لا تعود إلى البحر لتصطاد اللآلئ؟ عندئذ سوف أكون امرأتك وسوف أنتظر أوبتك، في الوهم... ويداي مملوءتان لؤلؤاً، لا ملوثتان بعرق الرجال... الآن، في كل مرة تعود فيها، أشعر بالخوف لرؤيتك تعود. ماذا فعلت؟ من سلبت؟ وتحرقني لمساتك، وتهينني قبلاتك، لأنني أعلم بأن أصابعك أوقية الذهب التي تفسد كل شيء، تلوث كل شيء، تسربل بالعار كل شيء، أو السوط الذي ينقض على المتمرد، إذا لم يكن زناد المسدس، وعلى شفتيك الحقد الذي، تنفثه في وجه من يستسلمون لك فتحطمهم، أو تلعن به من بعيد أولئك الذين يفلتون منك...

ـ إنها مجنونة! إنها مجنونة!...».

بدأ البيت يرتسم جانبياً فوق ربوة صغيرة، بين أراض مزروعة بشجر الموز، والبن، والقصب، وأراض مسورة للبقر الحلوب وللمَرعى كانت تتحدر حتى ضفتي الموتاغوا، الذي كان يضيق من ذلك الجانب ويصب في البحر مثل برق من ذهب أزرق، في صخب رعد وتحت سحب من الزبد كانت تندفع وترتطم بالصخور المعدنية اللماعة، والأجمات الكثيفة النشوى بالأريج.

طيور صفراء، حمراء، زرقاء، خضراء، وأخرى غير ملوثة لكن حناجرها مفعمة بحبور صاخب: كريستالي النبرة عند طائر «السنزنتلي»، خشبي ناعم عند «أم سكعكع»، ومثل نبيذ العسل عند «القاوند» وكالنيزك الرنان عند «العُلْعَة»...

من حسن الحظ أن الوصول بات وشيكاً، وأن بوسع دونيا فلورا أن تطلب فوراً إيضاحات من تلك البلهاء! يمكن توقع كل شيء من الأبناء! أشقياء وأغبياء. كلهم أشقياء وأغبياء، وخاصة البنات!

ولدى اقترابهما من المسكن، شاهدا الرقيب الذي كان قد

سبقهما وجاء ليحييهما ويبلغهما بأن الدورية قد وصلت، وكان أفرادها ينامون تحت شجرة.

وبعد الترجل، صعدا حتى الممشى، وكانت دونيا فلورا متلهفة لمواجهة ابنتها بالحقائق التي اطلعت عليها لتوها. أجمات سرخس، أوركيديا سحلبيات، أوراق ملونة لوحات مذابح على الجدران، طاولات، أرائك، كراسٍ طويلة أقفاص، مشاجب...

كانت دونيا فلورا تحث الخطى ـ وكان الممشى طويلاً ـ كي تبلغ الغرف الداخلية، وقد بدأت، بصرخات عالية، تطلب حضور ابنتها:

«ماياري! ماياري!...».

لا جواب.

«ماياري! ماياري».

جابت غرفة النوم، قاعة الطعام، المشغل، المصلى الصغير... لاأحد.

«ماياري! ماياري!... اللعنة أين تراها ذهبت تلك المجنونة؟» كانت تتساءل بصوت خافت.

ثم واصلت الصراخ، في المطبخ، وفي الفناء:

«ماياري! ماياري!».

ودائماً لاأحد...

«كلا لم تأت إلى هنا» قالت الطباخة، وهي قزمة شعرها ملفوف خلف رقبتها مثل جلة بقرة.

مرت ساعات. وعادت دونيا فلورا من الفناء لترى إن كان ثمة أشياء ناقصة في الخزائن.

لم يكن أي شيء ناقصاً، ملابسها الداخلية، ثيابها. كلها لم تمس.

انطلق السائسون والخدم والعساكر يبحثون عن ماياري في

جوار البيت، وأرسل واحد منهم على صهوة أفضل حصان إلى محطة «بانانيرا» كي يستخبر عنها، وفي حال انعدام أخبارها، كي يسأل متى ستمر، هذه الليلة، قطارات البضائع. إذ كان الوقت متأخراً لانتظار قطار المسافرين حتى الغداة. وفيما بعد أرسل مبعوث آخر ومعه برقية مرموزة لآمر المرفأ، يطلب فيها «جو» منه، تحت إلحاح دونيا فلورا، الذهاب للبحث عن ابنتها عند آل زيتونو وإذا لم تكن موجودة، فعليه الإشعار باختفائها في العاصمة وفي كل مكان، لأنها هربت.

«هذا إذا لم يحدث لها شيء، إذا لم يكن هؤلاء الأشرار قد...لأنه متى ما حزر أحدهم بأننا نريد اشتراء الأراضي منهم، فإن ذلك من شأنه أن يثير الكراهية والحقد... هذا ما يخيفني أشد الخوف: الانتقام... كلا، ولكن مع آل زيتونو، لا بد أن... أملي أن تكون هنالك معهم... فليذهب الرقيب بسرعة مع المرافقين وليخطر قائد المفرزة.

ـ لست متخوفاً، لأنني أعرف أنها هربت منا نحن...

ـ لماذا «نحن»؟ لقد هربت منك أنت... صبيتي المسكينة!...

ـ نعم، أنا... مع إنها قالت لي ذات مرة: «لم أعد قادرة على رؤية أمي، إنها تشبه «مالنشا» كثيراً!».

ـ آه! كانت تدعي ذلك؟... إذن، لست أدري إذا كنت أفضل أو أسوأ، لأنني لا أعلم من كانت «مالنشا» هذه... إحدى النساء المهلكات من دون شك لأن أشهرهن عبر التاريخ، كن خطرات...

ـ مالنشا ساعدت كورتيس ضد الهنود أثناء غزو المكسيك، مثلما تساعدينني أنت الآن...

ـ إذا كان الأمر كذلك، فلا بأس، التقدم يقتضي ذلك وأنت، مع أنك لست «كورتيس» فقد التزمت بجلب الحضارة إلينا.

ـ أنا؟

ـ نعم، يا سيدي، أنت...

ـ لم التزم بشيء. تلك افتراءات من «خانجر كاند»، الأكتع. لقد ثار لرؤية آمر المرفأ يضرب شيبو. لو أنه بدل الضرب، قتله لوفر علينا الكثير من الإزعاج!...

ـ جيد! ولكن بالنسبة لي سواء جلبت الحضارة أم لم تجلب، فالأمر سيان عندي. وما يهمني حالياً، هو أن تتولى الباخرة التالية المتوجهة إلى الشمال نقل موزي...

ـ ذلك، سيدتي، يمكنك أن تعتبريه حاصلاً.

ـ باثنين وستين سانتافو ونصف لكل عذق...

ـ بكل حماس، نعم...

ـ لن تخسر كثيراً في الحقيقة... هيا! تعال معي، هات المصباح... أريد أن أرى شيئاً... لقد خيل إلي... هذه الأقفاص فارغة... أضئ لي من الجانب الآخر... كلها فارغة...

ـ ماذا تستنتجين من ذلك؟...

ـ إن مایاري غادرت نهائياً، وإنها فرت تقريباً بعد خروجنا، في ساعة مبكرة. لم تكد الطيور تتناول شيئاً يذكر مما وضعته لها في الأقفاص هذا الصباح».

كان نقيق الضفادع، وخوار الثيران والأبقار، وحفيف الأغصان في الريح، تكتسح الفضاء بجنون، حتى يكون كل شيء نظيفاً ونقياً مع طلوع القمر. جاءت الخادمات بالطعام، ولكن من الذي تناول لقمة واحدة؟ كانا في انتظار أحد الموفدين إلى «بانانيرا»، مطيتاهما مسرجتان، وهما متأهبان للانطلاق كي يستقلا أول قطار يمر الليلة متجهاً نحو المرفأ، وحقيبة الثياب جاهزة تقريباً لأن دونيا فلورا لم تكف بعد عن ملئها.

فجأة، أبعدت يديها عن الثياب التي كانت تدعكها داخل الحقيبة، مثل كتلة من الطحين، لتقول:

«يحدثني قلبي...».

ولم تنتظر من اليانكي أن يرفع المصباح. تناولته منه وأسرعت متلهفة نحو الغرفة الصغيرة حيث أودعت العلب التي تحوي ثوب الزفاف، المستورد من نيويورك. رفعت المصباح إلى أعلى ما بوسعها. أخذه منها «جو» كي يضيء لها من نقطة أعلى. شابَ تدفق ظلٌ من الغم خدي دونيا فلورا، إلى درجة أنه عتم عينيها وجمد العرق اللاهب الذي كان يبلل شعرها... حاولت افتكاك المصباح من بين يدي «ماكر تومبسون». ولكن سدى: كانت يدها ترتجف كما لو أنها ستتلقى هجوماً... لقد تزينت مارياري بثوب العرس ـ الثوب الوحيد الذي كان ناقصاً ـ ... لقد اكتست بالأبيض... ارتدت ثياب عروس... لماذا؟... لماذا؟... لماذا؟...

أنا، أنا وحدي، شيبو شيبو،
أعرف قصيدة الماء.
أنا ابن زورق جذعي
ولدت على الموتاغْوَا!.

أنا أعرف قصائد الماء،
وحدي أنا، وحدي، ولا غيري أنا،
بما أنني كنت في زورقي
عندما أنشدها لي الماء!

4

كان الرواق مغموراً بضوء القمر. فيبدو كأنه سبخة. وكل موضع، من صحن الدار إلى الحدائق كان يبدو وكأنه سبخة، ملاءة

بيضاء كبيرة على منحدرات التلة، مزارع القصب، والأودية التي كانت تنتصب فوقها، مثل الشموع المطفأة، قيثارات الصباريات الفائقة الارتفاع والتوحد، وكانت بدورها ذات بياض ناصع يعم قنزعاتها الحريرية... لم تكن تلك حباحب مضيئة، بل مشاعل تضيء في الليلة البيضاء. أين تتّجه؟ ماذا تفعل؟ عم تبحث؟ النهر يبدو وكأنه حليب يتدفق وينتشر لدى تقدمه بين شواطئ رملية تلامسه كي تتأكد إن كان هو نفسه الذي ينزل سيولاً من الجبل وينام عند بلوغ الشاطىء تحت أشعة البدر، وطوفان اللجين الذي يبهره.

«لماذا؟... كانت دونيا فلورا تكرر تساؤلها بصوت آلي. لماذا؟

ـ لا ندري إن كانت قد لبست الفستان، أم أنها حملته معها فقط...

ـ لقد لبسته، يا «جو»! لقد ارتدت فستان زفافها، أنا على يقين! لماذا لا تناولني كوب ماء؟».

أسرع جو إلى المطبخ ليبحث عن الخدم. لكن لم يكن يوجد أحد. لا شيء سوى النار في رمادها، شبح. حتى الكلاب كانت في الخارج تذهب وتجيء نابحة. توقف كي يستمع. كانت ثمة خطى تسمع وكأنها لشعوب بأكملها. باطن القدم الحافية يلتصق بالأرض الحارة، يلتصق بها ثم ينفصل عنها. حفيف أوراق لفتحها الشمس ورطبها الليل، لاح عسكري، أزرق الشفتين من أكل التوت، كان بدوره يبحث عن الماء ليشرب. الجميع كانوا عطاشاً. عطاشاً تحت القمر، عطش الرمل قرب النهر، عطش الرماد.

«أيها العسكري، ما هذه الليلة؟ لماذا تتحركون جميعاً بهذه المشاعل في أيديكم؟ لماذا أشعلتم كل هذا النور؟».

حرك الجندي شفتيه الزرقاوين، وأجاب بكلمات غير مفهومة. فخيل لجو أنه ليس كائناً بشرياً وإنما وجه لأحد الأصنام المنقوشة في «كيريغوا». ملأ الكوب ماء، وعاد مرتاباً، متقهقراً إلى الخلف،

قالت دونيا فلورا، وهي ممددة في أرجوحة نوم، وعيناها إلى السقف، عندما سمعته يعود:

«أسرع! لم أعد أصبر!».

كانت بشعرها المضفور على الجانبين، ووجهها العريض، وفمها المر عند ملتقى الشفتين، وأنفها المعقوف، وأذنيها اللاصقتين، وكتفيها المتهدّلتين، تشبه هي الأخرى آلهة من حجر. وبخياله، قرب ماكر تومبسون صورتها من صورة التابير(*) المقدس، في حين كانت هي تشرب الماء على جرعات.

«متى يعود ذلك الذي أرسلناه إلى المحطة؟ سألت وهي تعيد له الكأس.

ـ أرى أنه لا ينبغي علينا الانتظار هنا، يجب الذهاب إلى هنالك، سواء لانتظار قطار البضائع، أو لركوب قطار الركاب. نحن هنا لا نفعل شيئاً. الجميع يفتشون الأدغال: الخدم، الجنود، والفلاحون، لقد أخطر الرقيب بالذهاب أيضاً. كأنهم مجانين. يقتربون من النهر، يتحدثون مع الماء، يبللون أقدامهم ثم يعودون».

وافقت دونيا فلورا متنهدة.

«إذن، فلنذهب! من الأفضل أن نكون في المحطة، فعلاً. هل ذهب الرقيب أيضاً؟ كنت أود إعطاءه بضعة «بيزوات» وزجاجتين أو ثلاثاً من «ماء الحياة» لضابط الدخول.

ـ لقد ذهب منذ لحظات.

ـ ينبغي أن تأخذ معنا مالاً وأسلحة. انظر إذا كانت المفاتيح لا تزال في أقفال الخزائن. هذه الأبواب، لا يمكن خلعها إلا من الداخل. سوف نخرج من باب الصالون ونوصد الأبواب بالأقفال.

ـ وإذا عادت ماياري... لن تتمكن... سوف تجد كل شيء مغلقاً.

(*) حيوان استوائي أمريكي يشبه الخنزير.

ـ ادخل الطيور إلى أقفاصها أولاً.

ـ هل يتوجب إغلاقها أيضاً؟

ـ لا تكن أحمق، هيا...».

شرع «جو» يضع الأقفال على الأبواب، لكن صرخة من دونيا فلورا جعلته يتوقف. تجمدت نظراتها، وانقطعت أنفاسها وكانت تعض على شفتيها، لقد توجست من إمكانية أن تكون ماياري، بثوب الزفاف، قد ألقت بنفسها في النهر لتنتحر. ألم يسبق لأبيها أن انتحر؟

وفي برشلونة، قديماً، ألم ينتحر جد أبيه؟ وبالنسبة لماكر تومبسون، كان الأمر مؤكداً، منذ مساء الجزيرة، عندما كانا على شفا الغرق، لكنه لم يقل شيئاً. مكث صامتاً قرب الأم التي كانت، في يأسها، مغرورقة العينين بالدموع مرتجفة اللسان وفمها مملوء باللعاب وبالنحيب.

«يبدو لي الاحتمال الأكبر أنها ذهبت إلى المرفأ بواسطة قطار الركاب، وإذا كانت، كما تقولين، خرجت باكراً بعدنا نحن تقريباً، فقد كان لها متسع من الوقت لتركب القطار إلى «بانانيرا». لهذا فإن أهم شيء هو الذهاب للاستعلام في المحطة. أما هنا فإننا نضرب خبط عشواء...».

لقد كان من المُلحِّ إذن ربح الوقت، وإغلاق الأبواب والخروج، وذهبا يبحثان عن دابتيهما. كان ظل المطيتين، اللتين كان يسرجهما ماكر تومبسون، يرتسم جانبياً على الأرض المتألقة، مثل رسوم مقطوعة من ورق أسود.

«جو، يا للفظاعة! أحس أنني أسبح ضد التيار، بلا أمل!...

ـ بالعكس، يا سيدتي. هنالك سوف نستعلم. كل يوم تمر ثلاثة قطارات بضائع، لكن ربما ركبت قطار المسافرين بكل بساطة».

دلفا إلى ما يشبه صحراء، وكان شرر كثيف يلمع على الرمل

ويعشي بصريهما، في صمت، ووجهاهما شاحبان من ضوء القمر، كان وجه الرجل أبيض اللون مثل عظم، ووجه المرأة تشوبه سمرة كأنما غطيت بطبقة من الكلس. وكانت فسائل البلوط والنباتات القصيرة الممتدة على الأرض تتضوع مثل «الأغوانة»(*)... والجداجد... مئات الجداجد، آلاف الجداجد... وصبار «الأرغن» الاحتفالي، والمرئي من بعيد. موسيقى من شوك، موسيقى من رمال، موسيقى من نار، موسيقى خرساء...

وإلى أبعد، هناك حيث تبدأ مياه النهر بالخرير على الصخور، لم يبقَ شيء من صمت الطبيعة العميق تحت أسطوانة القمر الضخمة، ولا من صلاة الجداجد الصغيرة: كان كل شيء يأتلف ويتناغم مع صخب الموتاغوا المتوحش مثل ثور في قفص.

وعندما كانت الدورية نازلة، من جهة البيوت، باتجاه موضع يقال إن فيه مدينة مطمورة، فاجأت رجلاً ملطخ الوجه بالسواد، وأذناه مغطاتان بالأصداف وعلى رأسه، كان يعتمر على هيئة طاقية، ذبل(**) سلحفاة. ولقد كان يغرزها، أثناء سيره، في جمجمته بحجر.

سأله الرقيب ماذا كان يصنع. فأجاب الرجل:

«أصنع...

ـ ولكن هيا، هل لك أن تخبرنا ماذا كنت تصنع؟

ـ ... العالم...

ـ ألم تر، مصادفة، فتاة تدعى ماياري بالما؟».

لم يجب، واكتفى بضرب ذبل السلحفاة على رأسه، الأمر الذي لم يكن ليوفر عنه الضرر.

«خذوه، يا شباب!» أمر الرقيب جنوده.

(*) عظاية أمريكية عاشبة.

(**) قشرتها.

أمسك به اثنان منهم من ساعديه، في حين انقض عليه ثالث انقضاضاً جعله يترنح ويصطدم بحارسيه...

الماء يحمل كل شيء إنه نائم الآن. الماء يحمل كل شيء. إنه نائم الآن. يحرك اليدين وكأنه يصطاد فراشات. الماء يحمل كل شيء. إنه نائم الآن. ارتدت ثوب العروس كي تتزوج النهر. من الذي سيتأهل بها، الماء الذي يمر؟ هل سيكون الماء ـ العصفور الأزرق؟ الماء ـ العصفور الأسود؟ وزوجها هل سيكون طائر «الكتزال»؟ هل سيكون أبو زريق؟ هل سيكون الغراب؟ ما أضعف ذراعيها! ما أوهن ساقيها! يا للصمت العميق في فرجها البكر!

عليها هي وحدها، ماياري بالماء، أن تصل إلى صف حجارة الأحداث التاريخية، تغمض عينيها أمام النجم المذنب الذي يعتمر زهرة عباد الشمس وتتقدم نحو الدخان السماوي، نحو قلب الغابة الخضراء نحو غذائها... ولا يمكن، بأية طريقة أخرى مغايرة، الاحتفال بزواجها من الموتاغوا.

إنما عليها هي وحدها، ماياري بالماء، أن تذهب لتتحدث مع نمور «الجاغوار» في المنحدرات، هناك حيث نمل الكبريت يقرض الصخر، وتقدم نفسها لبراثن الكاكاو الدموية... فليس، بأية طريقة أخرى مغايرة، يمكن الاحتفال بالزواج من الموتاغوا!.

لماذا كانت تنظر إلى تلك المزرعة البائسة الممتلئة بالذباب؟ لماذا كانت تتأمل تلك المزرعة الكئيبة الممتلئة بالتراب؟ إذا كان كل شيء لا يفعل سوى أن يمر، إذا لم تكن سوى مختبئة، في حين كان يذبل، الليلة، أجمل أقمار السنة؟

دلفت إلى مطبخ ذي جدران من خشب الخيزران، لكي تشاهد، وهي تحت الظل والضوء تألق الحقول من دون رؤوسها التي حصدت عند مستوى الكتفين، الحقول التي أتى على أعناقها تعاقب الشمس والقمر. الريف عند الساحل حقول بلا رؤوس، ولا تلوح الرؤوس إلا مع التقدم تدريجياً نحو المرتفعات، إنه ريف مقطوع الرأس،

مضروب العنق، نازف، منه تنبجس الحياة في تدفق مزبد، يسيل، يتكاثر، ينتشر، ولا يفتأ يزهر، يزهر سدى، بمحاصيل متعاقبة من الذرة والفاصولياء والقرع وقصب السكر.

خنازير السماد، المنتشرة في الوحل، تشوى تحت الحرارة، ولا تكاد تتحرك تحت الذباب، وبين الدجاج المتعب النائم بعين واحدة، وأسراب البط العجوز بمناقيره المحمرة ونسيج العنكبوت الأبيض على عيونه... والحي الوحيد في باحة الكائنات المنطفئة من الحرارة تلك، إنما كانت «الغواكامايا»(*) الصاخبة، المعذبة، بعينيها القريبتين من لون اليشب(**) البرتقالي السائل، وبمنقارها الذي على شكل ظفر خيزران أسود الحد، وكان كل ما يحيط بها مستجيباً لعناصر اللون الأساسية في ريشها: خضراء كانت الغابة، زرقاء كانت السماء، صفراء كانت الشمس، وفيما بعد، بنفسجياً أمسى الغسق الممزوج بالليلك والترنجان.

كان ثمة كرسي من سيور جلدية خفف عنها الضنى. مستحيلاً كان الوقوف الدائم. على جلد عجلة وضعت فستان زفافها. أيادي خياطات شقراوات قضت ساعات وساعات من الضنى في درز هذه الحلة، حلة الدانتيلا. همست شفتاها، لحظة، باسم المدينة حيث الخياطات يعملن من أجل نساء أخريات حتى فقدان البصر: نيويورك! نيويورك!... ما أجمل ارتداء الساتان والحرير والدانتيلا الشفافة، من أجل الاستسلام، كما السباحة تحت ضوء القمر، لحب نهر عنيف! أن تتزيًا هكذا لزواج من جو ماكر تومبسون، إنما يشبه الخروج من غيمة والاستلقاء على سكة قاطرة. لكم هو مفضل، النهر، اللطيف، المداعب، العميق، عندما ينساب مثل عاشق أثير من دون أي شيء عدا ذقنه وعينيه! نعم، سوف يأخذها، أولاً، بين ساعديه الجبارين ويذهب معها ليصطدم بالصخور. ثم يضيعها،

(*) ببغاء أمريكية.

(**) نوع من الحجارة الكريمة.

ويتلقفها من جديد بين دواماته، فيجعلها تدور حول نفسها مثل مجنون، ثم يعود فينساها بعيداً، ويهجرها عند جمة من المياه الموحلة، لكي يتذكرها من جديد ويتملكها مجدداً ضارباً إياها براقد جدول كريستالي. بعد ذلك سوف يعود كي ينتهكها ويضاجعها بتهتك. تعاقب مدوخ من الصور المجزأة. سوف ينسج لها القصب سجوناً انتقالية، أقفاصاً، تتبادل فيها القبل مع أغرب أنواع الأسماك، الأسماك ـ العصافير التي غناؤها من فقاقيع، الأسماك ـ الرقاصة التي تترك آثار رقصها في الماء...

ارتبكت أثناء سيرها من رؤية عجوز كان يقترب، وخلفه كلب ينطنط بعد كل ثلاث خطوات. أخرج قرص حلوى ـ بل يمكن القول رئة ذهبية من ذهب، رئة إله قديم ـ ووضعه فوق الأرض على ورقة موز ذات لون أخضر براق. نظر إليها دون أن ينبس ببنت شفة. صمت قديم مثقل بِسِنيّ شيخ عجوز. مرر يده، يد ذات أصابع متيبسة، على وجهه كي يمسح عرقه.

ثم، فيما بعد، برزت عجوز، تتوكأ على عكاز أحمر، وإحدى رجليها عارية حتى الفخذ، والأخرى مغطاة بتنورتها حتى أسفل قدمها المعقوفة. كان يتبعها كلب أسود. وضعت على الأرض سعفات على شكل مروحة وفوقها، فوقها جرة مملوءة بماء الذرة، من دون كلس. في أي مكان هي، دون أن تكون في أي مكان، بنيتي الصغيرة البيضاء؟ هكذا كانت تقول وهي تضرب الأرض بعكازها الأحمر. أريد الانتظار حتى تغدو زبداً! أريد الانتظار حتى تصير رملاً! أريد الانتظار حتى تمسي زهرة أوركيديا!

تحولت العجوز إلى عكس ما كانت. اختفت داخل قوقعة تجاعيدها، ـ مثلما يقلب المرء كيساً ـ ها هي ذي الآن وقد استحالت فتاة.

«سأمشط لك شعرك، قالت لماياري، بمشط مصنوع من يشب نبع، وعندما تصيرين مسرحة الشعر، عليك أن تلبسي. سوف

أساعدك على ارتداء فستان العروس. لا جدوى من ارتداء ملابس أخرى داخلية. خطيبك يريدك عارية تماماً. ما أكثر الأزرار! إن من شأنها أن تجعل يديه تستغرقان قروناً قبل بلوغ جسدك البرتقالي، سأربط وشاحاً فيروزياً حول خصرك لكي، عندما تطفين فوق البحر، يتعرف عليك النوتية. نهداك مثل ليمونتين صغيرتين. ما أجمل أن يكون لك مثل هذين النهدين تحت الفستان الأبيض! الشجرة التي تعطي زهر البرتقال أعطت أيضاً أصدافاً من أجل هذا الزفاف. نوارات صغيرة مثل زهر البرتقال، لكنها من لؤلؤ...».

وطلع النهار فأضاء الأنحاء. لبثت مختفية مساء كاملاً وجزءاً من الصبح، في ذلك الكوخ. وعندما لا تكون هناك رياح، فإن ضوء القمر لا يشبع جو الساحل إلى حد إخفاء الشمس تماماً. ولقد ظل النور الذي يضيء المكان مختفياً معها حتى اللحظة التي بدأ فيها الشرير الذي كان يرغب فيها دون أن ينالها بالاختفاء مرخياً سدوله، فبدأت الصخور تبرز أشداقها النمرية، والورشان(*) عيونها الزعفرانية، و«الهبال»(**) فروها الذهبي، وبدأ العوسج يظهر براثنه.

لم يختطفها السحرة. كان وجهها مبللاً بماء مالح، إذ إنها كانت تبكي بدموع حرى فوق غيمة وسادتها، وهي تنضح عرقاً تحت ثقل الملاءة الخفيف ـ كانت تنضح عرقاً بفعل الجزع ـ وقد فكرت في الأيام الفارغة التي تنتظرها لو أنها تزوجت قبطان المشاريع الطموحة. ذلك هو جو ماكر تومبسون، قبطان مشاريع طموحة، بلا أفق آخر سوى المال، المال بكمية دائماً فاحشة، الأمر الذي يمكنه من تفوق قيادي في بيئة لا يتحدث فيها الناس عن مشاريع تدر الملايين، ولا يملكون سوى رؤوس أموال طفيفة مسجلة على الورق. وهو تفوق كان ينقص أولئك القوم البائسون إذ إن طرقهم كانت مبتذلة، يصرخون أثناء الحديث، يومئون بحركات

(*) من أنواع الحمام البري.

(**) من القرود الأمريكية.

كثيرة، يسيرون بخطى واسعة، ويتحدثون دائماً عن الضرب... الاقتران برجل لا يدرك كنه الإحساس أو الحلم، ويسخر منها حين كانت تقول له بأنها تقشعر عندما تتأمل صورة للعذراء أو مشهداً، ذلك ما يجعلها تأنفه كان يمكنها تحمله، مثلما تحملته خطيباً لها يسكن تحت نفس السقف. لكن، ما لم تكن تتحمله، ما لم تكن تتغاضى عنه بمجرد رؤيته أو سماعه أو الشعور بقدومه، إنما هو ذلك الحقد الذي كان يكنه لأهالي البلاد. ذلك ما يجرح شعورها، ذلك هو ما يجعلها تثور.

لقد قررت ماياري أن تتحدث بشيء إلى عائلة الخلاسيين الكثيرة الأفراد. ولكن، بعد أن تحدثت إلى فلاحين آخرين، صارت إيضاحاتها أكثر دقة. بسبب الجهود التي بذلتها لكي تبسط أفكارها، الأمر الذي ساهم في توضيح فكرها نفسه. في البدء، كانوا ينظرون إليها حذرين. «فلتذهب إلى الشيطان!» قال شيخ ضعيف العقل، بلون خشب الأرز، لم يشأ حتى الاستماع إليها. ودمدمت عجوز لها عينا جرذ: «فليرسل لها الله كلباً مسعوراً يعضها!» ولكن مقابل هؤلاء السذج كان هناك الآخرون الذين استمعوا إليها. ولماذا بالفعل لا نعمل بنصيحتها، بما أنها، بدل أن تأتي لتجريدهم من أراضيهم، مثل الآخرين، كانت تأتي لترسخ إيمانهم بعدم البيع مهما كان الثمن؟ عدم البيع مهما كان الثمن! هذه الكلمات الخمس تلخص الوجهة التي ينبغي اتباعها. عدم البيع مهما كان الثمن. من الأفضل طردهم بالقوة وتجريدهم من دون إعطائهم أي فلس. الأراضي التي يفتكونها منكم بالعنف، يمكنكم استعادتها ذات يوم. ولكن متى ما بيعت، فهيهات. ينبغي التحدث إلى جميع السكان، والاجتماع بالمجالس البلدية، والتعجيل بتسوير الأراضي غير المسورة، والمحافظة جيداً على سندات الملكية.

لكن أبلغ ما أثر فيها خلال هذا النشاط المتولد من كرهها لماكر تومبسون، والذي غذته هي، كان في ذلك الصباح، حوالي منتصف النهار، عندما ذهبت لرؤية شيبو شيبو. أنزلوها بالحبال

في ما يشبه أرجوحة ألعاب بهلوانية حتى بلغت أحد كهوف الموتاغوا. نزلت في البداية نحو شاطئ ومن ثمة، سارت خلف رجل عار إلا من سروال داخلي، تسلقا عبر درب حجري حتى الكهف حيث، في آخره تماماً، كان يوجد شيبو شيبو، جالساً القرفصاء.

سبق لماياري أن عرفته في المرفأ، عندما لم يكن شخصاً يذكر، أثناء نزهة في الجزر. ولقد عرفها فوراً. نهض، خلع قبعته، وجاء يلتمس يدها التي نشرت عليها شفتاه الغليظتان نفساً، استنشقه فيما بعد كي يسترجع الرائحة. وفي الخارج كان يسمع صخب النهر الذي انتهى بأن هيمن على سائر الأصوات. ولهذا السبب لم يعد القوم المحاذون للشواطئ والذين صاروا كأنهم صم بكم، يتكلمون إلا بالإشارات تقريباً.

«الإنسان جبار مثل الآلهة، بسبب صوته، قال شيبو. وما دمنا نملك الصوت فإننا أقوياء. أحييك».

تركت ماياري جفنيها المثقلين ينسدلان على عينيها الأبنوسيتين، مهلة ابتسامة. أية إجابة هي الأفضل لتحية هذا الرجل الذي لا يغادر الظل، ويَمَّحِي فيه، فلا تلمع منه، أحياناً، سوى أسنانه وبياض عينيه الشبيهتين بعيني قناع؟...

«الدروب التي شهدت عمليات الشنق، أضاف، سوف تغدو مدماة. عدالة الخلاسي الصغيرة سوف تسلمنا للرجل الأبيض، السجن والسوط في انتظارنا، لكن صدورنا سوف تمكث في سكينة الثرى، حتى شروق نهار الثأر، الذي سوف تشهده عيون الموتى، وهي أكثر من النجوم، وبالمطرة سوف يكون شرب الماء. الخوف هو عظم الحلق الذي يتحول إلى ريق. أنا لا أحس به. فمي ناشف، وأنا أتحدث في سلام. أنت النعناع، وسوف تبكين من أجلنا ساعة القتال.

ـ كيف يمكن تجنبه، هذا القتال؟ لقد اجتمعت المجالس البلدية،

والسكان يتبادلون التحذير كل يوم. لو أنني كنت قادرة على فعل شيء...

ـ لا شيء سوى أن تعبقي برائحة زكية، مثل النعناع!

ـ شيبو!

ـ ولكن، إذا ما تزوجت البابا الأخضر، السندان الذي له ذراعا قرد، فلن تتمكني من ذلك، لن تعبقي بأريج النعناع...

ـ لن أتزوجه...

ـ وفستان الزفاف؟

ـ سوف أرتديه لأتزوج غيره...

ـ لا أحد يستطيع التزوج بالموتاغوا!

ـ أنا، سوف أتزوجه!

ـ عليك انتظار البدر، بدر الذرة...

ـ سأنتظر البدر...

ـ سوف أحملك في زورقي.

ـ بأية إشارة، ستومئ لي، يا شيبو شيبو؟

ـ بعقد صغير من اللآلئ، تسع لآلئ، اللآلئ التسع في شيبو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو ـ بو!...»(•).

في الثكنة التي تتوسط الهضبة والمقامة داخل مسكن قديم، استقر الرقيب مع أفراد دوريته الساهرين على ممتلكات الأرملة فلورا بَالمَا، مع الرجل الذي كان قد بدا لهم مشبوهاً بسبب وجهه الملطخ، والأصداف التي كانت على أذنيه، وذيل السلحفاة الذي كان يعتمره على هيئة قبعة.

(•) واضح إن هناك استخداماً للصوت والصورة. وتكرار حرف الـ «o» في اللغات الأجنبية، بشكله الدائري، يوضح الصورة أكثر.

«فليذهب لغسل وجهه وليزل كل هذه الأوساخ، حتى أتمكن من استجوابه!» قال النقيب المصاب بالملاريا حتى زوجي حذائه الواسعين جداً - إذ إن الملاريا تجعلك تصغر وتضعف حتى القدمين. كان ذاك قائد المفرزة.

وعندما عاد السجين، نظيف الوجه، وفي يده الأصداف وذيل السلحفاة، سأل:

«ما تهمته، أيها الرقيب؟

- إرتداء لباس متوحش.

- لا تتحامق، قال النقيب بصوت خافت. ماذا فعل؟ لماذا أمسكتم به؟

- بما أنه لم ينقضِ وقت طويل، اليوم، عن اختفاء ابنة دونيا فلورا، المدعوة مايارى بالما...».

«ولقد نسيت بأن تلك السيدة توسلت إلي إبلاغك بضرورة البحث عن ابنتها، إن لم تكن لديك أخبار عنها...

- لست أجد أية علاقة بين اختفاء تلك الفتاة وهذا الرجل... وأنت، هناك، ما الذي حملك على تلطيخ وجهك وإلصاق هذه الأصداف بأذنيك وهذه السلحِفاة على جمجمتك؟ أي جنون هذا!...

- بسبب القمر يا سيدي!... القمر سيكتمل بدراً هذه الليلة، وعندما تضاء السلحفاة والأصداف بهذا البدر، فإن ذلك من شأنه أن يسبب فحولة، فحولة وقدرة على الإخصاب...

- هكذا إذن! لو كان جميع العاجزين جنسياً يلطخون وجوههم ويلصقون هذه المهازل على آذانهم ورؤوسهم لدى اكتمال البدر، فإن ذلك من شأنه أن يوفر لك موضوعاً للتفكه، أيها الرقيب!...».

تقدمت دورية أخرى، تحت إمرة عريف، هي أيضاً، مع رجل آخر ساذج، يرتدي نفس الزي المضحك!

فما كان من النقيب، كما في المرة الأولى ـ وقد صار الآن للسابقة لاحقة ـ إلا أن أمره بغسل وجهه والتخلص من زينته غير المجدية.

إلا أن قضية العريف كانت أكثر تعقيداً. إذ تم إلقاء القبض على الرجل عندما كان، في ذلك الزي، يقوم بحرق البخور والـ «بم»(•) متحدثاً عن العرس الذي سيتم الاحتفال به هذه الليلة (عندما يبلغ البدر كبد السماء)، بين عذراء ونهر الموتاغوا.

رفع النقيب حاجبيه ليكشف العينين الزجاجيتين النائمتين تحت جفنين نصف مغمضين، وبرد الحمى القاسي الذي كان يتهيأ.

«أين أمسكتم به، وكيف أدركتم أنه كان يقول كل ذلك؟

ـ في بيت على ضفة النهر. أثناء بحثنا عن شيء نأكله، دلفنا إلى مزارع فلفل حتى بلغنا مسكن المزرعة. نظرنا من ثقب القفل وأصَخْنا السمع خلف الباب وهكذا... سيدي النقيب! هذا هو رجل البخور والدعاء. «نهبك إياها كي لا يكون هناك دم «مسفوك!» كان يقول... كما كان يقول أيضاً «صدورنا سوف تمكث في سكينة تحت المياه، تحت الشموس، تحت البذار، إلى أن يشرق نهار الثأر، وترى عيون الموتى بجلاء!»».

ـ وأنت، أيها العريف، تقول بأن ابنة دونيا فلورا اختفت بطريقة غامضة، هل هي الفتاة التي كانت ستتزوج من اليانكي؟

ـ نعم، سيدي النقيب...

ـ وأمها؟

ـ ذهبت مع الخطيب، إلى المرفأ، ظناً منها أن الصغيرة هربت إلى عرابيها.

ـ حسن! لقد أحسنتم صنعاً باعتقال هذين الشخصين، لأنه، إذا

(•) pom ـ نوع من المواد الصمغية يستعملها الهنود كبخور.

لم توجد الفتاة في المرفأ... اربطوهما منفردين واجعلوا كلاً منهما في واحدة من تلك الغرف التي حولناها إلى زنزانات، مع حارس لمراقبتهما، مع منعهما من التحدث إلى بعضهما. إذا كان السحرة هم الذين اختطفوا الفتاة...».

الحرارة الخانقة، الحرارة والحمى، والفم المر، ونوم المومياء الحية الكؤود. ونسيج عنكبوت له لون البول من فرط استعمال الـ «كينين»(*)، وكل مصاب بالملاريا يتحول إلى بعوضة ضخمة... لو أن كل الأوجاع تداوى بالأصداف وبالسلاحف... العجز أمام الحياة حيث الساحل يشدك. تمدد النقيب، الذي لم يعد سوى كومة من أوتار عضلات مرتخية، وحزمة من عظام أكثر مما هي من لحم، تمدد على أرجوحة نومه، بعينيه الزجاجيتين، وأسنانه الصفراء، أثارت رائحة الفاصوليا التي كانت تطبخ على النار شهيته. نهض قبل أن يتقيأ ما لم يكن يملك ثم ابتعد ويداه في جيبه. وعلى منحدر التلة كان البدر يطلع، مستديراً ضخماً، لا كوكباً بل سيداً للأرض وعاشقاً لها.

«مر قطار بضائع في الرابعة صباحاً... أعلن جو ماكر تومبسون لدونيا فلورا بعد أن تحدث مع رئيس المحطة، ولقد أخبروني بأنهم لم يشاهدوا ماياري. إنهم من أصدقائكم، ولا شك أنهم كانوا سيلاحظون ركوبها في قطار البضائع لو أنها فعلت ذلك. لم يمر أي قطار آخر.

ـ أنا أيضاً سألت، ولم يقدر أحد على إعطائي معلومات. ينبغي التأكد حالياً، من مرور قطار البضائع وإلا تورطنا. كيف يمكننا الوصول إلى المرفأ؟ إنما بسبب كل ذلك يتوجب علينا أن نكون هناك في أقرب وقت ممكن.

ـ من المؤكد أنه سوف يتوقف، ليس هناك خطر. ينبغي شد بعض مقطورات الثمار إليه.

(*) الكينين، مادة تستخرج من لحاء شجر الكينا وتستعمل دواء للحمى.

ـ وربما بعض ثماري أنا أيضاً؟

ـ لست أدري. ولكن سيكون ذلك أفضل، وهكذا تحصلين على أموالك لدى العودة، أليس كذلك؟

ـ ستكون صفقة كبيرة في الحقيقة... لكن المطلوب أن يبدأ الغرس الذي زرعناه في أراضي ماياري بإعطاء ثماره... ياللطفلة المسكينة! حمقاء صغيرة، ليست لها أية وسيلة للدفاع أمام الحياة! كم يحزنني ذلك...

ـ أعتقد العكس، سأروي لك ذلك. بعد أن صارحتها، بقيت يوماً بعد يوم... أطالبها بالإجابة...

ـ تصرفات عشاق...

ـ تصرفات عشاق، كما تقولين. ولكنها ظلت لا تجيبني، بل لم تشأ إجابتي، حتى اليوم الذي ذهبت أنت تبحثين عنها. في ذلك اليوم، أعطتني موعداً على الرصيف في الخامسة والنصف مساء. وفي الرصيف طلبت مني مرافقتها للتنزه في الجزر. وهنالك تمتعنا بالنسيم، ويدها في يدي، ولم أكف عن مساءلتها إن كانت موافقة، وإلا فإن عليها أن تجيبني بلا...

ـ أنا، بقيت ستة أشهر قبل قبول زوجي.

ـ وبعد أن دلفنا إلى إحدى الجزر الصغيرة، تركت يدي وتقدمت إلى الأمام. فكنت أتبعها... وأتبعها... ولكن قليلاً قليلاً انتبهت إلى خطورة اللعبة. وفي إحدى اللحظات فكرت أن أعود وأجلب مركباً لانتشالها من داخل البحر.

ـ ولمَ لم تنادها؟

ـ لأن ذلك بالضبط ما كانت تريده، أن أمسك بها...

ـ يا لسوء النية!

ـ أخذت أرض الجزيرة بالتلاشي، وهي تتوغل في الماء الشفاف، كما لو أن مثل تلك الأمور، مع الماء البالغ حد الركبتين...

لم أعد أتحمل... ناديتها بصرخات عالية... (كانت دونيا فلورا قد أمسكت بيديه، وأخذت تشد عليهما)... بصرخات عالية ناديتها... وذلك ما كانت تنتظره... توقفت كي تعود إلي، وعندما التجأت إلى صدري، قبلتني قبلة طويلة...

ـ نعم، حقاً، إنها لطريقة غريبة في...كانت تريد اختبارك... أنا جد مرتبكة... ماذا أصابني حتى أمسك بيديك؟... أنا جد عصبية!... وكل ذلك يؤكد افتراضي الذي حدثتك عنه في البيت: ارتدت فستان الزفاف كي تلقي بنفسها في النهر...

ـ أوه! كلا! هذا ما لست أصدقه...».

ولكي لا يشجيها أكثر ـ إذ كان يريد مراعاة جانبها ـ لم يرو لها بأن مايارى كانت تقول دوماً بأنها أسفت لعدم الإلقاء بنفسها إلى البحر في تلك المرة، ولكونها عادت عندما ناداها.

كان النخيل، المغمور بضوء القمر، يبدو وكأنه نوافير مياه خضراء، ساكنة، ولماعة...

«يا لها من ليلة، جعلتنا تلك السامة نقضيها!... بعد كل ما ذكرت لي بخصوص الجزيرة، لست أدري... لم أعد أدري لماذا الذهاب إلى المرفأ... القمر، الماء، فستان الزفاف، كل ذلك يتطابق...».

صفر القطار في البعيد. كانت المحطة ذات بناء مخطط مطلي بالقطران، وخطا سكة الحديد يمتدان منها كما لو كانا دموعها، وحراس المكبح كالدمى المتحركة فوق العربات وبأيديهم المصابيح المتحركة، التي تكاد تبدو منطفئة في ضوء القمر الرائع وهو يتوسط السماء، من أجل عملية ربط العربات.

دخلا برفقة رئيس المحطة. وكانت دونيا فلورا لا تكف عن التكرار:

«لست أدري لماذا أنا ذاهبة إلى الميناء!... لست أدري لماذا أنا ذاهبة إلى الميناء!...».

من اتصال البدر بالماء الشفاف، كانت ثمة موسيقى. وكان يسمع... كان يسمع ما يشبه نشيداً غامضاً، عميقاً، صاخباً مع الأمواج، هادئاً على الشطآن، يداعب الصخور، ويكشف الحجارة، فتبدو كأنها برمائيات وجلة، ونصف مغمورة بالتيار. ليس من السهل معرفة ما ينقص الماء كي يتكلم، غير أن لكلامه الذي من كريستال وزبد، ألسنة أطرافها ماسية تقول «وداعاً» لكل ما يظل على الضفاف: أشجار قديمة، ربطات خيوط مختلطة نباتات مائية، شمعدانات ذات شموع بيضاء من «إيزوتال»(*)، خضراء يرسمها الصبار في الهواء، وتقول: «هيا!» لكل ما يرافق انسياب عناصره المتحركة، من رمال ذهبية متحركة إلى قطع كاملة من الجبل... كانت ماياري، عاشقة الماء الأبدية، تدرك بأنها في هذه المرة، ستحقق حلمها الكبير، وفي هذه المرة لن يكون هنا صوت بشري يثنيها عن سفرها الطموح نحو الأعماق المائية. في تلك المرة، أنقذها «جو» من الامتداد البحري الشاسع، بمناداتها، فاحتمت بذراعيه لأنها كانت تظنه شفافاً. غير أن جو كان مجبولاً من خيطان صلبة، مع ظلمات تسجنه كما في قبر، عندما كانت تسمعه يتحدث بالأرقام.

أما هذه المرة، فإنها سوف تكون الزوجة الوفية لنهر. من المرجح إلا يدرك أحد معنى أن تكون زوجة نهر، نهر مثل الموتاغوا، الذي يسقي بدمه ثلثي التراب الوطني المقدس، والذي عَبَرَهُ، قديماً، جاء شعب «المايا» جدوده الذين كانوا ينتقلون على عبارات من مرجان وردي، ثم أعقبهم نساك طيبون، متعهدون وقراصنة، على مراكب من كل حجم، كان عبيد مقيدون يدفعونها بالمجاذيف أو بالعقافات، من السيول السريعة إلى حيث يفقد التيار، لدى المصب، اندفاعه ويتحول حلماً من زبد وفقاقيع بين التماسيح والأبدية...

(*) نسبة إلى الـ izote وهو نوع صغير من شجر النخيل، يشكل سعفه ذو الأشكال القريبة من شكل الخنجر، وأزهاره البيضاء، باقات تشبه الشمعدان. أما الإيزوتال izotal فهو مشتل من هذا النخيل.

مارياي تعرف أن الدموع مستديرة، كواكب هائلة تسيل وتسيل ثم تنتهي بأن تغرق أولئك الذين يحبون بلا تراجع، حتى النهاية. ولهذا السبب لم تكن خائفة من الموت في دمعة زوجها النهري الكبيرة. الموت في النهر أفضل من الموت غرقاً في دموعها... ولكن لماذا يدعى موتاً، ذلك المنتشر فوق الشهيدة التي تنام في سكينة وتطفو جانحة؟ ولماذا لا تتذكر بأنها، وهي تنحدر، نائمة، موشحة بالأبيض، متكورة في وشاحها كما في غلالة غيمة، ستدور على جبينها تسعة كواكب، تسعة، مثلما لآلئ مسبحة شيبو؟...

رأت، وهي جالسة في الكوخ حيث تختبئ رأت أكبر أقمار السنة، مرآة دائرية فيها يرى العشاق أنفسهم موتى. لا أحد شاركها في حوار الاحتضار. جسدها الذي من خشب برتقالي يتوسط مرآة السماء المقعرة التي كانت تمتص اغبرار الضياء القمري المرتجف كي تغربله لقاحاً رطباً ندياً، اللقاح الأكثر نعومة والأشد زرقة. ربطة ضفيرتها السوداء التي قرصتها أصداف اللؤلؤ، تشبه زهر البرتقال. جزيرة! جزيرة في فستان عروس. تحملها قدماها، في حذاء «ساتان» صغير. القمر يسير، هي تسير، النهر يسير. جزيرة في فستان عروس ومن كل جانب يحيط بها القمر. أقبلت الزوارق لملاقاتها. فنجان شوكولاته. تشربه ذهباً أحمر له رغوة، لم يكن حول أصابعها، ولكنه في حلم أصابعها.

«كم تبعد «بارباسكو»؟

ـ من الذي يسأل عن ذلك؟

ـ أنا...

ـ من الأفضل، النزول حتى المصب، الليلة جميلة جداً».

(سمعت: «العروس جميلة جداً»... والحال أنه لم يكن ثمة فرق: كانت الليلة عروساً جميلة للنهر الأثيري، نصف الشفاف والسائر في نومه). كان النسيم بين أسنانها ينتزع من فمها طعم الشوكولاته

الذهبية، الآن وهي تنحدر مع اندفاع التيار العنيف، متكومة حول نفسها، ضامة فخذيها، معانقة نفسها بيديها حتى السكون، فالركود، ثم التمدد...

كانت مراكب مزدانة بالياسمين فوق أقواس من زهور «الخالدة» ملأى بالأطفال وبالحمام، تحييها أثناء مرورها على الماء الذي كان يبدو من عسل تحت ضوء القمر، القمر الذي كان يتلوى في أشكال لولبية كي يعرض لمعان مختلف انعكاساته. ولكن، كلا، لم تأزف اللحظة بعد، فليس لقدمها أن تلامس السائل العذب المتحرك كي يحملها فوقه، كما يحمل شيئاً يملكه... سوف تركب زورق شيبو حتى الموضع الذي عليها أن تبلغه، بفستانها الأبيض، تحت ظلال زرقاء، بين أجنحة النهر الكبيرة التي من غبار فضي، وزقزقة عصافير الروافد، والصخور الناتئة على الضفتين تحت الندى. حقول الفلفل. كان الذهاب إلى حقول الفلفل مع شيبو شيبو لجمع التواقيع، وللتحدث مع القوم، ومقابلة أحد عباد الطبيعة لتسأله، بالصلوات وبالتوسلات، أن تشهد هذه الأراضي، أفضل الأراضي في العالم لزراعة موز «الغينيو» طينها النباتي يجف حتى يصير مثل لب خبز قديم. آخر الدواء الكي.

كانت تستنشق بملء رئتيها كل حياة النهر المذهب المطاط المتمغط مثل السنوريات في جبل السعف، سعف العاج النباتي. قلق خفيف منعها من الكلام. كانت تتهيأ لتسأل شيبو إن كانت هذه النزهة هي فعلاً عرسها والنهر. كانت تمسك في يدها بمسبحة اللآلئ، فوق نهديها اللذين كانا يوهمان بأنهما نهدان...

«لك لون الغصن الذي يهب الظل، قالت لربان الزورق الذي كانت يداه لفرط طولهما، تبدوان امتداداً للمجذافين اللذين كان يدفع بهما الزورق. وصوتك يحدث ضجة صامتة. دعني أفسح المجال للقطرة الصغيرة! ولن يسمع سواها، أتدري، قطرة صغيرة تسقط في الماء، تقول بق... ثم ينتهي كل شيء».

كان شيبو يجذف، لاهثاً وينضح عرقاً، دون أن يفهم ما كانت تقوله:

«... ألا... لا يحاولن صوت الرجل فيك أن يمنعني، مثلما صوت «جو»، في الجزيرة!... فظيع!... ليس لك الحق... لك رائحة الرجل الذي يعترض على زواجي من النهر... أنت شئت ذلك... وبه أمرت... بدأت ساقاي العاشقتان ترتجفان لما سيصيبني ممن سيأخذني... أذهب فيه... أذهب عليه... كما شيء إليه ينتسب، وليس ثمة ما يفصلني عنه سوى قشرة زورق، قوقعة من خشب... ما من أحد، ولا حتى أنت، بكل ما أوتيت من علم، سيعرف أين وثبت قدمي، أو يعلم في أي نقطة، في أية موجة متحركة غطست فردة حذائي لألتحق بها في الحال، بكاملي».

كان شيبو، وهو يلهث وينضح عرقاً، يواصل التجذيف. وأخذت الطيور البحرية تلوح من جديد، وقد خدعها ضوء القمر. الأمواج ذات الظهور الزبدية الضخمة تمر بهدوء... كل موجة منها كانت فراشاً. الجذاف والعروس تاها، امحيا وتلاشيا، هناك حيث وثبت ماياري. لا أحد سمع شيئاً. لا أحد رأى. لا أحد درى. صراع شيبو من أجل إنقاذها. طبقة من فقاقيع... وكان ذلك كل شيء.

5

كانت رؤوس الجنود المضخمة، المتحركة على جدار صحن الدار، تتابع حركة الجسدين المشنوقين. وكان القمر، عندما تحرك الريح الجسدين، ينعكس عليهما مواربا تأرجحهما وكأنهما ساعتا حائط بشريتان، فينيرهما بضوئه الفضي السائل، وتتكرر حركات الذهاب والإياب بتأرجح رؤوس الجنود، ظلالاً ضخمة على جدار صحن الدار.

جاء النقيب عارياً ـ لم يسعفه الوقت إلا بانتعال حذائه، حتى لا

تؤذي قدماه، ولقد انتعله كما اتفق ـ كان عارياً تماماً إذن، ويده على عضوه كي يتغطى، ـ جاء ليرى ماذا كان يحدث، بعد سماعه صراخ الحارس، الذي، بعد أن قضى ليلته بلا نوم، خيل إليه انه إنما كان يستيقظ على حقيقة أخرى، وذلك عندما رأى، في مستوى السقف، جسدي السجينين، معلقين في عارضات السقف.

مكث القائد عارياً، وهو يبصق على الأرض، ما بين الجنود الذين هرعوا بدورهم، بكامل أسلحتهم، بسبب صراخ الحارس.

بصقة نقيب! بصقة بين نفايات مجرد جنود مشاة!... أعاد تغطية أعضائه بيده وعاد إلى غرفته، رافعاً قدميه إلى أعلى بطريقة تجعل حذاءه يرن لدى وقوعه على البلاط. ظل الحارس ينظر إلى الجنود دون أن يفهم. والجنود ينظرون إلى الحارس. الصمت. القمر. القمر. الصمت. جسدا المشنوقين متألقان تارة، سوداوان طوراً، في الظل. لقد تم شنقهما بحزاميهما. حزام الأول كان مخرماً، وحزام الثاني، أخضر. برد بئر، برد حجارة بئر في صحن الدار. ووثبات جرذان، تهرب نحو الأجمات. القمر على السطوح.

في الجناح الخاص بالنقيب، كانت توجد طبقة من أغشية ضوئية حول سراج. ثلاث دوائر من الظل وفي الوسط، خلف الطاولة، من الخاصرة إلى الرأس، هو، يده، يكتب رسالة. ينادي العريف. ينبغي الذهاب فوراً إلى «بانانيرا». ليست قريبة من هنا. لو أنها كانت هناك، في المنعطف، أمر جيد! «أيقظ مسؤول التلغراف واطلب منه أن يرسل هذه البرقية مع التنويه بضرورة السرعة».

«لسوء الحظ أنه لا يوجد قاضٍ، هنا!» قال بصوت عال. فأجابه العريف الذي سمعه بأن أي عمدة يستطيع تحرير شهادة وفاة، قانونية. فأحس كأن جواب العريف هو نفس الجواب الذي كان يمكن أن يجيب به نفسه. إلا أن المجيب كان العريف. ولقد أجاب بلا تعقيد. جيد. صحيح. فليذهب العريف إلى أقرب دار عمدة ويأت بالعمدة لتحرير الشهادة. امتثل العريف للأمر.

لا يمكن بلوغ «تودوس لوس سانتوس» من دون اجتياز النهر.

كان الضياء قوياً بحيث أن النهر كان يبدو مشتعلاً وهو يخترق الغابات والصخور والسهول. إنه نار متحركة، نار تسير، نار تتوجه نحو المحيط. لكن العمدة ليس هناك. ليس هناك ثم كلا ليس هناك. خاطب العريف امرأة حبلى. حبلى لعدة شهور. معصوبة الرأس، نظيفة الفستان، غير أنها بائسة صغيرة!...

«أين ذهب العمدة؟ سأل.

ـ ذهب إلى العاصمة، من أجل قضية مصادرة أراضينا.

ـ ليست هناك مصادرة، يا سيدتي، وإنما اشتراء.

ـ نفس الشيء، بما أننا لن نبيعها. إذا اشتريت منك الشيء الذي لا تريد بيعه لي، فأنا انتزعه منك، بدلاً من اشترائه. هكذا هو الحال... وهكذا أيضاً ترى ابنة دونيا فلورا بولانكو، الأرملة بالما.

ـ هيا، يا سيدتي، من الأفضل أن تأتي معي.

ـ أنا، لا!

ـ كيف، لا؟ هل أنت الآمرة!...

ـ أنا زوجة الحاكم!

ـ طز! تعالي رغم ذلك. وليكن ذلك طواعية وإلا أخذتك بالقوة. سوف تروين للنقيب هنالك، كل ما تعلمينه عن ابنة دونيا فلورا... إذا تكلمت، إذا صرخت، سيكون ذلك أسوأ لك، لأنني عندئذ سوف أخطفك، أسحبك من شعرك... اخرجي... بلا متاعب! نزهة صغيرة لصالحك... لم يكن يخطر ببالك التنزه هكذا... إيه إذن، تلك هي الحياة... سيكون ذلك مفيداً لحالتك، وهنالك سوف أخبر النقيب بما كانت تقوله الفتاة: لا ينبغي التهاون في تسليم الأراضي، ولا في بيعها...

ـ كفى، إذ كان ينبغي الذهاب بسبب ذلك فقط... ولكن هذه همجية!...».

النهار يوشك على الطلوع. وكان القمر مثل عجلة كبيرة مهشمة

وممزقة، قد بدأ يولج في الظلمة دون قدرة على الدوران، كان مبعداً عن المحور، جانحاً، محاولاً القيام بدورة أخرى. ومن الجانب المقابل كانت التلة لبنية اللون تتدفأ مغمورة بنور الشمس.

أخبر العريف النقيب بما قالته زوجة العمدة، فما كان من النقيب، الجالس ـ ولم يكن بالإمكان ملاحظة أنه كان عارياً خلف الطاولة، عارياً ما عدا سترته التي وضعها على كتفيه ـ إلا أن أمر بإدخال المرأة.

«اسمك؟

ـ داميانا، أنا...

ـ «أنا» لقبك العائلي؟

ـ كلا. أنا داميانا مندوزا.

ـ متزوجة؟

ـ من العجيب، مع هذا الثقل الذي أحمله، ألا أكون متزوجة.

ـ أبلغني العريف بأنك رأيت الصغيرة ماياري، ابنة دونيا فلورا.

ـ نعم، منذ عشرة أيام تقريباً.

ـ أين رأيتها.

ـ عندي. جاءت إلى القرية كي توضح للذين يملكون أراضي، للرجال، بأن الثمن الذهبي والنهائي الذي يقدم مقابلها، ليس قانونياً. «إذا بعتموها، قالت، أضعتم كل «حقوقـ»ـكم. وبالإضافة إلى ذلك نصحت زوجي، الذي هو السيد عمدة الناحية، بالذهاب إلى العاصمة طلباً للحماية، لأنه ليس صحيحاً ما يريد القيام به ذلك الرجل، والأم دونيا فلورا والآمر، الضالعون معهم على مايقال...

ـ جيد، يا سيدتي، متى يعود زوجك؟

ـ من يدري؟ لم يخبر بذلك.

ـ إذن ستظلين معنا، قيد التوقيف.

ـ وأبنائي الآخرون؟

وبعد أن مرت بيدها على بطنها أضافت:

- هل تعتقد أن الله أرسل لي بهذا فقط؟

- إذن إليك ما سنفعله. سيرافقك عسكري وتكونين مسجونة في بيتك.

- أنا أسكن في العمدية.

- إذن سوف تكون العمدية سجنك.

- إذا قررتم هكذا، أنتم السلطة، فينبغي الامتثال. من هو العسكري الذي عليه أن يأخذني.

- الرقيب هو الذي سأكلفه بذلك.

- إنه قاس أيها النقيب.

- كما تودين. وأنت، أيها الرقيب، إذا ذهبت إلى قرية أخرى، احرص على عدم انطلاق كل عمدة ليعمل بنصيحة تلك الآنسة التي اختفت.

- لا بد أنها سافرت إلى العاصمة للتحريض ضد اليانكي. بمعنى من المعاني يسرني ذلك. لأن ذلك الحيوان يزعجني كثيراً. إنه يظن نفسه ملكاً.

- الحقيقة هي كونها خطيبته وتخونه.

- تلك متعة المرأة الوحيدة، سيدي النقيب...».

كانت القرية في المنطقة التي وصل إليها الرقيب في نفس اليوم تبدو بالأحرى ناراً من جمر... كان الصباح محرقاً وفي تلك البؤرة ذات البيوت الثلاثة المبنية من اللِّبن بالإضافة إلى بعض المزارع، كانت درجة الحرارة خانقة أكثر. أخذت الكلاب تنبح بالآلاف. وتتزاحم مثل الذباب ما بين أراضي الخيزران المسورة بالحجارة، أو بالأجمات وفي الأماكن التي كانت توجد فيها البيوت. لكن في «بوينفانتورا» كان العمدة غائباً.

«أين ذهب؟» كرر الصبي السؤال الذي توجه به الرقيب في الساحة لمعرفة مكان العمدة. كانت الساحة عبارة عن أرض موحلة، تحيط بها الأشجار.

«أين ذهب العمدة؟... إيه إذن، لا ندري أين».

لم تكن ترى سوى عين واحدة للصبي، كان شعره ينسدل على الأخرى فيغطيها.

«وإلى أي مكان هرع هكذا، هل تدري؟

ـ كلا، لست أدري، لسنا ندري، إذن. هو غائب منذ يومين.

ـ ولم يقل إلى أين كان يتوجه؟

ـ لم يقل شيئاً. ورحل...».

انطلق الرقيب يسأل في المزارع عن العمدة. كانت بيوت اللبن الثلاثة مقفرة. ولم يكن في صحونها سوى الدجاج والخنازير. وهنا وهناك رؤوس من الماشية في فيء الأروقة. ثم الشمس، الشمس الملتهبة مثل مشواة. وما من ضجة، ما من هبة ريح.

لا أحد كان يعلم أين يوجد العمدة. فقفل راجعاً. وفي الطريق، عندما يكون المرء وحيداً، يروق له التدخين. أشعل سيجاراً هدية من «المستر» الذي له علاقة بدونيا فلورا، إذ «فيما يتعلق بعلاقتهما، فإن ذلك مؤكد، يقيناً، بما أنهما كانا مضطجعين في الغابة عندما نفذ هو إليهما، مع سجينه المقيد».

وفي كل مرة يبعد فيها السيجار عن فمه، كان يفرك أصابعه على قميصه لتجفيف العرق، لأن كمية كبيرة من اللعاب كانت تبلل السيجار وحبات عرق متواصلة كانت تقطر من جبينه...

كان يحدث نفسه سائراً وهو يدخن:

«لكن الأم أفضل لليانكي، أكثر نضجاً، أكثر إثارة للـ... مزاج... والدليل على ذلك، أن الصغيرة لم تعد تذهب برفقتهما لتقديم المال

للفلاحين مقابل أراضيهم، لأنها كانت تظل نائمة، لأنها كانت تمكث لتدقيق الحسابات، لأنهم في البيت يشعلون الفرن لإعداد الحلوى، لأنه ينبغي مراسلة عرابيها، كل ذلك ليس سوى تعلّات من العجوز الأم كي تتركها في البيت وتخرج هي، لاشتراء الأراضي مع اليانكي وذلك من أجل خير الجميع ومن أجل تقدم البلاد. ولكن المصيبة أن الصغيرة أدركت ذلك وانطلقت تعمل في الاتجاه المعاكس. لم يكن بمقدورها أن تقول لأمها: «ابتعدي عن اليانكي، إنه لي» فذهبت تنصح الفلاحين بعدم البيع، هذا على الأقل ما أقرته المرأة الحامل التي ألقي عليها القبض في «تودوس لوس سانتوس»...

«هاهو ذا النقيب مع الطبيب الآن، وأنا أعود... ولماذا؟ لماذا؟... لتصديق سبب الوفاة، كما لو أن ذلك لم يكن يفقأ العيون بوضوحه... يا للساحرين البائسين! وقد كانا بالأمس في منتهى الظروف بوجهيهما المسودين وأصدافهما وذبلئ السلحفاة، وها ثمة الآن ما يشبه سعفتي موز تتدليان من حلقيهما!...».

وعندما اجتاز الرقيب عتبة البيت المحول إلى ثكنة، بعد أن بصق عقب السيجار ذي التبغ الحاد مثل الفليفلة، ـ السيجار يلهب الفم أكثر كلما كان أطيب ـ ، ليخطر النقيب بأنه لم يجد عمدة «بوينافانتورا». كان العسكري المذكور يخرج من مكتبه مع الطبيب للشروع في إنزال الضحيتين. فتم قطع الحزامين بساطور لمعاينة الجثتين. كان لأحدهما ميداليات سيدنا «دي أسكيبولاس» في طرف شريط على صدره، في حين لم يكن للثاني أي شيء، ولو خصلة من شعر. لا شيء سوى صدره العاري، وقلبه المتوقف. أقر الطبيب سبب الوفاة دون أن يعمد إلى فحص أي شيء. كان سرب من الزوبيلوت(*) يحوم فوق السطوح. وتم انتظار الأوامر من آمر المرفأ لدفن الجثتين. وعندما ألقي بهما في حفرة كبيرة حفرت في أحد الحقول، كانتا تنشران رائحة كريهة، ثم أهيل عليهما التراب، وفوق التراب

(*) من البغاث الأسود الذي يقتات من الجيف.

كانت السماء... السماء فحسب... ولم يكن أحد ليهيلها... السماء، إنما الله هو الذي، ليل نهار، يهيلها.

* * *

لم يكن عرابوها آل زيتونو قد شاهدوها أو سمعوا عنها، وقد وجدتهم دونيا فلورا مع اليانكي مستيقظين. وعلى الساحل إذا لم يبكر المرء للتمتع بالبرودة فكأنه لم يفعل شيئاً.

«قليل من الأكل، يا عرابة، قهوة مع قطعة من الخبز... من المضر البقاء طويلاً والمعدة خالية...

- أن يقضي المرء ليلته هكذا... هل تدرين أيتها العرابة الطيبة ما معنى السهر على مدى سير القطار، مع معرفة أن في إحدى نقاط هذا المدى كانت ابنتي ترقد، في فستان عرس أبيض، وهي تطفو فوق مياه النهر؟».

وكان «دون كوسم آل زيتونو» يحاول مواساتها

«ليس ذلك ممكناً، يا صغيرتي العرابة. لقد تحدثت مئات المرات مع ماياري... ولم أسمعها قط تتحدث عن الانتحار... تلك أوهام من بنات أفكارك...

- لست أدري، لست أدري كيف أني لا أزال قادرة على العيش... لقد أحسست أنا الأخرى، في بعض الأحيان، برغبة في الإلقاء بنفسي من القطار لكي أموت... فظيع! فظيع! فظيع!. كان القطار ينهب الأرض نهباً، نهباً، نهباً... وكان لامتداد الأرض تحت ضوء القمر لون ابنتي الميتة في النهر...

- تناولي شيئاً ما، يا عرابة! قهوة مع الخبز! كانت دونا باولا دي الزيتونو تلحّ وهي تقرب فنجانها وسلة خبز.

- لم تفكر ماياري مطلقاً في الانتحار!... لقد انتحر أبوها.

- ولكن الانتحار لا يورث، يا عرابة، الانتحار لا يورث. من المعروف أن...

ـ إذن، هوذا «جو»: فليرو لك، ليرو لك، يا عراب، ماذا فعلت عندما رضيت به خطيباً لها، المجنونة! لقد أخذته إلى إحدى الجزر حتى بلغت به حد الرأس، لكي يناديها... ولقد ناداها عندما شاهد الماء يبلغ ركبتيها... لو أنه لم ينادها... لغرقت...

ـ هذا شيء آخر، يا دونيا فلورا، قال ماكر تومبسون، كان ذلك امتحان حب.

ـ نعم امتحان حب بدأ ثم أنهته هذه الليلة في فستان زفاف، داخل النهر... لوجه الله، تعالوا نذهب لرؤية الأمر... علنا نفعل شيئاً... القلب لا يخذل».

توجب انتظار آمر المرفأ. إذ كان من عادته، بعد وجبة الصباح، أن يذهب للسباحة بعيداً عن الميناء. وكانت تسمع أحياناً طلقات رصاص. إنه هو الذي كان يصطاد طيور مالك الحزين. من شأن المرء أن يدرب يديه باستعمال المسدس، أو حتى بمجرد مسكه باليد، أليس كذلك؟

وجود أم عدم؟... كانت آلاف النقط السوداء تبقع السماء. طيور تسرع نحو الجنوب راسمة أشكالاً نزقة، دروساً هندسية في الفضاء، بعض الصيادين الغادين، أو العائدين، ولم يكن من الممكن معرفة إن كانوا بصدد الغدو أم بصدد الرواح تحت تدفق الشمس واللازورد...

«من حسن الحظ أن الباخرة لم تصل بعد، وقد وصلت ثماري» قالت دونيا فلورا وهي تخرج من عند آل زيتونو، قاصدة آمر المرفأ.

* * *

«وأنت يا كوسم، وأنت... هل تعتقد أن ابنتنا بالمعمودية قد انتحرت، أو أن هؤلاء القوم ألحقوا بها ضرراً؟

ـ لا استطيع الجزم بشيء وأنا في حالة شك. أما فرضية الانتحار فإني استبعدها، لأن ماياري، كما قلت ذلك لعرابتك، صبية

عاقلة جداً، نكية، أكثر من الذكاء هي تزخر بالمشاعر الطيبة. إن الأمهات اللواتي من طراز دونيا فلورا لا يعرفن أشياء تذكر مما يدور في قلوب أبنائهنّ، لأنهن ينكببن على أعمالهن، وهن يهملن العمل الوحيد الذي يستحق العناء: خلاص الروح وتربية أطفالهن، إذ ربما في شخص هؤلاء الأخيرين يكمن خلاص أو عقوبة أرواح الذين أعطوهم الحياة. الطفل السيئ، هو الجحيم. والطفل الطيب، هو السماء.

ـ هل ستدعني أتكلم، أنا؟

ـ إيه، تكلمي، يا بوليت، تكلمي! ولكن ليس من بين أسنانك. تكلمي بصوت عال، حتى أسمع...

ـ حسب ما تناقلته ألسنة السوء، ولكني لا أصدق ما تقوله في شيء، كانت ابنتي بالمعمودية تتألم كثيراً من رؤية أمها مع ذلك «المستر» الذي باشر بانتزاع أراضي القوم هناك، ناحية «بانانيرا»، وفي هذه الحال، يمكن أن تكون، في لحظة يأس، قد قامت بدور من يرفض أن يستخدم لذلك الغرض...

ـ النساء دائماً يعرفن في هذا المجال أكثر من الآخرين، لأن لهن ما أنت تعرفينه على شكل أُذن...

ـ لا تتلفظ بالكلام البذيء!

ـ على شكل أُذن يحيط بها الشعر...

ـ سوف أضربك، كفى...

ـ إذن كنت محقاً في إبعاد فكرة انتحار ماياري من رأس عرابتك، إذ حتى إذا كانت تتألم فإن ألمها متأت من حمى الآخرين، في حين أن المهددين بفقدان أراضيهم يتألمون فعلاً بجلدهم وعظمهم من خشية أن يروا أنفسهم غداً مجردين من أراضيهم، وبسبب ذلك انتقموا، وأخذوا بثأرهم من أحب الناس لدى دونيا فلورا والسيد «جو». من البديهي أنها لم تكن لتنتحر لمجرد شعور

بالضيق، في حين أن الآخرين... هل تعلمين بماذا يدعي ذلك اليانكي؟... البابا الأخضر...

ـ آه! وقانا الله! ذلك يشبه القول: بـ «المسيح الدجال».

كان نسيج عنكبوت أخضر ممدود على شرفة المكتب يخفف النور. وآمر المرفأ ينتظر، وفي يده أوراق لعب، الزيارات التي سبق الإعلان عنها منذ أول الصباح. هكذا كان يفضل مقابلة زائريه.

رجلان مشنوقان، فتاة مفقودة، العمد سافروا إلى العاصمة، صغار الملاكين يرفضون بيع أراضيهم مهما كان الثمن. نهار ذو تباشير جيدة!...

تمخط محدثاً ضجة، كما لو كان الأمر يتعلق بدق النفير لتفقد جنده، عندما سمع دونيا فلورا وصهرها المرتقب، وهما يقبلان. وهذه الطريقة في التمخط، إنما القصد منها، عسكرياً، تنبيه أولئك الذين سيحضرون، حتى يتنبهوا بأنهم اقتربوا، بعد مرورهم بحماة الحمى (الجنود) من عرش المولى.

ومن دون تحية، اندفعت دونيا فلورا:

«هل وصلتك بعض أخبارها، أيها الآمر؟

وقبل أن يتمكن العسكري من إجابتها، كدست كلمات وجملاً وانتحاباً تتهم فيها ملاكي الأراضي الذين يتم إكراههم على بيعها أو تجريدهم منها، بأنهم تسببوا في اختفاء ابنتها، من أجل هتك عرضها... «آه! صغيرتي! صغيرتي المسكينة!» كانت تنتحب.

كان ماكر تومبسون قد اكتفى بتقريب كرسي، كرسي صغير من حديد من شأنه أن يتحمل كل أحزان الأم التي كانت، أحياناً، تفقد السيطرة على نفسها، وهي المعتادة على التزام الوقار عادة، مع غطرسة الألم التي كانت مزيجاً من غضب وتعطش إلى الانتقام.

ـ فيما يتعلق بذلك، يا سيدتي، فيما يتعلق بما تفترضينه من

احتمال تعرض ابنتك لسوء من قبل أولئك الفلاحين، لا ينبغي أن ينتابك أي شك. أنا هنا لأثبت لك ذلك.

ـ جيد! تمتمت قائلة. أنت تخلصني من حمل... ولكن ما عسى أن يكون قد أصابها، حتى تختفي هكذا، دون تحذير؟ لم تقل: «أنا راحلة» أو «أنا ذاهبة إلى مكان كذا». هل تعتقد أن بإمكان المرء الهروب، هكذا، من دون أي كلمة؟ الرجل المهتم بالدواجن هو آخر من رآها، كان يمرّ حاملاً الحليب الذي تم احتلابه لساعته من أجل المطبخ، وكانت في الرواق.

ـ الحقيقة أن ابنتك، يا سيدتي، كانت تحشر نفسها في الأشياء التي لم يكن عليها أن...

ـ هذا افتراء، أيها الآمر، افتراء. هوذا السيّد. ماكر تومبسون الذي بإمكانه أن يجيب عنها، بما أنه خطيبها وزوجها المرتقب.

ـ لا تغضبي. لا يتعلق الأمر بذلك...».

رفع ماكر تومبسون عينيه ـ عينيه الكستنائيتين، الباردتين لينظر إلى الآمر الذي قدم له، بحركة لبقة، سيجارة، قائلاً، وهو يهجّي بتصنّع صيغة التصغير:

«ماياري، الـ«بنيّة المسكينة!...» (وفسح المجال لـ «جو» حتى يقبل السيجارة). ماياري، لم يكن لها أي شبه بحمامة بريئة. معذرة على التحدّث هكذا. كانت تتصرّف، إيه! تتصرّف مثل أية مدلّلة من أبيها.

ـ لست أفهم، قال ماكر تومبسون، وقد تملكتّه حيرة كبيرة، بل إنه خطا خطوة كي يقترب من الآمر ويتمكن من تتبّع حركات شفتيه اللتين كانت تتأرجح بينهما السيجارة المتفحمة.

ـ ماياري بالما، كما ستعلمون، كانت على رأس كلّ الذين يرفضون بيع أراضيهم. وهناك سيدة أوقفت ليلة أمس، وهي زوجة أحد العُمد، وتم سجنها في بيتها، لأنها حامل ولها أطفال آخرون

تعيلهم، روت بأن ابنتك، تلك الصغيرة اللطيفة، حرّضت العمد ومعهم أبرز المواطنين على الذهاب إلى العاصمة لطلب النجدة ضد ماكر تومبسون ولإعلام القوم الذين في طريقهم بأنني مأجور لكما...

ـ وهذه المرأة، هل هي موجودة؟ وما اسمها؟.

ـ كيف؟ هل هي موجودة!... ألم يسبق لي أن أخبرتك يا سيدتي، بأنها في السجن، أمّا اسمها فهو داميانا مندوزا!...

ـ آه! إن ذلك يلجم لساني!

ـ إنّ مایاري، سواء صدقتم أم لا، ورثت كلّ ذلك عن أبيها الذي كان فوضوياً في برشلونة وجاء إلى هنا هارباً، الله يعلم ممن.

ـ نعم، لقد كانت له تلك الأفكار، ولكن مایاري كانت جدّ صغيرة عندما انتحر.

ـ الأفكار السياسية تورث، يا دونيا فلورونا. يحملها المرء في دمه ولا شيء أخطر من هذا النوع من الإرث. وهكذا فإن الثوري يلد ثورياً آخر، والشرطي شرطياً آخر.

ـ ولكن عنها، عنها بالذات، ماذا يُعرف؟ تدخل ماكر تومبسون ونوع من الغمّ يشوب صوته.

ـ لا شيء محدّداً. بالنسبة لي، أعتبر أنها ذهبت إلى العاصمة مع العُمد والمواطنين البارزين. لقد أبرقت صباح اليوم للإعلام بذلك وللمطالبة بالبحث عنها وبتوقيفها باعتبارها محرّضة. من الآن وحتى الغد سوف تصلنا أخبارها، وسوف تدركان، السيدة فلورونا وأنت، بأنّ تلك التي تظنّانها اغتُصبت أو اغتالها الفلاحون، أو تطفو على الموتاغوا في فستان زفاف، تتجوّل في العاصمة منذرة القوم لكي لا نجرّدهم من أراضيهم التي كنّا نتأهب لاشترائها بأغلى الأسعار.

ـ جيد! إذن سيكون لي متسع من الوقت كي أذهب مع «جو» للاهتمام بثماري...

ـ هكذا إذن! السيدة تعقد الصفقات المربحة، وابنتها تتهمني، أنا، بأنني مأجور لكما، يا سيد ماكر تومبسون. كل ذلك لأنني أتحمّس لفكرة رؤية بلادي تتقدم وهذه المدن تتحسن، والسواحل تتحول إلى «أمبوريوم» ثروة وحضارة... بدأت أشعر بالإرهاق من الهنود! لا يكاد المرء يدخل الثكنة حتى يرى الهنود، لم يعد هناك تعامل سوى مع الهنود. لهذا السبب، لو كان لي ابن ـ ليس لي أبناء لأنني أصبت وأنا صغير ـ لفضلت أن أطلق عليه رصاصة من مسدس على أن أسمح له بالانضمام إلى الجيش... كي يقضي حياته مثلي في رؤية الهنود ومعاشرة الهنود وشم رائحة الهنود، هؤلاء... هؤلاء الإيزكامبريك»...(*)

نهضت دونيا فلورا عن الكرسي الذي كانت تجلس عليه، هيكلاً واهياً من حديد أصدأه ملح البارود، وخرجت برفقة الآمر في حين كان «جو» وراءهما على بعد خطوات، حتى مركز الحراسة.

«ولكن في هذا الصباح كانت هناك أخبار أخرى. آه! لقد بدأ النهار بداية حسنة!... شنق رجلان نفسيهما، في المقرّ الذي تقيم فيه الحامية التي تساعدكم في تهيئة الملكيات من أجل الغرس.

ـ وهل لذلك علاقة بماياري، أيها الآمر؟...

ـ لا، كما أعتقد. كانا ساحرين على ما يبدو. لقد قبض عليهما مع أصداف ودروع وسلاحف على الأذنين وفوق الرأس، وقالا بأنهما كانا ينتظران بلوغ القمر، الذي كان بدراً ليلة أمس، وسط السماء، وفي منتصف الليل شنقا نفسيهما بهدوء.

ـ حسناً، أيها الآمر. سنعود إلى هنا.

ـ سوف ترى ذلك، سيدي ماكر تومبسون.

ـ سنذهب إلى بيت العرّابين آل زيتونو. إذا جدّ شيء أخبرنا به.

(*) اسم تحقير يطلق على الهنود.

ـ طبعاً، يا سيدتي، طبعاً!... قلت بأن ثمارك وصلت؟

ـ نعم، الليلة، في قطار البضائع، الذي ركبناه. إنها ثمار جيدة جداً. غير أن ذلك السيد بخيل جداً ولا يريد أن يدفع لي أكثر من اثنين وستين «سانتافو» ونصفاً للعذْق الواحد.

ـ نعم، لكنها ثمار رائعة».

نفس السعر للجميع...

«الأعمال والصداقة شيئان منفصلان... Business, business».

كانت تلك آخر الكلمات التي نطق بها الرئيس وهو يصافحهما.

* * *

قبل أن يعود إلى مكتبه، ومن باب مركز الحراسة حيث يوجد مسلحون وحيث كان قد اقترب منه ضابط ليقول له: «هل من جديد، سيدي الآمر»، مكث طويلاً يتأمل البحر. كما لو كان يراه لأول مرّة، كما لو لم يكن موجوداً في سائر الأيام وفي أيما ساعة. صورة للمستحيل، رسماً للمستحيل، مرآة للمستحيل.

كانت الشمس حارقة كما لو أنّ لحاماً صبّ سبائك من الرصاص المذاب على المزارع ذات سطوح النخيل، وعلى النباتات القصيرة، المشوية، بلونها الرملي المخضّر، وعلى بنايات الميناء، وبيوت الخشب ذات الألوان الفاقعة، وعلى الرصيف، وسكة الحديد، والعربات حيث كان يمكث بعض المستخدمين الذين أسدلوا السلالم الصغيرة لبلوغ المقطورات.

ومن جانب الجون، حيث البحر والسماء بلون اللازورد، لاحت باخرة بيضاء. دخول متألق!. عمّا قليل سوف تسمع صفارتها. شمس حارقة فوق الماء. وعلى الأرض بدأت الأمطار بالهطول. من دون أي ضجة سوى وقع حبّاتها الغليظة، كان وابل المطر يُبحر، من الشاطئ نحو الخليج، كما لو كان ذلك لسدّ الطريق أمام السفينة ـ الشبح التي سرعان ما اختفت وراء ستائر المطر...

لم يسبق للساعات أن كانت أطول، كما في منتصف تلك الظهيرة. ارتياب في الدقائق، وفي الثواني. المطر ممعن في العناد. والحرارة أزعج ما تكون. أما دونيا فلورا فقد أبرقت إلى أخيها المهندس «توليو بولانكو» لتسأله إذا كانت ماياري عنده، إذ لم يعرف عنها شيء منذ رحيلها، من دون إذن، إلى العاصمة. أبرقت أيضاً إلى إحدى زميلاتها في الدراسة وكانت تقيم معها علاقة مراسلة، ولكن دون أن تذكر هذه المرّة بأن ماياري ذهبت إلى هنالك بدون إذن. إن من الأفضل عدم الانتهاء بتلويث سمعتها. يكفي أن الآمر كان يتلذذ بتلقيبها، بلهجة الهندي الخلاسي: محرّضة!...» أو أكثر من ذلك: «محرّضة فوضوية» وكلّ شيء... كلّ شيء... المهمّ ألا تكون ميتة!.

«كوسم» تؤلمه عينه، وسأذهب للبحث عن القطّ... لأمرّر، على الأقل، ذيل ذلك الحيوان على جفنه، حتى لا يتفل».

وبعد أن خرجت العرّابة، قال الشيخ:

«الآن نحن وحدنا، سأروي لك (ثم إنه خفض من صوته أكثر). أعتقد بأنها في العاصمة أو حواليها، لتعمل على عدم انتزاع أراضي الفلاحين، لأنه ـ وقد روت لي زوجتي ذلك ـ يقال بأن ماياري كانت جدّ غاضبة مما تقومان به أنت واليانكي، ولكن، عليك يا عرابة أن تدركي كنه الأشياء. نحن نفكر في الانتحار على أنه حل بالنسبة لها بسبب خيبتها من رؤية ما كان يحدث، بسبب خيبة أملها في رؤية أمها وخطيبها متكاتفين معاً ضد أولئك القوم البائسين، والحال أنه لم يخطر ببالنا هذا المنفذ الثاني، المناورة لإثارة الملاكين ضدكما أنتما الاثنين، بمساندة البلديات. ماذا ترين؟

ـ المهم أن تظل على قيد الحياة، يا دون كوسم، كلّ شيء يبدو حسناً».

ولقد استخدمت تعبير «دون كوسم» وهو تعبير فيه تحفظ لأن

مثل تلك الأحكام التي قيّم بها تصرفاتها لم تكن مطلقاً أحكام عرّاب طيب.

عادت «دونيا بابليتا» بالقط، وتهيأ الأستاذ المتقاعد لأن يمرر ذيل القط على جفنه.

استبداد علاج امرأة طيبة، يا عرابة!...

«باسم القديس «كارالامبيو»، إتفل! أخذت السيدة بابليتا تقول: باسم القديس كارالامبيو، إتفل ولاتتفل! إتفل ولا تتفل!».

شرع القط يموء. مياو! مياو! مياو!

«أيها القديس كارالامبيو! أيها القديس كارالامبيو!...».

* * *

أحضر «جو» كمية من اللحوم المثلجة لإكمال الطعام الذي كان عبارة عن حساء سمك بائس مع قطع من الخبز المحمص في الزيت وقليل من اللحم المسلوق من مطبخ آل زيتونو، وزجاجة من نبيذ بوردو الفرنسي، وزجاجة من الروم(*) الكوبي، وزجاجة ويسكي، وزجاجة كونياك، وزجاجة جن، وزجاجة شامبانيا... وخمارة متنقلة كادت تحدث كارثة. كان على وشك الوقوع على دون كوسم. «أيها الرب القدير!» قالت دونيا بابليتا التي شرعت بعد ذلك تردد «تسبيحة البتول»(**). في حين كانت دونيا فلورا تحاول الحؤول دون انهيار ذلك البرج من اللحم البشري، ومن اللحوم والخمور، الذي كان في نور الأعماق البحرية الضئيل المنبعث من السراج، ينوس من اليمين إلى اليسار، وعلى قمة البرج كانت عيناه الكستنائيتان قد صارتا زجاجيتين. والمصيبة أنه كان قد نسي لغته الإسبانية فأخذ يقول كل شيء بالإنكليزية، دون أن يفهمه أحد. وفيما يتعلق بـ دون كوسم، فإن كل ما كان يتذكره منذ أن كان

(*) عرق قصب السكر.

(**) «فلتعظم نفسي الرب...».

أستاذاً مدرساً، لدى التحضير لامتحانات اللغة الإنكليزية في المعهد الوطني، لم يتجاوز عبارات: «forget, forgot, forgotten» التي أخذ يرددها، الأمر الذي أدى بـ «جو» وهو يبكي مثل طفل، إلى تناول يدي دونيا فلورا لتقبيلهما، ومعانقتهما، وضغط رأسها بين يديه الضخمتين ثم ختم هذا المشهد بصرخات متقطعة وبإيماءات، وأخذ يهز برأسه ليردد: «كلا!... كلا!... كلا!...».

ـ ولكن ماذا قلت له؟... ألحت دونيا بابليتا على زوجها، ماذا قلت له حتى صار على تلك الحالة؟

ـ لست أدري، يا زوجتي...

ـ ماذا كيف قلت، إذن؟

ـ لقد تذكرت عبارات: «forget, forgot, forgotten».

وما أن استمع ماكر تومبسون مجدداً إلى «دون كوسم»، حتى سدد لنفسه لكمة على الوجه بجمع كفه، وكان من شأنه أن يردفها بلكمة أخرى أقوي لو لم تضع دونيا فلورا فوقه وسادة في الوقت المناسب. مكث هناك شاحباً، مرتعشاً وقبضة يده ترتجف «كلا! كلا! كلا!».

ـ اسكت يا عراب!، صرخت دونيا فلورا، وهي تمر بيدها على رأس جو الممتلئ عرقاً، مداعبة إياه، لتهدئته.

* * *

وكلما كانت شعلة السراج تخفت، كان جميع الحضور يستغرقون في ظلمة متزايدة. عض «جو» زاوية علبة سجاير كي يفتحها، ولقد فتحها بالفعل، ثم، ومن دون أن يستخدم يده الأخرى، تناول واحدة بأسنانه، وحافظ عليها بين شفتيه ثم قدم العلبة وبكل اهتمام، ومن دون أن يعود إلى الكلام، دنا «دون كوسم» ليشعل له السيجارة. دخن الجميع. ومن البعيد كانت تسمع الريح الشمالية وهي تعبث خارج الجون. إلا أن المطر كان أقوى من الريح. مطر ندي كان يكتسح الحرارة مؤقتاً.

ـ ويسكي؟ عرضت دونيا فلورا.

.Oh! Yes ـ

أمسكت دونيا بابليتا بمفتاح لولبي لنزع السدادة وشرب الجميع، حسب عبارة «دون كوسم» كما يشرب المسيحيون، ما عداه هو الذي شرب كما يشرب اليانكي.

وعبثاً أجهد دون كوسم نفسه، ذاكرته لم تسعفه بإضاءة معنى هذه الأصوات (forget, forgot, forgotten) التي تذكرها بسوء مصادفة. ولكن لا يمكن أن تكون شتيمة. لأنها من الأسئلة التي كانت تطرح في الامتحانات. وفي الأثناء كان اليانكي، بذرة المسيح الدجال ـ كم أن لقب البابا الأخضر يناسبه! ـ مندمجاً في غمغمة العربدة (الملاكمة هي عربدة الأنكلو ـ سكسونيين)، يشد على الكأس ثم يدعه بيد ضخمة كأنها يد عملاق، وهو يكرر في كل لحظة:

.«shut - up!.... shut - up!»

ثم ذهب دون أن يكترث لوابل المطر، ودون أن يغلق الباب، بعد أن ألقى على الأرض بكأس الويسكي، التي تهشمت قطعاً.

* * *

من الذي، في ذلك المساء، كان يحاول اقتلاع البحر؟ كانت الريح تأتي مفعمة بالماء، فتطبق عينيه، وكان عليه أن يخفض رأسه حتى لا يتمكن رذاذ الملح، الذي كان يصيبه في وجهه، من أن يعميه. ولم يكن بمفرده سائراً هكذا خبط عشواء متسائلاً عن الذي كان يقتلع البحر، المهتز حتى أعمق جذوره، بكل المساحة الدائرية لأغصانه، سدى كانت المنارات تمدد أعناقها المعتمة كي تزرع أنوارها المناوبة على الضفاف المخدوعة بالزبد...

كان كل شيء يترنح معه، حوله، ومن دونه، تاك! تاك! تاك!... وهو يمشي متمايلاً تاك!، تاك، تاك!.

ركل الرمل بقدمه، حتى آلمه كاحله مثلما حلقة محكوم بالأشغال الشاقة، يحاول الهروب ويرتجف من الاحتفاظ بقيده. ثم

إنه طفق يركض بلا هدف، رغم أنه في الواقع كان يدرك جيداً ذلك الهدف، ما بين الأصداء الجامحة للمد والجزر وظلمات الوحل، الخفيفة في شؤمها وهي تتصاعد من البحيرة الشاطئية. اهتز ملتوي الركبتين، في صراع مع عود من شجرة جوز هند كان يحول دون مروره، ولقد ارتمى عليه، ماسكاً بالثور من قرنيه، حتى لايباغت بذينك القرنين الأفرعين المتأرجحين بعنقودين من خصى... وبعد ذلك الصراع ضد جوز الهند الذي كان يلهث مثل الثيران الأصيلة، صراع آخر ضد خيول الزبد الجامحة الثائرة، التي امتطى بعضها، وبعضها الآخر مر راكضاً عليه... ثم عاد إلى سيره، مترنحاً تاك! تاك! تاك!.

من الذي حمله؟... أين كان يذهب، مع تلك الخيول التي كانت تعبر فوقه؟ يا لها من طريقة للركوب، هو، مسحوباً على الأرض، وهي، الخيول، واثبة، عابرة، على جسده!...

لم يعد إلى الشاطىء بالسباحة، ولا أتت به الموجة، وإنما في الريح، أتى نائماً في الريح، الريح التي سحقته على الضفاف الصخرية...

أخذ يتحسس طريقه، كما منذ زمن قريب، وكأنه يتعرف على الجزيرة الصغيرة مجدداً، ثم، وبصوت يشبه ضجة طبق بكؤوس مقلوبة، قال، مشيراً إلى البحر الهائج:

«لقد زلت قدمي على قشرة الموز هذه...!».

يستحيل الجزم إن كان يسلك الطريق الجيد، أم لا. لم يكن يرى أو يسمع إلى أين كانت تحمله قدماه. كان ذاهباً لمناداتها، هي! من عساه إذن سيثنيها عن مسيرتها العنيدة نحو المدى إن لم ينادها هو؟

«مـاياري ي ي! مـاياري ي ي!...».

كانت ماياري تسير أمامه، وهو يقتفي أثرها. وبحسب لهاثه،

قدر بأنه كان يتبعها بخطوات حثيثة، ركضاً تقريباً، إلا أنها كانت في كل مرة تبتعد أكثر... وعلى صدره العاري، على جسده الضخم، على جلده الذي أمسى كورق مبلل، كانت تنتصب غابات أمطار مائلة، ترابية المذاق، متموجة الزبد فوق كتل سائلة ضخمة مقتطعة من البحر وخارج البحر، لتصارعه.

«ماياري!... ماياري ي ي ي!... ماياري ي ي ي ي ي!».

أية كمية من الماء كانت تفرق ما بينهما! في الأعماق وفي السماء، ماء مزيد من الماء... ماياري ي!... ماياري ي ي ي!...

انعدم صوته الآن، ضائعاً في صندوق حنجرته المفتوح، كان يرفع رأسه ما بين شعره والماء، الماء الذي كان يسيل على وجهه، حتى يصرخ في وجه غليان الموجة الرائحة الغادية:

«ماياري! ارجعي، ماياري، ارجعي!... سوف أعود إلى البحر... وأكون ما كنت، صياد لؤلؤ... وأبيع هنود ساحل الذهب... أتاجر بخشب الآبنوس، بما هو نباتي وبما هو بشري،... تجارة سبائك الذهب وتجارة الشعر الذهبي للشقراوات المباعات في بنما!... عندئذ، وفي كل مرة يحاذي فيها مركبي الجزيرة الصغيرة، ستنادينني: يا قرصاني «الحبيب!»... ولكن عودي، عودي، عودي!... بعيدة جداً هي جزيرة «أوتيلا» ولا يمكن بلوغها سباحة. لم يعد «جو ماكر تومبسون» غارس موز. انتهى البابا الأخضر! ومن أجل الإبحار، فإن البحر أفضل من عرق البشر!...».

* * *

استيقظ، صباحاً، في السفينة التي كان قد جره إليها زنجيان، بطريقة عنيفة نوعاً ما. وفي الليل لم يكن من الممكن التأكد أنهما كانا أسودين. ولقد أشرفت دونيا فلورا على سير العملية.

الثامنة، التاسعة، العاشرة صباحاً، والاتصالات لا تزال مقطوعة بسبب سوء الحالة التي كانت عليها الخطوط. مكثت

دونيا فلورا في مكتب التلغراف. كلما كان المرء أقرب، كان ذلك أفضل. كانت تقوم لتفتح الباب قليلاً ولتتمكن من الرؤية في الخارج - لا شيء، نظراً لعدم وجود أي شيء يرى - لتعود ولتدخل من جديد وتنهار على المقعد ثم إنها تعود إلى الوقوف كما لو كان خشب المقعد يحرقها، وتشرع في تهجئة إحدى الروزنامات، وقراءة الأسعار...

* * *

«لا تقل إنني متشائمة، يا «كوسم»!... ولكنني أتمزق لفكرة أن تكون ابنتنا بالمعمودية قد فرت من البيت بطريقة فيها الكثير من الـ... من الاستفزاز!... ذلك الحب الذي يقال بأن الحماة تكنه لصهرها... وأنت، هل ذهب بك الظن إلى ذلك؟... آه! نعم، لقد كان ذلك ما فكرتَ به، عندما أردتَ أن تتذكر معنى تلك العبارة : for...أنا لم أعد أذكر، for... ألا يتعلق الأمر بكلمة «for niquer»(*) الواردة في العقيدة المسيحية؟

- كلا يا بابليتا، كانت أزمنة فعل «نسي»، بالإنكليزية، هي التي تذكرتها، في ذلك اليوم، لقد قضيت تلك الليلة المهيبة بكاملها، حتى تذكرت. لقد كان فعلاً من الأفعال الشاذة. لذلك كنت مضطرباً جداً عندما نطقت به.

- وكنت تطلب منه أن ينساها، هي إذن! كم أنك خبيث، على أية حال! ولكن بالنسبة لكم، أنتم الرجال، لا شيء شاذاً... ويمكن التأكد من ذلك في كل يوم. أرى أن الصغيرة هربت بسبب الغيرة. إذ أنها كانت تفضل ذلك الرجل لنفسها.

- بسبب طموحها، أنا متفق معك هنا. ثم إن شخصية القرصان...

- القرصان؟... أنت متواضع... تعني سمك القرش... وتلك

(*) زنى.

العجوز الخبيثة التي كانت ترغب في رؤية البواخر البيضاء البريئة ملأى بالموز حتى مداخنها. غير أن تلك البواخر البيضاء، إنما هي مثل القبور، يا عزيزي «كوسم». أما نحن، فإننا ننتظر أن تُرسل لنا قبور عائمة بنفس الحجم، كما لو أننا لم نكن مدفونين تماماً هنا...».

لم تدع نظرة عامل التلغراف، إثر رنين المكالمة، مجالاً للشك عند دونيا فلورا. إنها برقية من العاصمة. ضغط بإصبعه على زر المِبْراق، وانتظر. سألت فلورا، لمزيد من التأكد، إن كانت الخطوط في حالة جيدة. أجاب المستخدم، بهزة من رأسه، أن نعم. وواصل معالجة الجهاز بيده.

«وهي؟ استفسر دون كوسم.

- إنها هناك في مبنى البرق. إني أراها من هنا. نعم، بالتأكيد، لقد جمع بينهما الطموح، وبالطموح وحده تزاوجا.

- للنساء نظر أفضل من نظرنا، طبعاً، لأن لهن ذلك الشيء على شكل عين... العين في المثلث!...

- أنت! عليك أن تسكت وإلا أشبعتك ضرباً! أيها الخنزير العجوز، ليس لك اهتمام إلا بذلك!... من الأفضل أن تجيبني. إلى الآن لم تعطني رأيك في الموضوع: هل تعتقد مثلي بأن ابنتنا بالمعمودية هربت بسبب الغيرة؟

- كلا. لقد هربت متمردة ضد الظلم، وهي تسعى إلى تحريض القوم حتى لا تصادر أراضيهم».

مد مستخدم البرق رسالتين مفتوحتين لدونيا فلورا. كان كل من شقيقها توليو وصديقتها يجيبان بأن مایاري لم تأت. ولقد أضاف شقيقها: «متأثرون جداً. نستخبر عنها»...

ومن دون مواصلة الاهتمام بثمارها، أسرعت إلى الرصيف لتشاهد الماء. ببلادة. مشاهدة الماء... كانت المخازن ملأى. مئات

الأعذاق، آلاف الأعذاق. كان الحمالون المكلفون بالشحن والمنحنون مثل حروف «ñ»، مع تلدات(*) أعذاق الموز فوق أكتافهم، يبدون وكأنهم موكب من حروف الـ «ñ»، لـ «دون كوسم» الذي جاء يستخبر لدى دونيا فلورا عن مضمون البرقية:

«ما قالوه في العاصمة لم يقنعني البته، يا عرابي.

- وأنا كذلك!» أكد «دون كوسم» بعد قراءة البرقيتين، وقبل أن تدعه يواصل كلامه، سبرته دونيا فلورا بنظرها.

«تكلم! احك...

- أنا، برقية العاصمة لا تقنعني أيضاً، لأنني أعتقد أن ماياري ليست بعيدة وأنها تحرض القوم الخائفين على أراضيهم، ولا بد أن تشاهد هناك...

- فليسمعك الله، يا عراب، لأن كل ذلك ليس له معنى».

وبعد زفرة وصمت، واصلت:

«لماذا أخذت معها فستان زفافها؟ ذلك هو التساؤل الذي لست أجد له جواباً... لا يمكن أن تكون قد ارتدت ثياب العروس لكي تقوم بـ «التحريض» في القرى، كما يقول الآمر. لقد ارتدت فستان الزفاف لتنتحر، هذا كل ما في الأمر لترمي بنفسها في النهر. ولا يمكن لأحد أن يقنعني بعكس ذلك. قلبي يراها، في فستان الزفاف، طافية، مثل زهرة اوركيديا بيضاء... اعلم، يا عراب، أن القلب لا يخدع...

- لو كنت مثقفة أكثر، لقلت بأن صورة «أوفيليا»... تستبد بك.

- ابنتي يا «دون كوسم»... لماذا «أوفيليا»... محرضة في ثوب زفاف! هل تتصورها يا عراب؟

- وإذا كانت قد أخذت معها الفستان لتدل بأنها لم تعد راغبة في

(*) التلدة علامة توضع فوق حرف n في الإسبانية إشارة إلى أنه يلفظ ny كما في الاسم dona.

الزواج من عاشقها؟ يا عرابتي لنر الأمور كما هي فعلاً. ألا تعتقدين بأن الصغيرة أحست بالغيرة منك ومن اليانكي؟ في هذه الحالة، نعم يمكنك افتراض حصول الانتحار.

- هيا! يا عراب، لا تجعلني أتفوه بحماقة. لم تشعر بالغيرة منا قط.

- ومن أدراك.؟... لقد علمت بأنها كفت عن مرافقتكما في الخروج، وأنها كانت تمكث في البيت... والواقع أنك لا تزالين جذابة، سيدتي، جذابة جداً... وهذه التكويرات هي...

- حذار يا عراب! إنك ستغدو أحمق...

- سيكون ذلك بسببك أنت، يا عرابتي، إنك تفقدينني صوابي...

- كفى هراء!... أنت أقبح من خنزير! شيخ متهتك!... سأخبر العرابة بذلك، حتى تنهال عليك لطماً وتقضي على شهواتك...».

* * *

وفي هذه الأثناء، كان ماكر تومبسون ينزل من السفينة. حياها بصرخات عالية، مشيراً بيده إلى أن ثمارها تشحن الآن. مكث «دون كوسم» وحده، يتأمل الماء.

«ليست في العاصمة، قالت وهي تقترب من «جو» والبرقيتان في يدها.

- حسنا! لا شك أنها لم ترغب في أن يراها أخوها أو صديقتها. وهذا أمر طبيعي، بما أنه لم يكن في نيتها القيام بأعمال شريفة!... وربما من شأن الإجابة التي قد يكون تلقاها الآمر أن توضح الأمر. هيا بنا لنراه. سوف نسأله إن كانت قد وصلته بعض الأخبار.

- مستخدم البرق قال بأن لا.

- حسناً! إذن، هل تريدون الصعود إلى الباخرة؟

- نعم. ذلك العراب الأبله أزعجني كثيراً. إن ذلك الحيوان

الحقير يدعي بأن ماياري فرت بسبب الغيرة، بحجة وجود شيء ما بيننا نحن الاثنين.

- طبعاً، هذا رأي. ويمكن لكل شخص أن يقول ذلك، أو ما هو أسوأ أيضاً، ولكنه ليس حقيقة».

على جسر الباخرة، وبين مراوح الصالون الصغير، كانت الحرارة أخف وطأة. طلبا كوبين من عصير الليمون، مع قليل من الثلج. وشرعا يتحدثان، من دون كلام، مع دخان سيجارتيهما. كانت أفكارهما كما النسيم على العمود الفقري للجزر الصغيرة، التي كانت لا تكاد تلوح في البعيد. ومن بينها جميعاً،... أيها كانت... الحقيقية؟ هل كان بالإمكان معرفتها؟ هل هي تلك؟ أم تلك؟ إنما على إحداها تقدمت، ذات يوم. ماياري! ماياري! كان قد صرخ، منادياً إياها. ولذلك توقفت... في الأزرق في عين البحر الزرقاء، دموع من كريستال تراها من بعيد عينا دونيا فلورا المغرورقتان بالدموع.

«لا تبكي، سوف نحصل على أخبارها.

- الآن، أعرف أنك تحبها، إن ذلك يعزيني إلى درجة لا يمكنك تصورها... في تلك الليلة، لو لم نمنعك، لغصت في الماء كي تبحث عنها. قل لي، أنت! ما الذي كان يجرك؟ أريد أن أعرف، لأن الأرواح تضرب مواعيد فيما بينها، وربما كانت ابنتي المسكينة تناديك في العاصفة. الآن أتساءل لماذا لم ندعها تفعل، يبلغ بنا الغباء، نحن بني البشر، حدود الرغبة في تصحيح القدر، ولذلك ينقلب علينا كل شيء شر منقلب. كانت هي التي تناديك، وترغب في اختطافك. وأنت لم تشأ تركها هناك... لم تشأ تركها...

- الشيء الوحيد الذي أذكره، هو أنني كنت أناديها، واعدها بأن أعود إلى صيد اللؤلؤ كنت ثملاً تماماً!...

- وأي مأخذ كان لك على ذلك الشيخ الأصم، عرابي؟ كان ينطق بكلمة ما، وكنت ساخطاً.

ـ نسي! كان يقول: نسي. كان يكرر ذلك بدون توقف. نسي! نسي!

ـ يا له من داعر! بعد أن تصرف بفظاظة، مكث هناك دون أن يذكر حتى ماذا كان يقصد بتلك العبارات... هكذا إذن كان يطلب منك أن تنساها، هي! يا له من شيخ لئيم!».

أعقب ذلك صمت طويل، وسجائر أخرى، وفي حين كان «جو» يمد كوب الليموناضة للخادم الأسود كي يعيد تعبئته ـ كان الخادم أحد الذين انتشلوه في الليلة السابقة، وكان ينظر إليه بنوع من الضحك ـ أوضحت دونيا فلورا بأنها، سواء كانت هناك أخبار لدى الآمر، أم لا، فإنها تفكر بالعودة إلى «بانانيرا!».

«ستقبض أنت ثمن ثماري. أنا أسافر هذا المساء. لا يمكنني ترك عملي في مثل ذلك الإهمال. تذكر جيداً أني أنا كل شيء. هنالك: المدير، الخادم، البقرة والراعي... والثور...

ـ ألا نتناول الغذاء في الباخرة؟

ـ كلا. سأذهب للنوم قليلاً. أشكرك.

ـ سأرافقك... ليس لدي ما يكفي من المستخدمين في «بانانيرا»، وسأذهب للبحث عن بعض الرجال. المشروع يتوسع، وتنقصنا السواعد.

ـ في طريقنا إذا شئت، بما أننا سنمر من هنالك، سوف نتوقف عند الآمر: ربما أعطانا بعض الأخبار... يا للبرودة! لا تكن إذن على هذه الدرجة من البرودة! فقط لأنني تأكدت ليلة أمس بأنك تحبها إلى حد الذهاب للبحث عنها في البحر، بسبب ذلك فقط أتغاضى عن مكوثك هكذا، أسوأ من عود خشب، غير مبال، كما لو لم يكن الأمر يتعلق بمعرفة أخبار زوجتك المقبلة...

ـ بالنسبة لي، كلا. لم تعد كذلك...

ـ لماذا؟... بسبب قصة الفستان؟ يا سيدي يمكننا طلب فستان آخر...

ـ حتى لو عادت فلن تكون لي!...».

وبعد لحظة، حاول فيها استجلاء أفكاره، أضاف:

«لا... ليست قصة الفستان. ولكن حتى إذا عادت، لن تكون لي. لقد انتصرت لقضية الآخرين، قضية الهنود، والخلاسيين، والسود، ولا شك أنها تعرف لماذا، ولست أنا الذي سأحتج أو أطالبها بتوضيحات. لماذا؟ الأفعال أهم من الأقوال. ماياري بكاملها هي هذا: شخص آخر بالنسبة لي. بالنسبة لي، لقد ضاعت إلى الأبد...

ـ إيه إذن، يا سيدي، لقد استيقظت هذا الصباح على صورة القديس مقلوبة إلى الحائط! لا ينقصني شيء سوى أن أتلقى براز «زوبيلوت» على رأسي!... العراب من جانب، وأنت من الجانب الآخر! الأصم العجوز الذي يريد إعطائي دروس تقوية، وأنت الذي تكربني أيضاً بقولك إن ابنتي انتصرت لقضية الآخرين!... لم يتبق لي سوى شيء واحد أقوم به: الذهاب».

كان الأسى يبرز جمال قسماتها. والشاطئ يضاعف من مفاتنها، مفاتن امرأة من نار.

لم يكن الآمر هناك. ذهبت دونيا فلورا لتستريح، وسار «جو» باحثاً عن مستخدميه.

إنها تدرك الآن، على من تصب جام غضبها. الحمقاء الصغيرة! كانت تجمع الناس من أجل كل شيء. اتلفوا الغابات والأدغال بالساطور أو بالنار، ولدى الحاجة أحرقوا المزارع ـ كانت توضح لهم، دون أن تعي خطورة كلماتها ـ حتى تتخلص من الوباء، إنها كارثة فظيعة أتتنا من بنما: جدري وحمى صفراء... ينبغي إحراق كل شيء في هذه المزارع القديمة التي ليست سوى بؤر عدوى. في كل مكان الشيء نفسه: الحريق، لأن إتلاف بعض الأكواخ حتى مع

شيءٌ بعض الأشخاص أفضل من تعريض كل الذين سوف يعملون في هذه المزارع إلى الموت بأحد هذين الوباءين.

كان الشيء الذي لم يقتنع به القوم هو ضرورة التخلي عن ارتياد الملاهي الكثيرة الموجودة في المرفأ. ما من بهجة في القرى - كانوا يقولون فيما بينهم - ما من تسلية، والحال أسوأ في تلك الأماكن التي ليس فيها سوى أجمات وأشواك وأدغال، أدغال كثيفة. ومن ليس بوسعه الاستغناء عن لهو الميناء، فمن الأفضل ألا يذهب مطلقاً. ساعة الأبواق والجوقة أمام الثكنة. سماعهم وهم يعزفون جميعاً، سواء كان ذلك وقت النوبة الصباحية أم وقت الانسحاب. رؤية البواخر الآتية من جهة «بيليس»، أو من الجزر، أو من «ليفنغستون» أو من هنالك. وأن يكون المرء على الرصيف عندما يتركون - إنه لأمر مسل - النفايات تسقط لتغدو تسلية لأسماك القرش. التمتع برؤية البواخر التي ستشحن بالموز. صعود الرجال المستلقين وكأنهم رتل من النمل، الواحد خلف الآخر، وعذق الموز على الظهر. لا تسلية أفضل، بالنسبة للفقير، من رؤية «البيض» يعملون كما يعملون في السفن، في غسل الجسر، وطبخ الطعام، وتقشير البطاطا!...

كانت كثيرة وجميلة تلك الأشياء التي ينبغي هجرها في الميناء من أجل الذهاب إلى الريف وربح بضعة فلوس. انتظار وصول قطار المسافرين والصعود إلى عربات الدرجة الأولى ومن ثمة النزول من عربات الدرجة الثانية، أو بالعكس، تسلق عربات الدرجة الثانية والنزول من عربات الدرجة الأولى، أو الجلوس على المقاعد والشعور بكل تحركات السفر. وغير ذلك مما يمكن مشاهدته... الحضور في الساعة التي يضيؤون فيها كل أنوار الرصيف، مسبحة من ضوء يتضاءل بريقها في جوار عابرات المحيط المضاءة. التجمع مع المتجمعين عندما تصر السلسلة كي تنتشل من الماء وحشا من الوحوش البحرية. أو مع أولئك الذين يأخذون معهم ديكة

عندما يقررون الذهاب إلى الريف. أو الذين يجيدون استحضار الأرواح. والذين لهم طباع سيئة. من الأفضل عدم التفكير في الذهاب. حرارة الـ «غوارو»(*) هي شيء آخر. أين ترى يمكن الذهاب للشرب في أماكن خالية من البشر؟ فليبارك الله ذلك «المستر» الذي كان يوزع عليهم معاشاً جيداً، ولكن بقاءهم فقراء في الميناء أفضل، هنالك حيث، لفرط تأملهم البحر، كانت فجأة تصيبهم لؤلؤة تحت الجفن. الأمل الوحيد! وإنما لذلك كانوا، طيلة ساعات وساعات، وبلا تعب، يتأملون المدى. ومن طول النظر إلى البحر، يمكن للدمعة الأكثر ملوحة أن تتحول إلى لؤلؤة. الراتب كان جيداً، كان رائعاً. ولكنه متهور، ذاك الذي كان يقبل الراتب المعروض عليه. إذ لم يكن ذلك يتم إلا مع «لكن». كان ينبغي الذهاب لإشعال النار في المزارع. بسبب الوباء... نعم وإن لم يكن الأمر بسبب ذلك فقط، وإذا كان بسبب شيء آخر، وعُدَّ جريمة؟ ذلك أن المال ينتهي دائماً باقتراف الجرائم، حتى وإن نجا الجاني من السجن أو من القضاء.

ولكن كل شيء كان من أجل الانطلاق، ومن أجل الإمساك بهم، كالذباب على صحن الماء المحلى بالسكر، الواحد تلو الآخر. كانت تقدم لهم سلفة: بضعة «بيزُوَات» من أجل نفقات السفر، وبالنسبة للذين يرغبون في الذهاب بالقطار، فإن الرحلة مجاناً وهذا أمر طبيعي.

تنطلق الباخرة في منتصف الليل. ولقد دعا «جو» آمر المرفأ للعشاء على متنها. تصرف لبق قبل عودته إلى جُحْرِه في الغابة. أما دونيا فلورا، فإنها بعد أن قَبِلَتْ الدعوة، انتهت بالقول لا. ولم يكن جو ماكر تومبسون يفهم. كان ذلك كما لو تمت مخاطبته بلغة أخرى، وليس بالإسبانية، التي يجيدها تماماً.

(*) عرق قصب السكر.

«سيكون خطأ من جانبي أن أذهب للعشاء معك، وأجلس إلى طاولتك، بما أنك تقول إنه لم تعد لك أية علاقة بابنتي، يا سيد ماكر تومبسون».

وعلى انفراد خاطبت نفسها:

«أخاطبه بالسيد وباللقب العائلي: وذلك ليتأكد بأنه لم يعد «جو» وبما أنه أنهى علاقته بابنتي، فقد أنهيتها أنا أيضاً مع جو.

- آسف... هل بإمكانك المجيء لتناول القهوة؟

- سوف أفكر في ذلك، يا سيد ماكر تومبسون، لأنه إذا لم تعد لك أية علاقة بـ مایاري، فليس لك أية علاقة أيضاً بي...

- معك، نعم!

- كيف، معي، نعم؟ هذا أول خبر.

- ولن يكون الأخير... معك يمكن الخوض في مسائل الأعمال.

- غير أنني سوف أزعجك هذه المرة على الأقل، بالنسبة لقبض ثمن ثماري، إذ ينبغي عليَّ الذهاب. وفيما بعد سوف أتصرف بمفردي. شيء آخر، بما أن ابنتي لم تعد موجودة، فإنني أفضل ألا تأتي إلى البيت.

- هذا صحيح. أنا أيضاً فكرت كذلك. سأذهب لأن الوقت متأخر وآمر المرفأ يمكن أن يحضر بين لحظة وأخرى. إذا أردت المجيء لاحتساء القهوة، فإن ذلك سوف يسرني كثيراً.

- إذا جئت، لن يكون مجيئي إلا لرؤية الآمر. لقد أبرق إلى العاصمة، ولم يجيبوه. هذه أمور تبعث على اليأس... الحرارة، الغم، البقاء هناك مثل سجينة، من دون أن أعرف أين أذهب... البقاء أو الذهاب إلى «بانانيرا»، أم الذهاب إلى العاصمة... آه! لكن... هل حقاً لم تعد تهمك مایاري؟

- كيف يمكن ألا تهمني، يا دونيا فلورا، بما أنني صديقك، بما أنني صديق العائلة، بما أنني أحبها، مایاري! لمَ إنكار ذلك؟... وما

لست أعلمه هو هل يمكنني أن أبقى خطيبها في حالة عودتها، أم إن علينا أن نتزوج فوراً كما كنت أفكر قبل اكتشافي لما تورطت فيه.

ـ ولكننا لسنا ندري إن كان ذلك صحيحاً!

ـ حسناً. سوف يكون لنا متسع من الوقت لتسليط الضوء على القضية.

ـ في مثل هذه الحالة يعتبر الشك إهانة.

ـ حل المشاكل دفعة واحدة يعني ملامستها سطحياً، كما تقولين أنت نفسك... إلى اللقاء! تعالي لنتناول القهوة على السفينة».

كانت تكرهه. تمقته بكل قواها التي كانت واهنة بكل تأكيد، قوي محتضر يكره ويمقت أولئك الذين يبقون، في نفس الساعة التي يباشر فيها ارتحاله. احتضار المنتجين الصغار لموز «الغينيو»، في لحظة مجيء المزارع الكبيرة، وكأنها تخرج من البحر، وتغطي الوديان ما بين الجبال، وحقول قصب السكر، ومنخفضات السرخس التي تبدو وكأنها تجتر بسبب الأصوات التي تحدثها وهي تأكل الريح والضوء المتسللين إلى ظلالها الخفيفة القليلة، وبدل الماء سوف يكون كل شيء مغموراً، كل شيء، حتماً كل شيء تحت أشجار الموز، مئات، آلاف، ملايين المشاتل، على مدى البصر، يغمرها الأفق.

* * *

قرأ ماكر تومبسون، مرتين، برقية الورق العاجي مع السمة والعنوان باللون الأزرق، البرقية الرسمية التي كان آمر المرفأ قد فتحها لتوه، ليسلمها إليه مفتوحة.

«ماذا ترى؟

ـ لست استغرب ذلك. في بعض المناسبات، عندما كانت تتحدث عن شيبو، أفلتت منها بعض العبارات. انتظر حتى أتذكر جيداً وأروي لك بدقة. سأحاول إعادة صياغة جملها.

- «شيبو ليس، كما تعتقد، اسماً وشخصاً. شيبو هو ضمير جميع أولئك الذين هم ضد تسليم الأراضي، بيعاً أو لا. لماذا يريدون اعتقاله؟ لكي لا يكرر ما يعرفه الجميع. لذلك، ولأكثر من ذلك: لكي يضعوا سائر القوم في السجن».

- ما تنكرته لتوك، يا سيد ماكر تومبسون، يلقي الضوء على كل شيء. يا للأم البائسة!

- آسف لحالها، إذ إنها امرأة كنت أتمنى لو كانت ماياري مثلها. لكن الحياة لا تهبنا كل «البرص» كما كان يقول ذلك «التروخيلي» الذي كان معي، عندما يتحدث عن «الفرص»...

- ينبغي تقديم البرقية إليها، «بدون تعليق»، كما يقال في الصحف، عندما يريدون إزعاج أحدهم.

- من المتفق عليه أن تأتي ربما لتناول القهوة.

- هل تعشيت جيداً؟ ما أكثر الثمار التي يجب شحنها! لا يزال العمل يجري حثيثاً إلى الآن!

- وسوف يسير إلى الأفضل. هنالك. الاستهلاك ضخم وهذا ما يدفعنا إلى الغرس على حسابنا. المنتج الوطني لا يمكنه تغطية طلب السوق الأمريكية. على أنني - وهذا ما كنت أود التحدث إليك بصدده، أيها الآمر... ولكن أكمل أولاً هذا الكوب من الويسكي حتى نطلب كوباً آخر...

- بالنسبة لي، أعتقد بأن ما شربته يكفي. بل إنني نسيت عدد الأكواب التي احتسيناها بيد أن «كوباً صغيراً وأخيراً» سوف يكون في محله...

- إلى حين تحضيره وقبل وصول دونيا فلورا، أريد إن أحدثك عن شيئين صغيرين. ألم تحدثني عن المكافأة التي علينا أن نقدمها لك؟ العادة تقتضي عدم ترك آثار، إلا إذا كان المقصود تكبيل الناس. مثلاً في أمريكا الوسطى، يعطون «شيكات» للموجودين خارج

الوطن: وهكذا يظلون مشدودين من أعقابهم. والأمر سيان عندهم. إنهم أناس يتعاونون معنا صراحة. ولكن في حالات غيرهم من المتعاونين، فإننا نفضل تسليم الـ green backs. لأنها لا تترك أثراً. تحت هذا المغلف سوف تجد ما أنت موعود به، مجرد سلفة على الحساب مستقبلاً».

تقدم النادل بكوبي الويسكي.

«حسناً يا صديقي العزيز، في صحتك! وشكراً على الهدية الصغيرة. تأكد أنني لم أطلب شيئاً. سأكون سنداً لك بكل نزاهة وترفع، في سبيل أن تجعلونا نتقدم. وكل ما نحتاج إليه ليس سوى بضع آلات لتعبيد الطرقات وتعهد الترع وقطع الخشب من غاباتنا والدفاع عن أنفسنا ضد الإنكليز في «بيليس».

- في صحتك أيها الآمر! ثم هناك موضوع ثان. أنا بصدد تجميع أناس كثيرين - لقد تجاوز عددهم الألف، الآن - في «بانانيرا»، وأخشى أن نصاب ذات يوم بوباء الجدري، أو الحمى الصفراء... أغلب هؤلاء القوم نقلوا هذا الوخم من بنما.

- حسناً. عليك أن تتذكر ما ينبغي القيام به، المهم ألا يكون طلباً مالياً من الحكومة، لأن الميزانية في هذا المجال هي دائماً مفلسة. إنني مطلع على بعض الأمور، أنا الذي رغبت في تطهير منطقة المرفأ، قضية بسيطة جداً.

- بالعكس، سوف نتعاون مع الحكومة، ولكنني أحتاج، ليس إلى ترخيص منها، بل إلى غض البصر إذا ما أنا أحرقت كل هذه الأكواخ المغمورة بالماء حيث أعشاش القمل والقوم الوسخون...

- هذا شيء مقزز!...

- هو كذلك. بالضبط؟. سوف أتدبر لهم أماكن يعيشون فيها بكل لياقة، وأبني لهم بيوتاً جديدة في المزارع الجديدة، حيث يمكنهم العمل إذا شاؤوا، إلا إذا فضلوا العيش فيها، كما في بيوتهم، والذهاب إلى العمل حيث يرغبون.

ـ إذا كانت الأمور هكذا، فإن طريقتك تلائمني أو «تنتعلني» كما يقول الهنود. ليس ثمة شك، يا عزيزي، أنتم قوم عمليون. لو أنك تعدني ببناء مساكن لهم حتى لا يناموا في العراء...

ـ المساكن والأثاث والأثواب الداخلية التي يملكونها، يا لهم من بائسين، سوف يحصلون عليها جديدة تماماً...

ـ لو كان بالإمكان حرقهم، هم أيضاً واستبدالهم بآخرين...».

* * *

شربت فنجان القهوة باكية، في دوي المروحة الكهربائية وصياح المسافرين والزائرين وصمت كل من «جو» وآمر المرفأ. كانت الدموع تشوش عليها نص البرقية.

«العمدة غابرييل غوبرا يخبر السلطة المرأة مایاري بالما بولانكو مفقودة هذه المنطقة في رأيه من تاريخ... مبحرة نحو شاطئ «الشيلار» زورق يقوده شخص شيبو شيبو. ل. ي. س. مانكوس».

«لا شيء يتعذر إصلاحه في كل ذلك، يا سيدتي، قال الآمر محاولاً تعزيتها. بالعكس، نحن الآن نعرف أين توجد وأين تتجه. سوف نوعز للكابتن المكلف بقيادة المفرزة في «بانانيرا» بالذهاب حالاً إلى «الشيلار» حيث من المعلوم استفحال حمى المستنقعات.

ـ إذن سأذهب حالاً!...

ـ عليك أن تذهب بلا تأخير، في القطار الأول.

ـ على أية حال، سنتدبر الوصول إلى «بانانيرا» في بداية الصباح، قال «جو» مختصراً الحديث. إذ علي أنا أيضاً، أن أكون هنالك غداً.

ـ لقد سحرها شيبو، تذمرت قائلة. لقد سحرها شيبو...».

كانت هناك مشاجرة إلى جانب الباخرة ما بين سود وبيض.

كانوا يتضاربون بعنف تحت عاكسات النور. من دون أدنى أنين. فقط لهاث الأجساد وضجيجها المكتوم وهي تصطدم ببلاط الرصيف، واختلاط ضربات الأقدام بضربات القبضات وبضربات الرؤوس والشتائم المتقطعة والصرخات.

وبالإضافة إلى الرجال كانت النساء يتدخلن أيضاً، بعضهن يحاولن تهدئة الخصوم، والبعض الآخر يحاولن تحريضهم. كن شعثاوات الشعر، ممزقات الثياب، وهن يخدشن ويبصقن، ويوجهن اللعنات. كان لتدخلهن هيئة نوع من الملاكمة ورقص «الزاباتيدو» أو الـ «خاليو» من دون موسيقى شواطئ الكاريبي.

كان القمر في ربعه الأخير هلالاً، زورقاً من ذهب محمر، ينبثق من اللانهاية المحرقة اللاهبة فوق الجبال ذات لون الشوكولا وفوق مياه الجون. في الأسفل، الوحدة، والقطعة الذهبية المتوهجة، ولمعان أضواء المنارات على الماء... وفي الأعلى، الليل في عزلة النجوم.

6

أقدامهم المجرحة بالتراب كانت تلتهب. مدر من التراب تتفتت. أقدام حافية. موكب لا ينتهي. أقدام فلاحين مقتلعين من أراضيهم. صورة الأرض التي تمضي، التي تهاجر، الأرض التي تفرط في قِطَعٍ من تربتها الطيبة، النازلة من الكواكب، حتى لا تلبث قط، هناك، حيث كانت محرومة من الجذور. لم تكن لهم وجوه. لم تكن لهم أياد. لم تكن لهم أجساد. لا شيء سوى أقدام، أقدام. أقدام... أقدام للبحث عن دروب وعن منحدرات، وعن حقول ينطلقون عبرها، يهربون. هم أنفسهم والوجوه والأيدي والأجساد، على الأقدام من أجل الفرار... أقدام، أقدام، لا شيء سوى الأقدام، قطع من التربة ذات أصابع، كتل من وحل ذات أصابع، أقدام، أقدام، أقدام... إنهم يمضون وليسوا في أي مكان، يمضون سائرين من دون ضجة، من دون إثارة

الغبار، يسيرون، يسيرون... جمر ودخان هي البيوت، مجتثة هي الغابات حيث لم يعد يهيمن سوى «الزومبوبو»(*)، النحلة السوداء، حشرات كما الضباب، «الغواكامايا»(**) والقرود.

تشبثت العائلة الخلاسية مع كل أبنائها برقعة الأرض الصغيرة المغروسة بالغينيو. ولكن سدى. لقد اقتلعوهم، داسوهم بالأقدام. مزقوهم إرباً إرباً. تشبثوا بالمزرعة. ولكن ذلك كان سدى. احترقت المزرعة بأمتعتهم العتيقة وصورهم الدينية، وأدواتهم. تشبثوا بالرماد. لكن ذلك كان سدى. إذ إن زمرة متكونة من عشرين أرعن، تحت إمرة رئيس عمال أصهب، طردتهم جلداً بالسياط. كانت الخلاسيات المسنات يتلوين، وهن يرشحن عرقاً، كما لو تمت دغدغتهن، كن يصرخن وينتحبن ويحاولن الدفاع عن أنفسهن بأيديهن المتشنجة، المجروحة، المجلودة، والمدماة كي يقاومن ذلك الوابل من ضربات السياط. وكان الخلاسيون الشيوخ محروقين تماماً وشعرهم على جماجمهم المستديرة ملح وبهار، كانوا مجردين من ملكيتهم، تتعقبهم ذريتهم، أبناء وأحفاد كانوا يعبرون عن الصدمة من رؤية شرائح الجلد الممزقة على أجساد ذويهم، مكررين، وهم ينتحبون رهبة تحت نيران الجراح، هذه المقاطع اللفظية البائسة:

«Chos, chos moyon, con... Chos chos moyon con»

ظل الخلاسيون يقاومون. عذبة هي أرض الأجداد. وليس لها من ثمن. وكل ما عداها مر المذاق. فكيف التخلي هكذا، ومن دون القيام بأي شيء، عن مزارع الموز والطواحين بين أسيجة الخيزران، والماشية التي، بفضل البنادق، كانوا يحافظون عليها في حالة نصف متوحشة. خلايا النحل، أسماك المياه العذبة، وأرجوحة النوم؟ و«الغواريزاما» الممتشقة: سواطيرهم الشبيهة

(*) نوع من النمل الضخم.

(**) من الببغاوات الأمريكية...

بالألسن، تلك الألسن التي تتحدث نفس اللغة المستعملة هنالك ـ كيفما اتفق ـ حتى يتوصل المرء إلى إقناع خصمه بأسرع وقت ممكن، كانوا يسعون مع قطعان بغالهم المحملة بالثمار حتى المحطات التي ترفرف عليها الأعلام والتي كانت القطارات تتوقف فيها لإكمال مشحوناتها من الموز. فتعمد الدوريات بين الحين والحين إلى إيقافهم كي تسألهم: من أين يأتون بالثمار؟؟ إلى أين يحملونها؟ من كان صاحبها؟ كم ينقلون منها؟ وكل ذلك لتأخيرهم ولجعل ثمارهم تتلف بعد أن يكون قد مر القطار. ورغم المطر المدرار اليوم، والحرارة النارية في الغد، وفيضانات الأنهار الجامحة، والليالي الكاملة التي كانت تقضى في سوق الدواب داخل المياه والوحل الذي كان يبلغ لبانها(*)، فقد حافظ المولَّد الأبيض(**) على الطريقة المنتظمة في تسليم الموز من أجل الشحن. من دون تأخير ومن دون عائق، ذلك أنه كان بدوره طموحاً. كان ينقصه بعض العناصر من أجل الزرع والنقل. بسيطة! سوف يحصل عليهم، سوف يشتريهم. له فائض من الأموال. كان سيء الهندام لكنه لم يكن بائساً. لم يعد يحب الفخفخة. كان صموتاً بطبعه، غير أن صمته كان فصيحاً. يحب وقت الفراغ ولا يحب الكسل. يكره الضجيج ويجهل التسرع. فالسرعة لم تعد تستهويه. وقبل كل شيء لم يعد راغباً في فقدان حريته، حريته الصغيرة. تلك التي تأتيه من مطيته ومن إرادته. أن يخضع لرئيس آخر، ويذهب كي يعمل لحساب شخص آخر، والحال أنه سيد نفسه؟... أبداً! لن يقبل بذلك مهما كان الثمن! إنما بسبب ذلك وجد في عمليات تسليم الموز من أجل الشحن، حلاً لهذه المشكلة: الرغبة في أن يظل هو، من دون تبعية لأحد، وأن يتمكن في عمليات التسليم من وسيلة للتقدم.

غير أن تلك الحيوية خارت، ولم تستطع المحافظة على إيقاعها

(*) لبان الحصان (بفتح اللام): صدره.

(**) هو الأبيض المولود في المستعمرات الأوروبية القديمة.

المنتظم كما أثناء البداية. ولقد قادت الدوريات الأشخاص المتصلبين إلى الثكنة من أجل الخدمة، وعلى مياه الموتاغوا بدأ نزول الجثث. أين تراها غرقت؟ وكيف؟... كانت هناك نساء مغرورقات بالدموع يسرعن إلى الضفاف للتعرف على أجساد أزواجهن، وأقاربهن، وإخوتهن، وأبنائهن. بينما كان غيرهن، أسوأ حظاً، يلتقطن جثث ذويهنّ التي أتى النمر على نصفها، بعظامها ولحمها النتن أو المتيبس. وكان على أخريات ويا للأسف! أن يشحن بوجوههن عن ديدان الحباحب الفظيعة والمبهرة التي كانت تشع في الحدقات المفتوحة سدى لأولئك الذين ماتوا، ذهبوا ضحية للثعابين.

أما اليتامى، وهم أطوع من ذويهم، فقد كانوا ينخرطون في أعمال المزارع. فائدة من الفوائد العديدة المتأتية من تصفية حركات التمرد. إذ أن الموت خلف الكثير من العمال المياومين. أطفال يبلغ بهم التيتم سن الرجال، مراهقون يجعل منهم الإهمال شباباً، وصبيان بالضرورة، يقلدون الراشدين، كلهم كانوا خاضعين للعمل الشاق وللأجرة التي لا تخضع لزيادة، كانوا مستسلمين ولكن دون أن ينسوا الـ «تشوس، تشوس، موايون، كون» للخلاسيين الصغار، التي كانت تحدث في مسامعهم أصواتاً تشبه: «لقد خدعونا!».

تشوس، تشوس! موايون! كون! صيحة حرب مجبولة من لحم مجلود ومن رعب الأطفال. تشوس، تشوس، موايون، كون! لقد خدعونا! أيد أجنبية خدعتنا!

وفي كل مكان تسمع فيه تلك الصيحة، كانت توجد جثة ممدّن مطروحة على الأرض، مع ثقب كبير لرصاصة استقرت في الصدر. من هو؟ لا أحد. وحده أتى مع الرصاصة. رصاصته. ومعها ارتحل فلماذا البحث عن هويته؟

كانت طيور «الزوبيلوت» بطيرانها على شكل قمع ثم بنزولها على شكل دائرة مغلقة تشارك في موته. تأخذ نصيبها من موته، وإلا

فلن يتبقى شيء من الجثة كما يحصل ذلك عندما يقوم سيل الأنهار الموحل ذو أسنان الضباع بجر الأجساد، أو بتغطيتها بجيوش جياشة من النمل الأحمر، ذلك العالم المتحرك الذي كان يتركها على الفور بلون قشرة من حديد.

تشوس! تشوس! موايون، كون! صرخة حرب جبلت من لحم مجلود ومن رعب الأطفال.

لم تعد لجثة «الأبيض» قيمة أفضل من أية جثة أخرى. وتندفع ذئاب «الكويوت» الصغيرة. والطيور وبنات آوى والحشرات لتتنازع الجثة التي تستسلم للهجوم بنفس الكدر. كانت أكثر الكائنات غرابة، أشدها جوعاً وأفضلها أنياباً ومخالب وأفظعها شراهة تمزق الجثة وكأنها تتسوك بشرائحها ولا تبقي منها سوى كومة من عظام، تدفئها الشمس مثلما دفأتها الدماء عندما كانت حية تتعهد الحياة التي فارقتها بين المخالب والأنياب، والبراثن التي حملتها لتدمجها في حيوات أخرى...

وليس للزنوج هياكل عظمية سوداء. والزنجي «الشومبو» الذي ساعد على حرق البيوت نال قسطه من الرصاص. لقد سمع الـ «تشوس! تشوس! موايون! كون!» ثم وقع أرضاً وهو يتأوه، تأوه قرد سمين. ومن ثقب جرحه العميق كان الدم ينبجس متدفقاً منه ولونه بلون الشمندر. يا لغبطته لو أنه رأى نفسه هيكلاً من عاج، من طحين أو من قمر، أو هيكلاً مكدر اللون من الدخان الذي كان يتصاعد من الأكواخ التي أحرقها هو، على سبيل الحيطة الصحية، لاجتثاث ابن البلاد من أرضه، ومحو مزارعه ومنحدرات تلاله وزرعه!...

والآن هوذا القطار يصفر في هذه الأنحاء. التقدم. كانت «الكولوموتريس» كما يسمون القطار، تحمل كل شحنات الثمار عبر مختلف تفرعات سكة الحديد حتى الأماكن التي استصلحت فيها الغابات وامتدت إليها المزارع.

كولوموتريس، حرائق، آلات لقياس الأبعاد، والخلاسيون الآن بلا أثواب أخرى عدا تلك التي على ظهورهم. لقد توجب بيع السترات ـ كانت من قماش جيد تلك السترات ـ لدفع تكاليف الوثيقة الأخيرة التي كانت تنص على أن مدناً وجدت منذ خمسة وأربعين عاماً (بارا ديل موتاغوا، شكنكادو، تاندوريس، كايوغا، موراليس، الليبرتاد، لو أماتيس، وأن اثنتينْ منهما تحولتا إلى بلديتين هما الأوليان في القضاء، كلّها لم يبق فيها أثر للحياة، بما أن المزارعين المحليين، وأغلبهم من مواليد المنطقة، تم طردهم من قبل شركة الموز الاستوائية التي ليس لها أدنى حق حتى الآن، ولو كان متعلقاً بقطع شجرة أو غرس نبتة.

كان الجميع يحضنون بعيونهم ما كان الكاتب العدل يسجله، ليس من أجل الفهم وإنما من أجل بث أنظارهم في تلك الرسائل، ولكي ينبض الورق المدموغ بحقهم الضروري، وبغمهم الفظيع من أن يلقوا إلى الشوارع، وبأملهم وبرجائهم.

«سجل!... كانوا يقولون. سجل!... سجل!... سجل!... سجل!

ـ نعم سنسجل هذا... وهذا، سبق لنا أن سجلناه!... هذا سنضيفه أيضاً... ولكن لا تتكلموا كلكم دفعة واحدة... لا تتكلموا دفعة واحدةً!...».

ولم تكن النتيجة مختلفة عن باقي النتائج التي أسفرت عنها مثل تلك «المذكرات». لم تكن تقرأ، أو لم تكن تؤخذ بعين الاعتبار. كانت تظل دائماً على بساط البحث، ثم فجأة، إلى سلة المهملات! أو إلى الأرشيف!

بالنسبة للفقراء. معرفة القراءة والكتابة لا تجدي نفعاً. لا ترسل بابنك إلى المدرسة، كانوا يقولون فيما بينهم. لماذا يذهب إلى المدرسة؟ لماذا يتعلم الكتابة؟ أي استفادة بالنسبة له إذا لم يعره أحد أي اهتمام؟... سوف يكتب، سوف يكتب... سوف يتعلم القراءة... ويتعلم الكتابة... كل ذلك بلا طائل!...

فوق رؤوس الأشجار التي اجتزها المشذبون والبستانيون مثل الحلاقين، كانت ترتفع أسطح البنايات، متوجة بأبراج لخزن مياه الشراب. مكاتب، وبيوت لرؤساء العمال، ونوابهم، والمدراء والمستخدمين، مستشفى، فندق للزوار، عالم كامل محاط بالزجاج وبالستائر المنخلة لدخول الهواء، لا الحشرات التي، وهي الحثالات الاستوائية، كانت تأتي لترتطم بالنوافذ وبالأبواب المسيجة على تلك الطريقة.

ولكن، حتى هنالك كان الكون يشاهد في الخارج مثل عصافة الوبر المتراكمة خلف الستائر، المغربلة، كون الذرة والفاصولياء، كون الطائر والأسطورة، كون الغابة والخرافة كون الإنسان وتقاليده كون الإنسان ومعتقداته.

وها أن النار التي، بين أيدي الإسباني، أتت قديماً على الغابات التي دون فيها الهنود رسومهم، ومخطوطاتهم على لحاء أشجار «الأماتل»، وكذلك آلهتهم ورموزهم، ها هي ذي الآن تلتهم، بعد أربعمائة سنة، وتتحول إلى شرر ودخان: المسيح وتماثيل مريم العذراء، والقديس أنطوان، وتماثيل الصلب، وكتب الصلاة والتساعيات والمسابح الوردية، ذخائر القديسين والميداليات. في الخارج: هدير وفي الداخل: الفونوغراف، في الخارج مشاهد طبيعية، وفي الداخل صور شمسية، في الخارج: البنزين والخلاصات المثلة، وفي الداخل: قناني الويسكي. لقد حط الرحال إله آخر: الدولار. ودين آخر: دين الـ «Big stick»(*).

* * *

عشر سنوات. ونصف «خاتون» كما يمكن، حسب التسلسل التاريخي لشعب المايا، أن يدعي علماء الآثار والمهووسون، ديدان المتاحف، ذوو النظارات والعادات المضحكة الذين كانوا يقبلون

(*) العصا الغليظة.

للافتتان أمام أعمدة «كيريغوا» ومسلاتها، من الصخور الهائلة التي نقشت عليها أشكال رسوم كهنوتية وحيوانية تفوق الرسوم المصرية. نصف «خاتون». عشر سنوات. على مكتب البابا الأخضر، الرئيس الأعلى للمزارع، سيد الصك والسكين، الملاح الأعظم في عرق الرجال، كانت توجد ثلاث صور مصفوفة: صورة ماياري، التي ماتت في خضم الأحداث، كما يقول هو نفسه ليذكر تهورها عندما ألقت بنفسها في النهر، برفقة شيبو شيبو للذهاب إلى قرية بائسة طلباً لتواقيع السكان ضد نزع ملكياتهم، صورة لـ «دونيا فلورا»، التي أبرم معها عقد زواج، ثم ماتت هي الأخرى، في خضم الأحداث، كان يقول متهكماً، بما أنها توفيت بعد أن وهبت الحياة لطفلة، كانت تحتل على المكتب الإطار الفضي الثالث، «أوريليا ماكر تومبسون». ثلاث صور: ماياري خطيبته، فلورا زوجته، وأوريليا ابنته، المقيمة منذ طفولتها في مدرسة داخلية للراهبات في سان خوان، عاصمة مستعمرة «بيليس» الإنكليزية.

كان «خوامبو السمبيتو» («التائب» الصغير) هو سائق «موتوكار» رب العمل، ولقد قادها من جديد في زيارة إلى المزارع. وفي هذه المرة كان يرافقه سيد ذو بشرة شديدة الاحمرار بحيث يخيل للمرء أن جسده عرض تحت شمس خط الاستواء، على سبيل القصاص، وكان يتحدث معه بصوت عال، بصوت يكاد يكون صراخاً، بسبب ضجة المحرك والدواليب على السكة. كانت الجداول تنساب تحت الجسور، ويا له من شعور بالحرية ذاك الشعور الذي كان يبعثه الماء المنساب باتجاه مضاد للسكة الحديدية التي كانت، هنالك، تبعث في النفس ذلك الأثر المقرس الذي لقضبان السجن. كان المحرك يعمل مثل جرادة مزودة بعجلات صغيرة. وعلى السطح كان ماكر تومبسون جالساً على مقعد مشدود إلى الأسفل ببراغٍ، وقد بسط بين رجليه خريطة على ورق أزرق مشمع ومصقول، وكان السيد المسلوخ حياً يساعده بواسطة قلم، على تعيين المواقع والمسافات على الخريطة المذكورة...

دام المسير حتى الضحى. وأثناء العودة إلى مكتب ماكر تومبسون قال الزائر بعد أن أعاد طي الخريطة ووضعها على أحد المكاتب:

«هذا جيد، ولكن محاميَّ أعلموني بأن ليس لنا، حتى تاريخ اليوم، الصفة القانونية للتصرف في هذه الأراضي. إننا نستعملها بطريقة غير شرعية. لا يمكن للأمور أن تتواصل هكذا.

ـ لا أحد على ما أعلم، قاطعه ماكر تومبسون، يقول العكس، وعلى القوم هنالك أن يدركوا جيداً بأن البلديات إلى الآن لم تستطع فعل أي شيء، بما أن احتجاجاتها تعرقلت في الدوائر العليا.

ـ ولكن بأي ثمن تعرقلت؟

ـ بثمن من ذهب، طبعاً.

ـ هذا ليس صحيحاً.

ـ لا شيء مما قامت به الشركة في هذه البلدان، يعد صحيحاً، ونحن، بسبب الافتقار إلى الصفة القانونية، لن نهمل الزرع والمنشآت وما هو أهم من ذلك، السكة الحديدية!...

ـ السكة الحديدية ليست ملكنا. إنها ملك البلاد، وهي تكاد تنجز.

ـ من يعلم؟...

ـ كلا، يا سيد ماكر تومبسون، ينبغي الحصول على سند ملكية الأراضي، ينبغي الحصول على ترخيص قانوني من أجل مواصلة العمل.

ـ إذن، سوف نحصل على ذلك بكسب ذوي الشأن...

ـ لست أدري كيف الحصول على ذلك، ولكن هوذا رأيي...».

ثم أن السيد المسلوخ حياً توقف عن الكلام مهلة وأخذ يغضن حاجبيه الأشقرين كي يثبت في البعيد عينيه الباهتتي الزرقة:

«و... أكثر من ذلك: فإن سياسة الرشوة هذه التي تنادى بها لاتتطابق وذوقي. إنها تثير سخطي. كنا نتألم من رؤية وجوهنا في المرآة عندما كنا في أمريكا الوسطى، حيث كنا ننتزع الأراضي من ملاكها الوديعين، وحيث كنا نرتب أشياء أخرى عديدة، كنا نلجأ إلى تغطيتها بطبقة من معدن أصفر، ذلك الذهب الذي له رائحة البراز، لأن ذلك هو ما قمنا به، تحويل الذهب إلى نجاسة... لقد تحدثت مع سائر القوم الذين جردتموهم من ملكيتهم، ولدي مستندات جاهزة».

وفي حين كان الزائر يتحدث ويتحدث، كان ماكر تومبسون ينظر إليه بازدراء ناسياً عود الثقاب الذي أشعله من أجل وضع النار في غليونه، حتى بلغت النار أصابعه. ألقى بعود الكبريت بعنف وبصق على أنملتي سبابته وإبهامه ولم يقل شيئاً. ولم يعد إلى القول إلا بعد لحظات:

ـ في أي ساعة تغادر؟

ـ علي أن أبقي، إذا لم تكن لك أشياء أخرى لأتفقدها.

ـ فعلاً، ينبغي أن ترى مزارع الـ «فويلتا ديل ميكو». إنها أفضل المزارع. لم أصطحبك إليها هذا الصباح، لأنه لم يكن لنا الوقت الكافي للذهاب والعودة. إنها بعيدة قليلاً. ولكن يمكننا أن نغامر بذلك بعد الظهر، بعد تناول وجبة خفيفة.

وأثناء تناولهما للوجبة الخفيفة، كان «خوامبو السمبيتو» ينتظرهما في عربة «الموتوكار» وهو يأكل الموز. كان يقشر الموزة بعناية فائقة، ثم يزدرد شمعة القشدة النباتية حيث الحرير يختلط بالحياة، مدخلاً إياها حتى غلصمة حلقومه. الموزة إثر الموزة. وكان فيض من اللعاب يسيل من فمه عبر ملتقى شفتيه الغليظتين السوداوين قليلاً، وعندما يسيل اللعاب وينخفض أكثر، وكذلك للتمكن من ابتلاع الكمية التي في فمه، كان يحرك رأسه من اليمين إلى اليسار بقوة، أو يتمسح بظاهر يده... ثم موزة أخرى، ثم

موزة أخرى، ثم موزة أخرى!... هما، السيدين، يتناولان وجبة خفيفة، وهو، سمبيتو كان يأكل موزاً.

«خوان باع نفسه!...» اقترب منه مجهول ليقول له... أو ربما كان يعرفه. غير أنه لم يتعرف عليه، لفرط تغيره، في هيئته...

«خوامبو، باع نفسه؟ آه! كلا! سمبيتو هو دائماً سمبيتو!

ـ بلى واسمه هذا سامبو، كان سميث...

ـ ولكن ليس لأنه اسمي زامبو.

ـ ولماذا إذن؟

ـ لأن ذلك يصيبني بنوبة... سامبو، لم يبع نفسه. خوانيتو يحرس. يأكل «موضاً» ويحرس».

ولدى سماعه لكل تلك التغيرات في الاسم، سامبو وخوامبو، سمبيتو وخوانيتو، اقترب المجهول أكثر:

«تشوس، تشوس، موايون، كون!... همس وكأنه يهمس بكلمة سر، وبعد أن جال برأسه في شتى الاتجاهات ليتحقق من عدم وجود أي شخص على مقربة، أضاف، بصوت منخفض أكثر، يكاد لا يسمع، وكأنه همسة في الأذن:

ـ هذه الليلة، سوف نقضي على سيدك. لقد حان دوره، وذلك الذي جاء في زيارة، يقال إنه معنا وإنه يريد أن يعيد إلينا أراضينا. أما أنت فما عليك عندما يتم القضاء على «جو» اليانكي، إلا أن تعوي مثل كلب يرى سيده مقبلاً على الموت».

ولدى رؤيته لأحد الرئيسين يقترب من العربة لاذ المتشرد ـ كان، باستثناء القبعة والسروال الداخلي، عارياً تماماً ـ بالفرار، وذلك بعد أن استأذن مطلقاً صيحة الحرب المجبولة من لحم مجلود ومن رعب الأطفال: تشوس، تشوس، موايون، كون! هيكل من عظام سوداء بفعل لهيب الشموس والعفونة الليلية، تلك الرطوبة الشبيهة

برطوبة حمام بخاري والتي كانت، مع مجيء الليل، تكمل إلهاب كل شيء.

«خوامبو! قال ماكر تومبسون، وهو يرفع قبعة الفلين عن رأسه ليروح على وجهه بتلك العمرة الخفيفة، رغم حجمها الكبير على الرأس، خوامبو! كيف هي الـ «فويلتا ديل ميكو؟» هل يمكننا الذهاب إليها؟

ـ نعم، أيها الرئيس! ولكن في ذلك مخاطرة. لأن العربة أكبر من أن تتمكن من الانعطاف وينبغي إخراجها من السكة وإفراغها ثم حملها، ثم إعادتها إلى السكة بعد المنعطف. في المرة السابقة، ولأننا لم نقم بذلك، أشرفنا على الهلاك مع مستخدمي الضخ.

ـ إذن، بما أننا لم نمت في المرة السابقة، لن نموت اليوم أيضاً. سنذهب مع السيد الذي جاء لزيارتنا من أجل مراقبة المزارع في تلك الجهة، وليس من الممكن إخراج الشاحنة من السكة ثم إعادتها لمواصلة السير: إن ذلك من شأنه أن يفقدنا الاعتبار. وهذا الرجل سوف يقول: «يا له من إهمال! لماذا لا توسعون هذا الخط الحديدي المقوس؟».

ـ ليكن ما تريد. ولكني أحذرك مسبقاً مما يمكن أن يحدث. إذا ما نحن خرجنا عن السكة في الـ «فويلتا»، فإن الخطر يكمن في كوننا، من جهة، يمكن أن نرتطم بالحاجز الذي تم حفره في الصخر، وهكذا فإن العربة تمزقنا وتقطعنا أجزاء، ومن الجهة الثانية، يمكن أن نتدحرج في الوادي وربما كان ذلك أسوأ الضررين.

ـ إنما تنقصك الممارسة يا سمبيتو.

ـ ربما كان ذلك!

ـ في هذه الحال، لدى الوصول إلى الـ «فويلتا ديل ميكو»

سوف أتولى أنا قيادة «الموتوكار»... سوف ترى ما ينبغي فعله... وفي نفس الوقت سأريك وأنت تتعلم...

ـ واحد زيادة، أو واحد نقصاً...

ـ ماذا تقول؟

ـ لا شيء...».

إلا أن «جو» كان لدى نطقه «ماذا تقول؟» قد سدد ضربة لـ «خوامبو» بعصا مصنوعة من عظام خروف البحر كان يحتفظ بها دائماً مع مسدسيه الاثنين.

«واحد زائداً أو واحد ناقصاً؟...

ـ سمبيتو زيادة أو سمبيتو نقصاً... هذا ما قلته يا سيدي.

ـ حسبتك كنت تقول بأن لا أهمية إن كان واحد منا ناقصاً أو زائداً...».

صعد الزائر الكريم ذو جلد الجرز الحديث الولادة، ذلك الجلد الذي كان من الاحمرار بحيث يبدو صاحبه وكأنه سلخ حياً، صعد إلى العربة كي يجلس بجانب «ماكر» على مقعد المسافرين ثم إن خوامبو، بإشارة من الرئيس، أدار المحرك وساق العربة. وقبل مغادرة السكة الرئيسية على مقربة من الكهوف، توجب عليه الانعطاف بشدة ليسلك أول تفرع لسكة الحديد باتجاه اليسار. كانت الشمس تهدب ظلال أشجار جوز الهند. مراع مصفرة. صبار «كاكتوس». غابات «إيزوت». صفوف طويلة من النخيل. وظهور المباني كابية اللون مدخنة، كما لو أن السحب الكثيفة الضخمة تركت عليها آثار ندب محاجم لسحب الدم. مدخنة عالية تعلوها قنازع دخانية سوداء. مدخنة أخرى، أقل ارتفاعاً، يتصاعد منها الدخان أيضاً. أكواخ، مستنقعات صغيرة. جسور حديدية بلا درابزين، مخصصة لسكة الحديد فقط. أراض مغمورة بالماء، غابات رطبة، سرخسيات ونباتات مخملية حارة... قباب من النخيل على طريق الجبال. فرار مهتاج للخنازير البرية إثر رؤيتها للعربة التي كانت

تسرع وكأنما الشيطان خطفها. رف طيور ضخمة ذات أجسام رخوة. تألق لامع لريش أرجواني. يمامة زرقاء ليست زهرة بما أنها تتحرك. قرود ذات أذناب أخاذة(*) تتفرق في جماعات مفعمة بالحيوية والجموح... أشجار «بيخوكو» ذات أغصان معترشة وجذوع بعضها على شكل رجلين ضخمتين. باقات من أزهار مشرعة ضد ساعات العصر الحبارية(**) من دون مخاطرة. ومن جديد تلوح السهول بمزارعها. سحب وسحب من زعفران مذهب. صمت اللحم الأخضر المثير، جرعة أمل البراعم، والجذوع والأوراق والزهر. الخطوط الهندسية الصارمة والمنفصلة لصفوف أشجار الموز المقطوعة في الأفق بكتلة الغابة الغامضة، المتنفس الأصيل للأرض المحتجزة بالمزارع، الأرض المستسلمة، السجينة، المحكومة باستخراج آخر قطرة في حياتها.

وعلى مقربة من «فويلتا ديل ميكو» يا له من طفح اخضرار، ياله من نهم اخضرار يزدرد كل شيء، المرئي واللامرئي!... لا شيء سوى الإخضرار! ولكنه ليس ذلك الإخضرار الوديع الذي يكتفي بشرب الهواء المحيط، بشربه وبأكل المحيط الهوائي، كلا. ففي «فويلتا ديل ميكو» لم يكن الإخضرار النهم يمضغ ويبتلع كل ما كان يحيط به فحسب لكنه كان يأكل أيضاً تحت التربة بجذور مائية خضراء ويشبع من الأفق عاكساً يَشَبَهُ(***) السائل على الأهداب الشمسية مع حلول المساء، تلك الأهداب التي كانت تطفو بنورها فوق السهول. كانت السماء ترفع هدبها الأزرق عالياً جداً، كي تحافظ على امتدادها النائم، في ذبذبات الغروب، والحضور الشره للحقول وللسيقان وللجذور وللأوراق، للمياه وللحجارة والحيوانات، وكلها من لون أخضر.

(*) أي التي لها خاصية الاقتلاف والأخذ كاللسان والذنب في بعض الحيوانات والحشرات.

(**) نسبة إلى الحبار وهو حيوان بحري هلامي.

(***) اليشب أو اليشم: نوع من الحجارة الكريمة.

على مقربة من «فويلتا ديل ميكو» ترك «خوامبو» مقود «الموتوكار» لـ «جو ماكر تومبسون»، وبفضل سرعتها الأولى، ودفع الريح لها، تمكنت المركبة من بلوغ مؤخرة المصطبة التي كانت تبدو وكأنها تسرع مثل عبارة خشبية يحملها سيل من أسرع سيول نهر «الموتاغوا».

كان كل شيء يجعل سمبيتو يستشعر بأن... مع أنه الرئيس، وهو بالنسبة له معصوم من الفشل في هذه التجربة، يوشك أن... أن... أن... كانت «فويلتا ديل ميكو» تلوح أقرب فأقرب... وسكة الحديد تدخل، لدى ذلك المنعطف اللعين، بين منحدرات وحواجز من الصخور... ولدى مرور العربة من جانب سطح التراب كان الرمل ينساب مثل خيوط حباكة تنسل، ومع صوت الخيط، كانت رشات من حصى ورمل تسقط... أحجار تارة، وطوراً تراب... وكأنه انهيار... بتلك السرعة، وبذلك المقدار من العجلة وإلى ذلك الحد الجنوني، كان الرئيس يسوق!...

أخذ خوامبو يصلي:

«أيها القديس بنوا، أنقذ سمبيتو! أنت أسود أيها القديس بنوا الصغير، لكن «خوامبو» خلاسي، وهو أيضاً يكاد يكون أسود. أنقذ سمبيتو، يا قديس بنوا، يا قديس بنوا، يا قديس بنوا...».

المنعطف. لم يكن هناك متسع من الوقت. قفز خوامبو إلى الوراء عندما رأى العربة، وقد فقدت اتجاهها، تحيد عن السكة ثم تنفصل عنها كما لو كانت العجلات في اندفاعها الجنوني تحاول اللحاق ببعضها للتمكن من شيء تستمسك به في كوع المنعطف الضيق.

كان الرئيس متشبثاً بأغصان معترشة وهو يتأرجح فوق السكة المغطاة بغبار أبيض، في حين كانت المركبة، وبداخلها الزائر الكريم، تهوي إلى الفراغ، مستديرة حول نفسها مرتين أو ثلاثاً...

«لقد انقلبت!... ألم أقل ذلك؟» جاء سمبيتو ليصرخ في أذن ماكر

تومبسون الذي قفز إلى السكة بعد أن ترك الأغصان المعترشة التي كان يتشبث بها.

هرع الاثنان إلى حافة المصطبة الترابية ليبحثا عن العربة والزائر...

لم يكن يشاهد سوى منفذ أحدثته العربة أثناء سقوطها بين أشجار مقتلعة وأغصان مكسورة، قبل أن تندفن في طبقة من الرمال، حيث كانت عجلاتها تلوح في الهواء وهي لا تزال تدور.

اندفع سمبيتو من أحد الجوانب؟، متشبثاً بالأغصان تارة، منزلقاً طوراً، ليبحث عن الزائر. لاشيء يرى. كان غبش الغسق يزداد كثافة. توقف عدة مرات ليخمد وقع خطواته، وليسمع أفضل. ولكن حتى لو كان يتمتع بسمع أرهف، فإنه ما كان ليسمع شيئاً، لأن الزائر المحترم لم تعد له أية صلة بهذه الحياة. كان ذلك ما بدا له على الأقل. لكنه كان مخطئاً. إذ إن الرجل كان لا يزال يتنفس وهو ممدد على ظهره فوق صخرة كبيرة، بارد الجفنين، منفرج الفم، خائر القوى. أطلق صرخات كي ينادي الرئيس ويستعجله مع القوم الذين جمعهم بواسطة صفارته وقد نزلوا معه إلى أسفل الوادي يقودهم الفضول أكثر من الاهتمام. وتوجب فتح ممر بالسواطير، لإخراجه من هنالك. ثم شبكوا سواعدهم على هيئة محفة وبدون هزهزة، رفعوا ذلك المسكين الذي كان جلده الشمعي الأحمر، بدل أن يذوب من الحرارة، قد برد.

مددوه على جزء من المصطبة الرملية أقل خشونة، في حين أسرع أحدهم على صهوة حصان ليأتي بعربة «موتوكار» أخرى وقد أردف «خوامبو» وراءه ليعود بالعربة. ليل دامس. خطوات حيوانات مفترسة... توجب إشعال النار لإبعادها. ولقد تسلق ماكر تومبسون إحدى الأشجار، من باب الحذر، ليقوم بالحراسة بمسدسيه المحشوين. والهجوم، حسب رأيه، قد لا تقوم به الحيوانات المفترسة فقط، وإنما الأعداء الآخرون أيضاً: البشر. كان الزائر المحترم يعاني من حشرجة الاحتضار. كان يختنق

وعيناه الزرقاوان كابيتان، واللعاب ناشف على شفتيه، وشعره معفر بالتربة وبالرمل. صمت مطبق للحضور، ذلك الصمت الذي يتفشى من شخص إلى آخر عندما يكون أحدهم يصارع بين الحياة والموت من أجل البقاء. خفافيش، حشرات، خفافيش تتقدم أزواجاً وعندما يتشعب طيرانها، تبدو وكأنها تنقسم شطرين. فضوليون آخرون... أمر لا يصدق. كان يبدو لهم من الغريب أن يموت واحد من «هؤلاء» بهذه الميتة التي ليست مقدرة إلا للكادحين وأطفال البلاد، الذين كانوا، ذات يوم أو آخر، يتهشمون مثل البهائم في الغابات المستصلحة، لدى جلبهم للحجارة. أولئك الذين لا أهل لهم... والذين لا توضع على قبورهم صلبان. يدفنون... ثم من عساه يسأل عن هويتهم؟

عاد الزائر المحترم المصاب بجروح بالغة (لم يعد إلى وعيه) والرئيس بغليونه في فمه في العربة التي أتى بها خوامبو. كانت النجوم تزدحم وتتراقص بالآلاف فوق فرجات المزارع ومفارق الغابة. وصلوا. كان خبر الحادث قد انتشر. ومن المنازل المضاءة بابتهاج كان القوم يخرجون للمشاهدة. في حين كان الأطباء والممرضات ينتظرون بصدارات وقلنسوات بيضاء.

«شكراً أيها القديس بنوا لأنك أنقذت سمبيتو! هو ليس أسود مثلك، ولكنه يكاد يكون أسود» كان «خوامبو» يعيد، في حين كان الجميع يسألونه عن تفاصيل المأساة.

كان الشيء الذي يلح عليه سمبيتو في المقام الأول، هو المعجزة التي اجترحها القديس بنوا. ثم واقع كونه لم يكن هو السائق، وإنما الرئيس، و، في المقام الثالث، إن أي شخص آخر كان من شأنه أن يلقى نفس المصير نظراً لضيق «فويلتا ديل ميكو».

لقد نجونا، كان يوضح، أنا، لأنني قفزت في الوقت المناسب ـ وهنا تكمن معجزة القديس بنوا ـ والرئيس، لأنه تعلق ببعض الأغصان المعترشة. ولو أنه لم يفعل ذلك للقي نفس المصير الذي لقيه «المستر» الآخر...

لم يستعد الزائر الكريم، شارل بيفر، وعيه. ولقد أدخل إلى قاعة العمليات الجراحية ثم اخرج منها دون أن يمس. شجت قاعدة دماغه.

«شكراً أيها القديس بنوا لإنقاذك سمبيتو! هو ليس أسود مثلك، ولكنه يكاد يكون أسود!» كان خوامبو يكرر طيلة الوقت.

برز الفضاء المحيط بالجبال مع طلوع القمر. كانت الكلاب تنبح في العتمة. ونور المصابيح المثبتة على قبعات اللاعبين كان طاغياً بشكل من الأشكال على المصابيح التي كانت تضيء طاولة البلياردو بالذات. القماشة البيضاء تلمع وكذلك الأكر العاجية. وكان اللاعبون والمتفرجون يتبادلون بعض العبارات. لامس «سمبيتو» مرفق أحد الحضور، وهذا الأخير، بعد رؤيته والتأكد من شخصه، تكلف عدم رؤيته وحك مؤخرته.

لم ينتظر خوامبو طويلاً الـ «دون شوفو» في إحدى الزوايا، وحالما لاح الأخير في الظل، ذهب الاثنان إلى غابة، دون أن ينبس أي منهما بكلمة، وكانت رجلاهما مبتلتين بالندى الذي كان لا يزال فاتراً.

التحق آخرون بـ «دون شوفو» ليسألوه عن الحدث. فلم يفهموا شيئاً ذا بال. ولقد بلغهم أن الزائر المحترم كان مناصراً لتطبيق العدالة فيما يتعلق بقضية الأراضي. إلا أن المعلومات التي قدمها خوامبو حول الحادث لم تدع مجالاً للشك. كانت الكارثة نتيجة تهور «ماكر تومبسون»، غير أن الضحية يمكنها أن تعيش وتبلغ تقريرها للولايات المتحدة، الأمر الذي، في نهاية المطاف، يترك أملاً.

أما آل اسكيفيل، السريعون مثل النيازك على صهوات أمهارهم البيروانية(*) (وهم: إخوان من الأب فقط وثلاثة أبناء عم) فقد كان لهم رأي مناقض تماماً لمبدأ اللاعنف لدى «دون شوفو».

«ماذا تفعل عندما يأتي من يطردك من بيتك؟ الرد على العنف

(*) نسبة إلى البيرو.

بالعنف. حسناً. وبما أننا ننتظر حماية الحكومة، فإننا لا نفعل شيئاً، إلا أن هناك متسعاً من الوقت، شريطة أن نفعل شيئاً ما بالفعل.

ـ ينبغي إطلاق الرصاص! ينبغي إطلاق الرصاص! ينبغي إطلاق الرصاص! كان كل واحد من آل اسكيفيل يقول محركاً رأسه، وقبعته مغروزة على رأسه.

ـ طلب النجدة من خصائص النساء!» احتج شخص آخر مبيض العينين بقليل من القيح الذي خلّفه الذباب.

تدخل «دون شوفو» مدافعاً عن سياسته:

«لم نطلب النجدة من أحد. طلب النجدة شيء، في رأيي، والمطالبة بحقوقنا بالطرق الشرعية شيء آخر.

ـ هذه خديعة!».

وأضاف شخص آخر:

«محض خديعة! هنا في الأدغال، القانون مغاير تماماً والذي يحافظ جيداً على ما وهبه الله ليس عليه أن يقدم التماسات شرعية. بل يقوم بها برصاص البندقية: هوذا.

ـ قد يكون ذلك جيداً، لكنني من أنصار «شوفو» لأنه ليس معهم بل مع الدوريات. فلماذا عسانا نهاجم أولئك المشاة البائسين؟

ـ إنه يمثلهم، لأنه يدافع عنهم. إنهم جنود الظلم. أنا لو حاول حتى شقيقي أن يدافع عنهم لانقضضت على أخي. إن ذلك الشخص متواطئ معهم. لنحرق منازلهم على الأقل، بما أن لنا نفس النار التي يملكون. النار ليست وقفاً على أحد! أيها العربيد! النار من شأنها أن تغلي دماءك!

ـ أنت منا، يا «مانودو»، أنت منا! قال أحد «آل اسكيفيل».

ـ نعم ولكن ليس من أجل التوقيع على تلك الأوراق البالية التي تذهب إلى... أنا، يا أبنائي، أذهب معكم أينما تريدون وحيثما

تأخذونني، إذا كان «اليانكي» الميتون هم رسلنا إلى الله كي يقولوا له، بأنه ليس من حقهم معاملتنا على هذه الطريقة!».

قال «طانو» وهو أكبر آل اسكيفيل سناً، متلجلجاً:

«أولئك... أولئك... اليان... اليانكي الأوغاد، إنهم... إنهم ين... ينهبون منك كل ما... يقدرون عليه... ثم... بعد ذلك يقولون... بأنهم... قوم عمل...عمليون... رجال... أعمال!...

ـ أنت على صواب تماماً، يا «طانو اسكيفيل» إن نصف العالم يقف فاغر الفم أمام السرعة التي يكون بها اليانكي ثروتهم، لأنهم نشيطون، كما يقولون، وليس لأنهم قراصنة، وتلك هويتهم بالفعل...».

أخذت كرة السماء، ظلمة السكينة الشاسعة، تدور ببطء. لم يعد الزمن يتحرك. العيون تكاد تصطدم بالنجوم، النجوم التي كانت تلمع دائماً في نفس الموضع، هبة ريح خفيفة بين أغصان الجوز الهندي.

* * *

مات الزائر المحترم في بداية الصباح، دون أن يعود إلى رشده.

* * *

وأخذ ماكر تومبسون يصرخ، وكأنه يحاول مخاطبة أبعد الكواكب، ليتصل هاتفياً بشيكاغو. كان موقع الكرة بالكاد قد تغير. وكان الكوكب النائي بدوره في نفس الموقع.

* * *

تشتتت جماعات الساخطين لدى سماعها بموت الزائر المحترم، «شارل بيفر». كان سمبيتو هو الذي نشر الخبر. أما الرئيس فكان يفكر في السفر في أول قطار بضائع يمر، ليحمل النعش ويشحنه قبل أن ترفع الباخرة «توريالبا» مرساتها.

كان البحر أزرق باهتاً، بلون عيني الزائر المحترم «شارل

بيفر» الذي حمل الضباط جثته الملفوفة بعلم الولايات المتحدة إلى الباخرة، الأمر الذي وفر بعض الراحة لصفوف الرجال العارين، المقوسي الرقاب والرازحين تحت ثقل أعذاق الموز التي كانوا يحملونها من عربات سكة الحديد المتوقفة بالقرب من الباخرة، إلى الأنبار منذ ما قبل بداية الصباح وتحت ضوء عاكسات النور ومصابيح الخزف الكابي. خلاسيون، سود، مولدون، هجناء وبيض ذوو سواعد موشمة، كان يسحقهم ثقل الثمار. وفي نهاية هذا اليوم الخانق من العمل المضني، كانوا يلوحون وكأن أجسادهم قد مرت عليها، بعد أن صدمتها، قطارات وقطارات من الموز.

7

منذ الصباح الذي شحن فيه «جو ماكر تومبسون» جثة الزائر المحترم «شارل بيفر» بعد أن أغمض له عينيه الزرقاوين الكابيتين، ونظف الدم المتخثر على وجهه ويديه، ومنذ أن وضعه في «التوريالبا» التي تتمتع بالحصانة السياسية لبلده، لم يعد جو ماكر تومبسون إلى المرفأ، حتى ذلك اليوم، بعد عدة سنوات، عندما جاء لالتقاء ابنته «أوريليا» التي عادت من «بيليس» بعد أن أنهت فيها دراستها. لقد غدت الآن فتاة.

ملأه شعور الأبوة بحنو رقيق، كما لو أعيد إليه الدم الذي كان يتدفق في عروقه عندما كان يمسك بماياري بين ذراعيه، بعد تجربة الجزيرة، وهي المرة الوحيدة التي ضعف فيها قلبه. لم يشعر منذ خمس عشرة سنة بما كان يشعر به الآن وابنته تعود.

كان يجول ببصره القلق في الأفق، ويسأل خوامبو في كل حين:

«هل ترى شيئاً ما، يا سمبيتو؟

ـ كلا أيها الرئيس. أنا أرى أنها لن تأتي اليوم.

ـ والبرقية؟

ـ هذا صحيح. إذن سوف يأتي».

لكن عينيه، وهما تجوبان أفق الجون الذي كان يبدو وكأنه شبكة صدئة من رغوة زرقاء، وتحاولان التغلغل في الضوء الوسنان الذي كان يرتفع في الأبعاد الفاترة، كانتا تنضمان، كما يقترب عقربا ساعة، فوق ذلك اللسان الأرضي للجزيرة الصغيرة حيث كان قديماً يتقدم خلف كائن من حلم، كان قد ارتدى فستان زفافه ليتزوج النهر،... ولقد كان يناديها، في سره كان يناديها: ماياري!... ماياري!...

ـ ماذا تقول أيها الرئيس.؟

ـ إن كنت ترى شيئاً ما، يا خوامبو...

ـ لست أرى شيئاً...

ما من حب يترك ذكرى سوى الحب الذي لم يمتلك الجسد... النهار شفاف، وحار، عربدة ألوان. طيران بطيء للبجع. الأرض سجينة الإسفنج... «إنما هنالك كان من شأن ماياري أن تنتظرني، لو أنني هجرت المزارع وعدت إلى البحر، مع التروخيلي، لصيد اللؤلؤ...» ثم إن المركب الخيالي السريع الذي رأى نفسه يعود على متنه من الجزر امَّحى على بحر أفكاره الهادئ بفعل صراخ خوامبو. عادت عيناه إلى الانضمام مثل عقربي ساعة فوق الجزيرة الصخرية ولم يعد راغباً في سماع سمبيتو الذي كان يخبره بظهور مركب صغير، هناك في الأفق.

ماياري!... كلا، الفتاة التي تعود ليست ماياري... وتلك التي ينتظرها ليست خطيبته... بلحمها الخشبي ذي لون البرتقال، ونظرتها الناعسة، وعينيها الأبنوسيتين تحت الجفنين الناعمين.

* * *

خرجت «أوريليا» من القسم الداخلي في إحدى مدارس الراهبات، مسنة بطريقة مبكرة. وضفيرة شعرها متدلية على ظهرها. وجسدها بلا شكل، ومفرط في الطول، وكأنه لم يكن جسدها بل أنبوب ملفوف في بدلة رمادية يخرج من أحد أطرافها رأس ذو أذنين عريضتين...

ما القاسم المشترك بين ذلك الكائن والصورة التي كانت على مكتبه؟ في الصورة كانت بنية، ولم تكن جميلة، وإنما لطيفة. لاحظت «أوريليا» خيبة أبيها الذي، عندما فطن إلى ذلك، نسب انزعاجه إلى زيها المضحك الذي كان يجعلها تبدو على خلاف تلك التي كان ينتظرها، أكثر ترتيباً وأناقة...

وأخذ ماكر تومبسون يحدث نفسه غارزاً غليونه في ابتسامته المرة: «وبما أن المصيبة لا تنزل أبداً وحدها، ها إنها تضع نظارتين أيضاً...» ونظراً لكون النظارتين كانتا صغيرتين من أجل تقويم نقص في الإبصار، فقد كانتا تزيدان في عمرها أكثر من تسريحتها وهيئتها وبدلتها الإنكليزية.

وزيادة في المصيبة، أخذت ريح الشمال، خارج الجون، تجلدهم. وعندما استراحت «أوريليا» بعض الشيء من رحلتها البحرية المضنية، عاد بعض اللون إلى وجهها، بدل ذلك الشحوب الشبيه بشحوب خلاسية مصابة بداء حمى المستنقعات، وفي وسط وجهها كان إطارا النظارتين يلمعان، ولكن لمعانهما كان أقل من بريق أسنانها القوية والذكورية.

تناول خوامبو منها أمتعتها القليلة، التي وفر عليها رئيس الجمارك تفتيشها، ونقلها إلى «الموتوكار» حيث التحق به الأب وابنته وجلسا على المقعد: هي، تلميذة ومتحفظة، وهو، خائب الأمل ومرتبك.

تجاوزوا النخيل وكان يبدو مثل قنازع بحرية على أعناق زرافات طويلة ومخططة بحلقات، وهي تذوب في بريق أنوار الجون، تجاوزوه بعجلة، وبسرعة العربة التي كانت تبتعد عن المرفأ بشوارعه ذات الوحل الجاف المتيبس، وأكواخه، وبيوته البائسة، ومبانيه.

كان سمبيتو يسخر في داخله من الآنسة «أوريليا». كان منهمكاً في سخريته بفمه الواسع ذي الأسنان العارية ين الشفتين الغليظتين

المجبولتين من أجل القهقهات الصامتة. الخلاسي الماكر... هكذا كان يلقب نفسه، مدركاً جيداً أن ذلك المكر يشكل جزءاً من حياته. حياته تلك، والحيوات الأخرى للمافيا السوداء، والإيمان المقدس.

«لقد تم استقبال الآنسة «أوريليا» ببرود! قال معلقاً لزملائه في الغرفة... (كان يسكن في المبنى الصغير المخصص لرؤساء عمال الضخ). حقاً لقد استقبلت ببرود!».

غير أن طمأنينة الحرية، والغذاء الوافر. والمناخ الاستوائي، والسباحة، والنزهات على الحصان، وحفلات «الكوكتيل» والويسكي، والسيجارة وأسرار الجمال كلها حولت الفتاة المشوهة القامة إلى سمراء من أحلى السمراوات، مرحة وبشوشة، لم تحتفظ من سنوات الإقامة في مبيت راهبات «بيليس» سوى بالإنكليزية المتلعثمة للمجتمع البريطاني الراقي.

كانت تعامل أباها معاملة الند للند، الأمر الذي كان يعدل كل شيء. وبالنسبة إليها لم يكن والدها هو السيد تومبسون، وإنما «جو ماكر» بكل بساطة، والحق يقال، كم أن «جو ماكر» كان يحس بالارتياح بذلك الاسم المختصر الذي كانت ابنته تناديه به! كم إنه يشعره بالقرب من الأشياء البسيطة، ويملأه بالرشاقة ويحط عنه حمل الماضي ومسؤولياته وهمومه، كما يخلصه من ملل التحدث دائماً عن الأعمال، مثل التجار، الأمر الذي كان يغيظ عالم الآثار الشاب «راي سالسيدو»، وهو يانكي أسمر، من أصل برتغالي، أرسلته مؤسسة علمية لدراسة تطورات نقوش أسوار «كيريغوا».

«ما الذي تراه ونحن لا نراه على هذه الحجارة؟» كانت «أوريليا» تسأله، عندما كان عالم الأثريات يلبي الدعوة إلى شرب الشاي عندها، أو عندما تذهب مساءً إلى حانة فندق الشركة الذي كان قريباً، والذي يقيم فيه مع كتبه وخرائطه وآلات التصوير ومجموعاته من التماثيل واليشب وقطع الخزف والحجارة المنقوشة.

نخيل، نباتات مسيجة وصبار «كاكتوس»، جنبات(*) عطرة، ركام من زهور ياسمين تشبه نجيمات بيضاء معطرة إلى حدود التعسف، وزهور نزقة على شكل مهماز، كلها كانت تحيط ببيت «أوريليا» التي تركت يدها، أكثر من مرة ـ كما زهرة منسية من نبتة حزينة ـ في يد «سالسيدو». كانت الحرارة تقرب ما بينهما، وكذلك الصمت وتلك الكآبة التي تحدثها مدارات الاستواء.

«نعم، قل لي ماذا ترى في حجارتك؟

ـ صغيرتي!...».

كان نهدا «أوريليا»، كما النقوش التي يدرس تطورها، يبدوان وكأنهما يزدادان حجماً، في تكورهما الشبيه باستدارة الحجارة البيضاء، الناعمة المتصلبة بأبدية هشة العود...

«أنا أستحي من عدم فهمي... كل شيء شديد التعقيد!... أيها الخبيث، أنت لا تفسر لي...

ـ إذن، بأبسط طريقة ممكنة... النقيشات هي...

كانت «أوريليا» تمط وتوتر نهديها، مقلدة نبرة الأستاذ التي اعتمدها عالم الأثريات:

ـ هه إذن، «النيكيسات»...

ـ النقيشات، يا آنسة...

ـ قلت كذلك حتى لا تفسر لي... إلى اللقاء... الوقت المتأخر... و«جو ماكر» لا يطفئ مصباحه قبل عودتي إلى البيت... إلا أنه يهيئ نفسه للسفر إلى شيكاغو وعندئذ، سوف تفسر لي نقيشاتك، أمام الأعمدة...».

كان الليل المنقوش بالنجوم، مثل ظرف أسود مدموغ بأختام ذهبية ويتضمن سعادة البشر، يسد الأفق. ماذا يوجد في الجو

(*) الشجيرات القصيرة.

الملتهب؟ أي معطر خفي في فرن لحرق العطور؟ أي حلم نباتي يلف مع الكواكب؟

عاد «راي سالسيدو» إلى الفندق. كان جائعاً، ولقد التهم سندويشين ثلاثة ستة وعدداً من أكواب الجعة.

وفي الغداة، عندما كان يذهب إلى عمله منتعلاً جزمتيه، معتمراً قبعة الفلين ومعه كل ما هو ضروري، لاحت له بين أغصان الياسمين ورقة صغيرة سمراء أخذت تومئ له كعادتها كل صباح. توقف، وصعد ليحيي ساق تلك الورقة الصغيرة التي كانت تنام على أرجوحة وتنتظره كي تشتكي معه من الحرارة والحشرات ومن هذا اليوم الذي ستقضيه دون صحبة أحد تتجاذب معه أطراف الحديث، وكل أنواع الشكاوى السطحية لطفلة تريد أن تُدلل، إذ ما أن ينطلق «سالسيدو» للمثول أمام كهنته الذين من حجارة حتى تبدأ بإزعاج أبيها كي يوصي لها على كتب تبحث في فن «المايا» القدامى.

ـ لم تعد الأعمال تهمك إذن؟

ـ كلا. إن ما يهمني الآن هما البعدان الاثنان في نقوش «كيريغوا» ولغز الخط الهيروغليفي الذي لم يفك بعد، وهندسة مدن الطقوس الدينية... هل سمعت بـ «ناكوم»؟ ولكن، حالياً، أريد منك إن ترافقني عما قريب إلى «كوبان»...

ـ بعد عودتي من شيكاغو، لك كل ما تودين. ولكن كان على «راي سالسيدو» أن يرافقك. لماذا لا تطلبين منه ذلك؟

ـ لقد سبق له المرور بـ «كوبان»، ومن هنا سوف ينطلق نحو «بالنك...».

وهكذا لم يكن لها من بوصلة أخرى سوى قلبها، وآلت نزهة الجياد التي كانت «أوريليا» تقوم بها، صباحاً أو مساءً، إلى المزارع برفقة أبيها لتقدير ثروتها تخميناً على طريقة «البانانيروس»(*) النشيطين، إلى زيارة يومية لمصاطب «كيريغوا»

(*) مزارعو الموز.

المدينة التي شيدت في العصر الذهبي لثقافة «المايا»، حيث لم يكن يبدو على عالم الأثريات الأسمر ذي الشعر الأسود والعينين الخضراوين أنه كان يبحث، وإنما ينتظر أن تنبثق من فم قساوسة الحجارة المفاتيح التي من شأنها أن تمكنه من فك سر عشرات القرون.

«الحياة تتكون من بدايات لا نهاية لها... وتأتي النهاية أخيراً، ولكن في غضون ذلك، كل شيء ليس سوى بدايات!...».

هكذا كان يفكر «جو ماكر» عشية عودته من السفر، ورأسه تحت قبعة رعاة البقر العريضة الحافة، بين أوراق أشجار الموز، على إيقاع ترتيلة دينية كانت تنشدها ابنته. وكانت طريقة سير الجوادين تنشر في جسديهما تلك الحركة التي يشعر بها المرء، في العشية، وهو يقوم بالملاحة في أحد الأنهار.

* * *

«يا يثوع المثيح!... ثيدي!» هتف خوامبو الذي لم يكد يتوصل إلى ابتلاع صفيره خلف باب مغسل الثياب الذي أوصده لتوه، ومر بيده على وجهه راسماً علامات الصليب بأقدام عنكبوت.

وإذا كان الخادم الجيد يرى دون أن يبصر ويسمع دون أن يتنصت، فإن خوامبو لم يبصر ولم يتنصت، رغم أنه، كله آذان صاغية وعيون مفتوحة، والجزء الذي لم يكن في الخدمة المنزلية، من شخصيته، كان يبصر أكثر مما يراه وينصت إلى أكثر مما يسمعه. لازم حالة المتفرج المغتم قبل أن يعبر عن استهجانه بتحريك رأسه، طاحونة الشعر الصغيرة بتلاعها التي من رغوة شوكولاته، والإيماء بصمت وعيناه جاحظتان وشفته العليا منقبضة...

ابتعد عن الباب. يا إلهي لو فوجئ وهو يتجسس!... أية ضربات! أي وابل من الصفعات كان سيتلقى! قبل الذهاب لمضمضة فمه المهشم المدمى... ولكن كلا، لم يضرباه فقط عندما فاجأهما بل واصلا بوقاحة أمامه، مستخدمين إياه كحاجز واق من الهواء...

كانت الأرضية تطقطق تحت أقدامهما في جلبة الكروان الأرضي(*) و«السانات» وطيور «العلعلة»(**) وإناث الببغاء، التي كانت تملأ أنحاء السماء حباً، بين أوراق الأشجار التي زهرها أحمر، وأوراقها من عسل أخضر، وكانت رفرفتها المرحة تسمع ليس فوق سقف مغسلة الثياب فحسب، ولكن من تحت أيضاً، بين كل ذلك الغسيل، حيث كانت توجد الآنسة وعالم الأثريات...

كانت مغالق النوافذ لا تفتح يوم الأحد من ذلك الجانب من المنزل، ولم يكن يوجد أحد باستثناء خوامبو. كان يمر من هناك، في الضحى، مرتدياً بدلة النزهة مدندناً بلحن لرقصة «فالس»: المشنقة، دون معرفة ما الذي كان يعجبه فيها أكثر، الموسيقى أم الكلمات:

أرْقُصْهَا، أرْقُصْهَا رقصة «الفالس» التي أرقصها ليل نهار،
أرْقُصْهَا ولكن إياك ووضع الشعر المستعار،
شعر الملك الصالح الذي أضاع على المشنقة
تاجه ورأسه والرقبة!...
أرْقُصْهَا إذن رقصة الفالس التي أرقصها
فأنا الموت، وأنت ربما بذلك خمنت...
تاج فرنسا فوق رأسي قد وضعت
معه تاج المسيح، تاجه إكليل شوك!

ولكنه إذا لم يكن يعرف (كان أحد مواليد «أوسمو» يغنيها) ما الذي كان يعجبه فيها أكثر: الموسيقى أم الكلمات، فإن سمبيتو لم يكن ليقدر أيضاً على القول ما إذا كان مروره يوم الأحد أمام غرفة الغسيل، هو من أجل شم رائحة النسوة الغسالات تلك الرائحة التي

(*) courlis: جنس طير من فصيلة دجاجيات الأرض.

(**) calandre: جنس طير من فصيلة القبريات.

كان يعبق بها المحل، كل يوم سبت، رائحة أقوى من رائحة الغسيل وأحب إلى ذوقه من رائحة القطران ورائحة البرنيق في عارضة السقف المحمي بصفائح التوتياء.

رائحة الأنثى ـ رائحة الليل، رائحة الاحتفال، رائحة الأبد ـ المتأججة في ذلك الحمام المضطرم، كانت تجعل خوامبو يحس بوحدة الخلاسي البائس المحكوم عليه بالبقاء أعزب، لأنه في خدمة ماكر تومبسون يُعَدُّ زوجة نوعاً ما، منذ ترمل هذا الأخير. أوه! ما من إثم، ولكن لأنه كان يخدمه بنشاط وطاعة عمياء ويخشاه أكثر من الله ذاته. ألم ينتشله الرئيس من بين مخالب النمر، عندما هجره أهله في الغابة وتركوه فريسة لذلك الحيوان؟ ثم رباه كطفل مجهول الأبوين في بيته، وبما أنه ترتب على خوفه من النمر أن غدا عرضة لهجمات القديس بنوا الشريرة، فقد شفاه مهدداً إياه بالموت بمسدسه المفرغ الذي كان يسدده إليه في قلبه لدى كل نذير بنوبة. ولهذا، بدل الهزات التشنجية، صار جسده بكامله يرشح بعرق مثلج تقريباً، له رائحة البول البارد الذي يتعفن به المحتضرون.

رسم إشارة الصليب مجدداً وهو يبتعد عن الباب، ويفكر في رئيسه. لو علم بذلك لقتلنا كلنا. من حسن الحظ أنه ليس في البلاد وإنما في الخارج، في شيكاغو... ما أطرف أسماء القرى التي توجد هنالك!... لقد ولد في تلك القرية، ولكن اسمها كان ينطق «شيكومو» بالأحرى.

وما كان يروق للخلاسي أكثر من النساء، إنما هو رائحة الأنثى: ذلك الكائن الذي يفقد دمه ويستعيده، بسبب القمر. وعطلة الأحد بالنسبة إليه كانت تتمثل في الذهاب لتشمم رائحة المرأة المكثفة في مغسلة الملابس، والممتزجة بالرائحة الحامضة للنيلة التي يزرق بها الغسيل الأبيض لتمكينه من التذكر ماذا كان لون السماء، ولكي يبقى أنصع بياضاً، مثلما هو الحال بالنسبة للسحب التي تزرق، مساء، لكي تلوح في الصباح ناصعة البياض. هل توجد

متعة أكبر، بالنسبة لرجل وحيد، من الاستسلام لما كان يستمر هناك: من لحم أسمر يعبق برائحة الماء البليل، وأياد لينها لمس الرغوة المداعبة وألهبها قليلاً لذع الصابون، وسواعد وأذرع متعبة من فرط عصر الغسيل قبل نشره، وعيون جميلة تلمع عاكسة التيار النهري الذي تعيش فيه، وضحكات كأنها مسننة، وتلك الكلمات المحرقة، مثل لعاب البركان الذي يسيل مشعلاً كل ما يلمسه، دون أن يترك رجلاً على قيد الحياة؟...

كانت متعة خوامبو يوم الأحد هي في الدخول إلى هناك، والمكوث لحظة ثم الخروج مع تلك المنشفة التي كان ينساها دائماً. منشفة المغسلة في قاعة الأكل. باستثناء هذه المرة، التي توجب عليه فيها أن يبتلع من جديد «فالس المشنقة» ويعود إلى الاختباء، كما لو كان يخشى هجوماً، وهو يمص أصابعه كي يختبر حموضة أظافره الوسخة.

تلال من شمس بيضاء، كما لو بدل الغسيل دخلت مع الشمس لتتكوم في الظل: دنيا كاملة من الملاءات والمناديل والمناشف والأسمطة وأكياس الثياب، المتقصفة مثل أوراق يابسة تحت جسديهما. كانت «أوريليا» تمد رأسها إلى الخلف كي تترك كل حيز كتفيها العاشقين لجبين «راي سالسيدو» الذي كان يراها تغمض عينيها، ذبيحة على صخرة القرابين بعد أن تذوقت الهواء بحدقتيها، كما لو كانت تلك آخر مرة ترى فيها العالم. (أغمد الكاهن المزدهي بأفخر الحلل في صدر المعذب خنجره السبجي(*)، دمعة باردة من الأرض، من الأرض التي تبكي حجارة، واستل قلبها الملتهب مثل طائر ناري). «يا له من ثأر! كانت تقول. أوه! نعم، يا له ثأر»...

لاواقعية المواد، من كتان وقطن، المشبعة بالرائحة القوية من شجر التمر الهندي، والتي كانت بنزوتها تنتقم فوقها من الزمن الذي قضته في المدرسة دون أن ترى جسدها البتة. «أوه! نعم يا له من انتقام! يا له من ثأر!» كانت تعيد وهي تتحسس بفمها المتأوه باحثة

(*) السبج: حجر زجاجي أسود.

عن فم رفيقها حتى وجدته، قريباً من شلال حدقتيه الخضراوين، المنسكب فوقها! يا له من ثأر من أبيها الذي لم يناولها حتى يده عندما جاء لاستقبالها في الميناء، عندما كانت عائدة من المدرسة بعد أعوام عديدة من الغياب!... ولكن، لكم تعذبت أكثر، نعم أكثر، عندما أشعرها ذلك الأب بأنها لم تكن جميلة!... فتاة بائسة فاقدة للنضارة، بنظارتين، وشعر مضفور في خصلة سوداء، وفستان من القماش الخشن مثل قنب خيمة!... «أوه! نعم، يا له من انتقام! يا له من ثأر!...» كانت حموضة العرق تملح قبلاتها، ولكن ليس أحلى من الاستسلام هكذا، كلياً، وبطريقة جنونية، وفي إهمال تنتقم به من كل ما ألحق بها... آه أيتها القبلات الساخرة مثل ضرب السياط، قطيرات دموع تحت الجفون! الانتقام من الوجود... الانتقام من قسوة أولئك الذين وهبوا لنا الحياة (أبوها لم يصافحها حتى، ولقد كانت عائدة من مكان بعيد جداً، من القسم الداخلي الذي يعود منه اليتامى، كما من عالم مقطوع الرأس)... ومن رغبتهم في أن نكون ما كانوه وألا نكون ما لم يكونوه، وأخذا كلاهما يسبر أعماق الآخر إلى حدود النحيب... للحب الشهواني تلك الخاصية الانتقامية التي ليس يدرك لها كنه...

* * *

انطلق خوامبو، وقد فك أزرار قميصه الخاص بيوم الأحد، ليبحث عن الحنفية ويبلل رأسه الموشك على الانفجار. ترك الماء ينبجس بكل قوته كي يتدفق بعنف في أذنيه وعلى رقبته وظهره حتى أسفل صلبه. سد أذنيه اللتين كان يحس وكأنهما منفاخان استخدما لإذكاء النار، قلب خدا كي يبلله، أغمض عينيه، وضع أنفه تحت الماء المتدفق وأخذ ينفخ ويستنشق، وانتهى بأن بلل جبينه وخده الثاني ورقبته. ثم انسحب كي ينفض رأسه مثل كلب مبلول وكان قد ملأ فمه قبل إغلاق الحنفية، وبعينين ساهمتين ذاهلتين، مكث هناك يلهو بالماء المنساب من خد إلى خد كما لو كان يفعل ذلك لمتابعة الإيقاع الذي كان قلبه يخفق به مع الدم الذي كان يغسل عروقه...

ولكن لماذا التظاهر بالفرح، والحال أنه كان حزيناً، جد حزين؟...

* * *

بقي من الرئيس الذي سافر إلى «الولايات المتحدة» ثلاث صور على مكتبه:

صورة «ماياري» التي كان خوامبو لا يكاد يعرفها. كان صغيراً جداً، لكنه كان يحبها، وكان يقبل الصورة كلما كان بمفرده، لأنها دافعت عن الفقراء؛

صورة «دونيا فلورا»، ولترقد بسلام، على بطنها، حتى إذا ما بعثت حية، لسوء الحظ، وحاولت الخروج، غاصت أكثر؛

وصورة الآنسة «أوريليا».

ومن الرئيس، بقي أيضاً على مشجبه قِرَابُ مسدسيه... كان جد حزين. وضع أصابعه في الجيبين الجلديين اللذين لم يعودا يحويان السلاحين المزرقين، الساعتين الأشد دقة في تحديد الساعة. الوقت. («لخيالك شكل قراب مسدس، كان الرئيس يكرر له، وحذار من اليوم الذي نرتاب فيه أكثر من بعضنا فتخرج مسدسك الذي تخفيه في ذاك القراب!»).

ومن مكتب الرئيس توجه إلى غرفته، ومنها إلى مخزن الغلال. الذي كانت تفوح منه رائحة العنكبوت وخشب الأرز الشائط، غبار العث وبراز الجرذان. سقط جالساً خلف صناديق، مدركاً ما كان يفعله: تعريض نفسه للدغ العناكب وعقارب الساحل. ولم تتأخر صاعقة تلك الحشرات عن صعقه في دمه. اصطكت أسنانه. وأصابه صمم. والتصق لسانه بلهاته وكأنه يبتلع خاتماً، جف لعابه وتسارعت دقات نبضه وأخذت رشقات مدفع متواترة تكتسح جسده.

* * *

استيقظ في قاعة يلفها الصمت، حيث كان عدد من الكائنات

يتمدد مثله بلا حراك فوق الأسرة، من دون أثر للحياة سوى رفات جفونهم. قرب السرير، وبجانب الممرضة وهي في لباسها الأبيض، كانت «أوريليا» و«راي سالسيدو» بدورهما يرتديان الأبيض مع أحذية لا تحدث وقعاً، وهما ممسكان بمضربي كرة مضرب. لم يعد إلى إغماض عينيه لأنه لم يقدر على ذلك. فمكث ينظر إليهما نظرة هادئة مائعة... وفي أذنيه كان ذلك المولود في «أوموا» ينشد له الفالس:

أُرْقُصْهَا، أُرْقُصْهَا رقصة «الفالس» التي أَرْقُصها ليل نهار،
أُرْقُصْهَا ولكن إياك ووضع الشعر المستعار،
شعر الملك الصالح الذي أضاع على المشنقة
تاجه ورأسه والرقبة!...

* * *

«هذا ممكن!... هذا ممكن!...» قال «راي سالسيدو». لكنه كان يعلم جيداً أن ذلك كان مستحيلاً. رافقته «أوريليا» إلى المحطة مائتي خطوة. وكان «خوامبو» يحمل الحقائب...

وهنالك في أفق البحر، كانت الأراضي المنخفضة تختلط، خضراء معرضة للزرقة الشديدة، منذرة بزوبعة مسائية خانقة يتعذر معها التنفس أحياناً.

الزوبعة تقترب. بروق تلمع من اصطدام السحب الممغنطة، رعود تدوي محطمة سبطانات الصدى، زجاج شفاف يقطر من الأمشاط المستخدمة في حلج أعراف الخيول النارية... ثم السيل المدرار بأسنانه الطويلة الرفيعة لتمشيط المشهد. كلس رطب، كلس ميت، كلس داكن، كلس مخضر، كلس محمر من المحيط الجوي على جلد هذا الحيوان المبلول: الساحل.

كانت أوريليا وهي تعود الآن من المحطة بمفردها، تسترجع الإحساس الكامل الذي شعرت به عندما خرجت مع «راي سالسيدو»

وقال لها: «هذا ممكن!» مرتين، ثم أخذت تحث الخطى وهي مبتلة تقريباً بمطر مفاجئ... سحب متفتتة مثل الأحلام. بروق تضيء تجويفة بوق الرعد. والفرار من أجل التنشف من ذلك المطر المدرار. أحسَّتْ بظهرها عارياً من صدار القماش الأبيض، ظهرها مُعَرَّضٌ لتقلبات الجو، ظهرها في مواجهة اللانهاية...

أما كل ما تبقى فكان مضطرماً، كان مضطرماً لأنهم خرجوا من البيت في عز الشمس الحارقة... حتى لحظة الوابل الذي أخذ يرجم نوافذ القطار، ولحظة الرعشة التي تملكته عندما قبلته لآخر مرة بفمها الندي الدافئ بين شفتي حبيبها.

لم تمطر السماء إذن ولم تبتل الأرض إلا لكي يرحل، لكي تظل هي وحيدة، من دونه، وظهرها عار في مواجهة اللانهاية، ومن السواحل البركانية المشتعلة بالحرارة اللاهبة وبالمحيط الشاسع المضيء، كان ثمة نعاس يتصاعد بخاراً من حلم حيث الواقع يمَّحي.

دعي أشعة القمر تَمْضِ. هذه الليلة يداك سوف تلامسان الفراغ. يداك المرصعتان بلؤلؤ الندى... يداك الباردتان وكأنهما يدا شخص آخر على وجهك الملتهب من الحمى، وتجسين جسدك فتجدينك غائبة، نائية، غريبة. إنها حالات ثلاث مختلفة. أنت غائبة عندما لا يحيط بك من يحبونك وتحبينهم. نائية، عندما تكترثين قليلاً، أو لا تكترثين بالمرة، بمن يظنونك حاضرة. وغريبة... آه! يا للإمكانية الفظيعة!... غريبة، غريبة عن جلدك بالذات عندما لا ترسمين خريطة أمريكا «كِ» الوسطى التي تجسدينها جيداً عندما تضطجعين على خاصرتك وساقاك منثنيتان قليلاً...

كان يقول لها كل ذلك، وهو يضاجعها، كان يقوله بعينيه الخضراوين... أمس! أمس! في الساعة التي أعقبت المضاجعة. أغمض عينيه فجأة وتمدد فوقها، أعمى، ورأسه ملتصق بجسدها العاري وهو يسندها أحياناً على نقيشات الأعمدة.

تذكرت أباها، الآن و«راي سالسيدو» قد بلغ المرفأ على

الأرجح. سمته باسمه. جو ماكر. كان أبوها مقترناً برؤيتها للمرفأ. يمكنها أن تمكث في أرجوحة النوم. إذ إن «خوامبو» وملائكتها الحارسة التي هي كلابها الطويلة الآذان يحرسونها ضد كل ما هو مهدد، هادئ ومهدد...

لماذا كان حبها الأول ضرباً من الانتقام؟ لم يعجبها اقتراب هاتين الكلمتين. لماذا كان حبها الأول ضرباً من الانتقام؟ لم يكن ذلك يعبر بدقة عما كانت تريد قوله. لم تكن تجد... كيف أقوله إذن؟ أبي! أبي!... father! father!... لم أسلم نفسي بدافع الحب، وإنما بدافع الانتقام، بدافع حب كان انتقاماً، انتقام... ولكن ممن؟... من نفسي، من الحياة، من العالم بأسره، منك أنت... أبي! أبي!... father Father... مم عساني أكون انتقمت؟ مم؟... أية غريزة أرضيت عندما سلمت نفسي، بما أنني كنت أعرف أن موسيقى الحب الوحيدة التي يمكنني سماعها فيَّ أنا لن تكون سوى نعيق الغراب على امتداد أيامي ولياليّ؟...أبي! أبي!... father! father...

كانت الملائكة ذات الآذان الطويلة، كلابها، تنصت حتى إلى أرق النسمات بين سعف النخيل المبتل والمنتصب في وجه الأفق المظلم، مثل أعمدة من ظل مزودة، على ارتفاع ما، بأوراق من صمت. أي الكلبين الاثنين فتح جفنيه أولاً؟ أيهما كان الثاني؟ كلاهما، بعيونهما الكريستالية الأربع، المتيقظة، اللامعة بين أهدابهما، حدقا في «سمبيتو» الذي لاح من الدرج ومعه كوب مملوء بسائل أحمر.

«جئتك بمرطب من شراب الرمان... الطقس حار جداً! قال، بتوسل، ومكث هناك، يتنهد، والطبق في يده.

ـ نعم، أنا عطشى. لقد دخنت كثيراً...

ـ وربما ذهبت للنوم... لقد أوشك منتصف الليل... سأبقى هنا، عند الباب، في حالة احتياجك إلي. ثم علي أن أطرد هذين الكلبين، لأنهما سوف يملآن المكان بالبراغيث...».

نزل الكلبان الواحد إثر الآخر، بعد أن نهرهما خوامبو، وهما

يتثاءبان بشدة. فتبعهما كي يذهب إلى غرفته ليأتي بغطاء ويعود للنوم على فراش ميدان وراء باب الآنسة.

بدأت «أوريليا» تخلع ثيابها. تعرت تماماً. مع هذه الحرارة! لم تترك سوى سروال داخلي صغير لم يكن إلا نسمة من حرير أزرق. وأثناء تسريح شعرها، أثناء تمرير مشطها في شعرها الأسود، كانت تردد هذه الأغنية التي كان يصفرها «راي سالسيدو» محدقاً إليها بعينيه الخضراوين:

سيدتي، سيحيلونني وأنا بين ذراعيك،
إلى حية، عظاءة،
فعانقيني جيداً، ولا تهجريني،
أما زوجك، فليذهب إلى الشيطان!
سيدتي، سيحيلونني وأنا بين ذراعيك،
إلى أيل بري صغير،
فعانقيني جيداً ولا تهجرني
والد طفلك...
سيدتي، سيحيلونني وأنا بين ذراعيك،
إلى قضيب أحمر من نار،
فعانقيني جيداً، ولا تهجري
زهرة شهوتك...

بين أسنانها الذكورية القوية، إحساس غريب بلعاب دبق وبطرْق المقاطع اللفظية الأخيرة في المقطوعة المذكورة أعلاه والتي كانت ترددها، بلا مبالاة: «The father o'your child... the father o'your child» «والد طفلك...» كان المشط لا يزال في يدها وهي تسرح به مواصلة تذكر صوت «راي سالسيدو»:

عندئذ سُمِعَتْ صرخة رعب عالية:

«تام لين» غادرنا!...

لقد أحالوه وهو بين ذراعيها،

إلى حية، عظاءة.

لكنها كانت تضمه بشدة إليها

لأنها لم ترتض زوجاً سواه.

فأحالوه وهو بين ذراعيها،

إلى أيل بري صغير،

لكنها كانت تضمه بشدة إليها،

والد طفلها...

ثم، اللعاب الدبق بين أسنانها، وتكاسل يدها في تسريح شعرها، وطرْق المقاطع نفسها:

«The father o'your child» والد طفلها:

لقد أحالوه وهو بين ذراعيها

إلى رجل عار، عار تماماً،

لكنهم ستروه بمعطفها الأخضر

عندئذ... كانت له...

تمددت على فراشها، واسترخت منهكة... كانت الحرارة الخانقة لا تترك مجالاً للنوم... كما لو أن المرء تلقى بخاراً مندفعاً من قاطرة في وجهه... لقد جابت المزارع مرات عديدة في المرفأ مع سائق الآليات... لم تعد تتحمل... نهضت كي تتأكد بيدها من الشيء الذي كانت متيقنة منه، بما أنها كانت تراه: إن النافذة كانت مشرعة ولا تحميها سوى الستارة... قربت أصابعها من السياج الدقيق الذي كانت تطن وراءه، في الخارج، الحشرات محاولة الوصول إلى النور المضاء في غرفتها... «تام لين

غادرنا!...» ومن هي، هل كانت سوى كائن آخر ضئيل، تعصف به كل الرياح، مكروب، على باب السعادة يحجزه القدر!... عادت إلى النوم بسروالها الصغير الأزرق، ونهديها الشبيهين بنقيشات الأعمدة وقد تغير حجمهما... يائسة من ذلك الفراش الذي لم يتبق فيه أي موضع لم يدفئه جسده... آه! لقد كانت زهرة شهوته قضيباً أحمر إذن! «لقد غطيته بمعطفي الأخضر، وهكذا كان لي!».

* * *

رآها «خوامبو» نائمة تحت الملاءة البيضاء، فطفق يجول بعينيه الجاحظتين وقرنيَّتاهما مثل الطباشير الأبيض، متذكراً ذلك الصباح الذي فاجأها مع... أحدهم في مغسل الثياب، فوق كومة الغسيل، في ظل يوم الأحد. كانا الكلبان قد صعدا من جديد وراءه. وأخذا يلعقان يديه، الخشنتين من فرط استخدام «الموتوكار». تسلل جرذ ما بين قدميه. اقتفى الكلبان أثره وهما يحكان الأرضية. ثم عادا إلى مقربة من الباب وهجعا مع سمبيتو الذي تمدد فوق الأرجوحة.

ملأ الصمت الغرفة. الجميع ينامون الآن...

8

«لا يوفر نعليه، لكنه يأتينا بأخبار جيدة»، قال رئيس الشركة مخاطباً شيخ «ماساشوستس» الشبيه بالسعلاة، حالما سمع وقع خطى الزائر الذي كان ينتظره.

وكان الشيخ «السناتور» قد وضع يديه الشعراوين حتى منبت الأصابع، على أذنيه الشعراوين، ليعبر عن الانزعاج الذي كان يسببه له وقع قدمي ذلك «البانانيرو» المتوحش على أرضية الخشب المصقول التي كانت سابقاً أرضية لأحد أفخم مباني شيكاغو، ثم اشترتها الشركة، بعد الحرائق، بسعر بيع تصفية للأنقاض.

وكان حذاء «جو ماكر تومبسون» يرن على هذه الأرضية، قبل أن يلوح وجهه من باب مكتب رئيس «التروبيكال بانانيرا. اس. آي.» الذي لم يكن ذلك الطرق يزعجه البتة، بما أنه كان طرق منتصر.

«إنه حيوان! احتج إنسان الغاب الأبيض، شيخ «ماساشوستس»، ساخطاً.

ـ وماذا يريد السيد «السناتور» من سكان خط الاستواء أن يكونوا؟

ـ حيوان!

ـ ها هوذا!

ـ إنه يمشي، ألا تسمع؟ آه! بصدد المشي، بلى، إنه يمشي!

ـ إنها خطوات النصر، سيدي السناتور!».

كان «جو ماكر تومبسون» يتخيل الكرسي المريح الذي سوف يجلسونه عليه للاستماع إليه والسجائر التي سوف يقدمونها له بعجلة، النور الملطف من النوافذ ذات المغالق الخضراء، خرائط أمريكا الوسطى البائسة المخططة كما بجراح مندملة وهي معلقة على الجدران، وكل ذلك لم يخفف من حدة وقع قدميه وهو يتقدم. بالعكس فإنه عندما اقترب من الباب، زاد في تأكيدها.

«هلا تفضلت بالجلوس، سيدي ماكر تومبسون؟ سأله رئيس الشركة بلطف. ها إنك وصلت أخيراً».

رفع إنسان الغاب الأبيض، سناتور «ماساشوستس»، عينيه الضيقتين بلونهما القريب من لون قطعة حلوى وردية، نحو الزائر الثابت في مقعده، ثم قال:

«لقد دعوناك بسرعة، يا سيد ماكر تومبسون، كي نسمع، منك شخصياً، المعلومات التي لدينا حول إمكانية ضم تلك الأقاليم إلى جمهوريتنا، إذ إننا لم نضم أي بلد منذ 1898، وهذا الأمر لا يمكن أن يتواصل... ها!ها! ها!...».

وأخذ يقهقه بشدة، كما لو كان يضحك بكل شعر جسده الأشقر الذي كان يلوح بارزاً من كميه ومن ياقته، مثل ضرب من الرغوة المذهبة.

«السابع من تموز، تدخل الرئيس قائلاً، سوف يصادف الذكرى الثامنة ـ الثامنة أو السادسة ـ لضم جزر هاواي، والسيد سناتور ماساشوستس، الحاضر هنا، لم يكن بعيداً عن ذلك الفتح. إنه فني، خبير في مسألة ضم الأراضي. ولهذا دعوتك.

ـ إنه لشرف عظيم!» هتف ماكر تومبسون المستغرق بتثاقل في مقعد الزوار المريح، منزعجاً من رؤية نفسه في ذلك الموقف السلبي المطاوع وغير الفعال، وهو الآتي للجمهورية بذلك الإقليم المضموم تقريباً.

انحنى «السناتور» بالأحرى ليرى الخريطة المبسوطة فوق المكتب أكثر مما كان ذلك امتناناً بالتهنئة. ولكي يفحص الخريطة بطريقة أفضل، دس في عينه اليسرى نظارة أحادية الزجاجة «مونوكل» مخضرة اللون قليلاً، وتكاد تكون زمردة، وراح يدفع بلسانه المرتعش والمدرن بين أسنانه، كما لو كان ذلك من أجل الاستراحة قبل معاودة الكلام.

«بالفعل لقد شرفني كثيراً وجودي إلى جانب مواطني، السيد جونس، المولود في بوسطن، عندما أحدثنا ثورة في هاواي انتهت بضم تلك الجزيرة الرائعة إلى بلادنا. وذلك من دون قراصنة!... من دون قراصنة! كرر الرجل مثبتاً على الزائر، عينه الصغيرة، التي كقطعة حلوى وردية، عبر نظارته الأحادية الخضراء... الثورات، ثوراتنا، ينبغي أن ينجزها رجال أعمال، ولهذا السبب دعوناك، ياسيد ماكر تومبسون، كي تخبرنا شخصياً عن إمكانيات ضم تلك الأراضي التي تشرف، كما أرى، على البحر الكاريبي وتكتسي أهمية كبرى بالنسبة لنا».

خرج ماكر تومبسون قليلاً من مقعده، وأخذ يتحدث بإيماءات كانت من الكثرة بحيث بدا ذلك للرئيس أمراً لا يطاق.

«من دون إنكار، البتة، لقيمة الطريقة التي تم بها ضم جزر الهاواي، يتوجب علي الشروع في تقديم تقريري بملاحظة كون الأراضي التي نحاول ضمها اليوم ليست مأهولة بقوم يرقصون الـ «الأوكيليليس»، بل يسكنها رجال استماتوا دائماً في المقاومة، والسعف هناك ليس مراوح وإنما هو سيوف. وفي مرحلة الغزو الإسباني، قاوموا حتى الموت، أشجع القادة العسكريين، من خيرة الفلاندر، وفيما بعد ضد أشجع القراصنة الإنكليز والفرنسيين والهولنديين.

ـ إنما بسبب ذلك، قال الرئيس، أوضح لك السيد «السناتور» بأن الطرق السلمية هي التي يتوجب علينا توخيها. بلا مغامرات عسكرية غير مجدية. سلمياً، كما فعلنا في «هاواي». انتظار تغطية الرأسمال المستثمر للثلثين، ثم التصرف.

ـ وبسبب ذلك أيضاً، ودون مناقشة رأي السيد «السناتور»، بينت مدى اختلاف سكان بلدان أمريكا الوسطى عن سكان جزر هاواي، الأمر الذي يؤكد مخطط الضم السلمي.

ـ برافو! هتف الرئيس.

ـ ليس هذا كل شيء. باتباع سياسة التغلغل الاقتصادي، نكون قد توصلنا مبدئياً: أولا: إلى كون العملة الوحيدة السارية في المنطقة التي نسيطر عليها في «بانانيرا»، هي دولارنا، لا عملة البلاد المحلية.

ـ وهذا تقدم كبير! أشار «السناتور» رافعاً عينيه من تحت الخريطة وتاركاً «المونوكل» يسقط مثل بصقة خضراء من عينيه الورديتين.

ـ ثانياً، واصل ماكر تومبسون، نكون قد قضينا على استعمال اللغة الإسبانية، وفي «بانانيرا» لم يعد القوم يتكلمون سوى الإنكليزية، وكذلك الشأن في باقي أقاليم أمريكا الوسطى حيث تنشط شركتنا.

ـ ممتاز! ممتاز! أقر رئيس الشركة.

ـ ونكون أخيراً قد ألغينا استخدام العلم الوطني. ونحن هنالك لم نعد نرفع سوى علمنا.

ـ هذه رومانسية نوعاً ما، غير...

ـ غير أنها مفيدة، أعلن الرئيس مقاطعاً كلام إنسان الغاب... يستعملون لغتنا، يستخدمون عملتنا، ويرفعون رايتنا! لقد تمت عملية الضم!

ـ ما ينقص العرض، استأنف السناتور، هو التفاصيل المتعلقة باستثماراتنا وممتلكاتنا العقارية والمشاريع الفرعية أو المساعدة، ونفوذنا المصرفي والتجاري، كي نتمكن من تنظيم «لجنة أمن عام» من شأنها التوجه إلى واشنطن لطلب الضم.

ـ آه! لقد حلَّ دوري! فكر ماكر تومبسون. سأقضي على هذا الفرد ذي النظارة الأحادية بزجاجتها الخضراء...».

توقف ومر بيده على جبينه العريض كما لو كان يستجمع ما فيه وحدق قليلاً بعينيه الكستنائيتين، قبل أن يقول:

«لقد أعطتنا الحكومة الحالية في تلك البلاد، حق إنشاء وتعهد واستغلال سكتها الحديدية حتى المحيط الأطلسي، التي هي أهم خط في الجمهورية، وقد أنجزنا منها الفروع الخمسة الأولى، ولقد سلمتها لنا من دون مقابل أو تكاليف استغلال مهما كان نوعها.

ـ جيد إذن! ما ترغب فيه تلك الحكومة إنما هو الضم! بما أنها تسلم لنا كل شيء، سكتها الحديدية حتى الأطلسي التي هي الأهم والتي أنجزوا منها، كما تقول، الفروع الخمسة الأولى... يبدو لي أنه لم يتبق سوى الشروع بإعلام واشنطن.

ـ وهناك، فوق ذلك، مشارطة في العقد من جانب الذي سلم لنا سكة الحديد، بأن عملية نقل الملكية تتضمن دون مصاريف من جهتنا، رصيف الميناء ـ الذي هو أكبر رصيف على الأطلسي ـ

والممتلكات والأجهزة الموجودة في العاصمة مثل العوارض الداعمة والخطوط الحديدية...

- آه! يا سيد ماكر تومبسون لا شك أن الذي وقع العقد كان ثملاً!

- كلا. لا. كان يترنح قليلاً ولكن ليس من السكر! ثم، وكما لو أن ذلك لم يكن كافياً، فقد تخلى لنا أيضاً عن الأرض التي فيها الخزانات والمخازن، ساحات المحطة، الينابيع، وألف وخمسمائة دابة من أجل السحب والقطر، بصرف النظر عن ثلاثين مجموعة من المنازل في المرفأ ومسافة ميل على الشاطىء عرضها مائة ياردة على جانبي الرصيف.

- ولكن لماذا لم تخبرني، يا سيد ماكر تومبسون بأن عملية الضم قد تمت؟ كرر السناتور.

- حصلنا على الأرصفة، سكك الحديد، الأراضي، المباني، والينابيع، كان الرئيس يعدد، الدولار كعملة متداولة، والإنكليزية لغة متكلمة ثم إنهم يرفعون علمنا. لا ينقص سوى الإعلان الرسمي، وهذا هو ما يجب أن نضطلع به نحن».

أعاد إنسان الغاب الأبيض، الخبير في ضم البلدان، بعد أن أدخل بأطراف أصابعه لحيته التي تشبه رغوة ذهبية والتي كانت تخرج من ياقته، أعاد وضع «المونوكل» الأخضر الباهت على عينه التي كقطعة حلوى وردية ليطلع، في مفكرة أخرجها من جيبه، على الرقم الذي أعطاه إياه وزير الدولة من أجل الحالات التي من هذا القبيل. ثم وهو يدندن:

«هيا بنا يا بني وطني!».

اقترب من الهاتف الأخضر، الهاتف الذي لا تقف دونه مواعيد ولا مسافات.

كان لمعان أسنانه الذهبية ينطلق في الهاتف مع صوته في آن واحد وهو يطلب اجتماعاً من الموظف السامي. وكان المونوكل المهمل يتأرجح على صدرته، ولم تبق سوى عين «الملبسة» الوردية

ضائعة هناك في وجهه الضخم الذي تعلوه جمجمته متلبدة بزغب شعر له لون الغيطل.

قام ماكر تومبسون، لدى خروجه، محدثاً وقعاً شديداً بقدميه، إلى حد زعزعة الأرضية. ولكن كان له الحق في ذلك. كان له الحق في الضرب بقدميه على أرض «بوركوبوليس» ذات الرخاء حيث، خلف كل باب، كان يوجد بابا أخضر. إنها خمس عشرة سنة تحت المدار الاستوائي مع ضم مرتقب وعلى شواطئ البحر الكاريبي المتحول إلى بحيرة يانكي. كانت تلك خمس عشرة سنة من الملاحة في بحر العرق الإنساني. لا يمكن لواشنطن إلا أن تعتز بهذا الابن الذي انطلق بمسدسين ليعود مطالباً بمكان له بين أباطرة اللحم، ملوك السكك الحديد، ملوك النحاس، ملوك اللبان الأمريكي...

«سير» جو ماكر تومبسون، هكذا كان سيلقب لو أنه ولد في إنكلترا، مثل السير فرانسيس درايك، وكان من شأن المدينة أن تقف كي تراه يمر تحت راياته الخضراء ـ كخضرة أوراق الموز ـ وبين مشاعل من أقراط ذهبية، أكثر اصفراراً من الذهب، وعبيد من أمريكا الوسطى بأصواتهم التي تضاهي كآبتها، كآبة صيحات الطيور البحرية... ولكن بما أنه ولد في أمريكا، في شيكاغو، إذن ينبغي عليه أن يكتفي بوكالة إشهار من شأنها أن تنشر، في الجرائد المختصة بقصص الاغتيالات واقتحام البنوك والـ «rackets»(*) المثيرة، نبأ وصول أحد ملوك الموز...

تجاوز شارع «ميتشغان» حيث يلتقي أصحاب الثروات في العالم، ودلف إلى متاهة الحارات حيث الأزقة تشبه الأمعاء الدقيقة ومفارق الطرق كالشروج المربعة وفيها ينهار العابرون الذين لم يهضمهم بؤس العيش بما فيه الكفاية، إذ إنهم كانوا يلوحون وهم يتوارون في أزقة معوية أخرى ويخرجون إلى شوارع أخرى. عالم البؤس حيث فقراء الناس لم يعودوا أناسا، وإنما هم حطام.

(*) ابتزاز المال بالتهديد أو بالعنف.

كان يبحث عن حارته، عن شارعه، عن بيته. غير أن آخرين كانوا يسكنون بيته. خمس عشرة سنة!... هل كانوا القوم ذاتهم برؤوس مغايرة؟ أم هي نفس الرؤوس على أناس مغايرين؟ توقف عند زاوية العمارة التي كانت توجد أمامها مومس بائسة وسكرى، كانت تقتلع شعرها بيدين شبيهتين بخفاشين يخدشان كعيكة شعرها، وهي تروي أعجوبة «ماري السماوية» وهي الباخرة التي أبحرت من نيويورك متوجهة نحو أوروبا وعلى متنها أحد عشر شخصاً، زوجة القبطان وطفل: ثلاثة عشر بالإجمال. وبعد عشرة أيام لاقتها باخرة إنكليزية في عرض الأطلسي، وبما أنه لم يقم أحد بالرد على الإشارات، فقد أنزل زورق، وعندما دنا منها، لاحظ البحارة أن الباخرة كانت تبحر وحدها، ساكنة مثل مركب ميت. كل شيء كان مرتباً، كل شيء كان في موضعه. زوارق الإنقاذ في علاقاتها، والقلاع منشورة، الغسيل على الدفة كي يجف، البوصلة ودولاب الدفة سليمان، على طرف المقدمة أواني المطبخ وغرفة النوتية، وفي الصالون ماكنة خياطة إبرتها متوقفة على «مايوه» طفل، ويومية السفينة متوقفة منذ ثمان وأربعين ساعة...

والآن لقد اختفت هي أيضاً. فرغوا من مناداتها يا ماري السماوية ولم يتبق منها سوى ذكرى صوتها الأجش من السفلس، وإنكليزيتها التي لها رنة مفتاح علب، وهي تسائل النجوم والشرطة عن مكان المبحرين الثلاثة عشر الذين لا شيء، عرف عنهم، لاشيء لا شيء...

فتح ماكر تومبسون عينيه دون أن يتحرك من الفراش في حين كان جرس الهاتف يخرز أذنيه. آلو!... آلو... وفوراً أحال إليه مقسم الفندق المخابرة مع نيو أورليانز... ابنته في نيو أورليانز؟ أوريليا في نيو أورليانز؟ لقد وصلت إليها منذ قليل وهي تطلب منه أن يتوقف في تلك المدينة لدى عودته إلى المناطق الاستوائية، كي يراها ويتحدث معها.

كان الحلم قد أرعبه. استشعر بأن لعالم الأثريات الشاب، ذي العينين الخضراوين ورأس اليانكي البرتغالي، علاقة بسفر ابنته. لقد أغواها وها هو الآن يريد إنهاء القضية ـ واستدرك معدلاً وهو يبتسم، و... ضمها إليه ـ عملية الضم هي أفضل قضية ـ وللتعجيل في الأمور، فإنه التجأ إلى إقناعي بالأمر الواقع. فليتزوجا إذن! الأغنياء يتزوجون ويطلقون متى يشاؤون. ما من مشكلة. المشكلة هي عندما تكون هناك رغبة في الزواج أو في الطلاق من دون أموال. الأمر الذي يدل على إن الحب المعاصر أنما هو الحب ـ الأعمال وعندما يكف عن أن يكون كذلك، كما في حالة مارياري، فإنه يتحول إلى جنون ليس له مكان على الأرض، ليست له أية علاقة بالجنس البشري. أوريليا تملك ما تركته لها أمها: أراض في أوج الإنتاج، أسهم في البانانيرا إيداع ضخم في المصرف والجملة ثلاثمائة ألف دولار على الأقل، ولا شك أن ذلك السيد الأحمق، عالم الآثار قد علم بهذه التفاصيل ذلك أنه، من بين أعمدته الأثرية وشخصيتي المثرية، إنما فضل هذه الأخيرة لكي ينطلق من نقوش أعمدة «كيريغوا» الأثرية إلى جوار «وول ستريت».

أشعل سيجارة وفتح الجريدة التي كان قد أتى بها الفرّاش لتوه، تصفحها بعجلة، بعجلة، بعجلة، مقلباً صفحات قاذفة الصواريخ تلك التي من ورق، وحجمها بحجم ملاءة سرير، ليبحث فيها عن نبأ وصول شخص ما، يدعى جو ماكر تومبسون، الابن المفضل لمدينته التي ولد فيها. كاد يحرق نفسه بعقب سيجارته. دخل دخانها إلى عينيه فعطس. وكان ثمة دخان آخر أقل كثافة، ارتفع من طاولة الفطور. صوت الماء يسيل ويملأ المغطس. والحلاق يعلم بأنه قادم بعد لحظات، ولقد أنقذه. نعم. الحلاق هو الذي أنقذه... لو أنه أتى من قبل!... كان يمسك بصحيفة في يده، وفي فمه، الخبير بالهذر بالمدائح، أحر التهاني بما يقولونه عن شخصه، الذي صار شخصية. اختطف منه الصحيفة اختطافاً... هاهو ذا!... ولكن كيف لم يجده منذ قليل... صورته في إحدى جرائد

شيكاغو!... يا له من تشجيع! أفضل جرائد شيكاغو، صورته بين صيارفة ورجالات دولة! عريض الجبين، غزير الشعر،، غليظ الشفتين، ذكي العينين وتحت اسمه: جو ماكر تومبسون، هاتين الكلمتين «Green Pope». مدهش!... مدهش!... «البابا الأخضر!».

قرأ، التهم المقالة، حتى نهايتها، حتى النقطة النهائية. متعة امتلاك مرآة تنعكس عليها الأشياء فتتغير. تلك هي الجرائد، مرايا حيث الأشياء تبدو أخرى. وماذا إذن كانت تظن المياه الحمقاء التي ينقل سطحها الصورة الحقيقية بكل غباء؟ وماذا كان يظن جليد فينيسيا الذي لا يغير أي شكل مما يعرض أمامه؟ هل كانت تظن بأن الإنسان لن يخترع ذات يوم مرآة أخرى، هذه المرآة الإلهية التي هي الصحيفة، حيث كل شيء يبدو أفضل أو أسوأ، لكنه لا يبدو مماثلاً أبداً؟ وهاهو ذا الآن منعكس، منقول، ومرسوم في نهر منطو في عدة أوراق، وهو كالنهر، يمر، يمحي، ثم ينأى مع مر الساعات. صحافيون آخرون يريدون استجوابه. مرايا أخرى. صور أخرى. حمام من حروف الطباعة. تغيرات أخرى، مآثر فوق الشبهات على الشواطىء الأطلسية في البرزخ الذي يصل «الأمريكتين»، نوع من الأخطبوط النادر الوجود ويدعى الأخطبوط ـ السنونو يمسك به على ساحل نيكاراغوا. قاومه بالسكين. يسقط في شرك أسماك عازفة موسيقى. وكل المبحرين معه ينامون. أميرة من «المايا» تنتحر من أجله، في فستان زفاف، في نهر الموتاغوا. الغابة العذراء. التماسيح التي تشرب وتقتات مياه خاصة. مياه تتحول إلى زجاج. أشد الزواحف سماً: الـ «ناهوياكا»، الثعبان ـ المرجاني، الأفعى ذات الأنياب، الـ تاماغاس. غابة صمغ اللبان. الهنود الموشمون. ثم، ذات يوم، الثروة. مزارع الموز في أفضل أراضي العالم المؤاتية لهذا النوع من الثمار، المغروسة في الجمة الخضراء للأرض العذراء، هناك حيث لطين الأنهار لون عباد الشمس، حيث لعين النمر في وضح النهار أنوار كأنوار النجوم وحيث القطط المذهبة والمرقطة باللون الأسود، دون أن تكون نموراً أو «يغوراً» jaguar،

إنما هي ذلك الحيوان الغريب الذي يدعى «الأسلوت»(*). وهي لا تهاجم الإنسان. إنما الكلاب هي التي تروض من أجل ذلك. وتتميز فضلاً عن ذلك بإفراز لعاب حلو المذاق، له لون العنبر، يجمعه سكان البلاد في آنية صغيرة ويستخدمونه أيضاً كشراب سكر في إعداد المرطبات المضادة لضربة الشمس... والملايين؟... ذات ليلة، وهو في قلب خط الاستواء، أصابته الصاعقة في خاصرته. تحول، في دقيقة، إلى رماد، ومن الرماد صار برقاً و، أثناء هذه اللحظة التي صار فيها برقاً، تحول، في دقيقة، إلى رماد، ومن الرماد صار برقاًو، أثناء هذه اللحظة التي صار فيها برقاً، تحول كل شيء لمسته يداه إلى ذهب؛ طبعاً كان من شأنه أن يمسي حفنات من ذهب. لكن بالعكس: زاد الرعد في عدد يديه وصوته وصداه لدى كل حركة من حركات أصابعه، كي يعانق الأمداء حيث، اليوم، تروى وتنتج بوفرة ملايين أعذاق الذهب الأخضر، أروع مزرعة للغينيو، الذي يفضله قصر الأمريكي الشمالي على سائر أنواع الموز. ومن برق، تحول إلى ما هو عليه الآن، البابا الأخضر، البابا الأخضر، اسم يتجول به باعة الصحف مثل راية في شوارع شيكاغو... في شوارعها الكبيرة والصغيرة، بالمئات وبالمئات في شيكاغو... Green Pope! ...Green Pope!... في حين اشتري بـ 511!...» «أنا اشتري بـ 617!...» «بـ 702!...» «بـ 809!...» «Green Pope! Green Pope!».

شكل أمناء سره والمرافقون والمتملقون دائرة محكمة حول شخصه. رفقة من رصاص تبرد أيامه ولياليه، رصاصات لا تطلق، رصاصات خفية، تفعمه ببرد معدني وتحيطه بالود.

مسدسات، رشاشات، دروع من الفولاذ الدقيق، محلات وعربات مصفحة. والمتملقون يأتون ليظهروا له صورته على مرايا الورق الشفاف في المجلات الممتازة التي لا تنشر، سوى رؤوس أصحاب

(*) ocelot حيوان أمريكي يشبه النمر.

الملايين. ولم يعد لورق الصحف اليومية الخشن وجود في عالمه إذ إنه استبدل بمساحات منقوشة من أجل الإعلانات عن أنواع الحرير والعطور، وتحت الكتابة ذات الأحرف الذهبية، كان يبدو بشخصه الكامل في الصورة، مثل مرشح مرتقب لرئاسة الشركة بلقب البابا الأخضر، الحبر الأعظم لمزارع الموز في الكاريبي، والجدير بتزيين بِنْصَرِهِ بالزمردة الكبرى!...

كان بإمكان ماكر تومبسون أن يطمح إلى كل شيء. كان طموحه أن يصير البابا الأخضر، حاكم الأقاليم الجديدة المضمومة. كان يعتبر الأمر ناجزاً. هو على موعد مع رئيس الشركة وشيخ «ماساشوستس» اللذين كانا ينتظرانه في الساعة العاشرة. مد له إنسان الغاب يديه الشقراوين بأظافرهما المبرنقة ذات لون «المندرين» الذاوي. مودة مخالفة للمألوف ولكنها قابلة للتفسير. لقد اطلع في الجرائد على قيمة هذا الشخص، وهاهو ذا يقدره أكثر.

«لقد جئت من واشنطن، أسرع إلى القول، ولكن لنجلس، من فضلك، لقد تحدثت في موضوع الضم مع صديقي القديم وزير الدولة، وهناك عقبات دولية لا يستهان بها، قل لي، يا سيد ماكر تومبسون، ما المسافة الفاصلة بين ما يعود لنا في تلك الأقاليم، والمستعمرة الإنكليزية المدعوة الهوندوراس البريطانية!

ـ ذلك محدد على الخريطة، يا سيدي السناتور وإذا سمحت يمكننا القيام بتقدير المسافة حالاً.

ـ في الجوار الإنكليزي تماماً! هتف السناتور ـ وهو يجول بعينه الوردية ذات النظارة الأحادية المخضرة فوق الخريطة المبسوطة على المكتب ـ في الجوار الإنكليزي تماماً! لقد اعتادت إنكلترا الاستحواذ على كل ما تعتبره، على وجه الأرض، نافعاً للتاج، بحجة الجوار . لذلك فهي سيدة البحار، حتى تتمكن من مجاورة كل ما تطمع فيه. إلا أن الجوار في حالتنا الحاضرة ليس وهماً أو تلفيقاً وإنما هو واقع جغرافي».

بدأت رغوة الشعر المذهب تبرز من ثياب السناتور الذي أخذ، وهو ينكب من جديد على الخريطة، يلهث من البدانة ويغضن محجره كي يمسك بإصبعين أو ثلاثة أصابع، نظارته الأحادية المهتزة، في حين كان يعيد بإبهامه الخصلة الصفراء الشاحبة التي كانت تخرج من خلف ياقته.

«في الجوار الإنكليزي تماماً!... سادتي، علينا أن نرضى بمنافع الضم...

- لست أرى فوائد من دون ضم، أعلن ماكر تومبسون. وإذا كنا نخسر الجولة من بدايتها لمراضاة أولئك الخنازير الإنكليز، فإننا نخسر كل شيء.

- من سوء الحظ، ليس هناك الإنكليز فقط. إذ توجد موانئ نهرية، بحيرية وبحرية ذات أهمية حيوية بالنسبة لحركة البن الألماني الذي يصدر باتجاه ألمانيا، ومن شأن الألمان، وكذلك شأن الإمبراطوريات الوسطى، أن يحسوا بالضرر من مسيرتنا الاستلحاقية في ذلك الاتجاه.

- بالعكس، الألمان يتعاطفون مع هذا المشروع، لأنهم ضد الإنكليز الذين يواصلون التغلغل مكتسحين الأرض. تكفي معرفة أعمالهم في الهوندوراس البريطانية: هيكل مخرب، ليس فيه ولا شجرة واحدة، يعيش فيه السكان، ومعظمهم من السود بطريقة أحط من عيش الدواب. لقد ذهبت إلى هنالك في زيارة وتحدثت مع الحاكم، وهو إنكليزي كان يرتدي بدلة السموكن ليأكل حبة بطاطا ونصف خسة، ولقد قال لي: «أيها الصديق المحترم، حيثما نذهب نحن الإنكليز، نعلن حرية العبيد لا «حرية الدواب!...» ونحن نواصل مشاهدة ذلك بلا حراك من أكبر نافذة في مبنى الحكومة، وهي تفتح على البحر، على بحر الكاريبي الإلهي!... إن قضيتنا مؤاتية تماماً إذن: ليس بإمكان البريطانيين معارضة ضمنا لتلك الأقاليم، إذ ليس لهم حق أكثر منا للبقاء في «بيليس».

ـ هذا حقاً مبرر آخر لمعارضتهم، تدخل الرئيس قائلاً. وبما أنه ينقصهم السند للبقاء في بيليس، فذلك من شأنه أن يجعلهم يخشون أن يقوم جار أكثر قوة، مثلنا، بضم تلك الجمهورية الصغيرة ومطالبتهم بالتخلي عما ليس ملكاً لهم والخروج نهائياً لتفلية أنفسهم من البراغيث في جزيرتهم.

ـ لقد توصلت لتوك، إلى إثارة النقطة الحساسة في المسألة!» هتف ماكر تومبسون، قاذفاً بالشرر الأسمر من نظراته على عيني رئيس الشركة المعدنيتين.

وبعد صمت قصير معبأ بالأفكار، تابع:

«بعد ضم تلك الجمهورية الصغيرة، سوف نطردهم من هوندوراس البريطانية، بالاستناد إلى مذهب «مانرو» الذي سبق وأن اكسبنا جزيرة منتجة للسكر.

ـ إن مذهب مانرو، في حالتنا هذه، عديم الفائدة، تدخل السناتور بالقول. لا ينبغي النسيان بأن هناك معاهدة إنكليزية يابانية لم يجف حبرها بعد، كما أن معركة الطرف الأغر لم تندلع من دون جدوى. إنكلترا ليست إسبانيا. ولكن لنختصر كي نربح الوقت ونتوصل إلى نتيجة. إن من شأن إنكلترا وألمانيا والإمبراطوريات الوسطى أن تعارض أية عملية ضم من نمط واسع، وعلينا حالياً أن نكتفي بما لدينا: الضم باسم الأمر الواقع. ولنترك الإنكليز مع هوندوراسهم القرعاء والخالية من الأشجار، ولكن ـ وهذا صحيح! ـ مع نواديهم حيث يفترشون الأرض عندما يسكرون، ومع نسائهم اللواتي هن laides(*) بإفراط، (ونطق الكلمة الإنكليزية بالطريقة الفرنسية حتى تبدو قريبة من الصفة laides الفرنسية)». ثم أخذ يضحك ويمر بيده على شفتيه بدل المنديل الذي كان يبدو بارزاً قليلاً من الجيب الأعلى في سترته، وكأنه ينتظر كمية محصول اللعاب الذي كان على أطراف أصابعه.

(*) الكلمة الإنكليزية: لقب للسيدات من الطبقة العليا. والكلمة الفرنسية تعني: بشعات. م.

وكان رئيس الشركة يضحك بدوره. وختم السناتور قائلاً: «ولنترك الألمان على أراضيهم المنتجة للبن وفي موانئهم، أما نحن فعلينا، أكرر ذلك، أن نكتفي بما لدينا: سكك حديد، أرصفة، مزارع. فلماذا عمليات ضم أخرى؟

ـ إذا سمحت، سيدي السناتور...

ـ تفضل يا سيد ماكر تومبسون...

ـ لقد طرحت المسألة بصياغة سيئة، ولهذا السبب فإني أسمح لنفسي بوصف النتيجة التي توصلت إليها يا سيدي السناتور مع سمو وزير الدولة، على أنها غير مقبولة في نظري.أوضح رأيي أكثر، إن الأراضي التي تديرها الشركة لا تعود إليها بطريقة قانونية. نحن لسنا ملاكيها. نحن لا نملك أي سند من شأنه أن يضمن لنا البقاء فيها. وفي أية لحظة يمكن لهم أن يقولوا لنا: «اذهبوا أيها السادة! لا شيء هنا هو ملك لكم!». إننا لا نزال هناك لأننا نسكتهم بالـ «بيزو»، ونسكت ونغري الدوائر الحكومية بالبيزو الذهبي. إن صرخة أولئك الذين جردوا من أراضيهم لا تصل إلينا، بل تظل في الأفواه، مثل تثاؤب الجوع. يوجد جدار من ذهب بين الشعب والحكام، وهذا الجدار هو نحن، الجدار الذي يحافظ على صمت بلا صدى، وعندما تغدو الصرخة أقوى فإن أحجاراً من ذلك الجدار، تنفصل كي تسحق المتمردين. من جهة أخرى، العقد الوحيد في التاريخ والذي بموجبه يتخلّون لنا عن: سكك حديد، أرصفة، ينابيع، مصادر طاقة، عربات، إنشاءات مختلفة، ورقع أرض على طول الساحل، وكل ذلك بدون أية نفقات أو التزامات مهما كان نوعها من قبلنا، هذا العقد يمكن أن تتم إعادة النظر فيه في أيما لحظة ويكف العمل به ويبطل مفعوله، إذ أنه بين نقائصه القانونية العديدة، توجد نقيصة من شأنها أن تبطله كلياً: إنه مناقض لدستور البلاد. وبسبب ذلك، بسبب مخاطرتنا بفقدان كل شيء، فإن مسألة الضم تطرح كوسيلة لحماية المصالح الأمريكية الشمالية. لا ينبغي نسيان كوننا

دخلنا هذا البلد بحجة جلب ونقل المراسلات في بواخرنا ثم توصلنا إلى أن نكون...

ـ لكل مقام مقال، يا ماكر تومبسون! إن شيكاغو بكاملها تصفق لتجليتك الرائعة!

ـ وهو تصفيق ـ قال «جو» ملتفتاً شطر الرئيس ـ لا يضعنا بدوره في منجى من المجازفة بفقدان كل شيء. ولذلك فإني ألح على ضرورة الضم وأرجو من السيد السناتور أن يعود، مزوداً بما سبق، إلى زيارة وزير الدولة الذي يعقد معه صداقة قديمة ويعرض عليه القضية كما هي. نحن بحاجة إلى حماية مصالحنا بواسطة ضم هذه الجمهورية التي سلمت لنا سككها الحديدية وأرصفتها وثرواتها ومكنتنا من ممارسة تأثير حاسم على بنوكها وتجارتها وسياستها والتي تستشيرنا وترهبنا وتخشانا، هناك حيث نحن أقوى من سلطات الدولة الثلاث مجتمعة وحيث أننا ندعم السلطة الرابعة إذ من دون إعلاناتنا والمبالغ التي نقدمها خفية لعدة صحافيين، ليس من شأن تلك السلطة أن تظل موجودة.

ـ نعم، بالتأكيد، أقر السناتور، على هذه الأسس يتغير موقع المسألة تماماً، ولكن يبدو لي من المغالاة الذهاب إلى الوزارة للمطالبة بضم جمهورية بكل بساطة من أجل حماية رؤوس أموال موظفة في مزارع.

ـ ينبغي على السيد السناتور ألا يختزل المسألة في مزارع فقط، وفي المصالح التي ندافع عنها، وإلا كان ذلك من قبيل هدر الوقت. ثمة نقاط حيوية أخرى في اللعبة السياسية. إن الرأي العام هو عبارة عن ذبابة بلهاء بوسع صحافتكم أن توقعها في نسيج عنكبوتها. ينبغي إثارة حملة صحافية من أجل أمن أراضينا التي من المفترض أنها تمتد حتى «بنما»، لأن المكسيك، حتى من دون الاستيلاء على «توانتيبك»، يشكل جزءاً من امتدادنا الجغرافي ونظامنا الأمريكي الشمالي. ومن شأن هذه الحملة، بالتوازي مع

سلسلة من البلاغات المثيرة حول الشبكة الواسعة للتجسس الياباني في أمريكا اللاتينية، والخطر الأصفر، أن تهيء مناخاً مؤاتياً لسياستنا الاستلحاقية. ماذا لو تم التفكير في نيكاراغوا و«توانتيبك» قبل إنشاء قناة تمر عبر «بنما» فليس من المستبعد أن تظهر بين نيكاراغوا وتوانتيبك ولاية تابعة للاتحاد وموجهة لمنع اليابانيين الذين يستخدمون الطريق الأمريكي القاري وهو قيد الإنجاز، من مهاجمة قناة «بنما» عبر المكسيك، ولعدم عرقلة تحركات أسطولنا. الإلحاح على مسألة عرقلة تحركات أسطولنا: مع معطيات تقنية ووجهات نظر وآراء شخصيات مسؤولة، ومتهيئة دائماً للإدلاء برأيها في صالحنا، إذ يبدو لي انه بإمكاننا التعويل على بعض ممثلي الكونغرس...

ـ الحبر الأعظم لبحر الكاريبي الإلهي، ذلك ما ينبغي أن تكونه! فكر سناتور «ماساشوستس»، وهو يستمع إلى ذلك الخطاب.

ـ سوف يتفضل السيد السناتور بالعودة ثانية إلى واشنطن، قال رئيس الـ «تروبيكال بانانيرا. اس. آي.» وإذا كان الوضع العالمي مؤاتياً لنا من أجل عملية ضم على طريقة بولك polk، عملية ضم من طراز كبير، فأنا أعتقد أن مصالحنا من شأنها أن تظل في مأمن إلى غاية توطيد حماية في تلك الأراضي لمدة مائة سنة أو مائتين.

ـ لست أدري، لست أدري إلى متى، لأنهم، كما قلت لكما، ليسوا أناس «أوكيليلي» وإنما هم قوم حرب، ومن شأن الحماية لتي تحمل بذرة التحرر، أن تثير غرائزهم القتالية وتغدو مصدر استشهاد وصراع... أما الضم فهو بالمقابل لا يترك أي بصيص من أمل... أي بصيص من أمل... تذكرا جيداً بأنه توجب علي، لبلوغ ما نحن نملكه، اقتلاع القوم مثل أشجار تقطع جذورها فتنمو لها جذور أخرى، وإحراق المنازل التي كانوا يعيشون فيها بحجة مكافحة الأوبئة التي كنا نحن بالذات نأتي بها من بنما، والتغلب على شيء لا يصدق: عناد الأهالي المحليين وقدرتهم على العمل عندما تحثهم منافستنا لهم ويحصلون على أرباح ذات قيمة من محاصيلهم. لقد توجبت علينا

إبادتهم. إرسال البعض إلى الثكنة من أجل الخدمة العسكرية، والآخرين إلى الماء، ليقضوا غرقاً، أو إلى النمر أو إلى «التاماغا»(*)... كل هذا حتى تدركا مدى صعوبة تثبيت الحماية في ذاك البلد.

ـ ولعل الصعوبة نفسها سوف تبرز ـ تدخل السناتور قائلاً ـ عند محاولة الحصول على تواقيع أولئك الذين سوف يلتمسون من حكومتنا قرار الضم، كما كان الشأن بالنسبة لجزر هاواي...

ـ ليس نفس الشأن. على الإطلاق! في المجال الأول وبأفصح اللغات، لغة الوقائع، هم يطلبون منا الضم مقدمين لنا سكة حديد لاكهدية فحسب ولكن، تصوروا ملياً! لكي يقوموا، بعد استخدامنا لها في نقل ثرواتنا من الموز، باشترائها ودفع ثمنها بالبيزو الذهبي. إن العقد يجبرهم على اشتراء ما يقدمونه لنا بعد استخدامنا إياه. حالة متفردة ودافع إضافي لجعلنا نتدبر أمرنا حتى لا تعنٌ لهم في الغد مراجعة هذه المعاهدة، التي تبدو وكأنها حكاية من حكايات «ألف ليلة وليلة»، وحتى نتمكن من تأويل معناها على أنه رغبة جلية في أن يكونوا لنا، منضمين إلينا.

ـ ولكن هذا لا يكفي، يا سيد ماكر تومبسون، سوف نحتاج إلى مواطنين، ووجهاء من علية القوم يأتون إلى واشنطن لطلب الضم.

ـ سيوافقني السيد السناتور على أن أولئك الذين تخلوا لنا عن سكك الحديد ضمن تلك الشروط الخرافية سوف يكونون أول القادمين إلى واشنطن ملتمسين قرار الضم، وهم قوم ذوو كبرياء ونزاهة مطلقة، يظنون أنهم سوف يصيرون مثلنا بمجرد أن يصيروا جزءاً من الولايات المتحدة، ويحلمون بذلك المستقبل إلى حد أنهم يربون أطفالهم ليكونوا أمريكيين شماليين، كما أنهم يرفضون كل ما يميزهم باعتباره دونياً، ويمقتون كل ما هو وطني...

(*) جنس حيات قوية السم.

ـ في هذه الحالة، لست أرى ضيراً في الذهاب إلى الوزارة.

ـ ينبغي القتال!» قال الرئيس للسناتور كي يشجعه، رافعاً سماعة الهاتف الأخضر كي يتيح لإنسان الغاب الأبيض الاتصال بواشنطن.

«أترككما، استأذن ماكر تومبسون وهو ينهض، إذ ينبغي أن أذهب أيضاً إلى نيو أورليانز لبضعة أيام. أرجو أن تسير الأمور على ما يرام، ويقدم لنا السيد في الاجتماع المقبل أخبارا سارة من شأنها أن تجعل منا الورثاء الجديرين بالإلحاقيين العظام: آل جاكسون، آل بولك، وآل ماكنلي».

* * *

أبحر جو ماكر (كما تناديه أوريليا) إلى نيو أورليانز متستراً، وكان يتنزه معها في شوارع المدينة مثل حيوان واقع في فخ، لاعباً لأول مرة في حياته دور الوالد، منتعلاً حذاء لمعه ماسحو أحذية من الملونين كانوا يمسحون الجلد بمرح، ويلهون بوضع دهان الأحذية ونشره ومعالجته بالفرشاة، ثم تمريرها جيئة وذهاباً، كما لو كان ذلك لعزف موسيقى، على الحذاء حتى صقله كالمرآة. كانوا يرتدون بدلات من كتان أبيض، شديدة النظافة، وقبعاتهم القديمة مائلة على أحد جانبي الجبين، كي يتركوا من الجانب الآخر، مجالاً لخصلة من شعر أشقر، مبيض قليلاً...

ولم تكن أوريليا، وهي ممسكة بذراعه، لتراه مثل جد لها، كما لم يسبق لها أن اعتبرته بمثابة أب أو قريب لأي كان. إنه رجل، وهذا كل ما في الأمر! رجل بلا أهل، رجل بحار، مزارع موز وهو، في هذا الوقت، رجل الساعة، وكان منتبهاً إلى الصحف التي كانت تصدر ملأى بالأخبار، وتنزل هكذا نهر الزمن.

كانت حالة أوريليا تتطلب نزهات طويلة مشياً على الأقدام وكان ماكر تومبسون يرافقها من دكان إلى دكان، من تقاطع شارعين إلى تقاطع آخر، «paseando» كما يقال في المناطق

الاستوائية، وفي مفارق الطرق، كانت السماء تنشر مجوهراتها على مخمل السماء المعتمة، والمدينة تنشر أناسها الملونين، ذوي الثياب الفاقعة، ومنهم الزنوج الذين كانوا يبدون، إذا كان القمر منيراً، مثل حبات فاصوليا سوداء على سماط عيد.

«جو ماكر! قالت له وهي تسحبه من ذراعه، تعال! ستقرأ هذا الإعلان. إنه يتحدث عن الحمى الصفراء.

ـ يا له من اقتراح!

ـ تعال لنقرأها! ينبغي معرفة ماذا تقول!

ـ نفس ما تقوله الأخرى، والأخرى أيضاً. وهل تعتقدين أنهم سيغيرون النص لكل إعلان إذن؟».

أبعدها بلطف عن الجدار، كي لا تعود مجدداً إلى قراءة ذلك النعي المصوغ بعبارات المجلس البلدي. ومن تلك الحروف التي كانت تبدو وكأنها مشربة بحداد الوباء، كان يتصاعد بخار ذعر، من ذكرى صيف 1867، عندما أبادت الحمى الصفراء السكان.

كثيراً ما مر ماكر تومبسون بنيو أورليانز، لكن لم يسبق له أن توقف فيها، حتى ذلك اليوم الذي هرع فيه لمكالمة ابنته، منذ إحدى الليالي، وكان لا يزال في مقتبل العمر، عندما، بعد إفراط في تناول الخمر، وعند خروجه من الحانة، تحت أمطار متدفقة جرفته زوبعة المياه التي كانت تجتاح المدينة. وكان التيار يهزه، بين أثاث البيوت التي كان يحملها، مثل قطعة أثاث أخرى، قطعة أثاث بشرية، وفي أثناء ذلك أخذ يعود قليلاً قليلاً إلى رشده ويدرك بأن الأمر لم يكن يتعلق بكابوس، بل إنه كان محمولاً مثل سكير مترع بالويسكي. ولقد أيقظه اصطدام بإحدى الشرفات من سكره بثيابه وكل ما عليه وسائر جسمه وما عليه مثل حساء من ماء عفن.

فتح عينيه، وعند معاينته للخطر الذي كان يتهدده، فضل السباحة مع اتجاه التيار حتى التمكن من التشبث بإحدى الأشجار.

كانت العتمة تحول دون تمييزه للأشكال، ولم يكن قادراً البتة على معرفة الأشخاص الذين كانوا بقربه غير قادرين بدورهم على السيطرة على حركاتهم. ولقد قام شخص متيبس وسكران حتماً، نظراً للحركات البهلوانية التي كان يقوم بها فوق الماء دون تقدير الخطر الذي يتهدده، قام بوعظ ماكر تومبسون صارخاً به: «أيها الجنتلمان، إذا لم تتشبث فسوف تقضي نحبك... يمكنك التمسك بذلك الغصن القريب هناك!» في هذه اللحظة جلب التيار شخصاً آخر متمسكاً صموتاً وساكناً، من دون حتى أن يشكل تنفسه فقاعات على سطح الماء الذي كان يسيل، فاتراً، ومرتفعاً حتى الأسطح تقريباً. كان البعض يأتون ويذهبون مع التيار بلا كلمة، بلا زفرة، بلا صرخة، وبلا حتى تخبط الغرقى. لامسه أحدهم من ذراعه فأحس ماكر تومبسون وهو يمسك به ليمنع التيار من حمله، وكأنه لمس غريقاً.

طلع الفجر على المدينة ورأى ماكر تومبسون، الذي قضى ليلته في حانة ما بين سكيرين فرحين، رأى نفسه طافياً عائماً في دائرة من هياكل عظمية ترتدي أثواباً، وهي منتعشة كأنشط ما يكون عليه رواد أفخم النوادي، كان البعض يلوحون برؤوس أموات، والبعض الآخر بوجوه تشبه الرق، جثث اقتلعها الفيضان من بعض المقابر.

ولقد تأثر لتفكيره بأن امرأة كانت قد لامسته من ذراعه أثناء اندفاعها مع التيار: وظنها مومساً سكرى.

حرارة مرتفعة. تبخر خانق. لاذ ماكر تومبسون بإحدى البواخر التي غادرت الميناء متوجهة نحو الكاريبي، وقد تملكه الرعب من نادي الأموات الذي اكتشفه مع بزوغ النهار، ولم يتوان عن النزول على ساحل الهوندوراس.

«جو ماكر، هل تقبل...؟ قالت أوريليا كي تنتزعه من أفكاره. هل توافق على ميثاق توقعه دون معرفته مع ابنتك؟...

ـ ينبغي أن أعرف موضوعه بما يتعلق.

- أن تغفر لسالسيدو إذا ما عينت حاكماً في الأراضي المستلحقة».

وبحركة عصبية، تظاهر ماكر تومبسون بسحب ذراعه التي كانت تستند إليها، لكنها أمسكت به في صمت وواصلا السير، هي تنظر إلى قدميها - كان القوم يتتابعون بلا توقف، مشاة أو بواسطة سيارات - بينما هو يحاول معرفة الوقت في إحدى ساعات التوقيت العامة.

«وإذا اتفق لي ألا أغفر...».

استعادت حواسها ورفعت رأسها:

«هكذا، إذن لن يغفر لي ماكر تومبسون أنا الأخرى. فلا تغفر لي.

- حسناً، لن أغفر لك، وبما أنه ينبغي قول كل شيء، لست أدري إن كان محاميي قد أخطروك بأن كل ما كان لأمك ولمايارى أختك، هو تحت تصرفك، هو ملك لك، شيء يمكنك التصرف فيه، وهو ملكيتك.

- لقد أخطروني البارحة... ولكن الأمر لا يتعلق بالمصالح، إنما يتعلق بشيء لا ثمن له: غفرانك. أريد منك أن تصفح عنه. أعتقد أنه لن يحافظ على قيمته بالنسبة لي إلا بصفحك عنه. ومن دون صفحك يا جو ماكر لن يظل كما كان.

- إن الإهانة بالنسبة لي لا تكمن في كونك موشكة على أن تصيري أماً، وإنما لأنه رحل دون أن يترك لي أية كلمة كي يطلعني على نواياه. إنك نصف مهجورة. وليست لك أخبار عنه. فكيف أغفر له؟ كلا. ولا بأي حال من الأحوال.

- ولكنه سوف يراسلنا. لقد سافر إلى مصر، وعلماء الآثار ينسون كل الكائنات الحية عندما يقتربون من عالم الصمت الذي يكتشفون.

ـ لو أنه ترك لك عنوانه، لكنا اتصلنا به في القاهرة بالهاتف.

ـ لقد قال لي بأنه سوف يرسله.

ـ وهل يعرف حالتك؟

ـ لم أخبره بشيء، لأن ذلك بدا لي من قبيل الضغط على شخص مسافر لتقييده، ثم إننا بطريقة لا إرادية أكثر اتفاقاً في الحياة من أن يضطلع هذا الذي لم يولد بعد بدور القيد والسجن أيضاً».

حثا الخطى، كان لجو ماكر موعد هام. بنطال أسود، ربطة عنق سوداء، بدلة سموكن بيضاء، سجائر، عطور، وكوس صغير.

* * *

لا يمكن التأكد هل هو الماء أم الصمت الذي كان يمر قرب البيت، ما عدا في الفسحات التي كان فيها بريق النوافذ يذهّب سطح الميسيسبي. قاد أحد الزنوج ماكر تومبسون إلى القاعة التي كانت تشاهد فيها نجود وآنية من خزف أو عاج وأثاث من طراز قديم. تحركت إحدى الستائر وجاء أضخم من في شركة الـ... «تروبكال بانانيرا. اس. آي». لاستقباله: وهو شخص ذو حجم صغير، عريض المنكبين، مع رأس ضخم، ينتعل خفين مبرنقين.

«أهلا وسهلاً بك!... لم أكن أعرفك إلا بالسماع. بالسماع ومن خلال مراسلتك!

ـ شكراً ألف مرة، يا سيد غراي!... أنا مبتهج بمصافحتك! أنا سعيد أيضاً، بمعرفتك شخصياً.

ـ سيجارة؟... سنطلب ويسكي عما قريب ونجلس. حيثما تريد. هذا المقعد، هل يناسبك؟

ـ هذا لطف منك...

ـ ماء معدني؟... ماء عادي؟... ويسكي زيادة؟

ـ عند خط الاستواء، لا أدري إن كنت على علم، يُحتسى ممزوجاً بماء جوز الهند.

- يبدو أن ذلك دواء ناجع ضد حمى المستنقعات...

- ناجع ضد السأم.

- وهل يذهبن بك الظن إلى أن الإنكليز صنعوه من أجل ذلك. حسناً! لنشرب نخب لقائنا ونخب انتصارك في الاجتماع المقبل للمساهمين. إن انتخابك لرئاسة الشركة مضمون، وفي ذلك اليوم سوف نفتح «الشمبانيا».

- في صحتك، يا سيد غراي! مع عراب مثلك...

- الانتخاب أكيد. نحن نعتمد على أغلبية المساهمين الكبار. أما العدد الضئيل من «الكواكرز»(*) الذين يقودهم خانجر كاند فلن يحقق شيئاً يذكر... هل تعرف ذلك الشخص؟

- منذ أكثر من خمس عشرة سنة. لا شك أنه هرم الآن.

- أنه عميد المساهمين. غير أنه لن يحقق شيئاً، الأكتع، المسكين. إن الأغلبية سوف تنتخبك أنت، يا ماكر تومبسون، أنت الذي قدمت براهينك وتمثلت بأمانة طريقة تفكير رجال الأعمال بمعنى أن المال وحده له قيمة، والمال وحده هو الذي يكسب السلطة.

- أذكر أن خانجر كاند (كنت في مقتبل العمر ولعله بسبب ذلك بقي مرسوماً في ذاكرتي) غادرنا وهو يصرخ بأن شركتنا للثمار هي شركة لصوص أمة متمتعة بأعرق التقاليد نبلاً.

- ولا يزال يقول ذلك.

- أنت على حق، يا سيدي غراي، وحده المال يعطي السلطة، وها إن طبقة اللصوص، كما يدعونا كاند، قد صارت تملك أكثر من مائتي مليون دولار، وإنما باسم هذه الملكية يمكننا ضم البلدان التي فتحها آخرون، باسم ملوكهم البائسين، وكانوا يرهنون مجوهراتهم

(*) طائفة بروتستانتية تدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر.

دون أن يملكوا لقميصهم تغييراً، مع زمرهم المجندة من الشحاذين والرهبان الحفاة.

- إيه، يا عزيزي، لقد تغيرت الأزمنة...

- السلطة تفيض عن الله، الأمر الذي يؤكد ما كنت تقوله منذ قليل، يا سيد غراي، ثم عن الملكية، ثم عن الشعب وأخيراً فإنها اليوم تصدر عن المال، المال الذي هو وحده يهب النفوذ.

- ولكني قلت لك يا ماكر تومبسون بأن الأزمنة قد تغيرت. وأعرق التقاليد نبلاً، تلك التي يصفعنا بها كاند، تغيرت من حسن الحظ وحلت محلها «التروستات» وبما أننا نشكل جزءاً من «التروستات» المائة التي تحرك سياسة الولايات المتحدة فلماذا التردد في ضم تلك البلدان، لكي نضمن ثروتنا ونتخلص من الحكومات التي نحافظ عليها، على ما أتصور، بنية دفع السكان إلى اليأس وجعلهم يصرخون في الشوارع مطالبين بالتبعية لأي كان، المهم ألا يكونوا ضحايا مواطنيهم من الحكام الدمويين؟...

- وهذا عين الصواب، يا سيد غراي...

- لأنه ليس من الداعي أن يكون المرء ثاقب الفكر كي يلاحظ بأن ذلك هو الغرض الذي يواظب عليه البيت الأبيض بدعمه لهذا الضرب من الأنظمة حيث يكرس العسكريون، أولئك التنابل الكبار، أنفسهم للنهب ناشرين الموت والرعب.

- لا يمكن لأي «بروتستانتي» أن يفهم الإنجيل أفضل من ذلك.

- يا عزيزي، إن نيو أورليانز هي ملجأ كل أولئك الساخطين البائسين. ولكن لنشرب. مزيداً من الويسكي؟... سوف يجدون في الاستلحاق الأمان في مساكنهم والأمن لمصالحهم ولشخوصهم، ينبغي أنقاذ ما تبقى من بقايا تلك الشعوب الدنيا...

- المسألة ليست مسألة إنقاذ. نحن لا ننتمي إلى جيش الخلاص. إن كاند مصاب بهذه الأفكار الإنسانية. لم تزر المناطق الاستوائية

ياسيد غراي. إن من عاش فيها. مثلي، أعواماً وأعواماً يعرف جيداً بأن ليس هناك ما ينبغي أنقاذه، ولو كان رميم الموتى، بما أنهم في ذلك المناخ لا ينامون البتة في قبور على الطريقة المصرية، كما هو الحال هنا، ولا هم يطفون في الشوارع. سوف أروي لك ما حدث لي ذات ليلة في مدينتكم الجميلة، عندما كنت شاباً. في المناخ الاستوائي لا يمكن إنقاذ حتى جثث الموتى، إنها تختفي، تذهب، لا يبقى لها أثر، الموت ليس خالداً والحياة جد عابرة».

كف ماكر تومبسون عن الكلام عند سماعه لوقع خطوات، دخل أشخاص آخرون. صيارفة ومساهمون كبار، كما أعلن غراي، من شركة «سوكوني ـ فاكوؤ وم أويل» ألف وأربعمائة مليون دولار؛ ومن «غولف أويل كوربوريشن» ألف ومائتا مليون دولار؛ ومن «بثل ستيل كوربوريشن» ألف مليون دولار، ومن «شركة جنرال ألكتريك» ألف مليون دولار؛ ومن «تكساس كومباني» ألف مليون دولار؛ ومن «جنرال موتورز كوربوريشن» ألفان ومائتا مليون دولار، ومن «يو، اس. ستيل كوربوريشن» ألفان وخمسمائة مليون دولار، ومن «ستاند أويل كوربوريشن كومباني» ثلاثة آلاف وثمانمائة مليون دولار.

«ولم أشأ الإشارة إلى «الوجبات الصغيرة»»، قال غراي مبتسماً، قبل الذهاب لاستقبال زائريه. ليسوا أقزاماً البتة! ما من أحد يملك أقل من ألف مليون دولار. كلهم مساهمون ذوو نفوذ في الشركة، وكلهم من أنصارك».

كان أريج الخزام يدخل من النوافذ المشرعة على أنوار حالمة في ليلة حارة، ثم يمتزج بالدخان الفضي المتصاعد من التبغ الزكي وبنكهة المشروبات الروحية التي كانت تساعد، مع القهوة، على هضم وجبة فاخرة مصحوبة بخمور بيضاء بلا ماء، في الأكواب، وخمور حمراء تبعث حرارة الأصابع الدفء في كؤوسها...

تلال قمر... تلال ذهب... يرتجف برداً... يتشبث بسيجاره...

يمضغه مثل جائع، بلهفة، ثم يبصق التبغ... إنه ماكر تومبسون... أنا ماكر تومبسون... البابا الأخضر... نفوذي خارج الزمن وفي الزمن، خارج الواقع وفي الواقع... «السيد رئيس الإتحاد القاري الأمريكي، البابا الأخضر، يأمركم بأن تضيفوا إلى الدول التي تشكل إتحاد الأمريكتين، واحدة من أقوى الدول في قارتنا، الدولة التي أحكمها أنا الحبر الأعظم صاحب الزمردة الكبرى، بمساعدة الحكومات والشعوب، إن الدولة الرابعة والعشرين في العائلة الأمريكية القارية تملك أراضي على خليج المكسيك والبحر الكاريبي. وثمة أجزاء خضراء من نفوذي تمتد حتى المحيط الهادي بالذات. وبالإضافة إلى تلك الأراضي، فهو سيد مئات، وألوف بل مئات ألوف السكان، الخاضعين لنفوذه المطلق. النفوذ الذي يهبه المال. أقاليم، سكان، وحكومة قديرة في شيكاغو، في مكاتب شركة «تروبيكال بانانيرا. اس. آي.» زد على ذلك أن الدولة التي أطلب اليوم تسجيلها بين بلدان الإتحاد القاري الأمريكي تملك بواخر في البحرين المذكورين، سكك حديد، موانئ، بنوكاً، ممثلين في الكونغرس كونغرس الولايات المتحدة، وكل الوسائل الإعلامية التي تتميز بها الدولة الحديثة، قوات مسلحة وبحرية قابلتين للتعبئة، وعملة: الدولار. ولغة: الأمريكية. وهذه الجمهورية الرابعة والعشرون هي أقوى واحدة من بين الجمهوريات الأخرى ذات المصالح المحدودة، والمشتركة في إتحاد الأمريكتين، ولهذا فأنا أطالب بأن تعطى لها المكانة التي تعود إليها في طاولة التداول، وأن يضاف إلى الأعلام الأمريكية المجيدة، علم ليس أقل مجداً، هو علم «دولتنا المثمرة»، وهو عبارة عن راية خضراء تحمل في وسطها جمجمة قرصان ميت على غصني شجرة موز».

كان ثمة سفينة يحركها دولاب كبير، فتتقدم مخلفة وراءها مخراً من الرغوة فوق مياه الميسيسبي الهادئة... اللانهائية... فرك جو ماكر... يديه ابتهاجاً بعد أن استأذن من السيد غراي والمساهمين الكبار الذين وعدوه بأصواتهم لرئاسة الشركة في

الجلسة السنوية المقبلة. اللانهاية... الشارع، ـ كان يجتاز قنال ستريت ـ السيارة، السائق يرتدي بدلة، أجراس كنيسة ـ لاشك أنه الفجر ـ البرد الصاخب في المدينة، أجناس من العمالقة تعطس في الأسواق، سيارات الإسعاف، والنور النحاسي الكابي فوق مباني الآجر.

ساعة الصفر... شيكاغو... القطار قيد التوجيه... ساعة الصفر... شيكاغو... القطار قيد التوجيه... كانت الدعوة جد مستعجلة. بحيث ما كاد يودع «أوريليا»... لكنه سوف يعود... من أجلها ومن أجل السيد غراي... منذ تلك الليلة، لم تعد نيو أورليانز مدينة الجثث العائمة، بل مدينة أصحاب المليارات، الذين لا أحد فيهم يملك أقل من ألف مليون دولار، والذين يدندنون: «طوبى لمن في بيته السيولة! في بيته السيولة!...».

ساعة الصفر... شيكاغو... القطار على أهبة الانطلاق... ساعة الصفر... شيكاغو... القطار على أهبة الانطلاق... كانت الدعوة مستعجلة، جد مستعجلة. ولكن أية وقاحة في قوله لابنته، لحظة الوداع: «لتكن الأهرام عليك خفيفة الوطأة إن شاءت السماء!...» راي سالسيدو... صار اسمه الآن معروفاً جداً في مقاسم تلفونات العالم ـ نيويورك، لندن، باريس، برلين ـ بحيث لم يعد ثمة داع لإفهامهم بأن الكلمة لا تعني «ملك» REY وإنما RAY... ملك ماذا؟ يسألون. ملك الفولاذ، ملك البترول، ملك الكاوتشوك... راي، راي، راي سالسيدو، عالم آثار... كلا، لكنه أحسن صنعاً عندما قال لها: «أوريليا إذا لم يظهر راي سالسيدو، وكان المولود ذكراً، سوف نسميه «جو ماكر الابن»... جميل، أليس كذلك؟...» أنا، عند سماعه، أشعر كما لو كنت أعود مع أوهام سن الشباب، كما لو أن هذا الاسم المتيبس اليوم، المنهوك، الصلب مثل ألياف خشب قديم، يسترجع من جديد عالماً من نضارة الفتوة وسرابها...

ساعة الصفر... شيكاغو... ساعة الصفر... شيكاغو... القطار يستعد للانطلاق... وها أن القطار ينطلق... ســ ســ ســ ســ تــ و و

و و ب... سـ سـ سـ سـ سـ تـ و و و و ب... أمناء سر، مرافقون مع رشاشاتهم الخفيفة... وداعاً للتستر!... مصورون... صحافيون... مراسلون... نعم، لا بد من سطور إضافية عن خبر الوصول... تصريحات... ما من تصريح... سوف يصرح اليوم بالذات. نعم، ينبغي حجز الصفحة الأولى حتى الخامسة مساءً... وربما قبل ذلك، أو ربما بعده... ينبغي حجز مساحات في طبعات الليل... المراسلون... كلهم في الفندق... حجز خطوط تلغرافية... حجز خطوط هاتفية... خطوط تلغراف السلك البحري سالكة هذا المساء...

ثبت عينيه الكستانئيتين على نظر رئيس الشركة، واستغرب عدم وجود سناتور ماساشوستس، كان دمه يتدفق بسرعة مثل طالب ثانوي يدخل قاعة الامتحان، ولقد كان في الغرفة التي عما قريب سوف تصير مكتبه. في جزء من ألف من الثانية، فكر في الإصلاحات التي سوف يدخلها على «الديكور»، والأثاث، وترتيب «الأرشيف» والبقية. ولقد عزا ماكر تومبسون نظرة الرئيس الثابتة والفاحصة إلى واقع كون الآخر ربما كان على علم بتعويضه المحتمل، إثر الاجتماع المقبل للمساهمين، بأغلبية ساحقة.

«من هو ريتشارد ووطن؟».

كان السؤال مفاجئاً بحيث أوشك ماكر تومبسون أن يضع إبهامه في حمالة بنطاله ويلهو بالمطاطة فوق قميصه الحريري، ويصرخ: «كان، بما أنني قتلته...» غير أنه أجاب بصوت مرتفع:

«لقد مات ريتشارد ووطن منذ زمن طويل، إنه الزائر الذي كان يرافقني في عربة السكة التي انقلبت في «فويلتا ديل ميكو».

ـ لكنه سافر بعد موته...

ـ نعم سافر في نعش على متن الباخرة «توريالبا».

ـ هذا ما تظنه، يا ماكر...

ـ كيف! ما أظنه؟... إنه الواقع. لقد شيعت ريتشارد ووطن، بعد أن صرفت جهداً كبيراً لإخراجه من الوادي الذي شجت فيه قاعدة جمجمته حسب تشخيص الأطباء، وعندما مات، أوصلته حتى الباخرة.

ـ هه إذن، لقد انبعث حياً، يا ماكر تومبسون».

هز جو ماكر رأسه وهو يحرك جفنيه، كما لو أراد الإيحاء بأن ما قاله رئيس الشركة برباطة جأش، إنما هو ممكن في نهاية الأمر، إذ إن المال، بنفوذه الإعجازي الواسع، كان قادراً على بعثه حياً إثر عودته إلى الولايات المتحدة.

ـ عاد إلى الحياة؟

ـ لا تشك في الأمر، يا ماكر تومبسون. وليس على متن «التوريالبا» بل على متن «السيكسالوا» بعث المتوفى حياً ولقد قدم إلى وزارة الدولة تقريراً كاملاً، صارماً، وموثقاً برسوم توضيحية، توضح بطريقة جازمة كل الجنح والجور والرشاوي والجرائم، ولست أدري ماذا أيضاً؟... مما ارتكبته الـ «تروبيكال بانانيرا» هناك...

ـ ألم يكن الزائر المحترم هو نفسه ريتشارد ووطن؟ سأل جو ماكر من جديد، دون أن يصدق ما يسمعه.

ـ البتة!... لقد كان الزائر المحترم مجرد مهرج مساهم في الشركة، وكان يدعي أنه خبير بشؤون المزارع.

ـ ولكنه كان يجمع الشكاوى...

ـ كان عليه أن يستمع إلى الظلامات، لأنه كان مهرجاً مثل خانجر كاند...

ضم ماكر تومبسون يديه مشبكاً أصابعه ثم حركهما لحظة دون أن ينبس بكلمة.

«ورغم ذلك لا شيء ضاع، واصل رئيس الشركة، لا شيء،

ماعدا قضية الضم. ينبغي عدم التفكير في الضم من اليوم فصاعداً. ولكن، علينا أن ننصرف إلى العمل بلا إبطاء، إذا كنا ننوي عدم التفريط في القضية، كما هو الحال بالنسبة للضم. يجب الذهاب إلى هناك والحصول من السلطات على تصريحات مفخمة حول الأرباح الاقتصادية التي يمثلها حضورنا بالنسبة لهذا البلد، نظراً لكون المشروع يدفع أعلى الرواتب ويشغل أكبر عدد من العمال... ينبغي اشتراء رؤساء دول، ونواب وحكام وقضاة وعمد... وعلى كل كائن له تفويض، تأثير أو نفوذ أن يمتدح، بلا تحفظ، إدارتنا الزراعية، التجارية الاقتصادية والاجتماعية... ومن أجل ذلك، مزيداً من المال إلى الصحف والصحافيين والمراسلين، مزيداً من الهدايا إلى الجمعيات الخيرية، ملاجئ الفقراء والشيوخ وإلى الكنائس...

- ما هو مذهبهم هناك؟

- إنهم كاثوليك...

- حسناً. رغم أنه من المقزز مساعدة أولئك الكاثوليك الخنازير، ينبغي ملء خزناتهم. وفي الصحافة، القليل من الكلام، هه؟ القليل من الكلام، والكثير من الصور: مزارعنا، مستشفياتنا، وسائط نقلنا، مدارسنا...

- إنها لا توجد

- إذن علينا تشييدها فوراً، بلا تأخير. ثلاث أربع، خمس، عشر مدارس. الضروري. اللازم، إنما هو رؤية المدرسين والتلاميذ في الصور... ووكالات أنباء عالمية...

- يوجد بعض منها.

- عدد منها، نحن نساعده مالياً ونحركه. إنها في خدمتنا. لكن ما يستوجب العجلة، إنما هو التعبئة الكاملة لشل عمل وزير الدولة الذي يمكنه بجرة قلم أن يقوض ما قمت به خلال خمس عشرة سنة...

ـ ومن كان إذن؟ ما اسم الزائر المفتش؟ كرر ماكر تومبسون الذي لم يعد ينصت لشيء.

ـ كان يدعى شارل بيفر...

ـ ولكن ذلك لم يكن اسمه الحقيقي. لقد ادعى بأنه شارل بيفر. لكنه كان يدعى ريتشارد ووطن.

ـ كان يدعى شارل بيفر وكان هو شارل بيفر. لقد ورث ثلاثة أطفال وأرملة جميلة من أسهمه وهم يفكرون في التصويت لصالحك أثناء جلسة المساهمين المقبلة. إنهم مدينون لك بالجميل.

ـ يا له من خطأ فادح! أخذ ماكر تومبسون يكرر بينه وبين نفسه.

ـ أما ريتشارد ووطن، لست أدري إن كنت قد عرفته، فقد ذهب إلى هنالك بصفته عالم آثار. والملف الذي يتهمك فيه شيء مدهش، مؤثر، ولكننا سنتولى دفنه تحت ركام الضوضاء المصمة التي سوف ترتفع من كل أقاليم الكاريبي لتطالب بحضورنا وتحيينا على أننا رسل الحضارة والتقدم، المبشرون بالرخاء والثروة. كنت تتحدث عن الخطر الأصفر، إنها فرصتنا الآن لإظهاره: أوكار جواسيس يابانيين... جيوش متواطئة مع الميكادو... خرائط... وثائق... ملفات مرقمة... غواصات في مياه المحيط الهادي محاذية لأمريكا الوسطى... والخطر الذي يتهدد أسطولنا في حالة هدم قناة بنما، السريعة العطب مثل علبة ثقاب، بسبب الهويسات(*)...

ـ ريتشارد ووطن؟ أعاد ماكر تومبسون السؤال كما لو كان يتحدث في الفراغ. عالم الآثار كان يدعى ريتشارد ووطن؟

ـ إنها الحيلة التي توخاها للتغلغل في المزارع، في أسرارنا، إذ من المؤكد أنه اطلع على عدد من سجلاتنا».

(*) يستعمل الهويس في القناة لرفع السفن أو خفضها من مستوى إلى آخر.

عندئذ رأى رئيس الـ «تروبيكال بانانيرا» ماكر تومبسون ينهض ثم يخرج، وهذه المرة من دون أن يوقع بقدميه على الأرض.

كيف يمكن بعث شارل بيفر من الموت؟

من حسن الحظ أنه مدفون هنا، بثياب المستكشف، في نعش مزدوج القعر، مع لوحة زجاجية لرؤية وجهه، وعينيه المغمضتين، كما وجد في قرار وادي «فويلتا ديل ميكو». لو أنه دفن في المناطق الاستوائية، لاختفى نهائياً، ولم تبق منه حتى الجثة، هنالك يمضي الموتى ولا يعودون أبداً. الموت ليس خالداً ولكنه عابر.

انقضى الأمر... أرملة وأطفال هم الآن شبان، متأهبون لانتخابه في الجلسة المقبلة للمساهمين... لن يرشح نفسه على الإطلاق.

* * *

صاح المنادون هذه الليلة في شوارع شيكاغو: «خبر عظيم!... خبر عظيم!... جو ماكر تومبسون، البابا الأخضر، ينسحب إلى الحياة الخاصة، ويرفض رئاسة الشركة!...».

انقضى الأمر!...

لم يكن بوسعه بعث شارل بيفر من الموت... لم يكن بوسعه أيضاً بعث الكائن النامي في أحشاء أوريليا، ابن ريتشارد ووطن، إلى الحياة...

ألف مليون دولار... ألف وخمسمائة مليون دولار... ألف وثمانمائة مليون دولار... ألفا مليون دولار...

انقضى الأمر!... انقضى الأمر!...

الجزء الثاني

9

بالنسبة لـ «بوبي تومبسون» اليانكي - حفيد ماكر تومبسون المسن حالياً، والذي لا يزال يلقب بـ «البابا الأخضر» - كانت المدينة مقسمة إلى ثمانية، تسعة، عشرة ملاعب «بيسبول»: «سهل المربع»، «سهل الحمامة»، «جيرونا» «سان سبستيان»، «حقل مارس»، «منحدر التلة»، «الجني»، «المنسك» و«ميدان الخيل» حيث توجد «الماسة» الرسمية لهذا النوع من الرياضة.

كان فريق بوبي تومبسون يلعب باسم «ب. ت انديان» لكنه كان يعرف أكثر باسم «انديان». اثر مقاومة صغيرة ومسالمة من قبل أعضائه الذين كانوا - عندما يدعونه «ب. ت» - يضيفون إلى أسمائهم الأولى، الحرفين من اسم اليانكي، لأنه لم يكن متوجاً رغم أنه كان رئيس فريقهم وكانوا يعتبرونه بمثابة شخصية عظيمة، نظراً لمعرفته بقواعد اللعبة، التي كان يقرؤها باللغة الإنكليزية مباشرة، ولمجموعة القفازات التي يملكها: قفاز وقناع وواقية صدر للمصارعة الحرة، قفازات رائعة، طابات ومضارب قانونية.

كان «بوبي» يصل صباحاً إلى المرج وهو يمضغ اللبان. وعلى مرج العشب الأخضر المبلول بندى الفجر، يلمع شعره الأشقر تحت أشعة الشمس، وهناك ينتظر لاعبي فريقه، وهم مجموعة فتيان سمر ذوو شعر أسود، كانوا يأتون في نفس الساعة أيضاً، بعضهم أنيق والبعض الآخر قذرون يتناولون بعض الفواكه، وعجين الخبازيات

أو سندويشات فاصوليا سوداء تترك على أسنانهم بقايا وسخ حدادية كما يقولون. كانوا يصلون متدافعين، متعاركين.

«مرحبا يا شباب!».

هكذا كان يصيح بهم رافعاً المضرب بيديه داخل القفازين، حتى يروه من بعيد، من «سهل المربع» حيث كان يبدو العشب الأخضر المداس في الملعب. كان لبعض أولئك الفتيان قفازات حبكوها بأيديهم من أجل التوفير. وحول وسط القفاز الجلدي عموماً، كان يوجد نوع من البطانة المحبوكة من الصوف أو التبن أو هلب الخيول أو القطن لتتكيف مع شكل اليد وتخفف قليلاً من ضربة الكرة. قفازات لا أشكال لها تشبه المخدات الصغيرة أو الممحاة التي تمسح بها آثار الطبشور على السبورة السوداء في المدرسة.

كان توريس، الملقب بالـ «أغمص»(*) مشهوراً بقفازيه اللّذيْن حشاهما بضفائر قديمة من شعر أمه، الأمر الذي دفع بالآخرين إلى البحث في الخزائن الخشبية والحائطية والأدراج عما إذا كان يوجد فيها أو في صناديق وأصص وأوعية، شعر خالات وعمات شهيرات أو شعر أخوات قضت عليهن حمى التيفوئيد في سن معينة وتوجب، بسبب ذلك قصه.

وعندما اقترب «بوبي» من الجماعة، كان «راموس» الملقب بالقط يتصارع مع «صامويل غاليسيا» وقد عرقله برجله عمداً كي يسقط على وجهه، ثم ارتمى فوقه وانهال عليه ضرباً بقبضته.

«لا تكن سوقياً، فالمرء لايضرب وهو منهار على الأرض! صرخ به الآخرون دون أن يتدخلوا. لا تضرب بقبضتك أيها الحيوان!».

لجأ بوبي تومبسون إلى امتيازه كرئيس فريق وفرق ما بينهما بركلتين من قدمه ثم انتصب بينهما، إلا أن غاليسيا حالما تخلص من ثقل خصمه ونهض من جديد، اندفع محاولاً الهجوم. كان لسانه

(*) أو الأرمص: أي الذي في مجرى الدمع من عينيه وسخ أبيض.

ينزف دماً فيضع يده على فمه، وهو يسب «راموس»، ويمسح يده ثم يمسحها بشعره، الأمر الذي كان يجعله يلوح وكأن رأسه وأذنه وجبينه ملطخة بلدم.

«اهدأ أيها «الريشة الصغيرة» قال له رفاقه. هيا عليك أن تمسك به ذات يوم وتباغته كما باغتك. ارصده فقط ثم عليك أن تدحرجه يا عزيزي، كل ماهنالك أنه أمسك بك من شعرك وانتهز فرصة سقوطك بعرقلته لرجليك، كي ينهال عليك وأنت على الأرض».

إن راموس «القط» الذي أبعده بوبي تومبسون، يرتدي في يده اليسرى قفاز مصارعة حرة مصنوعاً في البيت، يبدو بالأحرى كأنه مخدة مستديرة وقبيحة الشكل، وقد أخذ راموس يمر بقفازه على وجهه ويغمره بالقبلات ويضغطه على قلبه، وهي حركات كانت تغيظ غاليسيا الملقب بـ «الريشة الصغيرة» لأن الآخر حمله على الاعتقاد بأن القفاز محشو بشعر أخته «أماندا».

«أختي لا تخصك أيها المسلول، المسلول، المسلول! صرخ به غاليسيا كي يتخلص بهذه الشتيمة من الغضب الذي تملكه بسبب الضربات التي تلقاها وبسبب شفته النازفة، والقبلات على القفاز الذي كان يظنه محشواً بضفائر أخته. مسلول! مسلول! مسلول!».

كانت العودة إلى الصلح صعبة. وتوجب تركهما يتصارعان من جديد، ولكن هذه المرة بحضور حكم مع استخدام قفازي الملاكمة. وتم تكليف «مايان» الصغير بالانطلاق على دراجته لإحضار القفازين من عند «بوبي»، الذي لم يكن بوسعه مغادرة المعسكر لأنه كان المحترم الوحيد من قبلهم. واتفقوا بأن تكون الضربة القاضية هي خاتمة المصارعة من دون اللجوء إلى التوقيت. وما أن أخلي سبيل كل من غاليسيا وراموس حتى انقضا على بعضهما مثل ديكين متعطشين للقتال، ضرباً على الرأس والوجه والجسم. وفي الصمت المخيم على الشبان المنتبهين إلى الملاكمين، كان يسمع الصوت المكتوم المنبعث من قفازي الخصمين، وهما يسددان أو يتحاشيان

اللكمات، وكلاهما مستشيطان غضباً، ويلهثان غير قادرين على التوقف للاستراحة.

سدد غاليسيا لكمة تحتية لراموس الذي شحب لونه وبدا عليه أنه يريد التقيؤ، ثم لاحت دكنة مميتة على وجهه ذي العينين الخضراوين وانهار فوراً. وعندما شاهدوه على تلك الحالة، فر الجميع مخبرين بعضهم البعض وهم يركضون: «لقد هشم له جوف معدته!» ولم يتبق في المعسكر، لمعرفة ما سيحل «بالمصروع» سوى بوبي وتوريس «الأغمص»، وخواريز «السلحفاة» و«مايان» الصغير الذي كاد يشتبك، فيما بعد، مع ليموس «الزنجي» لأنه بدل الذهاب على دراجته، ركب دراجة «الزنجي» وفر بسرعة مردفاً غاليسيا وراءه.

«الويل للمصروعين!» هتف خواريز «السلحفاة» مقلداً بسخرية صيحة «الويل للمهزومين!» التي تعلمها في دروس التاريخ، وهو يركل القفاز الذي كان سبب النزاع.

وعندما رأى توريس صنيع رفيقه أسرع كي يلتقط المخدة الصغيرة التي كان لها شكل يد منتفخة والمحشوة بضفائر «أماندا»، غير أن «السلحفاة» تمكن من الإمساك بها مقرفصاً أمامه، الأمر الذي جعله يقع أرضاً.

«لقد هبطت جيداً يا عزيزي!» صرخ به خواريز، في حين كان الآخر ينهض، مغبر الثياب والقفازين.

ومن دون هدر للوقت، انقض «الأغمص» على القفاز بأسنانه ممزقاً قماشه ليرى ما بداخله.

«ضفائر أماندا؟».

لا يتذكر أنه رأى تلك الضفائر، لكنه يذكر جيداً أنها كانت تضفر شعرها، قبل أن يلجؤوا إلى جزه بسبب التيفوئيد. ذيل بقرة أسود، ربطة تنحل، تدفق ماء أسود، ناعم، ناعم جداً، تدفق ليلي أسود.

حدق بوبي بعينيه الزرقاوين المخضرتين في ما كان الأغمص يستخرجه من داخل القفاز.

ليست ضفائر «أماندا» يا غاليسيا!...

هذا الشعر الشبيه بحبل من أسلاك سوداء والذي شاهدوه من دون أن يروه، تماماً كما كانوا يشاهدون أماندا دون أن يروها، وهو الشعر الذي، عندما يفكرون فيه، يتذكرون خصلة كثيفة تبدو بها الفتاة أكثر رهافة وضموراً، الأمر الذي يجعل عينيها السوادوين الجميلتين تلوحان في وجهها الضامر أكثر اتساعاً.

«إنه ذيل حصان! صرخ بوبي تومبسون.

- آه! يتضح من ذلك، أنك لست من هنا أيها اليانكي!... عابه خواريز «السلحفاة»، في حين كان توريس «الأغمص» يخرج بقية الشعر من قفاز «راموس» الذي كان لا يزال على الأرض متوجعاً وشبه مغمى عليه. ذيل حصان! سنبلة ذرة! ما أنت إلا كذلك، أيها اليانكي، سفاة ذرة! ها! ها! ها!...».

وأخذ الجميع يقهقهون وقد عاد بعضهم ليرى ما كان يحدث. قذف «الأغمص» القفاز بأحشائه المتدلية إلى بوبي. واقترح «السلحفاة» إخفاءه كي لا يعود «المصروع» مطالباً باسترجاعه. فأخذ اليانكي يحرك رأسه يمنة ويسرة وكأنه يريد أن يقول: «يا لها من مشكلة!».

عاد «مايان» على دراجة ليموس برفقة غاليسيا. فلقيا الجماعة يفحصون القفاز. قفز غاليسيا من على دراجته كي يتأكد باللمس وبالبصر مما كان يملأ القفاز.

«ضفائر أماندا!... ضفائر أختك!... ها! ها!!!! قالوا له مقهقهين. يا له من شعر جميل، أيها الصهر يا أخا الزوجة! إنه شعر ذرة... لن نناديك أبداً الريشة الصغيرة! وإنما لحية الذرة. كان الأحرى براموس أن يقول بأن القفاز محشو بشاربي جدك وأشيائه المفضلة!».

رفع المهزوم رأسه عند سماعه القهقهات. كان يحس بارتخاء وألم في جوف المعدة. تحلق الجميع حوله كي يسخروا من تبجحه. لم يكن شعر «أماندا» في القفاز أيها المهذار الخداع بل سفاة ذرة!

تم تحاشي الصراع بين «مايان» و«ليموس» حول مشكلة الدراجتين، وتمكنوا أخيراً من الشروع في المباراة، فالتحق كل واحد بموقعه.

شمس منتصف النهار. غبار الأرض الحارة، والعشب المتيبس. كان «بوبي» يضرب الكرة بالمضرب أو «بالهراوة» كما يسمون على نحو مثير، العصا الخشبية التي لها شكل آس البستوني في ورق اللعب. وإثر ضربة الهراوة، تنطلق الكرة مثل رصاصة فيتحرك اللاعبون الآخرون، مشكلين هلالاً في المواجهة، وأيديهم اليسرى في القفاز ويحاولون الإمساك بالكرة أثناء انطلاقها أو ارتدادها على الأرض. وكان اللاعب الذي يمسك بها يعيد قذفها إلى أقرب رفاقه، وهذا بدوره يرسلها إلى آخر، وهكذا... والهدف استخدام كل واحد للقفاز ثم إعادة الكرة إلى بوبي الذي يعيد قذفها.

ساعة من اللعب. وبعد انطلاق أجراس الكنائس معلنة منتصف النهار، يعودون إلى بيوتهم. فيجمع بوبي قفازاتهم ويعلقها كالعنقود في مضربه ثم يسير في مقدمة الموكب، معلقاً على «ضربة الذراع المحكمة» التي قام بها خواريز السلحفاة بالنسبة للـ «رميات المنحنية»، وذلك عندما كان يقذف الكرة أو يجبره على بعض الانحرافات التي تبعده عن الخط المستقيم، بقصد مراوغة اللاعب الذي يريد مهاجمته بالمضرب. وكان يتحدث أيضاً عن «سرعة» الريشة الصغيرة. إنه عداء «بيسبول» ماهر. لكن ينبغي عليه أن يتعلم كيفية التسلل بطريقة أفضل.

وكان ليموس ومايان يتبعانهم على دراجتيهما، وهما يضغطان على الزمّور.

وأخيراً ارتحلت زمرة الشياطين!... لأنهم فعلاً شياطين! هتفت

عجوز كانت تكنس عتبة تشرف على «سهل المربع» في حين كان بوبي ولاعبو فريق «ب. ت انديان» يتوارون في آخر المرج كي ينتشروا في الشوارع. ثم واصلت التحدث وحدها، في سحابة الغبار الأحمر الذي كان يرتفع من رصيف الآجر:

ـ لو كان بإمكاننا، نحن الخادمات البائسات، أن نفهم شيئاً ما، خارج الخدمة والمذهب المسيحي، نعم شيئاً ما، أن نفهم شيئاً ما، نميزه نحن، إيه إذن، فإننا سوف نذهب إلى القول بأن الصبيان في هذه الأيام لم يعودوا يتسلون بألعاب الماضي: الخذروف، «البلبل»، طيارة الورق، كرة الخرق التي تمر من يد إلى يد في لعبة «العصفور الصغير»، القطة والفأر، الغميضة، لعبة التخبئة والاستغماية، والزوايا الأربع، والرهان وكل ما شابه. ألعاب اليوم كلها مستوردة من أمكنة أخرى. العابنا المحلية لم يعد لها وجود. ما هو من الخارج فقط له قيمة: لأنه من الخارج. قديماً كنا نلعب لعبة الثيران. كان أحدنا يقوم بدور الثور. الآخرون الخيول، وعلى ظهورهم «البيكادور»(*). اليوم انتهى كل ذلك. لا توجد سوى ألعاب اليانكي. وربما كانت أفضل، لكنها لا تعجبني.

وعندما توقفت عن الكنس، رأت عبر الغبار الأحمر الذي أثارته، كلباً ذا شعر مجعد يدخل.

«هيه ومن أين جئت أنت؟».

والكلب يسبق دائماً سيده المجاز ريخينالدو فيدال موتا.

«خيِّل إليَّ أنك كنت تحدثين شخصاً ما، قال الأخير مستعجلاً كي لا يتنشق غبار الآجر.

ـ كنت أحدث المكنسة...

ـ هذا ليس حديثاً مع شخص ما، بل مع شيء ما!

(*) فارس يهيج ثيران المصارعة بوخز الرماح.

ـ لا فرق عندي، حتى في الحديث إلى جرو، الأمران سيان عندي لقد سئمت البشر ياريهينالدو.

ـ ريخينالدو، ياسابينا، ريخينالدو.

ـ لقد سئمت الأشخاص، أعادت «سابينا جيل». وربما كانت المكنسة، انظر مثل هذه المكنسة، إنها أفضل من الناس. المكنسة تكنس لأنك تجعلها تكنس. لكن الناس، الناس، أناس هذا البلد، يمكن أن يوهبوا، يمكن أن يستأجروا، يمكن أن يستخدموا كالمكنسة... كلا، من الأفضل لي أن أسكت...

ـ سابينا، صاح «فيدال موتا» من غرفته، سخني لي قليلاً من الماء. علي أن أحلق ذقني، وأحضري لي منشفة!

ـ يوجد ماء ساخن. أما المنشفة فليس ثمة واحدة نظيفة. انتظر قليلاً! فربما بدأت تلك المنشورة في الفناء تجف، سوف أنهي تجفيفها لك بالمكواة. في السابق كان بإمكاننا نشر الغسيل على المرج، أما الآن، فمع تلك الزمرة من المشاغبين الذين يأتون لضرب الكرة بالهراوة... لست أدري أية متعة يجدون في ذلك. وحتى «فلوفيو» ابن أختك الذي يرافقهم! أتمنى ان أشهد اليوم الذي يتلقون فيه ضربة قوية...».

كان «فيدال موتا» يخرج من المرحاض بصدرته الفلانيلا، وهو يزرر بنطلونه والجريدة في يده، عندما دخلت الخادمة غرفته بإبريق الماء الساخن والمنشفة المطوية جيداً، والتي كانت لا تزال عليها آثار من حرارة الشمس والمكواة.

«إن للقماش المكوي بمكواة الفحم رائحة أعطر!... رائحته مثل رائحة عطر مشوي لصنوبر ودخان. ولهذا السبب لا أحب الكي بالكهرباء. لأنه لا يترك رائحة. فتبقى الثياب كأنها ميتة... ثم إنه لمن المدهش أن تحلق في هذه الساعة!... مع شدة حرارة الشمس سوف تهيج بشرتك! هل تريد تناول الغذاء، أم لا تريد تناول الغذاء؟

ـ سوف أتناول شيئاً خفيفاً. لست أدري إن كان علي أن أخبرك

يا «سابينا»... بأنه سيكون في برنامجي اليوم أهم وصية من الوصايا التي تمت كتابتها في هذه البلاد. إنني جد متأثر.

ـ إذا كانت يدك ترتجف، فالأفضل ألا تحلق بنفسك، وإلا جرحت بالشفرة. حماك الله! علي أن أخبر الحلاق الذي وراءنا كي يأتي ليتدبر أمرك.

ـ أعتقد أنك على حق، أنا متوتر جداً. وهو أمر مبرر. آلاف وآلاف الدولارات.

ـ سأذهب... المهم ألا تكون «... دوارات»...

ـ نعم، يا سابينا، اذهبي. من الأفضل دائماً أن يأتي «المعلم» كي يحلق لي. سوف أكون أفضل... ولكن ليس «أفضل أكثر» كما تقولين. لأنه لا يصح القول «أفضل أكثر».

ـ وليكن! أنا أتكلم مثلما يروق لي...».

* * *

مليون دولار! هو المبلغ المضبوط، وكان يجهله. ولقد التذَّ، أثناء انتظاره للحلاق، بتذكر فخذي «لاسافات» التي كانت تغني «أميرة الدولار»:

أنا أميرة الدولار

وليس لي مبار

أنا التي يؤثرني الجميع

لكنما، في الحب، لست أدري...

أية خدعة! لي، إنها تجيد الحب «لاسافات»! سعرها مرتفع لكنها تجيد الحب! الغَنِجَة! كم إنها تحب أن يغني لها:

كان صياد يسدد طلقاته نحو يمامة،

فبدد بارودە سدى،

لأنه قد أطلق ثلاثاً

رصاصتين في الهواء، ضاعتا،

والثالثة لم تنطلق...

* * *

«من حسن الحظ أنني كنست العتبة...» قالت «سابينا جيل» محدثة نفسها، عندما شاهدت سيارة أكبر، ثلاث مرات، من ضريح «السيد المسيح في قبره» في سان فيليب، تتوقف أمام باب المنزل.

لقد جاؤوا لأخذ المجاز، وأخذ الحلاق ينهي الجولة الثانية من استخدام الرغوة والشفرة، كي يجعله أكثر وسامة...

«عجل قليلاً أيها المعلم، قالت له وهي تدخل، ستترك خديه مثل الإليتين، كما لو أنه يتأهب للزواج... السيارة في انتظارك هناك. سأخبر السائق أن ينتظرك. ينبغي أن تكون آمنة هناك تحت... إنها سيارة تشبه قصراً».

* * *

دعا بوبي تومبسون أفراد فريقه للمجيء إلى حديقة بيته ليشاهدوا بواسطة منظار صغير اثنين من ممارسي المصارعة الحرة وقد قدما من نيويورك.

ـ هل سيعملون في السيرك؟ سأل غاليسيا.

ـ لا تكن أحمق! أجاب بوبي. إنهما الأخوان «دوزويل».

ـ وماذا عنهما؟

ـ كيف «ماذا عنهما؟» إنهما الأخوان...

ـ نعم هما أخوان، طبعاً! ولكن ماذا يفعلان؟

ـ إنهما محاميان. محاميان كبيران من نيويورك.

أخذ خواريز «السلحفاة» يضحك. وكانا، خلف بلور النوافذ

المشرفة على الحديقة، يبدوان مثل تمثالين لعرض الأزياء. وكانا يرتديان بدلتين متشابهتين من الفانيلا السوداء، وقميصين أبيضين متشابهين، ربطتي عنق متشابهتين، حذائين متشابهين. أصبحت ضحكة «السلحفاة» المكبوتة في البداية، ضحكة لا تقاوم. ولقد أحدثت الجرأة على السخرية من هذين الشخصين أثراً سيئاً في نفس بوبي، الذي صفع خواريز على حوض أذنه. فأصبح الأخير محمر اللون ووضع يده على الموضع الذي صفع عليه، وقد غدا ملتهباً ومؤلماً، وذابت ضحكته في ماء دموعه الأجاج.

«لا تتصرف بفظاظة، أنت، أيها اليانكي، ولا تظن أنه ليس بإمكاني ضربك لأنني في بيتك! وبماذا يتفوق هذان، حتى لا نسخر منهما... كما نسخر منك... ومن جدك، عندما يصيح به الصبية: «ها هوذا البابا!» ثم يسرعون للاختباء؟».

ربت تومبسون اليانكي بود على كتف خواريز:

«عفواً، يا «سلحفاة»! لقد أخطأت!

ـ كلا لم تخطىء، تدخل غاليسيا قائلاً، وقميصه متدل كالعادة. هذه «السلحفاة» هي أشد السلاحف فحشاً!

ـ آه! أنت! يكفي! ما الذي أوقعك أرضاً بضربة من ظاهر اليد؟

ـ يكفي! Boys لم آت بكم كي تتعاركوا عندي!

ـ آه! هؤلاء لا يستحقون شيئاً، قال «مايان»، لقد أتى بنا بوبي ليعرفنا على «المسترز» اللّذين قدما لنا تجهيزات كاملة من القفازات والمضارب والأقنعة وواقيات الصدر النظامية.

ـ نظامية، لكنها ليست أفضل من قفاز راموس «القط» المحشو بضفائر أخت «الريشة الصغيرة».

* * *

لم ينه تورين كلامه لأن غاليسيا وجه إليه صفعة أخطأته وكان يمكن أن تصيبه لو كانت ذراع الآخر أطول بقليل.

«أيها «الأغمص» الأحمق، أنت الذي لم تفعل سوى أن خرجت مع أختي!...

ـ عذراً! لا تعض!...

ـ ها هوذا خالي! قال «فلوفيو ليما» وهو يشاهد المجاز «فيدال موتا» يدخل. الخال الوحيد.

ـ حسناً. غداً يوم عمل. البعض سيذهبون والبعض يبقون.

ـ ابق، أنت، يا «سلحفاة»، تدخل بوبي قائلاً. يؤسفني أن تغضب من تلك الصفعة...

ـ لم أعد أذكرها، ولا أتذكر حتى التهاب أذني. لقد سبق وأن قلت لك، أيها اليانكي، كل ما يصدر منكم يضحكنا ولا شيء مما تفعلونه لنا، يغضبنا، لأننا لا نقيم له وزناً».

* * *

وضع «فيدال موتا» بمساعدة العجوز ماكر تومبسون، حقيبته مع ملحق الوصية والوثائق الرسمية فوق مائدة من المرمر مزخرفة في وسطها بساعة من معدن مذهب تحصي الدقائق على كرة لها شكل الكرة الأرضية.

«المحاميان ألفريد وروبير دوزويل، من نيويورك، قال العجوز ماكر تومبسون بالإسبانية مخاطباً المجاز، ثم أضاف، بالإنكليزية هذه المرة، مخاطباً التوأمين: السيد المجاز ريخينالدو فيدال موتا».

وبعد كلمات التعريف، شرع في قراءة وصية «ليستر ستونر» لصالح زوجته «ليلاند فوستر» وفي حالة وفاة هذه الأخيرة، فلصالح «لينو لوسيرو دي ليون»، و«خوان لوسيرو دي ليون» و«روزاليا لوسيرو دي ليون»، و«سبستيان كوجوبول سان خوان»، و«ماكاريو آيوك كايتان»، و«خوان سوستنس آيوك كايتان» و«ليساندرو آيوك كايتان». كانت الوصية الأصلية مكتوبة باللغة الإنكليزية ومترجمة إلى القشتالية.

«إيه! أرجو الانتباه! قاطع فيدال موتا. القشتالية... القشتالية... دستورنا ينص بأن لغة البلاد هي الإسبانية.

- الإسبانية أم القشتالية؟ سأل الأخوان دوزويل باللغة الإنكليزية. (وكان ماكر تومبسون هو المترجم).

- لحظة، لم أعد أذكر جيداً... هل لديكم دستور هنا؟».

وعندما استمع المحاميان المقبلان من نيويورك إلى ترجمة ما اقترحه فيدال موتا، ارتأيا أنه من الأفضل العودة إلى نص الدستور.

«الدستور أم الميثاق الكبير؟ أضاف فيدال موتا، الميثاق الكبير أم الدستور؟ إن المختصين غير متفقين حول التسمية التي ينبغي استخدامها للإشارة إلى القانون الأساسي. وتعبير «الميثاق الكبير» لا يروق لي. أنا أمريكي أكثر من اللزوم. الدستور بالمقابل يبدو لي هو الاسم المناسب، ولكن...».

انقطع عن الكلام، عندما رأى موظفاً يدخل وبيده الدستور، ثم يقدمه إلى ماكر تومبسون، الذي أخذ يتصفح أوراقه باحثاً عن البند المتعلق باللغة المستخدمة. القشتالية أم الإسبانية؟

«هذا يذكرني بامتحاني في القانون الدستوري، وتابع فيدال موتا تحت العيون الأربع المنذهلة للأخوين دوزويل اللذين كانا يستمعان اليه دون أن يفهما كلمة واحدة. كان أستاذ هذه المادة، وهو المحامي الكبير رودسندو شافس، يؤكد ضدي أنا الذي كنت أقدم الأطروحة، وضد المرشحين الآخرين، بأنه لا ينبغي تصنيف الدستور بين مختلف أنواع القوانين الخاصة نظراً لما يسببه ذلك من نتائج خطيرة. ويكفي تسميته «القانون الأول»، فحسب من دون ان تتضمن هذه التسمية...

- أعتذر على مقاطعتك، سيدي المجاز، قال ماكر تومبسون بالإسبانية، إن هذين المحاميين يكلفان ألف دولار في الدقيقة...

- كنت فعلاً، على وشك أن أسألك، يا سيدي، من أين جيء بهذا الثنائي كارامازوف...

ـ ألف دولار في الدقيقة!

ـ بالإضافة إلى كونهما متشابهين تماماً! ما اسمهما؟

ـ ألفريد وروبير دوزويل».

كان التوأمان يزعقان، دون أن يفهما، مثل أصمين.

* * *

عند دخول المجاز «فيدال موتا»، الذي قدمه «فلوفيو ليما» على أنه خاله، افترق صبيان الفريق المتجمعون هذا المساء عند بوبي تومبسون للتعرف على «المجازين التوأمين» اللذين قدما لهم الهدايا المذكورة.

مكث «الأغمص» و«السلحفاة» مع اليانكي للتفرج على عملية جبل الجبس قبل استعماله، أمام منزل قيد البناء مقابل كنيسة القديس أوغسطين. وعلى الرمل كانت تحفر فوهة وسط ما يشبه البركان.

«هذا، يا صغاري، ما نراه من على بركان «ديل الأغوا»! قال.

ـ لقد صعدت إليه اذن؟

ـ أوه! أنت، يا «سلحفاة» دائماً تتحامق مع «توريس» المسكين. لقد رويت لكم مراراً بأنني تسلقت حتى الفوهة برفقة متنزهين من نيو أورليانز كانوا قد حلوا عندنا...

ـ أخبرنا، أيها اليانكي، وهل يوجد شيء ما فوق؟...

ـ لا تسخر مني، أيها الأغمص! «السلحفاة» يلعب دور الأحمق وأنت تسخر مني!».

كان مساعدو معلم البناء يصبون أكياساً من الكلس في الفوهة المحفورة وسط كومة الرمل: كانوا ينضحون عرقاً وهم معفرون بالغبار، وكانت وجوههم وشعرهم وأجفانهم وحواجبهم بلون النحاس المبيض.

«من منكم يريد أن يصبح مساعد بناء؟

ـ أسئلة هذا اليانكي تضحكني كثيراً، أعلن «توريس».

ـ أنا؟ هتف خواريز... آه! كلا.

ـ لقد سخرت مني، قال بوبي، حسبت أنك قلت نعم، وأنك تريد أن تصبح جابل كلس. لأنك أجبت «أنا!» وسكت قليلاً قبل أن تضيف: كلا!».

بعد أن ملئت الفوهة كلساً، سكبت عليها أسطل ماء... ارتفعت شعلة بيضاء عالية بدون نار، كلها حرارة ودخان، ارتفع وميض يعشي الأبصار من الكلس الذي أخذت كتله تذوب في الماء فلايخمدها بل يشعلها. عندئذ شرعوا يدقون خليط الرمل والكلس بالرفش لإعداد «اللياط» الذي كان عمال آخرون ينتظرونه وسطولهم في أيديهم، لحمله عبر «المحالة» حتى أعلى البناء.

توجه فلوفيو ليما وليموس الزنجي وآخرون نحو «سهل المربع»، «رافقوني، يا أولاد، حتى المعسكر، طلب منهم فلوفيو، أريد أن أتأكد إن كنت قد أضعت ساحبة مساميري هناك».

ساروا يجرجرون أقدامهم، الواحد خلف الآخر، ويلتحقون ببعضهم أحياناً في مفارق الطرق.

«ليس لليانكي أب، له جد فقط» تمتم ليموس، كما لو كان يحدث نفسه، ولكن بطريقة تجعل الآخرين يسمعونه. زد على ذلك أن التحدث إلى نفسه يعد عادة لا تفارقه: كان نصف مختل. وكان أصدقاؤه يسمعونه ويجيبونه مع الخوف من التدخل في حديث شخصين.

«أم اليانكي تسكن في نيو أورليانز، وهي تأتي لرؤيته، أوضح ليما، قبل اجتياز المفترق حيث كانت السيارات تبوق مطالبة بالمرور. آخر مرة رأيت أمه: كان معها. «وداعاً، أيها اليانكي!» صرخت به، ولقد أجابني: وداعاً! يا «ليما» إنني مع أمي!

ـ له أم من الطراز الرفيع مترفة وباذخة! لاحظ «مايان»... الذي

كان يرافقهم. وهي تأتي من نيو أورليانز لرؤيته. أما أنا، إذا جاءت أمي لرؤيتي فإن لذلك دائماً علاقة بالمطبخ».

* * *

«أيها السادة إن وصية «ليستر ستونر» أو «ليستر ميد» و«ليلاند فوستر»، هي وصية قانونية!» هتف، أولاً بالإسبانية، ثم بالإنكليزية، العجوز ماكر تومبسون، في حين كان «فيدال موتا» يغلق الوصية ثانية.

أتى خوامبو، الخادم الخلاسي، بطبق أول عليه أقداح من الخمور الجيدة، مملوءة حتى الحافة، وhighballs في أكواب عالية الساق.

«حذار، هيه!... علّق «فيدال موتا» اعلموا جيداً بأنها قانونية تماماً وصية الموصي الذي مات مع زوجته في الإعصار الذي خرب مزارع الجنوب، ولقد عبّر عنها بطريقة لا ريب فيها أمام زميلي المحترمين القادمين من نيويورك، واللّذيْن تعرفت عليهما هنا. أما بالنسبة لنا، يا سيدي العزيز (كان قد اقترب من ماكر تومبسون ليربت على ظهره) فنحن لم نفعل سوى تزويد وصية «ليستر ستونر»، الموصي، وهي التي تعد شرعية في حد ذاتها، بالشكليات والإجراءات القانونية اللازمة».

ونظراً لكون المحامين القادمين من نيويورك لا يفهمان تماماً من ناحية، بسبب المصورين والصحافيين والمراسلين الذين انقضووا على الويسكي وأحاطوا بالتوأمين، من ناحية أخرى، فإن خطبة «فيدال موتا» المسهبة لم تكلل إلا بالنجاح الذي حدده لها هو نفسه وذلك بفرك يديه بطريقة تشبه التصفيق وبرسم إشارة الموافقة التامة.

«كيف أوصى؟ كيف أوصى؟ في أية ساعة؟... أين؟...» أخذ الصحافيون يسألون الآخوين «دوزويل».

فذكر الاثنان ـ دون أن تكون هناك إمكانية للتمييز إن كان

روبير أو ألفريد هو الذي يتكلم ـ بأنه ذات صباح، حضر إلى مكتبهما في نيويورك، شخص يدعى «ليستر ستونر»، ويعرف في المزارع باسم ليستر ميد، وهما محامياه منذ زمن طويل، ليطلب منهما كتابة وصيته لصالح زوجته «ليلاند فوستر» وفي حالة وفاتها، لصالح شركة «ميد ـ لوسيرو ـ كوجوبول ـ آيوك ـ كايتان». وهكذا فإن الموت المأساوي لستونر وزوجته جعل من ورثتهما السبعة، أصحاب ملايين سبعة.

كان المخبرون الصحفيون يطرحون أسئلة حول مبلغ الميراث، وأقلامهم في أيديهم، ومن دون التخلي عن قدح الويسكي الذي كانوا يستبدلونه باستمرار (حالما يقدمونه فارغاً يتم تبديله لهم بآخر مملوء). ولقد دونوا: أحد عشر مليون دولار، الأمر الذي يعني بالنسبة لكل من السعداء الفانين السبعة، حوالي مليون وخمسمائة ألف دولار.

أسئلة أخرى. هل كان «ليستر» و«ليلاند» يستشعران نهايتهما الوشيكة؟ ألم يشع بأنهما ماتا متعانقين وسط أعتى الأعاصير؟ هل حقاً تنبأت لهما إحدى الغجريات بأنهما سوف يموتان ضحيتي عاصفة رياح، الأمر الذي أوَّله «ستونر» على أنه يعني بأنهما سوف يموتان عندما يثور العمال ضدهما، ولذلك، استبق الأمور، وأراد التصدي لنذير الشؤوم بإنشاء شركة: ميد ـ لوسيرو ـ كوجوبول ـ آيوك ـ كايتان وشركائهم؟

قام ماكر تومبسون، الذي كان يؤدي دور الترجمان، بإعلام الصحافيين أن المحاميينْ لا يعلمان شيئاً حول هذه التفاصيل، وأنهما يعتبران المقابلة قد انتهت.

اقترب «فيدال موتا» من الصحافيين، وخاطب الذين يعرفهم مصرحاً:

«بإمكاني أن أخبركم... وأعطيكم أسماء الورثة... لكن، قبل ذلك، هل تعلمون أن هذين المحاميين اللذين لهما رأسا ملاكين من جبس، يربحان ألف دولار في الدقيقة؟».

ثم كرر، ببطء، ضاغطاً على المقاطع مفككاً الكلمات: «ألف... دو... لار... في الد... قيـ... قة!... انظروا إلى ساعة الحائط، حدقوا في العقرب بانتباه... ها قد مرت دقيقة... وألف دولار صغير وجميل لهذين الملاكين الصغيرين!... والعجوز تومبسون... هل تعرفون قصته؟ آه! لكن هذا ليس للنشر! وإنما أدلي به إليكم فحسب، يا أعزائي!... يا صغاري! أشعر أن صبيان الصحافة خفيفو الروح. لقد انسحب العجوز ماكر تومبسون من الشركة في اللحظة التي كان سينتخب مديراً لها، في شيكاغو، لأنه أصيب بخيبة أمل كبيرة... كانت ابنته الوحيدة، أوريليا، تعيش حياة... فاسدة. ولم يكن الإعصار هو الذي حمل هذه الأخيرة... بل عاصفة الهوى. ولهذا السبب لُقب العجوز تومبسون بلقب «بابا» لأنه كان على وشك أن يصبح البابا الأخضر... وكان على الصبي، الذي ليس ابنه، وإنما هو حفيده، أن يسمى مثل والده «راي سالسيدو» وهو عالم أثريات توارى عن الانظار بعد أن خلف للفتاة «نقشاً» في بطنها.

ـ ممتاز، يا سيدي المجاز. وأسماء الورثة؟

ـ إنها هنا في الوثائق الرسمية التي معي... سوف أطلعكم عليها. ليس بلا مقابل، لكن، بما أن المرء يسر برؤية تاريخه مطبوعاً، فأنا أريد منكم أن تذكروا بأني أنا، «المجاز ريخينالدو فيدال موتا» الذي دعيت لتسجيل وصية قيمتها أحد عشر مليون دولار... الورثة هم... هؤلاء... لينو لوسيرو، خوان لوسيرو، روزاليو كانديدو لوسيرو، سبستيان كوجوبول، مكاريو آيوك كايتان، خوان سوستنس آيوك كايتان، وليساندرو آيوك كايتان... ورثة ذلك اليانكي الأحمق الذي، عندما لم يجد ما يفعله بأمواله، لم تخطر بباله أية فكرة سوى التوصية بتلك الأموال لصالح زمرة من الخلاسيين الأميين ومن المصابين بالملاريا ومن هزيلي سكان الساحل. فماذا عسى أن يفعل أولئك الأغبياء بهذه الأموال الكثيرة؟... يشربونها! يسكرون بها حتى الموت! يستحمون بالكحول، الأوغاد! ويستبدلون نساءهم... واللواتي هن في

حوزتهن الآن سوف يظهرْن لهم شنيعات، شعرهن أشعث، ورائحتهن كريهة جلودهن خشنة، هم الذين، بمليون ونصف من الدولارات لكل منهم... بمليون وخمسمائة ألف دولار لكل منهم!... يرغبون في شيء آخر: البشرة الناعمة الشعر الأشقر، وكل ما هو مخملي!...».

كانت جماعة الأمريكيين الشماليين يتحدثون بصخب، الأمر الذي يتعذر معه الاستماع المتبادل. كانوا يتقاطعون. ويتحدثون كل اثنين أو ثلاثة دفعة واحدة كما لو أنهم تراهنوا عمن سيصل الأول في النهاية، في نهاية ما يقولونه، غير أن النهاية لم تكن لتأتي أبداً، لأن ثمة دائماً شخصاً آخر ينطلق منها، أو ينطلق من تلقاء نفسه، بلا توقف... وكانت المجموعة تتكون من العجوز ماكر تومبسون، والأخوين «دوزويل» ونائب رئيس الشركة، ومدير مقاطعة المحيط الهادي وموظفين ساميين آخرين في الادارة المحلية.

الكلمة للعجوز جو ماكر تومبسون:

«من الأفضل خطف كل الورثة من هنا، وانتشالهم مما هم فيه، وليذهبوا إلى الولايات المتحدة. بالنسبة للراشدين منهم، لست أدري ماذا يمكن جعلهم سوى إعطائهم مظهراً براقاً، أما فيما يتعلق بأبنائهم، ففي حالة تربيتنا لهم، يمكن أن تتغير عقليتهم ويصبحون هنا أمريكيين شماليين تماماً.

ـ نعم، نحن متفقون، قال نائب الرئيس، نحن متفقون تماماً! غير أنه من الصعب نقل هذه الخطة إلى حيز التنفيذ وهذا ما لم أكن لأجرؤ حتى على التفكير فيه لولا اعتمادنا على مشاركتك. (وهنا تناول قدح الويسكي ثانية كي يشرب على نخب ماكر تومبسون). إن صديقاً قديماً للشركة، حتى وإن كان منسحباً من الأعمال مثلك، لن يضن علينا بمساعدته.

ـ لكن السيد نائب الرئيس يعلم جيداً بأن هذا غير ممكن، بالإضافة إلى أنه ليس من الضروري أن أذهب أنا، بما أن أياً كان، يستطيع القيام بذلك، من الممكن أن ينصح الراشدون بالذهاب إلى

المزارع النموذجية والقاصرون بالاجتهاد في المدارس التي سوف يتم فيها تغيير عقليتهم كلياً.

ـ مسألة الـ... مسألة المزارع لاتروق لي... لاحظ مدير مقاطعة المحيط الهادىء، لأن ذلك يعني تمكينهم من أسلحة خطرة جداً، إذا تعلموا فلح الأرض بأساليب علمية وبرؤوس أموالهم الموروثة، فإنهم لن يظلوا في حاجة إلينا... العلم ورأس المال، حم! حم! ليست فكرة،... أبداً! بدل المزارع، الأسفار! السفر!... بالنسبة لي، القرن العشرون ليس عصر الأنوار، وإنما عصر السياحة، ينبغي أخذهم ليتوقفوا أمام واجهات محل كبير، حتى يشاهدوا، ويقلدوا بأناقة، وبعد ذلك نرسلهم للتعرف على العالم. وبما أنه ليس لهم ما يتعلمونه، فسوف يسافرون مثل سائر الناس، أولئك الاناس الذين يكبرون، يتناسلون ويموتون: إنهم السياح، الذين يروحون ويعودون، مثل الطرود البريدية المنقولة، وهكذا يهرمون ويتبلدون (se alelan). الكلمة ليس لها ترجمة دقيقة. الأسفار تبلد الناس الذين ليس لهم ما يتعلمونه.

ـ والصغار، في المدارس! ختم نائب الرئيس قائلاً.

ـ بالتأكيد! أجاب المدير، ليست هناك أية خطورة بالنسبة للأطفال، كما أكد ذلك ماكر تومبسون جيداً، لأنهم متى ما تربوا على أيدينا وصاروا رجالاً سوف يصبحون أكثر «بابوية» من البابا الأخضر».

وضحك من كل قلبه وهو يربت على كرش العجوز ماكر تومبسون، لكي يتمكن من التلميح بطريقة أوضح: الأمر الذي حصل، ذلك أنه أخذ يضحك، هو الآخر، مجيباً:

«أكثر «بابوية» من البابا الأخضر والبابا ـ التين والبابا المرح والبابا السمين والبابا الجد!...».

* * *

غير أن أفكاره كانت على خلاف ذلك تماماً. فبعد انسحابه من

الشركة صار يفكر في المخاطر التي قد يسببها «آل بارتوليتوس» للمزارع. و«السيكاتوغا»(*)، داء بنما، الإعصار أو الرياح ثم «البارتوليتوس»... فمن هم «البارتوليتوس»؟ لا شيء على الأقل سوى البارتولومس في ديار أمريكا الشمالية... شا...شا...شارل بيفر، لو بإمكانه تجنب ذكر اسمه، والذي قضى عليه في «فويلتا ديل ميكو» بعد أن خيل إليه بأنه «ريتشارد ووطن». ثم المدعو ليستر ستونر، أو ليستر ميد، أو ما شابه، وهو «البارتوليتو» الكلاسيكي. لو لم يقض عليه الإعصار مع زوجته، فهل كان بالإمكان معرفة؟... هل كان بالإمكان معرفة ما؟... «البارتوليتو» يعود إلى تنشيط البراكين الانتحارية الصغيرة. ومثلما يستخدم اليابانيون الطرادات الانتحارية في الحرب، فإن المنقذ الأمريكي الشمالي يستميل البراكين الانتحارية الصغيرة وهي أبناء البلاد الذين يساعدونه، آل لوسيرو وآل كوجوبول، وفي السابق آل مانوتا والأخوان اسكيفال... ما عدد رجال ثقته الذين فقدهم إثر صرخة الـ «تشوش! تشوس! موايون! كون!...» وهي صرخة، حسب خوامبو خادمه الخلاسي القديم، لا تعني شيئاً... وتعني كل شيء!... لـ «بارتوليو» مَلَكة إشعال حمية بركانية في أولئك القوم الذين هم جميعاً تنابل، حتى أثناء نومهم عندما ينامون (وحتى النوم يسمونه تنبلة)، فيبدو كل رجل منهم، كما لو أصابته عدوى ذلك الحلم، وذلك الطموح الفردوسي الذي لم يتحقق ولن يتحقق، فيدخل مرحلة الهيجان مقتلعاً النار والحمم، وكل ما هو ضروري لتدميره الذاتي وتدمير كل ما يحيط به، ويقتلعها اقتلاعاً من الأعماق الفوارة.

كان خوامبو، السمبيتو، لا يشيح بعينيه عن الأخوين دوزويل وينظر إليهما بتطير وفضول في آن، مع التلذذ بكونه تمكن من رؤية شيء ما غريب والخوف من أن يكون في هذا التجلي خير أو ضرر يلحق بمستقبله... ولقد أخبر الطاهية التي جاءت بدورها للتلصص على كل هؤلاء القوم من الحديقة ولتقول له مهمهمة:

(*) اسم مرض يصيب شجر الموز.

«إنما أنتم الذين تثيرون فضول هذا الحشد لإحضاركم هذا الثنائي الذي يقال عنهما بأنهما توأمان وأنهما...».

وفي هذه اللحظة دق الجرس. فأسرع خوامبو إلى الصالون قبل أن يتمكن من الإجابة بأنه، في رأيه، «ليس هكذا حقاً تكون ولادة التوأمين».

«خوامبو!، أمره سيده، احرص على أن يوصل السائق السيد المجاز حتى بيته. خذ الأكواب والأقداح المستخدمة وأحضر أقداحاً أخرى من الويسكي».

أسرعت السيارة حتى منزل المحامي الذي كان يهز فوق المقعد الخلفي متأبطاً الوصية.

وأوضح له السائق أن السيارة تهتز كثيراً لأن العجلات منفوخة أكثر من اللازم ولأن الطرقات عبارة عن وهاد حقيقية.

وعند بلوغ «سهل المربع» لمح «فيدال موتا» من السيارة حشداً من الناس أمام باب منزله.

ماذا يحدث يا ترى؟ أرجو ألا تكون «سابينا» قد هوجمت! في المرة السابقة كادت تنشل. وتشنج وجهها... أو ربما حدث شيء ما لابن أختي... رصاصة مثلاً... يا له من أرعن ذلك الصبي!... لا شيء أقسى من إخبار أم بأن ولدها قد جرح... ولكن ربما لم يحصل شيء من كل هذا... وإذا لم يحدث شيء... فمعنى ذلك أن الأمر لا يتعلق إلا بأصدقاء جاؤوا لتهنئته بكون وصية المليونير، سوف تظل، في مكتبه، مكتوبة بالإسبانية مدى الحياة.

توقفت السيارة فأسرع بالنزول دون أن يضيع دقيقة زائدة وهو يقدم «بقشيشاً» للسائق.

كانت سابينا تنتظره أمام الباب، شاحبة وكأنها متجمدة في أسمالها الدائمة التي بدت في هذه الساعة، ولا يمكن القول لماذا، وكأنها باهتة اللون أكثر من المعتاد.

«من حسن الحظ أنك وصلت أخيراً!... كنت أزعق مثل نواقيس الكنيسة...

ـ ماذا حدث؟ لقد أحسنت صنعاً بمجيئك للقائي... لم يعد يمسك روحي سوى خيط واحد... حسبت أنك سقطت... أو أصبت ثانية بـ...

ـ بهجوم! قلها واسترح. إنك تعيد نفس الشيء دائماً!... حمانا الله، رغم أنه لا يقوّم الأحدب!...

ـ ماذا حدث؟ هل جرح فلوفيو؟

ـ نعم... أي لا... الأمر يتعلق بـ «فلوفيو»، نعم، وأصدقائه، هناك، والذين يأتون للعب بتلك الكرة وتلك العصا، ولكن لا يوجد جريح.

ـ إذن هذا أفضل!».

ثم أخذ يرن بمفاتيحه:

«سأذهب لأخبىء هذه في مكتبي. وأنت أخبريني ماذا يفعل هؤلاء القوم أمام الباب. سأخبىء هذه الوصية ذات الأحد عشر مليون دولار.

ـ أحد عشر ماذا؟ أحد عشر «ملعون»... لأنه ينتظرك هنا، ذلك «الملعون» الذي يدعى اليانكي... إنه متخف هنا وقد كان شرطي يلاحقه. وجد الباب مفتوحاً قليلاً فاندس إلى البيت. ولقد خرجت في الحال فوجدتني وجهاً لوجه مع ذلك الشرطي وهو يتأهب للدخول هنا كما لو كان البيت بيته. «قف مكانك!» قلت له. هذا ليس إسطبلاً هنا بيت المجاز «فيدال موتا».

ـ وماذا فعل؟

ـ من؟ الصبي. ماذا فعل؟ لماذا كان يلاحق؟

ـ لأنه ركل ملعوناً آخر من عمره ركلة عنيفة. هكذا قال الآخرون. ولكن من يدري إذا كان ذلك قد حصل حقاً! إنهم زمرة من الكذابين.

ـ هل ناولته شيئاً لتذهبي عنه الخوف؟

ـ نعم، ياسيدي. لقد عالجته بكمادات من الماء الساخن وبذلك خلصته من الرجفة التي كانت تنتابه. لقد تملكه الخوف، ويقولون إن ذلك متأت من الركلة التي سددها إلى وجه الصبي الذي كان يتعارك معه وهشم له فكه. وهكذا! نقل الآخر إلى المستشفى».

كان اليانكي الصغير تومبسون مختبئاً في غرفة المخزن التي عندما يدخلها المرء لا يرى شيئاً يذكر وبعد أن يتعود نظره على الظلام الخفيف، يتمكن من تمييز الأثاث وكل الأشياء العتيقة المكدسة في المخزن. اقترب «فيدال موتا» من بوبي، بحنو، وقال له:

«من حسن الحظ أنك لم توقف. ماذا حدث إذن؟

ـ لا شيء.

ـ مستحيل أن يكون لم يحدث شيء، ياصديقي. يقولون بأنك ركلته ركلة عنيفة على فمه».

كان «فلوفيو» وأفراد الفريق الآخرون يحثون الخطى في الرواق ولقد جاؤوا ليخبروا بوبي بما اتخذوه من تدابير للدفاع عنه. مصلحة تجسس في «سهل المربع». مصلحة تموين غذائي، وقد نقلوا كل ما هو ضروري لصموده، إذا ما قيض للحصار أن يطول: دزينتان من الكازوز، في حالة قطعهم للماء، شموع وكبريت، في حالة قطع الغاز. ثم مصلحة لمنقبين سوف يجوبون وادي الصفصاف، ووادي البقر ووادي الزعرور لإخفاء صديقهم في أشد الكهوف سرية ومناعة.

خرج «فيدال موتا» ليرى من كان القادمون الجدد، وعندما لمح ابن أخته «فلوفيو» انتحى به جانباً.

«انتظروني يا صغاري، قال الصبي لرفاقه كي يعطي لنفسه أهمية. ليس لي سوى كلمة أقولها إلى خالي».

لقد كان ينتسب إلى فريق «المنقبين»، غير أنه من الممكن أن

ينتقل إلى مصلحة التجسس، إذا ما سمح له بتسلق السطح لمراقبة تحركات الشرطة.

«إن أسوأ ما في الأمر، قال الآخرون إلى بوبي بعد دخولهم، هو أننا لن نتمكن من التمارين لمقابلة فريق «الخورنية» في مباراة الغد. يا لها من فكرة حمقاء خالجتك من أجل العراك أيها اليانكي! أما الشرطة فقد نادتها امرأة عجوز كانت قد تخفت خلف النافذة التي في جانب الزقاق. لقد دخلت ثم ذهبت إلى النافذة المشرفة على الشارع لتخبر الشرطة بما كان يحدث. علينا مهاجمتها ليلاً بالحجارة.

ارتفع من حنجرة بوبي نحيب يشبه بالاحرى صرخة غيظ.

«وأنت الذي لم تعارك أحداً في حياتك، كيف تصرفت؟... لقد كنت كالأعمى، ولم تعد تكترث بشيء... ولو لم نقتلعه منك لكنت قتلته.

ـ إنها غلطة «الضفدع».

ـ أي ضفدع؟ سأل صبي آخر.

ـ «الضفدع» الذي كان معه وأخذ يتحرش باليانكي».

ضرب بوبي بقدميه على أرض الغرفة، بغضب:

«اسكتوا! اذهبوا عني!».

* * *

وفي مكتب خاله، الذي أدار مفتاحه دورتين في القفل ليضمن إخفاء الوصية، روى فلوفيو تفاصيل الخصومة. كان سببها بطاقة بريدية. واحدة من تلك البطاقات القذرة أنت تعرف... كانت الصورة مع الصبي، ولقد نادى اليانكي ليقول له: «انظر قليلاً إلى جدتك، أيها اليانكي!...» وكانت الصورة لامرأة عارية بين ساقي بحار.

فكر «فيدال موتا» معدلاً قليلاً:

«امرأة عارية جالسة على ركبتي بحار.

ـ نعم يا خالي! ولقد قيل لبوبي بأن تلك المرأة هي أمه!

ـ إذن لقد أحسن صنعاً بما فعله!».

رفع «فلوفيو» رأسه ونظر إلى خاله في وجهه. لقد جعلته الكلمات الأخيرة يحس بأنه رجل أكثر منه صبي.

ـ «الذي يهين أم شخص ما، أمامه، ينبغي محوه من خريطة العالم!» علق المجاز قائلاً.

ثم خرج مع ابن أخته. لن يتخلى «فلوفيو» عن مصلحة «التنقيب» ومن أجل ذلك فكر في اختلاس فأس من البيت كي يستكشف الجوار ويجد الكهف الذي سوف يختبىء فيه اليانكي، مزوداً بكل ما يريده. مجلات، كتب، ألعاب جماعية، وأصدقاء سوف يتناوبون على مرافقته.

«سأذهب إلى مركز الشرطة، قال لـ «سابينا». أغلقي الباب بالرتاج واحرصي على ألا يخرج هؤلاء الصبية أو يدخلوا من جديد».

انتظر رقيب الشرطة حتى ينهي اهتمامه بسيدة معطرة في كل موضع: شعر ملمع بالمرهم، مسحوق أرز على الخدين، عطر على المنديل، وحتى على جلد حذائها وحرير فستانها...

ـ عذراً يا سيدي المجاز. لم انتبه لمجيئك... نعم، فعلاً، التقرير يوجد عندي هنا...

ـ أريد خدمة من المفوض. هل هو هنا؟ وإذا لم يكن موجوداً فعليك أن تخبره أنت بألا ينقل التقرير إلى المحكمة. وينتظر حتى الغد!

ـ هذا يتوقف على التقرير الصحي الذي سيصدر في المستشفى...

وفي هذه اللحظة دخل المفوض. فوقفت مجموعة من أفراد الشرطة. وجاء أحدهم ليخبر الرقيب بأن الرئيس قادم. وقف الرقيب

وقدم تقريره حول ما حدث. وعندما انتهى من ذلك، وجه المفوض بضع ضربات من سوطه على جزمة قدمه اليمنى، أزاح قبعته إلى الخلف، فلاحت جبهته ناضحة عرقاً، ثم سأل «موتا» إن كان وجوده هنا بسبب قضية الصبيان.

وعندما أخبره الرقيب بأن المجاز هنا بسبب تلك القضية فعلاً، لم يترك فرصة كلام لزائره الذي لم يتمكن حتى من الطلب إليه بعدم إرسال التقرير إلى المحكمة.

«ولكن، يا سيدي، لا اليوم، ولا غداً، ولا في أي وقت! لأن في هذا التقرير وقائع مبالغ فيها. وللسيد مدير الشرطة قرائن تثبت أن الأمر لا يتعلق إلا بخصومة بين صبيان، زلت أثناءها قدم احدهم فسقط وشج عظم فكه».

المال سيد الجميع! فكر «فيدال موتا». أحد عشر مليون دولار، مائة مليون دولار، خمسمائة مليون دولار، ألف مليون دولار! وشرطيان، ثلاثة أربعة، خمسة، سبعة من الشرطة يلوذون بالصمت القانوني.

* * *

رسمت «السابينا» إشارة الصليب، عندما فتحت في الغداة باب البيت ووجدت الصبيان منتشرين على الأرض، ثم تملكها الرعب أكثر عندما سمعت «فلوفيو» يعلن بأن خصومة ستحدث مع لاعبي فريق حارة الخورنية لأن الـ «مجرجر» يوجد هناك...

«اسمع، استيقظ! استيقظ! قالت للمجاز وهي تهزه بكل قواها. انهض! القضية تتطور الآن بالعصي مع «مجرجري» حارة الخورنية. وحتى فلوفيو متورط في ذلك. ينبغي إخطار أختك...».

وبعد أن فتح «فيدال موتا» عينيه ارتدى خفيه وتناول مئزره من فوق كرسيه، متأهباً للتدخل في البلبلة التي أخبرته عنها السابينا. وفي هذه اللحظة تناهى من الخارج صوت عميق يصرخ:

«إلعب بالكرة!...

ـ آه! لا شيء! قالت سابينا، عندما شاهدتهم من الباب يتأهبون للعب. اعذرني على إيقاظك، ولكن المرء في هذه الأوقات يعيش وكلمة «آه يا ربي!» على شفتيه.

ـ أنت دائماً كعادتك...

ـ إنه يربح ألف دولار في الدقيقة بينما أنت تنام، وحتى لو حلمت...

ـ فعلاً هذا ما كنت أحلم به، لقد (ولكن لماذا، أكرر، لماذا أيقظْتِني يا للشيطان؟) لقد كنت أربح ألف دولار في الدقيقة، مثل محاميي نيويورك، ألف دولار في الدقيقة! لا شك أنهما يحلمان هما أيضاً، حلماً لا يوقظهما منه، من حسن حظهما، أحد...».

دوى صوت بوبي من جديد صارخاً رناناً:

«Three mens out»

ـ جاء ذلك الصبي الذي يدعى اليانكي هذا الصباح ليشكرك. المسكين، كان يبدو هالكاً! ربما بسبب ما فعله. إنه هو الذي يصرخ الآن بالإنكليزية...

ـ أمر مقزز! هتف فيدال موتا، وهو ينسحب.

ـ نعم! ولماذا؟ (وفي الخارج كان صوت بوبي يرن: (one straight)... امرأة عارية جالسة على ركبتي بحار... ولماذا عساها تكون أمه بالذات؟... («Ball one!» صرخ بوبي...) في هذه الحالة، لا بد ان تكون في حوزة من شاهدها آلة تصوير، قل لي، وهل من شأن السيدة أن تقبل الصورة وتهيء نفسها لها بعناية؟... ثمة أمور أسوأ ولكنها لا تصور.

ـ لم أقل أن الصورة هي التي... («Ball tow» صرخ بوبي)... ولكنها طريقة للتلميح إلى أشياء كثيرة.

ـ ولكن كيف تعرف كل ذلك، أقول، أنا؟

ـ أنا صديق لكثيرين من رجال الشركة.

ـ آه! صحيح! («Straight tow»)... والآن بما أنني تذكرت، أخبرني، هل صحيح أن أشخاصاً هنا، من الساحل، كلهم معدمون، ورثوا لست أدري كم ألف بيزو ـ ذهبية...

ـ كما قلت تماماً...

وفي الأثناء، دخل «فلوفيو» مزهواً، لاهثاً، ملطخاً بالغبار وبالعرق، كما لو أنه تدحرج على الأرض، كما قالت «سابينا» عندما رأته يجتاز الباب ليخبر خاله بأنه تمكن من القيام بـ «home round».

ـ وماذا قال اليانكي؟ سأله خاله.

ـ إنه سعيد لأنني من لاعبي فريقه. إننا نربح فريق «المجرجر»! لقد جئت لأشرب قليلاً من الماء.

ـ سأعطيك ماء بلا ثلج. الماء المثلج يضر بصحتك وأنت مستعرق.

ـ ولكنه فاتر! هتف «فلوفيو» باصقاً، بعد أن حاول ابتلاع جرعة.

ـ حسناً! سأبرده قليلاً، ولكن ليس كثيراً. الماء المثلج يضر بالصحة، إنه يسبب الجلطة.

كانت اللعبة تتحول إلى معركة منظمة: لكمات، ضرب عصي، رمي بالحجارة... حاول «فيدال موتا» استبقاء فلوفيو نظراً لإلحاح سابينا:

«كيف تجرؤ على تركه يرحل؟ فقد تُفقأ له عين. صبيان «الخورنية» شريرون. بإمكانهم أن يقتلعوا عينك أو يصيبوك بحجر... فمن يتحمل عاقبة ذلك؟».

كان الصبي يرتجف شديد الشحوب وعيناه كابيتان دون أن يعرف إن كان عليه الخروج أو المكوث. وفجأة قر عزمه. تحاشى برأسه وجسده وابل الحجارة التي كانت تسقط حوله، حتى بلغ أصحابه الذين كانوا يردون بكمية القذائف نفسها.

«لا يبدو عليك التصديق بأن ابن أختك من دمك، لأنك تتركه يذهب هكذا!...

ـ ستكون الحالة أسوأ متى ما علم أصدقاؤه بأنه جاء ليختبىء عند خاله، واعتبروه جباناً.

ـ يا لها من مشكلة يا إلهي! لماذا يلعبون مثل جنس اليانكي، بما أن ذلك غير ممكن بالنسبة لنا؟ لأن دمنا، سرعان ما يغلي، فينتهي كل شيء بمعارك...».

وهنالك، في أحد أطراف «سهل المربع» انتهت المعركة، وكان أفراد فريق بوبي يهتفون متكدسين بعضهم على بعض في حلقة صغيرة:

«مرحى! مرحى!... حى حى حى! مرحى! مرحى!... حى حى حى!

انديان! انديان!... انديان! مرحى! مرحى!...».

وفي الطرف الآخر كان أفراد فريق الخورنية، متكدسين على بعضهم بنفس الطريقة وهم يهتفون ايضاً:

«المجرجر!

المجرجر!

المجرجر! مرحى! مرحى!

مرحى!».

10

«لا يمكنني البت في الأمر بمجرد قراءة الجريدة يا ريهينالدو

ـ ريخينالدو، يا سابينا، ريخينالدو.

ـ أرجو المعذرة.

ـ اعذرني. إنني أخلط دائماً مع اسمك دائماً بـ رينيت. اسمك مشتق من رينيت أليس كذلك!

ـ كلا يا سابينا...

ـ أذن، كما كنت أقول لك، لايمكنني البت في الأمر بمجرد قراءة الجريدة. أولاً أنا لا اقرؤها أبداً. أما الآن، وبعد ما يقال عنه أنه حدث منذ أكثر من سنة، رقصة الملايين الراهنة، فأنا أريد الاطلاع جيداً على القضية. وبما أنني لا أجيد القراءة بيسر، فسوف أذهب للبحث عن إحدى بنات أخي كي تقرأ لي. إنها تلك التي تملك دكان ملابس في السوق المركزي، وسوف أرى في نفس الوقت ما ينبغي شراؤه من أجل الغذاء، للتنويع قليلاً. أنت لا تحب الخضار، ولكن عليك أن تحاول، لأنك أصبحت محمراً تماماً من فرط تناولك اللحم والـ... «وفي صحتك!» (وقامت بحركة من يسرف في الشرب)...

ـ ابحثي عن اللحم. واحرصي على شرائه...

ـ على رسلك! اللحم دائماً! سآخذ الجريدة، بما أنك قرأتها، لا يهمني ماحدث في الساحل، ولكني أريد أن أعرف من هم الغرباء الذين ورثوا، ولما ورثوا. إنها كومة من الأكاذيب هذه التي يذكرونها على الورق لملئه: لأنهم هكذا يفعلون هكذا دائماً. وأنا أقول: لماذا لا يعملون على سحب الجرائد بقطع صغيرة: حتى لايضطروا إلى اختلاق أكاذيب كثيرة؟... الصحف التي توزع في الكنيسة، ساعة القداس، هي صحف صغيرة جدّاً، وكلّ ما يذكر هو حقيقة الإله عينها».

كان دكان الملابس، في السوق المركزي، يعبق برائحة بكرات الخيط والبخور وماء الزهور الذاوية ونشاء الملابس الداخلية الجديدة.

«يا للصمت هنا» قالت سابينا، وهي تلوح بوجهها النحاسي من عتبة الدكان: حيث تقبلت ترحيب أصغر بنات أخيها، الفتاة «توماسيتا جيل». ثم استراحت على مقعد الزوّار، بجانب ابنة أخيها التي كانت تمرّ بقطعة من دهن «الستيبيارين» على حاشية الخياطة، لكي تعيدها إلى الماكنة.

«أية أعجوبة! ياعمتي سابينا، منذ أعوام عديدة لم تمرّي من

هنا! لقد شاهدتك تتسوقين لدى مروري، ولكن مع حياة الهرج والمرج التي يعيشها المرء، لم يعد قادراً على إيجاد متّسع من الوقت لأي شيء.

- ولا حتى لقراءة جريدة، يابنيتي، ولهذا هربت مؤقتاً: لكي تقرئيها لي...».

... وأخرجت من تحت «شالها» الورقة المطوية طيّات ثلاثاً.

- نعم. قصة غرباء الساحل الذين ورثوا لست أدري كم مليوناً.

- وماذا ترين؟

- إذا كنت مشغولة...

- لا، ياعمتي. بكل سرور؛ وهكذا سوف أطلع بدوري على القضية، لأنني لا أعلم بها إلا بالسماع. هنا في السوق لا يتحدثون عن شيء آخر مع ما في ذلك من ثرثرة وإشاعات!... السيدة التي في الجوار والتي تبيع سمكاً مقدداً، تقول بأنها تعرفهم، إنها لا تعرف المدعو «باستيانسيتو»، وهو من أولئك المحظوظين...

- اقرئي لي ما يروونه هنا... لا، ليس الحروف الكبيرة، لأنني أراها، بل ابدئي من الحروف الصغيرة...

- «إن وصول المحاميين الشهيرين ألفريد وروبير دوزويل إلى البلاد يعد نهاية لإحدى أهم القصص المثيرة في المرحلة الأخيرة. لقد جاء الأخوان دوزويل بهدف توزيع تركة المليونير ليستر ستونر على ورثة من مواطنينا غدوا اليوم يملكون رأس مال يقدر بحوالي مليون ونصف لكل منهم. وبعد محاورة مع السيدين دوزويل يبدو...».

«تجاوزي، هذا يا صغيرتي. لأنني لا أفهم شيئاً من معنى «محاورة». وهو أمر لا يسليني اقرئي لي من حيث يتحدثون عن التركة.

- و«المحاورة» ياعمتي، تعني الحديث.

ـ نعم، ولكن واصلي... اقرئي لي ما كتب عن موت السيد والسيدة، والميراث.

ـ حسناً. هوذا «وحسب معلوماتنا منذ عدة شهور، وبين الأنقاض المحزنة التي سببها الإعصار الذي اجتاح مزارع شركة الموز الاستوائية اس. آي، مخلفاً الدمار والخراب، وجدت جثتا الزوجين ليستر ستونر، المشهورين بـ ليستر ميد وليلاند فوستر، وهما مواطنان من أمريكا الشمالية، اتخذا من البلاد وطنهما الثاني...».

ـ حسناً! هذا مهمّ...

ـ كان الزوجان ستونر عائدين من نيويورك التي زاراها من أجل بعض الأعمال، ولقد كانا ينويان توسيع الإنشاءات المتعلقة بإقامة معمل لصنع دقيق الموز، وآخر للموز المجفف، وكذلك تعهد النباتات المنتجة للزيوت الدهنية: ولهذا كانا قد كونا شركة تعمل تحت اسم «ميد ـ لوسيرو ـ كوجوبول ـ آيوك ـ كايتان وشركائهم المحدودة». ولقد فاجأهما الإعصار المذكور في بيتهما (كانا يقطنان بيتاً ريفياً قرب البحر) وعندما شرعا، بعد رؤية بيتهما يطير قطعاً، يحاولان الاقتراب من القرية، ماتا في أوج الزوبعة وهما في إحدى الغابات. ولقد أحدث اكتشاف جثتيهما تأثراً بالغاً لدى السكان، وبينهم كان يوجد شركاؤهم، الذين ورثوا اليوم الثروة الطائلة من الزوجين اللذين اختفيا بطريقة مأساوية...

ـ حسناً ياتوماسيتا. ولكن فسّري لي الآن: لأن المرء عندما يهرم، لا يفيده الرأس الذي يملكه بشيء... هذان الشخصان البارزان اللذان هما من أمريكا الشمالية، كانا يعيشان هناك في الأدغال رغم كل شيء، ولقد كانا يملكان ملايين عديدة، وكونا شركة مع أولئك الآخرين...

ـ نعم ياعمتي سابينا، وتوجد هنا أسماؤهم: «لينو لوسيرو،

خوان لوسيرو، روزاليو كانديدو لوسيرو، سبستيان كوجوبول...».

ـ ذاك الذي تعرفه جارتك...

ـ «... ماكاريو، خوان سوستينس وليساندرو آيوك كايتان...».

ـ أنهم السبعة الذين ورثوا... نعم، تابعي القراءة...

ـ أمس، وفي مقر سكنى السيد جو ماكر تومبسون، المعروف جيداً في أوساطنا الاجتماعية، تمت قراءة الوصية التي بموجبها أوصى ليستر ستونر بكل أمواله وممتلكاته لزوجته ليلاند فوستر باعتبارها الوارثة الوحيدة الشرعية، وفي حالة سقوط أهليتها...

ـ ما معنى هذا؟ يبدو لي أنه كلام بذيء. إن الحديث عن سقوط هذه السيدة بدل التحدث عن مزاياها في وصية، هي فكرة لا يمكن أن تخطر إلا ببال قوم غرباء.

ـ لا ياعمتي سابينا. إنك لم تدعيني أتابع، «سقوط أهليتها». تعني: في حالة فقدان أو موت تلك السيدة، فإن الآخرين، الشركاء، هم الذين يرثون.

ـ آه! نعم! هكذا، نعم! وبما أنهما ماتا ـ رحمهما الله، أليس كذلك؟ ـ فإن الإرث ينتقل إلى أولئك الغرباء. لكنك لم تقرئي لي، إن كان هناك شيء مذكور عن ريهينالدو.

ـ نعم. إنهم يذكرون هنا بأن الوصية مسجلة عند المجاز ريخينالدو فيدال موتا.

ـ إيه إذن، هناك مبرر لعدم اتساع السرير له هذا الصباح رغم اتساعه. باختصار يا توماسيتا، إن الشيء المؤكد هو كون الشخصين الغنيين جداً، كانا يعيشان في الساحل، وهو، الذي كان يملك كل شيء، أوصى بثروته إلى زوجته شرط أن تنتقل الثروة، في حالة وفاة الزوجة، إلى مواطنينا. ولقد قضى عليهما الإعصار، والآن جاء المحاميان، اللذان يدعي ريهينالدو بأنهما توأمان، حتى يتمكن الورثة من الحصول على ذلك المال المدفون الذي ربما لم يكن ليخطر على بالهم. هكذا هي الحياة!...».

دخلت سيدة لتشتري قماشاً من «الفانيلا». وبعد أن لمست وتفحصت ما قدمته لها توماسيتا، قالت بأنها ستذهب إلى محل آخر لترى إذا كان يوجد منه قياس ذو عرضين.

«لا توجد فانيلا بعرضين لن تجدي ذلك أبداً: أفضل لك أن تأخذي من هذه.

- إذا لم أجد، فسوف أعود. إنها ليست لي وإنما أوصيت عليها».

ثم تمكنت الزائرة من تذكر القصة، فتابعت، بعد ذهاب الزبونة التي لم تشتر شيئاً: «يا للشيطان، لست أدري، يا توماسيتا، من أين جاءتني فكرة وجود لغز في هذه القضية؟ ومن أجل ذلك جئت. ولكن بما أنني لا أزعجك كثيراً، فبإمكانك أن تعذريني هذه المرة. و، كما كنت أقول لك - واسمحي لي بالتدخين - كان ذلك بالنسبة لي بمثابة حلم انتهى إلى الهول والسحر، وهو ما لا تذكره الجريدة، في حين أنه، هو ماينبغي أن يكون... شيء ما غريب (امتصت دخان سيجارة الذرة بعمق)... لا يمكننا تفسيره عندما يحدث... غريب وغامض مثل دخان التبغ الذي نستنشقه...»».

كان يسمع تنفس شاق لـ توماسيتا التي انسد منخراها وهي تحاول، منحنية، أن تدخل الخيط في إبرة الماكينة.

«لست متأسفة على عدم تمكني من قراءة الجريدة. رغم أنه بإمكاني تهجئة الحروف الكبيرة. لا، لست متأسفة يا توماسيتا، لأن الجرائد، ولعلك لاحظت ذلك، تفسر لك كل شيء، تبحث عنه وتحلله، ثم تلوكه حتى تجعل منه عجيناً، وبمعنى آخر فإنها تجرد الأشياء من ألغازها، ألغاز الحياة، وتضفي عليها صنفاً آخر من الألغاز، وهي تلك الألغاز المختلفة ذات الحبكة والاختلاط المتكلف لمخادعة الأقربين».

رفعت توماسيتا رأسها. لقد توصلت أخيراً إلى إدخال الخيط في الإبرة، وعلى وجهها الشاحب ارتسمت تعابير شباب أثقله السقم. سألت:

«ولكن، أي لغز يمكن أن يوجد في كل هذا يا عمتي سابينا؟ لاتوجد أسرار، إنها أمور طبيعية.

ـ هذا ما تظنينه... أما أنا فلا... لا شيء طبيعي في الأمر. وليست طبيعية تلك الريح التي تحطم، ذات يوم رائق، كل ماتجده أمامها. هنا يكمن الشر الحديث وهو سر العصر الحديث: الاعتقاد بأن ما يحدث هو طبيعي لأن الجرائد تقول ذلك... كلا، يا توماسيتا، توجد أمور، أمور كثيرة، ليست كما هي البتة، ولكن لها مكانها وساعتها ومناسبتها... أنت لم تعيشي. وإدراكها ينقصك... ولكن من الأفضل أن أطوي ورقي هذا وأذهب، لا أريد أن أشعرك بالخوف في عملك حيث أنت وحيدة وفي عزلة مرعبة.

ـ حسناً، أتركها لك، ولكن إياك أن تضيعيها! وما هي أخبارك أنت؟ لم أسألك. كيف حال أخي، وغوادالوب؟ لأنها تعاني من «الروماتيس» منذ أن تزوج أخي السيدة أمك، وهي تعاني من «الروماتيس». إن شاء الله لا يكون ذلك المرض وراثياً، يا ابنتي، ولايصيبك التصلب بسبب رطوبة هذه الأرضية.

ـ كل السوق رطب هكذا، ولكن أرضية محلي مغطاة بالخشب، وذلك يخفف من الرطوبة قليلاً.

ـ ذلك لأنهم بنوا السوق فوق مقبرة. وهذه حجة أخرى على ما كنت أقول لك. ترين السوق والناس، والحشد، وما يُشترى وما يُباع، ومن يدخل ومن يخرج؛ ولكن تحت في الأسفل يوجد الموتى، وعظام من يدري كم ألوف الجثث... ومن الخلف إعصار الريح الساحلية التي قضت على ذينك الغريبين، لاشك أن هناك قوة، أو إرادة خفية في المسألة، ولا أحد يمكنه أن يُذهب عني هذه الفكرة. إنه «كايكستوك»، كانت جدتي تقول، لكن آخرين يسمونه «زيزيميت».

ـ ولكن زيزيميت هو الشيطان...

ـ إنه شيطان أدغال، صغير جدّاً، مهرّج وحزين...» وقفت لتستأذن:

«سأعود من دون أن أشتري شيئاً، لأنك لا تبيعين اللحم».

طوت توماسيتا الصحيفة، ووضعتها فوق ماكنة الخياطة ثم رافقت عمتها إلى عتبة الباب. «حسناً! ياعمتي، أتركك الآن. لن أذهب معك بعيداً للبحث عن اللحم، كي لا أترك دكاني...

ـ حماك الله، يا ابنتي، من تلك السرقات، ومن أولئك النشالين. ولكن قولي لي: كم ورث أشخاص الساحل تقريباً بعملتنا هنا؟

ـ الجريدة تذكر ذلك، يا عمتي سابينا: بما أن الصرف هو ثلاثون بيزو للدولار الواحد، فإن الإرث يبلغ حوالي ستة وثلاثين مليون بيزو من البيزوات التي عندنا هنا...

ـ هذا جنون! إنها ثروة طائلة! وبسبب ذلك ينزل الله علينا هذا القصاص. وإنه لأمر جلي تماماً. فلماذا لا تذكر الجريدة بأن ذلك الإعصار القوي الذي اجتاح البلاد، كان عقاباً من الله؟ إنها تفسره وكما لو أن الطبيعة ـ كما يقولون اليوم ـ لم تكن بكل بساطة، نعم، بكل بساطة سوى خادمة الله، كلا يا توماسيتا، لا يمكن كنز كل ذلك الذهب دون إحداث هذا الصدع العنيف؛ أمّا بالنسبة للأشخاص المحليين رغم كلّ شيء ورغم أنه من المستحب أن يكون المرء غنياً، فأنا لا أحسدهم، لأن الثروة الطائلة هي أيضاً ينبوع آلام!

ـ يا عمتي سابينا، لا تذهبي من دون أن تخبريني متى ستزورينا في البيت؛ لقد كنت تزورينا سابقاً...

ـ سوف أجيء في عيد ميلاد السيد والدك إذا مدّ الله في عمرنا».

رأت توماسيتا العجوز تتوقف طويلاً (كانت تتمهل لدى كل خطوة تخطوها وتنظر ملياً في وجوه القوم) أمام السمك المقدد المعروض حيث كانت توجد تلك المرأة التي تعرف أحد الورثة، المدعو كوجوبول.

ركز ضجيج ماكنة الخياطة ودواستها أفكار توماسيتا جيل، ولم يكن ذلك حول ما تقوله الصحيفة وإنما حول ما يروى لها؛... البائعة المحاطة برائحة السمك المقدد... باللحم الشهي في القماش

المضغوط! ويا للأسنان البيضاء المتفرغة لمضغ علكة صمغ «الكوبال» طيلة النهار هل «الكوبال» أنصع بياضاً من أسنانها؟ أو أن أسنانها أنصع بياضاً من الكوبال؟... إنها بقرة بحرية مجترة ذات ثديين وأليتين ووركين كبيرين، وكل مافيها ضخم: العنق، الذراعان، الفخذان، ماعدا القدمين فهما صغيرتان. وبينما هي تمضغ وتمضغ الـ «كوبال» بصخب، هاهي ذي تسرد قصة الزوجين الأجنبيين، كما روتها لها صديقتها الساحلية. وهذه القصة، نعم، إنها فعلاً، كما من شأن عمتها أن تقول، هي حكاية حقيقية، وأكثر من حقيقية.

«كان قد ظهر في المزارع كائن غريب نصف مجنون، نصف عاقل ويستجيب مثل الكلب إلى اسم «كوزي». وهذا المتشرد، الذي ليس له من المسيحية سوى الشكل، يبيع إبراً ودبابيس وأقماع كشتبان، وكل أدوات الخياطة، وينادي على بضاعته بصوت هو مزيج من ضحك ومن نباح. لاحظت ذلك سيدة متزوجة من رجل متنفذ في الشركة. ويبدو أنها شغفت بالطريقة التي كان ذلك الرجل يتحدث بها. إذ إن هناك أشياء كثيرة يمكن قولها المهم أن يجيد المرء قولها، والتعبير عنها. وهكذا طلقت دونيا ليلاند زوجها الذي كان يربح ملايين الدولارات كي تتزوج ذلك الكائن المسكين الذي لم يكن سوى بائع جوال بائس، بل أدنى من ذلك أيضاً، لأن للباعة المتجولين أحياناً نوعاً من الرأسمال فيما يبيعونه! بينما لم يكن «كوزي» يبيع سوى إبر ودبابيس وكل ما له علاقة بالخياطة، ولكن ابتداء من ذلك اليوم، تخلّى «الكوزي» الذي كان يدعى ليستر ميد، عن سفط بضاعته، وشارك في قضية مزارعي الموز الصغار، ضحايا ظلم الشركة وتعسفها وتعدياتها. وأسفرت تلك المعركة عن إنشاء الشركة التي كان يديرها ذلك الأمريكي الشمالي، بمساعدة زوجته. ولقد وصف ذلك اليانكي الكارثة المالية التي تتهدد منتجي البلاد، ثم إنه سافر إلى شيكاغو، برفقة زوجته، ليستر ميد، فناقش وباحث كي يسمعوا كلمته ويخففوا من وطأة الأساليب غير الإنسانية التي

تعتمدها «شركة الموز» لكنه لم ينجح في ذلك. وبعد أن خاب أمله من مواطني بلاده سافر إلى نيويورك وأوصى، أمام محاميه وهما التوأمان اللذان شوهدا هنا، مؤخراً، بكل ثروته إلى زوجته، ليلاند فوستر، التي كان عليها أن تتركها كاملة إثر موتها بين أيدي الأشخاص الذين يعيشون في منطقة الساحل والذين شاركوه في تكوين الشركة. ولكن بماذا تراه أوصى؟ هل كانت تعرف من كان؟ هل كانت تعرف أن البائس الذي تزوجته كان واحداً من المساهمين الكبار في نفس الشركة التي كان يحاربها بالذات؟ لقد انكشف كل شيء. لم يكن يدعى ليستر ميد. واسمه الحقيقي كان ليستر سونر، وهو مليونير، ملّ حياة الأغنياء، فتنكر في هيئة إنسان بائس، إنسان بائس حقاً، بائس حقاً... وجاب المزارع باحثاً عن حبّ...».

... وهنا توقفت بائعة السمك عن سردها كي تمضغ ست مرات متتابعة: ميام! ميام! ميام! ميام! علكة صمغ «الكوبال» ثم تابعت:

«ومن حسن حظه أنه وجد الحب، الحب الحقيقي، وهذا ما يحصل للذين يمقتون المال، إنهم يجدون الحب... كان إذن محظوظاً فوجد الحب، لأن التي أحبته بجنون، أحبته هو ولم تحب شيئاً يملكه. فهجرت بيتها، وكل أشيائها الجميلة، هجرت زوجها، لتتزوج ذاك الذي لم يكن يملك شيئاً سوى كشتباناته وإبره...».

... وهنا لم تكن بائعة السمك تمضغ علكتها بصخب بأسنانها العاجية التي لمعها اللعاب فحسب، بل إنها أخذت تفرقع أصابعها وترفع رأسها كي تكشف عن البياض المزرق حول قمري حدقتيها السوداوين.

غير أن الحكاية لم تنته هنا. ذلك أنه بعدما كشف عن هويته لـ «دونيا ليلاند»، كان بإمكانهما البقاء في نيويورك ليعيشا حياة رغد، إلا أنهما لم يرغبا في ذلك، بل لم يفكرا فيه. وعجلا بالعودة إلى المزارع، وفي نيتهما توسيع مطحنة دقيق الموز، التي سبق لهما إنشاؤها، وإقامة معمل للموز المجفف، وإدخال زراعة النبات

الصالح لاستخراج الزيوت، غير أن الموت عاجلهما. وهناك حيث لقيا الحب، لاقاهما الموت، قضى عليهما الإعصار. ولقد كرسا حياتيهما للحياة عينها...

وكانت بائعة السمك، في كل مرة تروي فيها القصة تجهش بالبكاء (ولا تريد من أي كان أن يلاحظ لها ذلك، وإلا فإنها ترد عليه قائلة «سوف أنقض على أمك بالسمك المقدد!». كان غضبها بمثابة موجة تنفجر صاخبة، فإذا حصل لها أن تعاركت مع إحدى زميلاتها في الساحة ورشقتها بكمية من السمك، فإنها تبدو وكأنها خارجة من تلك الموجة.

«حسناً! أيها المجاز، قالت سابينا إثر رجوعها إلى البيت، ها قد أتيت لك باللحم. لقد كلفني غالياً. لكنني تمكنت من اشترائه. ولهذا السبب تأخرت. لست أدري ما طعم هذا الحيوان. لعلّ له مذاق أرمديل(*). والآن، عليك أن تخبرني كيف تفضله، لأن علي أن أضعه فوق النار في الوقت المناسب قبل أن يتيبس.

ـ اطبخيه كما في المرة الأخيرة. لقد كان لذيذاً.

ـ لقد تكرمت ابنة أخي بقراءة الجريدة لي. ولقد أعرتها إياها. لأنك لم تعد تحتاجها، أليس كذلك؟ لقد كتبوا اسمك بحروف كبيرة، لكنهم لم يضعوا صورتك بل نشروا صورة المحاميين التوأمين فحسب... والعجيب أنهما درسا وتخصصا في نفس المهنة؛ كما أنهم نشروا صور الورثة السبعة وهم من الهنود المتوحشين مثلي... لكن المال سوف يكسبهم الجمال؛ وأخيراً صورة ذلك السيد المسن، جد الصبي الذي يدعى «اليانكي» والذي يلعب دائماً مع ابن أختك «فلوفيو». ألم تخبرني ذات يوم بأن صديقك العجوز ذاك، هو والد امرأة... ضائعة؟...

(*) جنس حيوانات درعاء من آكلات النمل.

ـ إنها ألسن الشر التي تدعي ذلك؛ أما بالنسبة لي فالأمر غير مؤكد البتة.

ـ لا يمكن أن يكون مؤكداً وأنت لم تسجله. ولو كنت متأكداً منه لسجلته في الوصية، حيث لا تهيمن الآن سوى «أميرة الدولار...» وتلك المرأة الضائعة هل هي من هنا؟

ـ من هي أميرة الدولار؟

ـ إنها هناك. تلك... أنت لا تريد أن أحدثك سوى عن تلك الكبيرة الضائعة. كلا، أنا أعني ابنة ذلك السيد المسن.

ـ لقد ولدت في «بانانيرا»؛ ولكن بما أن أباها من أمريكا الشمالية، وسكنت دائماً في نيو أورليانز، فإنها تعد من «اليانكي» أكثر من أي شيء آخر.

ـ وبما أن اليانكي لا يكترثون بسمعة المرأة سواء كانت جيدة أو سيئة، فلقد أحسنت صنعاً بالبقاء هنالك. الأمر لا يختلف عما هو هنا. فالناس هنا لا يعتبرون أن هناك امرأة صالحة البتة.

ـ ليس صحيحاً. والدليل: إن العجوز خاب أمله بسبب ابنته فجاء ليختفي هنا مع حفيده. ولا شك أن خيبة أمله هي التي جعلته يترك الشركة عشية كان موشكاً أن يصير رئيسها. وهذا يبرهن على أن الأمر ليس سيان عند اليانكي فيما يتعلق بسمعة المرأة.

ـ لقد حكى لي ابن أختك «فلوفيو» أن «اليانكي» حفيد ذلك العجوز الذي تقدره كثيراً، قال بأن جده هوجم ذات مرة في شوارع نيو أورليانز...

ـ ولكن ماكر تومبسون إنسان مرهوب الجانب، إنه مسلح دائماً. وليس من الممكن أن يكونوا قد تجرؤوا...

ـ دعني أنهي كلامي. من الأفضل أن تصغي وأنا أروي لك، لقد هاجمه الأموات، كانوا كومة من جثث نصف متعفنة، أي أنهم قوم كفوا عن الحياة...

ـ لا يمكن أن يكون قد تخلى عن الرئاسة بسبب ذلك، أفهمي جيداً، رئاسة الشركة! من المعروف أنه كلما حدث طوفان في نيو ـ أوليانز، خرج الموتى للتجوال.

ـ نعم. ربما. لكن السيد أصيب بالذعر إذ، مهما بدا عليه أنه لايلحق ضرراً بذبابة، ربما كان أولئك الموتى هم ضحاياه؛ من المساكين الذين قتلهم أثناء غرس مزارعه في «بانانيرا» حيث غرق أناس كثيرون وافترس النمر الكثيرين... كان يلقي بهم في النهر، ذلك الكافر بالنعمة!! حتى تمزقهم النمور، اللعين!... ومن يومها، لم تعد أشجار الموز تثمر موزاً وإنما أصابع موتى. وما أدراك أن ذلك الذي تأكله ليس أصابع موتى؟

ـ أوه! ياسابينا كفى مغالاة!

ـ مغالاة؟ إنما هي الحقيقة!... عجباً آه! إن سيدك الكبير ذاك، ليس سوى ثمرة مكتنزة من ثمار الماسونية... ولهذا السبب يكنون له احتراماً كبيراً ويلقبونه بالبابا. بابا الماسونيين، وهو كذلك! ولكن... أفضل لي أن أذهب لوضع «الكنغر» الصغير على النار... ماذا؟ يمكنني أن أقول كنغر بدل بقر؟... لأنه من الممكن أن يبيعوا لنا لحم الكنغر على أنه لحم عجول، إذ عندما يجف اللحم يصبح متشابهاً... وهذا الوقت كله غش... كما كنت أقول ذلك منذ قليل لابنة أخي في الدكان... حيث كل ما تبيعه منسق وجميل... لقد أوضحت لهم بأن ثمة لغزاً في قضية الإعصار الذي أتى على كل شيء في الساحل، وقضى على ذينك الزوجين...

ـ أوه، أنتِ ترين في كل شيء لغزاً...

ـ سيكون الأمر أسوأ، لو أنني لم أكن أرى من الأشياء سوى ماديتها مثلكم أنتم العصريين، مع المصلحة بدل الصداقة التي هي أقدس المقدسات... والحب يستجيب له المرء بأكثر مما يملك منه، بأكثر مما يملك!... وكلما ازداد الحب كان هناك مجال للمحبة أكثر!

- عجوز ثرثارة لا تعرف ما ينبغي عليها عمله!... هذا ما كنت ستقوله؟».

لو أن «سابينا جيل» المسحوقة ذات السبعة والستين عاماً، بجلدها وعظامها، وبكامل أسنانها، وشعرها الذي لم تغزُه شعرة بيضاء، والمنكبة على طبخ ذلك الحيوان الصغير مع الملح (ولكن دون الإكثار منه لأن كثرة الملح تضر بلحمه) والثوم والبصل والطماطم؛ لو أن سابينا جيل تمكنت من الذهاب إلى الساحل، والتحدث إلى الناس، والمكوث أثناء ساعات النهار القائظة تحت الأشجار الضخمة، من دون أن تكون نائمة أو مستيقظة، ورأسها ممتلئ بذلك الذي ليس حلماً وليس واقعاً، لو فعلت كل ذلك لحصلت علي ما يثبت حقيقة كل ذلك الذي كانت تتنبأ به وهي في مطبخها بلا «هلّلويا» أخرى سوى شدو القِدر فوق النار، وبلا رفقة أخرى رفقة سوى رفقة القط.

«أيها الباكا، يا من تغدو وتروح عبر لأدغال، وتدخل الكهوف وتخرج منها، وتتجول في الغابات وعلى ضفاف الأنهار، وتتسلق جذوع الأشجار وتنزل منها، أنت شاهد على كل ما نجهله أنا وهم والعالم بأسره، عن اللغز الكبير الذي يوجد سواء في زلزال، أو برق، أو وابل من البرد أو في ذلك الإعصار الذي قضى في الساحل على كل ما كان يوجد فيه!».

ثم إن ذلك الحيوان المسكين، بمحجري عينيه الفارغتين والمنتحبتين بزفت أسود، وبدم صار مثل اللك(*) كما لو تم اقتلاع عينيه الفوسفوريتين قبل قتله، وبخطمه الدقيق، وبراثنه المتقلصة في قوائمه الصغيرة، كان بإمكانه أن يجيب سابينا، لو أنه كان قادراً على النهوض والتحدث:

«أيتها العجوز «سابينا جيل»، أيتها العذراء والعقيم، ستعلمين

(*) عصارة صمغية حمراء تفرزها بعض الأشجار وتصبغ بها الجلود...

الآن ما حدث بعد الإعصار، لأن ذلك هو عين ما علمته وعين ماشاهدته وهو الشيء الوحيد الذي يمكنني إعلامك به. تمدد «ريتو بيراخ» على سريره الحقير داخل مزرعته ما بين طنين الذباب الذي بكى على جسده كما يبكي على الأموات. غير أنه لم يمت؛ كان مضنى من التعب، ومنهوكاً إلى حدّ العجز عن الحركة، وفتح العينين بعد الجهد الذي بذله لرفع الرياح، كل رياح البحر، إلى أعالي السماء، ثم قلبها من الأعالي كجرعة من نوء ومن إعصار، وذلك بلا انقطاع طيلة أيام وليال، فوق مزارع الشركة الكبيرة، حتى استئصال نار شجر الموز الخضراء، تلك النباتات التي لها بدل الجمر المتقد، سعف بلون الزمردة الناعمة «إنه شر ما قمت به هناك أيها الساحر» قلت له، فأجابني: «أيها «الباكا» الأعمى، أنت ترى الشر ولا ترى العدل. لقد سألني «هرمينيخيلدو بُوَاك» الإنصاف. قائلاً لي: «يا «ريتو بيراخ»، أطالب بالعدل ضد من يقتلون فينا الأمل!». فطلبت منه رأسه، رأس الرجل المسالم الجميل، فانتحر كي أتمكن من أخذ رأسه من القبر وإطلاق جماح الزوبعة، وفي أعلى أعالي السماء كومت هواء البحر البارد قبل أن يمر ويسخن في قصبات الأسماك، وقبل أن تتمكن رئات الموج المتحركة من تفتير الهواء البارد ثم تبديده، وتركته هناك، مكدساً في السماء، في حين كنت انبش قبر «هيرمينيخيلدو بواك» وأقشر جمجمته (كأن رأسه قد أصيب بغرغرينا الموت) كي أغطسه في ماء الكلس الحامي، كعلامة على سطوتي: الكلس في الماء. أما البقية فإنك تعرفها أيها «الباكا» وعليك أن ترويها إلى هذه العجوز التي لها شامة قرب السرة ما بين عشرة آلاف تجعيدة».

«أيتها العجوز سابينا جيل، أيتها العذراء والعقيم، الساحر «ريتو بيراخ» استجاب للطلب، استجاب لمطلب الإنصاف ضد من يقتلون الأمل، استجاب للمطلب الذي تقدم به «هيرمينيخيلدو بواك» قبل انتحاره! ما من خديعة. كل شيء كان حقاً. وكم كانت جميلة رأس الرجل المسالم «هيرمينيخيلدو بواك» عندما خرجت من الكلس

الحامي في الماء، علامة على سطوة الساحر، من الكلس الحامي من الماء، من الكلس الحامي من الماء، من الكلس الحامي في الموت! الشفتان مثل قشرة موزة فائقة النضج، والأنف أفطس، الأسنان بيضاء وجافة، مصطفة من عظام مجبولة من أجل الضحك، من أجل ضحك الموت، إحدى عينيه مدروزة ونصف مفتوحة والأخرى جفنها مدروز من أعلى. ألا يصيبك الرعب لدى التفكير في ذلك الوجه؟... هكذا ينتهي إلى المنشفة أو على منصة الإعدام أو المقصلة، كل الذين يقاومون كي لا يموت الرجاء، وعلى تلك الهيئة التي تشبه الضحك، وهي رعب ونحيب. وقبل أن يصبح لون الفلفل بلون النملة الحمراء، نطق الساحر بالتوسلات وكان ذلك لإثارة الزوبعة كما كان من أجل النطق بالكلمة التي لا تقال (ساكوزان)، الكلمة التي لا أقولها، ولا أنت تقولينها، أيتها العجوز ذات الشامة قرب السرة، ولا أحد يقولها... (ساكوزان). وبفعل هذه الكلمة التي نطق بها «ريتو بيراخ»، صارت له ذراعان، وهو الذي لم تكن له ذراعان بما أنه لم يكن سوى رأس ميت في الكلس الحامي، ساعدان لهما من المفاصل أكثر مما في السلسلة، ساعدان كانا سلسلتين في منتهى الطول، وحلقاتهما موصولة بمرافق متمكنة من كل تحركات الريح؛ ويدان تنتهيان بألف، بعشرة آلاف بمائة ألف أصبع كي تشدّ الأشياء بعنف، وتقتلع أشجار الموز إلى حد مدها على الأرض، إلى حد جعلها حطاماً لا جدوى منه، نفايات، قذارات، وزبلاً، كومة هائلة من النفايات والأوساخ؛ ولهدم المنازل والمنشآت والجسور والأبراج وأعمدة التلغراف البرق وأعمدة الاتجاهات، والأشجار والحيوانات وقسم كبير من المدينة».

«كم من الوقت بعد الإعصار، مكث الساحر «ريتو بيراخ» مضطجعاً في سريره الحقير داخل مزرعته، ما بين طنين الذباب الذي كان يبكي على جسده كما يبكي على الموتى؟ رائحة بحر ذي أسماك حيّة، رائحة بحر ذي أسماك ميتة، وبرمائيات وطيور مائية ضخمة؛ رائحة صخور وسفية قشورها من أصداف ومحار تفقد

سيولا من دم أسود مثل شعر عمالقة لا وجوه لهم يغوصون في اللمعان الشفاف للماء العميق. كانت لغة المد والجزر تنزل لاعبة بالزبد، فتدحرج كل شيء وتعانق كل شيء. ولم تكن الكارثة في الأدغال أقل وطأة منها في مزارع الموز. لم يعد النبات يواجه المحيط إلا من وراء درع من نسيج عنكبوت منسوج على أشد الأغصان المعترشة تشابكاً وعلى الأفنان الميتة التي كانت الرخويات تبدو مكومة عليها مثل الصخور وهناك تتحطم، دون أن تحقق شيئاً، تتهشم تخور قوى «تيتان» الجبار لأن منخل النباتات كان يُجزئ اندفاع كتلته السائلة العنيفة. كل شيء يرتعد، الجذور عارية، والأغصان تتفتت غصناً وغصناً ثم تلوح وكأنها غنائم صغيرة في لعاب الموج الحانق، وكثيراً ما يحدث ذلك لأن السيد المحيط الهادئ غالباً ما يتملكه الغضب. قلبت الريح الحصون ومزقت تلك الحِبال؛ وأخذت جذوع الأشجار، التي لم يكن باستطاعة الزوبعة ولا النوء اقتلاعها البتة، ترقص مثل خذاريف تلف بجنون، كانت تلك ثغرات مذهلة، فتحت كبيّنة واضحة على ثأر العدالة؛ بقايا من كل ما كان في الأراضي المزروعة ثم تحطم وانجر حتى الشاطئ؛ بقايا كل ما اقتلعته الزوبعة طيلة أيام وأيام، أثناء هبوبها المشؤوم، بقايا كل ما كانت الأنهار تأتي به. ولم يكن الشاطئ المزدحم بطيور مالك الحزين والذي كان يرتاده الساحر، بعيداً. كان يلمع برمله الوردي المنعكس على خضرة حجارة الماء. أحجار الماء الكريمة، جواهر الماء، كان مبللاً تماماً بالزبد الذي كان يتشكل متخذاً أشكال اللدونة كي لا يقاطع نوم الضباب الأبيض الناعم الذي كان يضطجع هنالك... كان ريتو بيراخ قد وهب ساقاً من ذلك الضباب الزغبي للإله ـ الإعصار، ذي الساق المكسورة وكان يأتي ليفي بوعده، ومنخره شبه مسدود، إذ كان لا يستطيع التنفس».

«أيتها العجوز سابينا جيل، أيتها العذراء والعقيم، أيتها الساذجة مثل حجر المِسن الأبيض، سوف أتابع وأروي لك ما فعله الساحر بعد أن قدم ساقا من الضباب المزغب للإعصار، ذلك الإله

الذي ليست له سوى ساق واحدة. أنا (الباكا) سأروي لك. غادر شاطئ مالك الحزين وذهب إلى الكوخ الذي تقطنه عائلة «هيرمينيخيلدو بواك»، وهناك كان ينتظره ابنه البكر، «بوتشوت بواك». «هل أنت متعب، ياجدي؟» سأل الصبي وقبعته مغروزة في رأسه الكبير، وعيناه عطوفتان مثل عيني أبيه، «هل أنت متعب ياجدي؟» أعاد السؤال من جديد «أنا كذلك!» أجاب الساحر. ثم سكت الاثنان. وكان الصمت ما بينهما يعني كلاماً. والكلام كان يعني تبادل أشياء خفية. وتبادلها مباشرة من دون أن يلحقها تشويه الكلام. «يوكا» قال الساحر، بلغة الصمت التي ليس لها شفاه، كي يُبلغ «بوشوت» بأنه سينصبّه رئيساً لا يلمس، له هيئة «يوك» اليحمور(*) الأمريكي الصغير. عندئذ دعاه «يوك». ثم بينّ له فيما بعد، ولكن بالكلمات هذه المرة، بعد أن سمّاه «يوك» وحوّله إلى «يوك»، بين له أن الأرض واحدة، غير أن لها أربع «همسات» للقادة الكبار. والهمسة هي الصوت الذي تحدثه كل حبة تراب يحك بها جلد المصطفى. «سوف يكون لك سلطان ومهابة متفردة وتحل في كل مكان. أن تكون رئيساً يعني أن تكون متعدداً. أن تكون رئيساً يعني أن تكون في كل مكان». صمت وجهاهما. وجه «بوشوت بواك» قبالة وجه «ريتو بيراخ». أيضاً سكن بطن كل منهما. وكانا بلا غذاء. «يوك، سوف تمنحك همسة التربة الخضراء التي أحك بها الآن جبينك وحول رأسك، وعلى عمود رقبتك، سوف تمنحك الإرادة الملكية من أجل القيادة، والأمل وتحليق طائر «الكتزال»، وعمق الزمردة الحجري، ولمعان اليشب والسلطة اللامتناهية التي للنبات. ومن الآن فصاعداً سوف أناديك الرجل ذا الرأس الأخضر...» يوك، أنبأه بعد ذلك، أن «همسة» التربة الصفراء التي احكها الآن على قلبك وعلى امتداد مساحة صدرك، سوف تمنحك دائماً إنسانياً، واحكها على سرتك وما تحتها، على قضيبك! وعند ذلك أدعوك «الرجل ذا

(*) حيوان لبون مجتر من فصيلة الأيائل.

الخصيتين الصفراوين...» وفيما بعد تناول قليلاً من التربة الحمراء لإحداث الهمسة الحمراء، ومسح له بها ساعديه وساقيه ليجعل منه أشجع محارب. «أدعوك رجل المعارك، الرجل ذا الأطراف النارية التي لونها بلون الدم...» وأخيراً، وبواسطة التربة السوداء، أحدث همسة الظلمات، التي فرك له بها قدميه ويديه وظهره وحتى أليتيْه. «سوف يكون أثرك هو أثر اللامرئي، وحضورك هو الحضور الذي يُحسّ بقدومه، الحضور الذي يكون قريباً منا دون أن ندرك من هو، وجلستك جلسة من يترقب في الليل فجر الرجاء. انتظار ولادة النهار، هو دورك الأسمى. ونقل فضيلة انتظار الفجر من جيل إلى جيل، هو هدفك. وتعليم الجلوس على الحجر، وعلى جذع الشجر وعلى الكرسي وعلى «الفوتيل»، هو حكمتك...».

ـ يا لهذا «الباكا» الذي لا ينضج رغم نار جهنم التي وضعت فوقها القدر! أنه أصلب من لحمة ضلعي!... أيها «الباكا» الساحر هل لك أن تنضج! نعم، يقال أنك أبكم، ولكن جسمك لم يعد يطيق الصمت في الحرارة، حرارة النار التي كنت عليها. إن فهم ما تقوله الحيوانات عندما نطبخها، هو علم من العلوم.

ثم رفعت «السابينا» يدها مثل قائمة حيوان نحيلة ذات براثن تشبه حبات فول يابس، وحكت رأسها من جديد... وكان صخب الصبيان وهم يلعبون بالكرة في الساحة قد بدأ يتعالى. سوف يتعاركون من جديد... «في أي ساعة يذهبون إلى المدرسة؟» هوذا ما أسأل عنه أنا. لقد خرج «فيدال موتا». لكنه سوف يعود في ساعة تناول «باكته»، لا شك أنه الآن منهمك في قضية الذهاب إلى الساحل مع المعنيين بتسليم المال إلى الورثة. ما أنا بحاجة إليه الآن هو بن مطحون وشموع. بن مطحون وشموع. بن مطحون، وشموع وخبز. والإذعان للساعة المجنونة، والمستعجلة إلى حد أنها لم تعد تريد التوقف... إنها مثل روزنامة. دعيني أوقفك! دعيني أمسكك! كم بودي أن أقول: «لا تستعجلي هكذا! لماذا تركضين بهذه السرعة؟

أيتها الساعات والأيام... يا للشيطان، من تراه يدفع لها ثمن سرعتها حتى تجعلنا نهرم هكذا؟ الأيام والساعات تنقضي... ولكن لماذا أيضاً، تدوم وتظل أبدية؟... لا، يقيناً، أنه من الأفضل أن تتوقف...».

11

الهواء يعبق بأريج الزهور. هواء حار. والشمس تبدو كما لو كانت في سمت السماء منذ الساعة الخامسة صباحاً. أريج مسكر، مذهل. نجوم تلوح في حرارة الفجر. بلا نوم. أرق الأشياء الحية الناعسة من شدة التعب، ولكن دون أن تتمكن من النوم. عرق. عرق فوق البحيرات، وفوق الأنهار. أعضاؤك المتثاقلة والعرق على البحار وفوق الأنهار. نور عيون نصف مستيقظة. غفوة الظهيرة منذ الصباح. تنفس مضطرب. وأخيراً هنالك، هنالك حيث الفكر يتمكن من التفكير في العشب الذي ترعاه الأبقار، من أجل الترويح عن النفس بشيء نديّ. بلاط الآجر محرق. ومحرقة أيضاً أرجوحة النوم المتقوسة تحت الجسد المبتل من العرق بلا ثياب، والجلد المستند إلى زردات الأرجوحة. من الأفضل التأرجح برفق على أرجوحة النوم، من أجل التروّح، التروّح، وتحريك الأعضاء المؤلمة، المرتخية... الوجوه. الوجوه مصبوغة بذلك النور الضارب إلى البنفسجي. حيوانات في الظل، رؤوس في الظل، جلود في الظل. فلماذا يفتح المرء عينيه؟ لاكتشاف الأشياء نفسها! ورؤية المشهد نفسه؟ وليعرف من جديد أنه حيّ؟ ولندرك بأننا لا نزال أحياء؟ ونعي مانسيناه جزئياً أثناء غفوة التعب الليلي؟ ولكنه يوم عمل: ينبغي فتح العينين، ينبغي فتح العينين، ينبغي فتح العينين. بالقوة، ينبغي فتح العينين. سواء أردنا أم أبينا، ينبغي فتح العينين. لا نريد ذلك، لا. ولكن ينبغي فتحهما... النهار يشرق، الديكة تصيح؛ وإحدى النساء تستيقظ، وتحك جسدها، وتنفث نفسها الكريه الأبخر، تنهض رغماً عنها وتشعل النار لإعداد القهوة... وفي حرارة الساعة الرابعة صباحاً كان ثمة برد المحمومين المصابين بالملاريا. نقون

مشعثة، رؤوس لا ثقل لها، مرافق ناتئة مثل زوايا بارزة من زردات في أراجيح النوم. أي جهد تراهم يبذلون حتى لا ينزلقوا من بين الحلقات ويتفتتون على الأرض مثل الغبار! فجر لا يسبر له غور. سطح لامع وعمق من الظلال يشوبه لون طحيني أزرق، بخار يزداد انجلاءً، مطر ناعم ينزل من الشمس على أشجار الموز المغطاة بلمعان أنسجة العناكب التي كانت تنكمش مكهربة، لدى أول لمسة فرشاة تقوم بها الشمس. بحر، بحر شاسع، بحر طنين الذباب المصم، المضجر، الطاغي، والأحادي الوتر. ذباب صغير، ذباب كبير لصوق. أنهار، أنهار متموجة بديدان متسلقة، أبنوس وذهب، سبج وفضة، دم ولازورد، ولكي ترى أين تنتهي خضرة الأوراق اللماعة وأين يبدأ أزرق الفضاء اللامتناهي، كانت أشجار الموز مشبعة بسماء أرق من السماء. يفتح المرء عينيه، يفتحهما، يرتاد نفس الأماكن، رواق البيت، الغرف، المطبخ والفناء المحاط بنوم الأفاريز التي تنشر عليه ظلالها. أمر مزعج أن يذهب المرء ويغوص في أعشاب المستنقعات ليبحث عن الدواب: عن الأبقار والبغال التي يبدو عليها هي الأخرى أنها لا تود فتح عيونها! ينبغي ضربها من أجل إيقاظها. لن تخرج من خدرها إلا بالضرب وبالصراخ. فتستيقظ بصعوبة وترتجف لدى كل حركة... صباح الخير! صباخ الخير!... لا توجد كلمات أخرى عداها إذن. دائماً نفس الكلمات. صباح الخير! صباح الخير!... وما جدوى أن تكون هناك كلمات أخرى مادام النهار هو نفسه دائماً، وهو دائماً محرق وخانق؟ وما يقال عن متعة العمل محض هراء. يبدأ المرء عمله بانزعاج وينهيه بانزعاج. من الأفضل البقاء في أرجوحة النوم وليتم العمل وحده، من دونهم، من دون أولئك الرجال الهاذين، السكارى والتائهين منذ بداية الصباح في شذا الساحل المضطرم. لقد جاؤوا إلى العالم في ساعة نحس... لو كان بإمكانهم الفرار! لو كان بإمكانهم الهروب في هذا اليوم الذي يبدأ كما الأيام الأخرى! أو في يوم آخر، غداً، بعد غد، لا يهم في أي يوم، المهم أن يخرجوا من هذا الجحيم... آه! أية متعة سوف يجدونها في النهوض من أجل الهروب! كم ستكون عيونهم مبتهجة

عندما تنفتح لترى بأن ساعة مغادرة الوكر النتن بالعرق قد حانت. ذلك الوكر الذي ناموا فيه نوماً مزعجاً... ولم يناموا فيه آخر مرة بما أنه أطلق سراحهم! سوف يجهزون أنفسهم بسرعة. وكل شيء سوف يبدو لهم جميلاً. وسوف يتمنون صباحاً سعيداً لبعضهم البعض بلذة جديدة... ولكن من الذي يفكر في ذلك؟ الساحل امرأة لا تترك ما تمسك به؛ إنها تشعرك بأنك قادر على الهروب، ولكنها تضغط عليك مابين فخذيها، أرض الساحل فخذان، ولهذا لا أحد يشفي غليله منها ولا هو يقتص منها، لأنها تحض على البحث عن شيء آخر هو أكثر من مجرد فخذين، ولكنها لا تملك هذا الشيء. لها فخذان فحسب وأولئك الذين يصرون على امتلاكها يسقطون في النهاية مهزومين ولا يتبقى منهم سوى تفل يشبه تفل قصب السكر، تفل صالح للتجفيف وللإحراق، قشور رطبة على الشاطئ تذوب في البحر.

وعبر السياج الذي تتحاذى فيه زهور عباد الشمس وأزهار اللبلاب الزرقاء والحُرف(*) وأزهار ونباتات «قطرات دم المسيح»، وزهور اللؤلؤ الكبيرة الصفراء، كان «باستيانسيتو كوجوبول» وزوجته ومعها طفل صغير، و«روزاليو كانديدو لوسيرو» و«آيوك كايتان» الغزير الشعر، يراقبون شيئاً ما في الأفق...

عندئذ أدرك ثلاثتهم ـ والمرأة لم تكن معتبرة ـ بأن الأمر ليس سوى ذبابة في السماء، تقريباً صارت على التوالي طنيناً، ثم يعسوياً وأخيراً، عندما اقتربت، أصبحت طائرة ضخمة. خرجت عن الخط المستقيم الذي كانت تتبعه من جهة البحر لتتجه نحو موقع الهبوط التابع لشركة «تروبيكال بانانيرا اس. آي».

«إيه إذن يا أعزائي لقد انتهى الصباح ونحن لا نزال خاملين هنا!» قال أحدهم.

(*) بضم الحاء: بقلة مائية.

فغادروا السياج، مبللين بالنّدى، ليقصدوا عملهم في حين أخذت المرأة، التي كانت تفوح منها رائحة الحليب، تلتحق بابنها النائم في سلّة، لتوقظه وترضعه. ولكن، عندما كانت تتأهب لذلك، عاد الرجال الذين ذهبوا لعملهم وبرفقتهم رجال آخرون يحاولون الإفصاح عن هويتهم بالإشارات.

«أنتم إذن! صاح بهم المدعو «موريثيو كريسبو»... لم يكن ليخطر ببالكم هذا الشيء منذ كنتم رضعاً... ليترك كل منكم ساطوره ومنجله وحباله، ألقوا بكل ما عندكم إلى المزبلة!

- لا حاجة للعمل اليوم صاح شخص آخر يدعي بروليو راسكون. أي عمل ها! ها!... لن تعودوا إلى العمل أبداً!... لأنكم ستعيشون الآن عيشة بأتم معنى الكلمة! أما نحن فقد ولدنا أمواتاً، وذلك، يا صغاري، لأننا فقراء، وفقراء سوف نبقى. أمّا هؤلاء فإنهم سيبعثون أحياء، ويخرجون من مقبرة الفقر.

- ولكن لاشك أنهم ربحوا في اليانصيب! فكرت غوديليا زوجة «باستيانسيتو كوجوبول» وحلمة ثديها لا تزال تقطر بالحليب وقد كانت تضغط على ثديها بين أصابعها لتناوله لصغيرها. ياللصغير المسكين! ذلك أن الأم لم تعد تدري ماذا تفعل بسبب القلق الذي انتابها من جراء صراخ هؤلاء الرجال الذين جاؤوا لتهنئة زوجها فلطخت عيني طفلهما بالحليب، الأمر الذي لم يمنع هذا الأخير من التعلق بالحلمة، ولكن دون أن يكف وهو يرضع عن متابعة حركات كل أولئك القوم وغيرهم ممن كانوا يقبلون، بعينيه كان يرضع وينظر؛ ينظر ويرضع».

كان الجميع يتحدثون، ماعدا الفانين السعداء وهم سبب هذا الحبور، والذين كانوا يحاولون، بنظرات حذرة، أن يعرفوا إن كان كل هؤلاء قد أصيبوا بالجنون أم أنهم يسخرون منهم.

وفي النهاية عندما رأى راسكون أنهم لا يتكلمون ولايفتحون أفواههم ويكتفون بالاستجابة للعناق والمصافحة والتحية والتهاني من قبل الجيران المتزايدين شيئاً فشيئاً، لاحظ قائلاً:

«ينقصكم أن تشربوا قدحاً. لاشك أن الزجاجة هناك، إنها تلك التي أتيت بها تحسباً لمثل هذه المفاجأة... هيا اشرب جرعة يا«باستيانسيتو» وأنت جرعة أخرى يا «روزاليو كانديدو» وأنت أخرى أيها الأشعر... من الزجاجة رأساً!... لم تعد هناك حاجة لكأس أو لقدح!...

ـ هيا يا «غوديليا» أسكتي هذا الببغاء!... كان ذلك أول ما نطق به «باستيانسيتو» مخاطباً زوجته. المسكين إنه هرم وضعيف العقل قليلاً!

ـ دعه. هو أيضاً مبتهج. إنه الآن يعرف جيداً من أنت! ألا ترى إلى الكلاب وهي تحرك أذنابها محتفية بك؟... لاشك أنها تدرك، هي الأخرى، بأنه ابتداء من اليوم لا مجال للخبز اليابس! بل حساء العظام مع شرائح...».

كان أكثرهم ثرثرة وإقبالاً على الخمر هو راسكون. ولكن، فيما يتعلق بالإدمان لم يكن «كريسبو» ليحسده على ذلك. أما آل صموئيل (وهم صمويلون وصموئيل وصمويليتو) فقد اتخذوا من راسكون قدوة حسنة. فالمناسبة تستحق ذلك. لقد استيقظ هؤلاء الشباب الثلاثة كعادتهم كل صباح وها أن كل شيء قد تغير بالنسبة لهم. فمن كان يتصور أن في تلك الطائرة، في تلك الذبابة الصغيرة؟...

«أعتقد أنهم سيستدعون إلى مكاتب الشركة». جاء أحدهم ليقول، وعدَّل شخص آخر كان من ضمن الجماعة، قائلاً: «أنا أرى أنهم سوف يستدعون إلى المحكمة. لأن القاضي هو الذي سيخبرهم بالأمر...

ـ إيه! نعم، تدخل راسكون قائلاً، إنها مهمة القاضي.

ـ فعلاً وكيف يكون الأمر على خلاف ذلك، بما أنه يتعلق بميراث؟... لقد حدث نفس الشيء لجدي «بيلزاريو»، ليأخذ الله روحه!

ـ في صحة الورثة! صاح صمويلون رافعاً الزجاجة مرة

أخرى، وردّد أخواه صموئيل وصمويليتو كشخص واحد... في صحة الورثة!...» وعب كل واحد جرعة من عرق قصب السكر ذي نكهة الكاكاو.

فيما بعد، ومن أجل تنشيط الحفلة المرتجلة، ذهبوا للإتيان بقيثاراتهم، بعد أن احتسوا العرق مرة أخيرة.

«لم يعد يُوجد مركب من أجل الإبحار. سنرغم على الذهاب سيراً على الأقدام. ينبغي البحث عن مركب آخر... سوف آتي بآخر...

ـ ليس على أحد أن يقدم شيئاً! صرخ روزاليو كانديدو. عندي ثلاث زجاجات من عرق «كوميتان».

ثم بدأت القيثارات بالعزف: «إيقاع» أولاً ثم «باسودوبلي» ثم «فالس».

ـ إيه! لا تسكروا يا شباب!

ـ إن «راسكون» يزعجني بقوله «لا تسكروا...».

ـ نعم! ينبغُي ألا نفرط في الشراب، إذا كان علينا أن نرافقهم من أجل الشهادة. لذلك ينبغي أن نتأهب.

ـ إنهم يبدون مرهقين! لاحظ «كريسبو». هيا تعالوا أنتم هناك يا «باستيانسيتو» و«روزاليو» و«الأشعر»... تلهوا قليلاً... امزحوا!...».

* * *

كان قيظ الظهيرة شديداً في عزلة الساحل البحرية؛ وخارج الحفلة ـ حيث الصراخ والصخب يزدان بمفعول العرق، والمجون يختلط بالأغاني والرقص ـ كان باقي سكان المنطقة يضطجعون في هذه الساعة على أراجيح نوم وأسرة ميدان وأحياناً على الأرض، بحثاً عن قليل من البرودة. كانت حدود الأشياء تمحى. وسطوع الشمس يعشي الأبصار كما الظلمة. ومن حين لآخر يحلق طائر ولايكاد يحرك جناحيه المبليين بالعرق.

لم يُستدعوا إلى مكاتب شركة الموز ولا إلى المحكمة، لأن الإعصار جرف المبنى مع الأوراق وكل شيء. كان لابد من معاينة الهيجان الذي بعثر به الإعصار كل أوراق هذه العدالة البائسة. لم يتبق شيء من الدعاوى والأحكام ومن القضايا، وكل ما وفرته الريح جعل منه انهيار المبنى كومة من النفايات أفليست العدالة الإنسانية، سوى كومة نفايات، نفايات ورق مكتوب؟...

لم يستدعوا إذن إلى الشركة ولا إلى مبنى المحكمة الجديد. أرسل القائد المحلي في طلبهم دورية حرس لإحضارهم. ولقد نبهت كلاب الحراسة القوم المحتفلين إلى قدوم الدورية. لا يمكن إيجاد مثل تلك التصرفات الفظة. إهانتهم إلى الحدود القصوى. لا يهمهم أن يعرفوا بأن فقراء البارحة أصبحوا اليوم أغنياء. كانت الدورية تعادل ما بين الجميع. الـ «سلطة العسكرية» موجودة من أجل ذلك. من أجل المساواة بين المواطنين؟ الجميع على مستوى الأرض، هوذا! والويل لمن يرفع رأسه، وإلا فإن رأسه سوف يهال عليه التراب.لا يمكن أن يطلب المرء مستوى آخر إلا تحت التراب. سلمهم الملازم الذي كان يقود الدورية الاستدعاء الموجّه إليهم... وأضاف بأنه من الأفضل لهم ألف مرة أن يرافقوه كلهم دفعة واحدة.

أسرعت «غوديليا» التي كانت فرحة وقلقة في الوقت نفسه، إلى «سميرأميس». إذ كان ينبغي إخطار لينو وخوانشو لوسيرو وكذلك آل آيوك كايتان ـ الذين استدعوا على وجه السرعة للمثول أمام القائد العسكري ـ بأن دورية الحرس ساقت «باستيانسيتو» «روزاليو» و«الأشعر» دون أن تمكنهم من شيء آخر يفعلونه سوى رمي بقايا الحفلة في عربة نقل، السكيرين والقيثارات والعرق.

أخذت الدائرتان المعدنيّتان المحيطتان بدولابي العربة ترسلان شرراً لامعاً على طول الدرب الرملي المسطح، مع تقدم الثورين وقوائمهما القصيرة ترج كتلتي جسميهما بلدونة. وكانا أحياناً يخرجان لسانيهما الأحمرين ويلعقان خطميهما الملتهبين، وجبين كليهما مغطى بمروحة مضفورة من أوراق «الكيكيخك».

«ثيران!... ثيران... صاح راسكون الواقف في مقدمة العربة. انظروا إنهم أصدقاؤنا القدامى. ثيران... ثيران!... مثلنا تماماً! ومثلما سنظل دائماً... هي لم تعد ثيراناً الآن! (كان يترنح). الآن... هي... لم تعد ثيراناً... لم تعد ثيراناً البتة!... كلا أصدقاؤنا ماعادوا ثيراناً... لن يجروا العربات... سوف يعيشون سعداء... في عز السعادة... أنا أريد... ألا أبقى ثوراً، أبداً، لا أريد أن أظل ثوراً... مثل هؤلاء الذين معي هنا... ثيران لا أكثر ولا أقل... فلماذا يعمدنا الخوارنة؟ هذا ما أقوله أنا، هل تعمد الثيران يا ترى؟...».

نزل من العربة كي يذهب إلى مزرعته. وكان يسكن عند «سارة خوبالدا». وأخذ يسير مترنحاً ذات اليمين وذات الشمال، دون أن يسقط من هذا الجانب أو ذاك «ثور! كان يكرر إثر كل ترنح... ثور! يردد وهو يتثاءب ويعطس ويسعل ويبصق لعابه... ثور!...».

وعند وصوله انهار أمام باب البيت الذي أمَّه طالباً مأوى منذ خمسة أشهر. ولقد ظل يتأهب للسفر كل صباح. وبعد استيقاظه، كان يعمد إلى لف ملاءاته وأثمن ممتلكاته ويجهزها، من أجل الرحيل، في سلة قديمة من أوراق الذرة. وفي المساء، عندما يخيم الليل، يعود إلى البيت وقبعته مغروزة حتى أذنيه فتغطي عينيه المغروقتين بالدموع، كان يعود ثملاً قليلاً ومشتكياً من عدم تمكنه من الفرار وقد انتابته حالة شديدة من البهاق، فيعمد إلى بسط غطائه كي يتمدد أرضاً. «غداً سوف أهرب، كان يحدث نفسه، يقيناً إنني سوف أذهب!».

جرته سارة خوبالدا من إبطيه إلى الداخل. إنه لأمر قبيح أن ينام رجل أمام الباب! وكعادتها فتشت جيوبه. سيجاران مهترئان... ذلك كل ما يملك. وهما مكسب على كل حال. وضعتهما جانباً كي تدخنهما عندما يغادر البيت.

* * *

«أحد عشر مليوناً! قال راسكون بعد أن جلس.

ـ وما معنى ذلك؟ سألت ساخرة من جنون عظمته.

ـ كيف! ما معنى ذلك؟... أيتها الساحرة والعجوز اليابسة!».

انقضت كف سارة خوبالدا بصفعة على خد السيد بروليو. فسقط إلى الأمام، وقبل أن يرتطم رأسه بالأرض، وكأن عظامه من مطاط، نهض من جديد وحدّق في المرأة. ثم رفع ذراعيه كي يحتمي منها، وأوضح قائلاً:

«لقد أرسلوني أنا لأبشرهم بالخبر. كان الشيخ «بيادرا سانتا» قد اطلع عليه في الجريدة. لكنه لم يقوَ على... خانته شجاعته... ليس من السهل إعلام فانٍ من الفانين، قذر من القذرين، حشرة من الحشرات بأنه ورث مليون بيزو ذهبية... أكثر من مليون، مليوناً ونصفاً.

ـ إيه إذن، لقد أخبرت «القنينة» بذلك نعم القنينة لأنك يا «دون بروليو»، بل يا «سيد بروليو» تتدبر أمر كل شيء، سواء كان له دواء أم لا، بالدواء الوحيد الذي لا يداوي شيئاً: العرق!

ـ لم أخبر أحداً. ولكنهم سيعلمون بذلك الآن عند الآمر. لقد استدعوا من أجل ذلك. ومن أجل ذلك اقتادتهم زمرة الحرس. سوف يمرضون من شدة التأثر. لقد عمدت مع آل صموئيل إلى ارتجال حفلة لكي أخبرهم عندما يثملون تماماً. سوف تدركين بأن تأثرهم يمكن أن يوصلهم إلى حالة إغماء. ليس هكذا يرث المرء. ليس هكذا البتة. وعليك هذه الليلة أن تعدي لي كل أمتعتي لأنني سأرحل غداً.

ـ منذ خمسة أشهر وأنت تعلن لي الشيء نفسه يا سيد «بروليو».

ـ ولكن هذه المرة سأرحل جدّياً... سوف استدين منهم خمسين دولاراً... لماذا خمسون؟ كلا، مائة دولار... إن ذلك يشبه شعرة يقتلعها المرء من قطة... لماذا مائة؟ بإمكانهم أن يعطوني ألف دولار!...».

وعندما علمت سارة خوبالدا أن لينو لوسيرو من ضمن الذين ورثوا هذه الكومة الـ... كـ... بـ... يـ... ر...ة من المال، تركت السكير يتحدث وحده ويكزّ بأسنانه كما لو كان يمضغ الحرارة، وتوجهت شطر الآمر.

«ينبغي تناول الخمر من أجل النسيان...» كانت تلك آخر الكلمات التي سمعتها من السكير وهي تبتعد. كان مستليقاً في الامتداد الذي لا حدود له، في الجانب الآخر من عالم سكره، لكنها لم تجبه، بل إنها على الأصح، أجابته. نعم لقد أجابته. أجابته، أجابته...

«لنشرب من أجل نسيان كل هذه القذارات!... لا شيء هنا هو ملك لشخص واحد، كل شيء ملك الجميع... أن يكون المرء سيداً، هو كذلك... ليس على أحد أن يأتي ليفسر لي معنى أن يكون المرء سيداً تفسيراً مخالفاً. الأمر لا يتعلق بمنع من ليسوا سادة أن يظنوا أنفسهم سادة ما يملكون... إنهم يملكونه ولكن من دون حيازته... لقد ولدوا كي لا يملكوه...».

لقد نام. ولم يعد يسمع سوى تنفسه في الغرفة التي كان بابها مفتوحاً. دخل كلب وأخذ يتشمم. رفع إحدى قوائمه كي يتبول على كرسي في إحدى الزوايا، فجعلته ضربة من راسكون يهرب مفزوعاً، متذمراً وهو ينبح، غير أنه توقف عند الباب وأخذ يلعق نفسه من تحت، بأقصى حنو ممكن.

«كلب قذر! صاحت به تويانا ألمندريس» التي كانت مسرعة بدورها نحو الآمر، كي تصل في الوقت المناسب، على أمل أن يعطوها أو يدينوها مبلغاً يمكنها من تسديد القائمة التي كانت تستعيدها وهي في الطريق: تسديد دين أثاث قاعة الأكل لآل فرانكو، استرجاع مشبك الألماس الذي رهنته عند بيادرا سانتا وأخيراً التخلص من دفع المتأخر الذي عليها لصاحب الحانة، وهو شخص يريد خداعها، «ادفعي لي الدين توابل، يا تويانا» يقول لها ، ابن العاهرة «نقداً» تصحح له، لكنه يلح: «كلا ليس نقداً بل «توابل» مثل كبش القرنفل والفلفل الغليظ أو القرفة».

* * *

«أمر... معاكس! صاح القائد، عندما لاح الرجال المستدعون،

يتبعهم الحرس وموكب من الأقارب والأصدقاء والمعارف... والمجهولين.

ـ ماذا فعلوا؟

ـ لماذا يقودونهم؟

ـ لماذا يؤخذون إلى السجن؟...».

تلك كانت أسئلة الفضوليين الذي كانوا يشاهدونهم يمرون في تلك العربة ما بين جنود ورهط من الناس يتحدثون ويتدافعون بالأيدي وبالأرجل كي يبلغوا أول الزحام، إذ لا أحد يريد التأخر عن معرفة أن هؤلاء ليسوا محكومين بل ورثة، وكان المحظوظ هو من يتمكن من تحيتهم قبل غيره ويبتسم لهم ويهنئهم ويخبرهم كم هو سعيد برؤيتهم أغنياء.

«إن حياة العسكري، أضاف الآمر وهو يدخلهم إلى مكتبه، تختزل إلى: أوامر. إعطاء أوامر ، وتلقي أوامر وتنفيذ أوامر... والآن... أوامر معاكسة... سوف يتم تبليغهم بالإشعار في مكتب الشركة ضمن احتفال كبير ولقد طُلب من الورثة أن يذهبوا إلى هناك بلا مرافقين يبدو أن المرء لا يحتاج إلى مرافقين عندما يرث ثروة طائلة رغم أني أرى عكس ذلك، ينبغي حماية الغني، ولذا أرسلت لكم بالمرافقين، لحمايتكم، ولمنع الناس من التهامكم، ومن تمزيقكم إرباً إرباً، وسوف يرافقكم الحرس مهما رفض ذلك المسؤولون في الشركة، إذ إن واجبي هو حمايتكم من أولئك الذين لا بد أنهم جهزوا أنفسهم ليسلبوا منكم الشيء الذي لم يحصلوا عليه...».

وفي أثناء ذلك دخل العمدة منادياً إياهم: «يا أزواج الثروة السعداء» وكان يبدو على وجوهم أنهم كذلك حقاً إذ كانوا مربكين وسط كل تلك التهاني والأفراح مثل المتزوجين حديثاً ولقد أشار أحد الحاضرين إلى أنه كان ينبغي مناولتهم قدحاً آخر من العرق.

وحضر «بولو غامي» مستخدم البرق، مع حشد من الصبيان يحملون أرطالاً من البرقيات ولم يكن هناك متسع من الوقت حتى

لفضها، وكانت برقيات أخرى لا تزال تصل. ولقد ترك مساعده في المكتب لأن ذراعه هو «نَامَت» من فرط الكتابة.

«لم أر مثل هذا العدد من البرقيات إلا عند الرئيس، هتف القائد العسكري، وكلها تقول الشيء نفسه تهنئ وتتسول أما الآن فأمامنا من هم أفضل، إنهم هؤلاء المنسيون الذين لا يهنئهم أحد ويقبلون والحبال حول أعناقهم لالتقاط الفتات».

تدحرجت «تويانا» ثم تدحرجت، مثل الأشخاص البدينين الذين يتدحرجون بين الناس بدل المشي، حتى بلغت «باستيانسيتو كوجوبول» وهمست تسأله أن يساعدها على استرجاع مشبك الماس «لقد رهنته... منذ زمان حتى إنه لم يعد يناسبني» ألحت عليه مشيرة إلى منبت ثدييها، حيث يمكن للمشبك أن ينقص من عري تقويرة فستانها.

ـ سوف نرى يا سيدتي! تهرب باستيانسيتو قائلاً، حتى الآن نحن لا نعلم شيئاً.

ـ شكراً يكفيني وعدك. سوف أعتمد عليك.

كانت الجباه تتلألأ بحبات العرق ولا أحد يجرؤ على مقاطعة المسيرة خصوصاً وإن وصولهم منتظر في الشركة لكنهم لم يكونوا راغبين في مغادرة الملجأ الذي يمثله مكتب القائد العسكري بالنسبة لهم، فمن ترى سيحميهم من الجموع الصاخبة التي كانت تضيق عليهم الخناق وهم مستندون إلى الجدار، رغم وجود هذا القائد العسكري الخطير نظراً لردود فعله العنيفة؟

أخذت متعة الصداقة وفرحة اللحظات الأولى أثناء تناول العرق والإنشاد مع عزف القيثارة وكذلك الرغبة في مرافقة الدورية والموكب إلى مكتب القائد العسكري تتراجع وكل ذلك الحبور أخذ يتراجع ويترك مكانه لرغبة كل أولئك المجهولين واهتمامهم من أجل أن يكونوا حاضرين مع الورثة ويمسوهم ويحدثوهم بألفة.

وبينما كان القائد العسكري يقرأ برقيات أخرى، اقترب منه كوجوبول ليقول له:

«إذا لم ترسل معنا مرافقين فسوف يقتلوننا.

- يقتلونكم؟ كلا، يمكن أن تتعرضوا إلى كارثة، أو إلى اعتداء... ومن يدري... كل هؤلاء القوم القادمون من كل مكان من المكسيك وكوبا والذين قد يختطفونكم وبعد ذلك... من المسؤول؟ السلطة العسكرية، القائد العسكري الذي لم يوفر لكم ضمانات. أنا أعرف ياعزيزي أين تكن نقطة الضعف لن تخرجوا مع مرافقين فحسب بل سأتولى فضلاً عن ذلك تزويدكم بصاحب رتبة يثابر على حراستكم، وسوف تمكثون في بيوتكم مثل المساجين، ولكن ما الضرر في ذلك؟ بما أنكم لم تعودوا مجرد أشخاص فانين كما كنتم سابقاً قبل أن ينعم عليكم ذلك اليانكي الذي يقال بأنه كان في البداية يجول في المزراع مقهقهاً كالمجنون، والذي لا شك أنه أصيب فعلاً بالجنون بعد ذلك لأنه أوصى بهذه الوصية بطريقة غريبة».

نبه العمدة، باسكوال دياث، إلى أن الوقت قد حان للتوجه إلى مكاتب الشركة حيث ينتظرهم القاضي والورثة الآخرون والشخصيات التي جاءت بالطائرة.

- حسناً، هتف القائد العسكري. وبعكس الأوامر، سوف ترافق الدورية هؤلاء السادة.

خرج العمدة والورثة ومرافقوهم والحشد الذي كان يتبعهم، البعض في العربة والآخرون مشياً على الأقدام.

كان الجو الخانق يجعل الغبار يلتصق بعرقهم الدبق... وكانت الحرارة كأنها متأتية من حريق، حريق شفقي على الساحل، حيث حرارة الطقس وحرارة الأرض تكملان الشعور بالاضطرام الذي يبعثه الأفق المحمر بلون القرمز والأرجوان وبلون الدم ما بين صفوف أشجار الموز وعلى السهل وعلى امتداد الحقول حتى حدود

خط البحر، هناك حيث في سماء المياه الهادئة كانت تومض النجوم الأولى زارعة لآلئ في المدى الأجاج.

وتحت، في تلك الظلال الحمراء كان الحشد يسلك دروباً ومسالك مختصرة كي يوفر على نفسه اجتياز الطريق الرئيسية. كان كل الراغبين في سماع التبليغ بالوصية لأصحابها، يتقدمون، في حين لم يتغير الورثة حتى هذه اللحظة وظلوا كما هم وكما سوف يكونون. «يا لها من ليلة! هه؟...» قال أحدهم وهو يشخر مخاطباً خلاسية وجهها كورقة ذاوية، أنفها أفطس فمها صغير وعيناها مشدودتان إلى صدغيها بعقدتي وجنتيها.

ـ لم أشهد مثلها قط، أجابته، حتى هنالك في المنطقة الأخرى... آه هنالك لم تعوزنا الهدايا... لقد قدموا لوالدي مبلغاً لا بأس به من دون وصية أو ميراث... نعم كان المبلغ محترماً... لوالدي...

ـ لكن... لاشك أن ذلك لم يكن لوجهه الجميل...

ـ جميل! أوه! بابا، جميل... إنه مدفون هنا منذ عامين.

ـ كلا أردت القول إن المبلغ الذي قدم لوالدك لم يكن هدية...

ـ المبلغ...

جحظت الخلاسية بعينها ـ المبلغ... ـ ولكن عينيها كانتا تبدوان وكأنهما تخرجان من رأسها لا لكي تريا، وإنما لتظلا معلقتين في الهواء.

«المبلغ الذي قدمه له اليانكي في «بانانيرا» كان مقابل التخلي عن أرضه، مقابل ذهابه...

ـ ولقد ذهب إلى العاصمة وغادر من هنا. أختي «أناستاسيا» ظلت هناك، في العاصمة... أنا أخت أناستاسيا ولدت فيما بعد، هنا.

ـ ولماذا لم ترغب أختك في العودة؟

ـ لست أدري. أناستاسيا تراسلني دائماً وتكتب لي «أفضل هنا، في العاصمة». أمي لا تجيبها.

- وهل أعطوا الكثير لوالدك؟

- مبلغاً...».

وعلى التلة الرملية المشعة بأنوار المساء المتوهجة، كان يسمع للدواب الليلية الغامضة وقع خطى مشتتة... انزلق «الأخن» والخلاسيّة وقد شبكا يديهما لتفادي السقوط، منفرجي الساقين وجسداهما ممدودان إلى الوراء.

- «هل ترى تكونين سعيدة بخُمس هذا الميراث؟

- مبلغ...».

أخذ «الأخن» يتنشق رائحتها: عرقها ولحمها الصلب تحت قماشها الضيق، مثل مزيج خشب ومعدن. كان يتشممها وينظر إليها. ثم ينظر إليها ويتظاهر بأن قدمه زلت ليحتك بها.

«توبا» لو كان لي نفوذ ذلك الساحر، ريتو بيراخ، لعملت أثناء تلاوة الوصية حتى لا يوجد بدل أسماء الورثة سوى اسم واحد: توبا!

- توبياس!... لي اسم رجل. بابا يقول أنا رجل. رجل بجسد امرأة.

- توبا وارثة أحد عشر مليون دولار!

- مبلغ!...

كانت هناك من دون أن ترى شيئاً وعيناها مشرعتان مثل بحيرتين بيضاوين في وجهها المصفر قليلاً.

كفَّ «الأخن» عن تشمم «توبا» وأخذ يمضغ هالة اللهاث الراعش حولها وهي مغمورة بهواء الياقوت الأحمر، الهواء الذي كان نارياً تقريباً.

«توبا، لماذا الذهاب إلى هناك؟... ثمة أناس كثيرون... مادمنا تقابلنا... مادمنا وحدنا...

- أمي لم ترد المجيء. بابا مات ودفن هنا.

ـ مادمنا التقينا ونحن وحدنا فلنبق لحظة. ولنجلس كي نرى القوم وهم يركضون. يركضون كلهم مثل حشرات صغيرة الحجم ذات رؤوس ضخمة. لا نشاهد منهم سوى رؤوسهم وأرجلهم من الخلف. كلهم يركضون. لماذا؟ الحظ لم يبتسم لهم، فلماذا؟ يذهبون، لأنهم في نهاية الأمر، توبا...».

«كان قد أمسك بيدها وواجهها، محاولاً أن يجعلها تجلس، بينما الرمل ينهار تحت أقدامهما».

«... لأنهم في النهاية، غير راضين بما هم عليه، والعالم الخالي من الحب هو لغير الراضين، إنه عالم الحسد والمال والشهرة والمتعة والسلطة وفضلاً عن ذلك فإنهم يمضون، «توبا»...».

(ترك يديها وطوق خصرها بذراعيه كي يقترب منها أكثر ويحدثها في وجهها تقريباً وهو يتنشقها، كما يتنشق المرء عمق البحر، يتنشقها بأكملها، محاولاً أن يلامس أهدابها بأهدابه ويدني شفتيه من شفتيها حتى تتمكن أنفاسهما الممزوجة من أن تصير زفرة واحدة لاهثة).

«وفضلاً عن ذلك فإنهم يمضون لأنهم سوف يثأرون، لدى أولئك المغتنين حديثاً، من البؤس الذي عانوا منه والبؤس الذي سوف يعانون منه: لأن الورثة قوم مثلهم يا «توبا» وسوف يمثلونهم في الوليمة الفاخرة. وما همَّ إن غدوا، بعد تتويجهم، عمالاً يدويين وأجساداً للأوساخ وشعراً للقمل وصيداً للمستشفى وعظاماً للقبر الجماعي؟ ما همَّ؟ ما همَّ؟

ـ مبلغ...».

أطفأت قبلة على شفتي توبا تلك الكلمة التي كانت ترددها وعيناها محدّقتان ومحدّقتان...

ومن دون أن تفهم شيئاً مما قاله «الأخن» المعلم في المدرسة الابتدائية، أحست الخلاسية بسحر الكلمة الشافية، إذ لا شك أنها كلمة شافية تلك التي جعلتها تتوقف وتمد يديها وتستجيب للقبلة وللقبلات.

الليل في المساء. والنجوم تتلألأ في حمرة السماء. والحشد المزدحم يسرع نحو الساحات المضاءة بمئات المصابيح الكهربائية، مثل بحيرات ضوئية، في قلب الظلمة الحارة كحرارة جذور اقتلعت لتوها.

«توبا!...».

هما الآن وحيدان، على منحدر التلة الصغيرة، فوق الرمل الناعم. كان يغمرها بقبلات جديدة، وهو يتنشقها، ويضمها إليه، إلى قلبه، وكله رغبة في امتلاك كل ما لدى هذا الكائن الناعم، هذا النشيد الحقيقي للذة وللرماد...

«تمزق فستاني... فستاني الوحيد... الوحيد الذي أملكه!».

كانت «توبا» تتمتم وعلى وجهها العذب تشع سعادة اللذة تحت الظلمة اللامتناهية، دون أن تدري لماذا، دون أن تدري لماذا... «تكلم! أوه! تكلم أيضاً! ما ألذ الكلام!» كانت تتنهد محاولة التملص.

«ركبتاك خشنتان جدّاً ياتوبا!...

ـ من الصلاة الطويلة. أمي تصلي كثيراً. وأنا أصلي على ركبتي. بابا دفن هنا...

ـ ولكن ساقيك جميلتان... كأنهما جذعا شجرتي موز حديثَا النمو وناعمَا الملمس...».

أحست توبا أن يد الرجل تمسك بذلك «الشيء» الذي كانت تخفيه ما بين فخذيها. رفعت ذراعيها وتمددت على شكل صليب، وأخذت تنظر إلى السماء.

«توبا، فيم تحدقين؟ هل تحدقين في كنز الإله؟ سألها بزفرة وهو يربت عليها بيده، فيم تحدّقين؟

ـ مبلغ...».

وأخذت ترف بجفنيها فوق العينين البيضاوين وكأنهما بقعتا كلس خارق ما بين أهدابها القاسية مثل عرف مهرة.

«نحن في هذه اللحظة أسعد من ورثة كل تلك الملايين. اليوم نفقد كنوز السماء، لكننا سوف نجدها في الغداة، وكذلك السعادة، وكذلك الأمل، يكفي أن نرفع رأسينا ونشاهد السماء. ثمة سحر سائل بين كل تلك الثروات اللامتناهية وبيننا».

نفذت صرخة الخلاسية المكتومة عبر جنبات الأشجار الصغيرة في التلة... الألم... الدم... حزنها... كآبتها المتفرّدة... تشابك الجسدين، والقبل لتهدئة التشنج... المبلغ، مبلغ كائنين، مبلغ جسدين، مبلغ كَمَّيْن مقدارين لامتناهيين في الحب للحب، من أجل الحب.

* * *

وفي القاعة الرحبة لمديري الشركة ومستخدميها وموظفيها السامين ـ كانت كل الأنوار مضاءة، وكل المقاعد مشغولة وكل الطاولات مجهّزة وعليها لاعبو «البولنغ»(*) الذين وصلوا في آخر لحظة وصعدوا فوقها. وكان الخدم بلا عمل يبتسمون في فرجات الأبواب وحشد المستخدمين الصغار في الأروقة ـ كانت تتلى وصية ليستر ستونر، المعروف باسم ليستر ميد، وهي الوصية المسجَّلة في مدينة نيويورك أمام المحاميين ألفريد وروبرت دوزويل والمصدّق عليها من قبل المجاز ريخينالدو فيدال موتا، في القاعة المذكورة حول مكتب القاضي الشرعي، بحضور أمين سرّه والعمدة ونائب الشركة ووكلائها.

(*) لعبة كرات خشبية.

يوصي ليستر ستونر بكلّ ممتلكاته وأسهمه لوريثته الوحيدة والشرعية، زوجته ليلاند فوستر دي ستونر وفي حالة سقوط أهليتها بسبب الوفاة، فللأشخاص التالية أسماؤهم: لينو لوسيرو دي ليون، خوان لوسيرو دي ليون، روزاليو كانديدو لوسيرو دي ليون، وثلاثتهم أبناء أديلايدو لوسير وروزاليا دي ليون دي لوسيرو، المتوفين حالياً. سبستيان كوجوبول سان خوان، ابن سبستيان كوجوبول ونيكوميدا سان خوان دي كوجوبول المتوفين حالياً؛ وماكاريو آيوك كايتان وخوان سوستنس آيوك كايتان، ابني تيموتيو آيوك كايتان وجوزيفا كايتان دي آيوك كايتان، المتوفين الآن.

«أسكتوا هؤلاء القوم!» صاح ماكر تومبسون كي يفرض الصمت على الحضور الذين كانوا يسدّون فتحات الأبواب والنوافذ. وكان قد وصل البارحة بالقطار مع فيدال موتا وخوامبو، خادمه، ليرافق الأخوين دوزويل إلى المزارع وإلى شواطئ المحيط الهادئ والأماكن التي لقي فيها «ستونر» السعادة والموت إلى جانب زوجته، من دون أن تكون له علاقات أخرى سوى مع هؤلاء الفلاحين ومن دون أن يكون له طموح آخر سوى إقامة عالم تسوده العدالة.

وكان الأخوان «دوزويل» يثيران إعجاب الحضور الذين كانوا يتدافعون لرؤيتهما، وهم يهمسون ويضحكون ويتهكمون. وكان هذان السيدان قد اشتركا، منذ قدومهما إلى المنطقة الاستوائية، في المرطّب: «الغوانابانا» (No more whisky!»... كلاّ! نريد غوا... نا... با... نا») كان كلاهما يجفف عرقه، بل حمام عرقه، بمنديله الأبيض العريض ويستخدمه أيضاً من أجل التروّح. («Tropic!... Tropic!...») وكانا شديدي الشبه بحيث ينضحان بالعدد نفسه من قطرات العرق، وفي آن واحد. («No more whisky... غوانابانا!... مدار! مدار!»).

وبعد أن تلا أمين السّر نص الوصية نادى القاضي الورثة المذكورين أعلاه من أجل التوقيع. وكانوا شاحبين متحفظين

ونافرين. وقّع لينو لوسيرو ممسكاً بالقلم من بعيد بيد مرتجفة، ومن دون أن ينحني كثيراً على الورقة خوفاً من ألاّ يتمكن من تمالك دموعه التي كان يبتلعها.

كانت شهادة وفاة «ليستر» و«ليلاند» مصاحبة للوصية، وملتصقة بها مثل حشرة مسطحة، حشرة غريبة، على بطنها الورقي المدموغ، كانت نهاية تَيْنك الحياتين مكتوبة بجملة وجيزة، حشرة دقيقة وفائقة الشفافية، يبرز منها عالم مذعور من أوراق مرتعشة في أشجار هائجة منذرة وأغصان ملتوية قبل انقطاع جذورها، وسحب غبار تعشي الأبصار وموسيقى إعصار مصمّة، انفجارات أوقيانوسية مكتومة، شفافة وعميقة؛ كان كل شيء يخرج من هناك، من تلك الحشرة ـ الورقة، من تلك الحشرة ـ شهادة الوفاة، دون إغفال حضور ريتو بيراخ («ساكوزان... ساكوزان... ساكوزان!...») ولا القهقهة الصموتة لجمجمة الميت «هيرميينخيلدو بواك»، ولا...

والآن وقد ماتت، بإمكان لينو لوسيرو أن يحدّث قلبه عن حبه لـ دونيا ليلاند... كانت لها رائحة خشب الجوز عندما ينشر، تلك الرائحة التي تبدو وكأنها تلمع عندما تثيرها أسنان المنشار من جذع الجوزة.

«شكراً يا لينو...» قالت له في تلك المرة عندما ساعدها في النزول من على ظهر الحصان، واضعاً يديه مثل عكازين تحت إبطيها، كي تتمكن أصابعه من ملامسة منبت ثدييها.

هل تراها فهمت قليلاً؟

الشيء الوحيد المؤكد هو أنها لم تقل له سوى هذا: «شكراً يالينو...».

ـ العفو، يا دونيا ليلاند... أجابها، بصوت ناعم وقلبه لم يعد قادراً على البقاء في صدره.

ـ أنها سمكة قرش تسبح!...

هذا، حدث في مرّة أخرى. كانت دونيا ليلاند تستحمّ مع زوجها في مصبّ النهّر. وارتمى لينو في الماء وقد جذبه جمالها، وبحجة الخطر الذي كان يتهدّدها، جسّ كامل جسدها.

يا للجبن! لماذا عندما جاؤوا بها ميتة، لم يتشجع على لثم خصلة الشعر الذهبي الفاتن وهي تخرج من الملاءة البيضاء التي كانت تلف جثتيهما، في ذلك الصباح، صباح الوحشة الأزرق؟ بعد الانتهاء من التوقيع، تدخل الحراس المرافقون كي يوصلوا الورثة والسادة إلى قاعة أكل المستخدمين حيث احتفلوا بالويسكي، والمشروبات الروحية والنبيذ والسندويشات. وأخذ مسؤولو الشركة يعانقون أصحاب الملايين الجدد، كما لو كانوا يخدعون أمهاراً لم تعد لها أربع قوائم وتحولت إلى جنس كائنات ذات يدين.

وبعد انتهاء الحفل، خرجوا تحت أنوار الساحات المضاءة، ومنها إلى عتمة الدروب. أشخاص وديدان حباحب مضيئة. وكان للطائرة الجاثمة على مدرج الهبوط المضاء هيئة طائر ضخم من ورق فضي.

12

توجه الحشد، في المجموعات، إلى «سميرأميس» وهو البيت الذي يمكله آل لوسيرو وكان يقع في المكان الذي بناه فيه «أديلايدو» الأب، أول مرّة منذ ولادة لينو وخوان؛ ولقد ظلّ ذلك البيت كما كان رغم مرور الأعوام حتّى مجيء القوم لافتتاحه: فألحقت به العديد من التغييرات والترميمات والتجديدات لصيانته وتوسيعه أو تجديد أثاثه، ليس لأنه بلي، فما من شيء في الساحل يدوم حتى البلى: كلّ شيء يتآكل بسرعة يمرّ، كما الأشخاص، من الشباب إلى الموت، بلا عمر تقريباً.

أما البيت الذي بناه «أديلايدو لوسيرو» بنفسه في سميرأميس ودهن جدرانه بالطلاء الوردي وأسسه بالطلاء الأصفر ـ كما كانت

ألوان لباس روزاليا دي ليون في اليوم الذي تعرف عليها فيه: «بلوزة» وردية وتنورة صفراء ـ فلم يتبق منه سوى المكان. ولقد تم توسيعه تدريجيّاً مع توسع وازدياد أفراد العائلة... واستُبدل السقف والعوارض الأساسية لإضافة طابق آخر، و«في نهاية الأمر» كما يقول خوانشو، استدعت الحاجة إضافة جناحين من أجل أيواء العائلتين: عائلته وعائلة لينو ـ وكان روزاليو كانديدو الأعزب، قد تدبّر أمره كي يسكن معهم ـ لكن كلّ تلك الإصلاحات التي كانت بمثابة هدم للبيت الأول، لم يكن بالإمكان إجراؤها إلاّ بعد وفاة الأم، التي كانت تبكي كلما تحدثوا أمامها عن تغيير السقف، أو الغرف أو الأروقة أو المطبخ.

وبعد الإشعار بالوصية، جاء القوم في مجموعات، إلى سميرأميس، بعضهم يستضيء بمصابيح جيب كهربائية وبعضهم بفوانيس والبعض الأخير بمشاعل جميلة ومتعددة من الراتنج. وكانت دورية الحرس ترافق الورثة وقد سبقهم لينو لوسيرو الذي اختفى بالكامل، وكذلك إخوانه والآخرون، في زحمة العناق والاحتضان حال وصوله أمام باب بيته، حيث كان شلال من الأصدقاء ينتظره على طول درجات السلم...

«هؤلاء السادة اليانكي هم أسوأ الناس طباعاً، قال القائد لـ «تويانا»، لذا لم أشأ مغادرة مكتبي تصوري أنهم لجؤوا إلى الإعلان عن الوصية بطريقة احتفالية. ولكن ذلك كان مسلياً لنا...

ـ لا شك أنك كنت تنتظر أبهة أكثر في الحفلة،... يا سيادة الآمر...

ـ السيادة، يمكنك أن تحتفظي بها لنفسك ياتويانا أنا لست سيد أحد.

ـ إذن... يا مولاي الآمر...

ـ ولا هذه أيضاً. احتفظي بها لنفسك. لأنّ المولى في السماء وهو جالس إلى يمين الأب.

ـ إذن أيها الآمر...

ـ هكذا باختصار، يكون أفضل، لا «سيدي» ولا «مولاي». لم أكن راغباً في أبهة ولا في احتفال. ولو كنت مكانهم لفعلت نفس الشيء في مكتبي، والأمر معروف، لاشك أن ذلك القاضي القصير الذي يبذل كلّ جهده للحفاظ على علاقات جيدة معهم هو الذي أشار عليهم بإقامة الاحتفال عندهم. من دون أن يتمّ ذلك حسب المرام. لأنه كان من المفروض الوقوف دقيقة صمت حداداً على الموصيين بالميراث...».

اقترب الآمر من لينو لوسيرو وصافحه، في حين ذهبت تويانا لمقابلة «باستيانسيتو» الذي سبق أن حدّثته، عند الآمر في موضوع العِقد الذي رهنته.

كانت قيثارات آل صموئيل وآلة «ماريمبا» استجلبتْ من القرية، بالإضافة إلى نصف جوقة سيرك متنقل، تتعاقب كلها على العزف فلا تدع مجالاً للاستراحة. ومع الجوقة جاء ثلاثة بهلوانات من النساء ومهرّجان: كان للبهلوانات أمشاط إسبانية ليس باستطاعة غيرهنّ تحمّل ارتدائها في هذه الحرارة الجهنّمية؛ والمهرّجان هما: «بانانو» و«بانانيتو»(*)، بوجهين أبيضين، وحواجب حمراء وشفاه بنفسجية وآذان صفراء.

«لقد اعتمد العمدة على نساء «السيرك»... لاحظ أحد الصبيان وقد تسلق شجرة جوز هند ليستمتع بمشاهدة الحفلة.

ـ وتلك التي تحادثه، إنها «المنزوعة العظام»، قال آخر.

ـ آه، هاهوذا «الأخنّ» مع «توبا»!... أعلن صوت آخر أكثر ارتفاعاً.

ـ هل الرؤية أفضل هناك في الأعلى؟ سأل أحدهم. لقد بقيت تحت؛ أريد أن أجد جذعاً آخر اتسلّقه...

ـ وذلك الأحمق الذي يضرط هناك...».

(*) موزة ومويزة.

وما بين أغصان شجر جوز الهند، التي كان جوزها يبدو وكأنّما نمت له عيون، كانت عناقيد رؤوس «المتطفلين» تتدلّى، في العتمة أولاً، ثم مضاءة بالمصابيح المنارة حول البيت، وأخيراً بأنوار المفرقعات التي تنطلق في أحشاء الليل الدامس الزرقة.

كان «بولو غامي»، مستخدم البرق، يرمي قنابل المفرقعات الطائرة بعد أن يشعلها من نار «سيجار» أكبر حجماً منه، وعندما تتفرقع، يتهيأ وينصت إليها، ينصت، ينصت، لفك الرموز التي كان الانفجار يرسلها إلى اللانهاية، بلغة البرق.

«هذه عبوة بأبجدية البرق! صرخ قاذفاً بالقنبلة في خليط الملاط العفن المدخن والمشتعل. هكذا نبلّغ زملاءنا في المرّيخ بأن كلاً من هؤلاء الشباب قد أصبح مليونيراً.

- متعدد الملايين! إذا سمحت يا سيد بولو. متعدد الملايين!» صحّح له ذلك الشخص الذي كان يحمل إليه القنابل.

* * *

- thirteen! هتف روبير دوزويل بالإنكليزية.

- «ياس» thirteen! وافقه توأمه ألفريد.

- عمَّ تتحدّثان؟ سألهما وكيل الشركة.

- ولكن، أي صنف من لاعبي «البوكر» عساكم تكونون، ياأصدقائي الأعزاء؟ قال الوكيل. أنا، عندما ألعب لا أسمع ولا أرى ولا أحسّ؛ بأية طريقة تريدون لعب «البوكر»؟

- إذا كان الورق جاهزاً، همس أحد التوأمين، فنحن نفضّل لعبة (الآس).

كانت أصداء حفلة سميرأميس تتناهى إلى بيت الوكيل. وكان بيته في أعلى مكان مرتفع، الأمر الذي جعل السماع أفضل. ومن حين لآخر كان اللاعبون يمدّون أيديهم ليتناولوا الويسكي أو الثلج أو «الصودا» من مائدة صغيرة ذات دواليب، وجاهزة حولهم. وكان

الهواء المنبعث من مروحتين كهربائيتين يبعثر الورق ويعيق اللعب قليلاً. ولكن رغم كلّ شيء، كان تحمّل ذلك الإزعاج المتولد من تطاير الورق أفضل من الحرارة الليلية، تلك الحرارة الشديدة التي توحي بأنّ الأرض بكاملها قد تحولت إلى نار متقدة. كلها مشتعلة.

جمل متقطعة. صرير الكراسي عند استبدال أماكن الجلوس. وصوت دوران المروحتين المكتوم وكأنهما مروحتا طائرة لاتتوقف أبداً. خلط أوراق، توزيع، جمع... ومحرك الثلاجة بدوره يعمل ويعمل بطريقة آلية.

كانت نوبة الحراسة تبدل في منتصف الليل، فتسمع خطوات أخرى، ورجال آخرون حتّى بداية الصباح. لقد كانوا يحرسون مباني شركة «الموز الاستوائية ش.م» المسورة بأسلاك شائكة مع أبواب حديدية لمنع الدخول.

كان عمال من «جامايكا» يغادرون معمل الثلج لتوهم. فوثب كلب أحد الحراس الليليين على أكبر العمال سناً ومزّق ذراعه. فعاد الرجل إلى المعمل نازفاً، ووضع له العمال الآخرون قطعاً من الثلج على جرحه. لكن الدم لم يتخثر مطلقاً. كان يسيل دائماً أكثر فأكثر. أخذ أحدهم يضحك. فسمعوه. كانت الضحكة متأتية من أحد البيوت التي تخّيم عليها ظلال المساء، كانت ضحكة، ولم تكن، لأنها كانت مشوبة بالسخرية. لقد كان «خوامبو السمبيتو» يسخر من امتزاج الدم بماء الثلج، من ذلك اللون الذي صار يشبه عصير التوت أو الرّمان... ذلك الكأس الممتلئ بالدم وقد قدّمه ذات مرّة، إلى الآنسة «أوريليا» في «بانانيرا»، بعد سفر عالم الأثريّات. كان وقتذاك شاباً وشابة كانت ابنة المعلم، والمعلم ذاته لم يكن هرماً بالقدر الذي عليه الآن.

كان معمل الثلج في ذروة إنتاجه. ومن الداخل كان يسمع صوت كوابل المطر الدائم، وتحت تلك الأمطار المكتومة والدائمة، كان ثمة نوع من الصفائح المعدنية تعمل وتدور مثل النّول. إن الثلج، فعلاً،

لايُصنع ولكنه يُغزل. إنه يغزل بخيوط المطر، وبعد هنيهة يتبلور خيط المطر ويندغم سقوطه في ذرات متدحرجة، ثم يشكل دمعة من زجاج، ثم أخرى فأخرى أيضاً، إنها شبكة حقيقة من أنابيب صغيرة تتجمد كي تصنع الثلج.

«أنت الذي كنت تضحك؟ سأل أحد العمال الجامايكيين، خوامبو.

ـ نعم! لماذا؟...

ـ أنت عديم المروءة! لقد آلمتْ ضحكتك ذلك الشيخ الطيب أكثر من عضة الكلب. لقد بكى من سماعك تضحك. لماذا تضحك إذنْ؟

ـ لست أدري، ولتنزل اللعنة على فمي هذه الليلة إن لم أعتذر له.

ـ هاهوذا. من الأفضل أن...

ـ يا صديقي! قال سمبيتو وهو يتقدّم نحو الرجل، أعتذر لأنني ضحكت عندما كانوا يعالجونك!... إلى أين أنتما ذاهبان؟...».

فتح العجوز الجامايكي عينيه ثم عاد فأغمضهما وكانتا مخدرتين بفعل الإرهاق والحرارة وآلام جرحه التي سكنها الثلج، لكنه لم يجب.

ثم واصلا طريقهما. فسأله خوامبو من جديد إلى أين يذهبان.

«سنذهب للنوم، أجاب الشاب عوضاً عن العجوز.

ـ لماذا لا نذهب إلى الحفلة؟ اقترح خوامبو. يبدو أنها مسّلية. سأذهب أنا. ألا تأتيان؟

ـ كلا!».

فافترقوا. وكان العجوز يخلّف وراءه آثار دم حيثما مرّ، ويكاد ذلك السائل الأحمر يُسمع وهو يقطر ثم يقطر ويترشرش...

تحسس خوامبو فمه، خوفاً من أن يكون قد بقي عليه أثر من تلك الضحكة الدنيئة. لا شيء. لم يكن يوجد أثر. يا للجنون؟ ولماذا عسى يبقى من تلك الضحكة أثر؟ لقد ضحك. وهذا كلّ ما في الأمر.

ثم إنه اعتذر. ولكن من المعروف أن المرء يخرج من المعمل متجمّداً رغم أنه يعيش في الساحل. آه! فكّر خوامبو، ما أجمل أن يكون المرء امرأة وينام مع أحد هؤلاء، فهنا كلّ الأجساد تشتكي من الحرارة! ما أجمل ملامسة البرد، البرد واللحم الحيّ، البرودة المنعشة، ولذة الجسد المغسول، لذة الجلد الشبيه بجلد الفقمة! لهذا السبب لم يرغبا في المجيء إلى الحفلة. لاشك أن نساء اليانكي يدفعن لهم كي يضاجعوهنّ. لا أحد غيرهنّ يستطيع التنعّم بترف الحبّ المثلج.

توقف أمام «سميرأميس» كانت الحفلة في أوجها. والأزواج من الذكور والاناث يملؤون الأروقة وهم يرقصون على إيقاع «الماريمبا». وكان العمدة، باسكواليتو دياث، يرقص مع إحدى البهلوانات وهو يضمّها إليه بأقصى ما يستطيع كي يدس ركبته إثر كل دورة. كانت قبعته مطروحة إلى الخلف وهو يدفع بفخذه ما بين ساقي مراقصته، ويوجه إليها، في أثناء ذلك، ضربات خفية بأعلى ساقه على أعلى فرجها.

«إنك تضرب بقسوة على الثور الصغير الوديع! قالت له هامسة في أذنه، وهي مغتبطة بإثارته أكثر فأكثر.

ـ أحاول أن أوقعه في الشرك، ولكن دون طائل.

ـ اضرب بقوة أكثر. فذلك الحيوان الصغير وُجد كي «تثوره» أنت...

ـ أوه! لكن هذا الثور جفول، بالأحرى.

ـ إذن، عليك أن تدجّنه.

ـ نعم، ولكن من الأفضل إرهاقه.

ـ أرهقه، إذن.

ـ في هذه الحالة علينا ضربه بالمنخس.

ـ بإمكاني المضيّ من دون ذلك المنخس هلى تعلم!...».

وتابع «باسكواليتو دياث» مناورته... ولا شك أنه كان يتمنى أيضاً لو كان في مكان ركبته...

ـ أتمنى لو أشطرك شطرين...

ـ آخ! يا «دون باسكواليتو»، هل تريد قتلي؟

ـ بل تقطيعك شطرين حتى نصير عندئذ مثل أوركيديا(*) فحل ومدقّية في الوقت نفسه.

ـ دع عنك الأوركيـ... الأوركيـ... ديا وشأنها ـ وأخبرني بالأحرى أن كنت ستحصل لنا على تذاكر معرض «آيوتلا» التي طلبتها منك!

ـ الاستئثار ممنوع! صاح الآمر عندما رأى باسكواليتو يمرّ مع البهلوانة

ـ انظري إلى هذا الذي يتكلم، أجاب العمدة، ذاك الذي يبدو على هيئة مصاص دماء، مع «تويانا». هيا، ارقص أيها الآمر، ارقص.

ـ شيخوختي لا تسمح لي بممارسة هذا النوع من «الكردحة»!

ـ إذا كان الشيوخ هكذا، فما بالك بالشباب إذن؟... قالت «تويانا» وهي تمدّ ذراعها النضحة عرقاً تحت إبطها الحار، كي تشد كمّ الضابط وكأنها تسمّره بأظافرها... هيّا بنا نرقص، مادام أغلب الناس لا يحبّون الرقص ويفضلون الحديث...

ـ أنا منهم، أنا من الذين يفضلون الثرثرة على الرقص...

ـ يالك من فظّ!

وعادت «تويانا» بطريقة ما، وانكمشت داخل جلدها، عارضة ثمرتي ثدييها، وجيدها المائل جانبياً ووجهها ذا العينين المتّقدتين.

«آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!... آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!... غنّى الجميع معاً، وهم يرقصون. آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!...».

(*) الأوركيديا: (السحلبية ـ أو ـ خصى الذئب) نبات من وحيدات الفلقة.

كان «بانانو»، أكبر المهرّجين سناً، قد أمسك بفأرة وأخذ يدنيها من إحدى القطط، فتأهب السنّور بنظرة إمبراطور لتسلّم الهدية، في حين كان الحيوان الصغير يقوم بالمستحيل كي يفلت من بين يدي المهرّج الذي كان يضغط بأحد أصابعه على قلب الصغير ويحسّ بالخفقان السريع المتولد من رعب الموت. وعندما يترك القط الفأرة قليلاً وهو متيقظ العينين والشاربين والبراثن، يسحب المهرج الفأرة وهو يضحك كالاحمق من موائه الملح ووثباته خلف فريسته وتحريكه لذيله وكأنه يعبّر عن مدى انتظاره النّهم.

«آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!... تابع الحضور في الحفلة. آي تيرانا! تيرانا تيرانا!...».

وقف خوامبو وسط الحرس وكلّ المتفرجين على الرقص. أمّا الجنود فقد كفوا عن التفرّج. وكان أغلبهم جالساً أرضاً، وضاغطاً على بندقيته بين ركبتيه، لإراحة يديه. في حين كان الضابط هو الوحيد الذي لا يشيح بعينيه عن رئيسه. ولقد جيء لهم من المطبخ بأكواب من «التافية»(*) وسندويشات لحم؛ وجبن وخضار ما أطيب «التافية»! أمّا قطع الخبز الصغيرة فقد احتفظوا بها للتخلية.

فرّ القط ماسكاً الفأرة بين أنيابه بلطف، بينما مكث المهرّجان يتبعانهما بالنظر متظاهرين بالبكاء.

«آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!... آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!...».

كان الورثة حاضرين... وغائبين في نفس الوقت. كانوا يحتلّون مكاناً دون أن يحتلوه بل كانوا يفرغونه، إذا أمكن القول، بحضورهم القلق، الغائب، وغير المكترث بكلّ ما كان يجذبهم في السابق وفقد أهميته الآن، ومنذ صباح هذا اليوم.

«إنهم في منتهى الفظاظة! كرّر أحد المدعوين القول أمام

(*) شراب مسكر.

خوانشو لوسيرو، مشتكياً من رجال الجمرك. لقد خلعوا بابي قائلين بأنهم دائماً يجدون ما يبحثون عنه.

ـ هذه هي ذريعتهم! تدخّل أحد المستخدمين، لم يعد عليهم البحث عن معامل سرّية لتقطير العرق.

ـ طبعاً، تلك ذريعة. أنهم يبحثون عن السلاح. يا للشيطان من الذي أوحى لهم بأن ثمة أسلحة مخبأة.

ـ كيف! من؟... إنه الخوف الذي يتملكهم. وهل تظنهم لايدركون أنهم يسيؤون إلينا عندما يهملون ثمارنا ولا يريدون حتّى النظر إليها؟ إنهم لا يكترثون بها يتركونها، وهذا كلّ ما في الأمر. إنهم كلاب. أنا، مثلاً، أيتها القديسة العذراء! أنا الذي لا أبكي بسهولة، عندما أتيت في ذلك اليوم بأقراط الموز إلى القطار، أحسست كما لو أن رصاصاً ذائباً يسيل من عينيّ، عندما أدركت بأن المراقب لم يكن يترك لي الوقت حتّى لإظهارها له... كانت ثماري برازاً، في تلك الساعة. ولهذا قلت لأبنائي أن يذهبوا ويهاجروا ويتخلّوا عن المزرعة... آه! وأنت يا خوانشو لوسيرو يمكنك الآن أيضاً أن تغادر!... لقد مكنتك الحياة من السفر بأجمل تذكرة، التذكرة التي تفتح حتّى أبواب السماء: الإله المال!...

ـ لست أدري إن كنّا سنسافر، أجاب خوانشو

ـ إذن إذا لم تفعلوا ذلك، فأعطونا ما نسافر به نحن!

ـ لأننا إذا ما بقينا هنا، مع المال، يمكن أن نزعج اليانكي.

ـ الذي يملك المال، ليس في حاجة إلى الصراع يا خوانشو! قال أحد الحضور وقد اقترب منهم بعد أن سمعهم من مكانه حيث كان يجلس جانباً مع مجموعة أخرى. الصراع هو للفقير أما الغني المليونير فليس عليه أن يغتمّ. إنّ الآخرين هم الذين يصارعون من أجله... مثلما هو حال مرافقيكم من الجنود المشاة الذين بدؤوا يصارعون من أجلكم...

ـ ينبغي استجلاء كلّ ذلك فيما بعد، بتّ خوانشو في الأمر، لم نأت اليوم لمناقشة أشياء جدية، وإنما لنتسلّى قليلاً. كفى اعتراضات!...».

ثم شق طريقة كي يذهب للمطالبة بكؤوس أخرى.

وكان «باستيانسيتو كوجوبول» يقرأ مع مساعد موظف البرق، البرقيات التي كانت لا تزال تصل. وكانت تتضمّن هدايا: سيارات، خزنات، فونوغرافات، آلات كاتبة، أثاث، بيوت، أراض، شاليهات، بطاقات سفر...

«ولكن ماذا يظننا نكون هؤلاء القوم؟ قال للمستخدم. إنهم يهدوننا كلّ شيء ماعدا أدوات الحراثة والجني، والبذار... (ويقهقه) ها! ها!... أنا في سيارة!... أنا في قصر ولي خزنة! ها! ها! لو أنهم يعرفون أنّ ما أفضّله هو الغراموفون!... هذا، نعم، سوف أشتري منه واحداً ببوق ضخم، ضخم!

ـ لا تهزل، يا «دون باستيا»! اعترض مساعد البرق بخجل.

ـ ذلك أنه لم يعد «دون باستيا»، وإنما «بيستيا»(*)، تدخل أحد مدّعي الجمال ولون بشرته بلون جذع الأرزة، وشعره أصهب، وهو صديق حميم لـ «كوجوبول». ينبغي إضفاء بعض سمات التبجيل على هذا الصغير... قل له مثلاً «دون بيستيا»(**)...

ـ أنا، كلّا! قال المستخدم، ففي ذلك قلة احترام.

ـ ومنذ متى صرت تحترمه، أنت؟ منذ أن عملت بأنه صار مليونيراً!... ما أشد بؤسك أيها الوضع البشري! إذن لأنه يملك دولارات، ينبغي احترامه... لأنه تغير. لم يعد هو نفسه... بل صار آخر... صار وعاء مقدّساً! كائناً لا يمس! حقة القربان!... القربان المقدّس!... انظر: ها إنني ألمسه رغم ذلك. إنه من لحم وعظم!...

(*) حيوان، بهيمة.

(**) السيد البهيمة.

ـ المؤكد أنك شبه مجنون! قال «باستيانسيتو» وهو يسحب ذراعه التي كان يقرصها صديقه الأصهب.

ـ ماذا تدّعي؟

ـ إنك ثمل سكران!».

فتوجّه الرجل، بعد أن تملكته حازوقة، نحو جماعة أخرى:

«مسرور! نعم، بالتأكيد! ولكنني لست سكران. ينبغي التمييز!...».

لكن لم يجبه أحد من تلك المجموعة التي كانت تتكون من «خوان سوستنس» و«آي كايتان» وزوجته دومينغا، ولوث زوجة لينو لوسيرو وآخرين، فعاد يحوزق من جديد وهو يترنّح قليلاً...

«إيه إذن! انظروا! تابع «كوجوبول»، بينما كانت تقترب منه زوجته «غوديليا» وابنته البكر «سوكورو»، في محلّ هذه النفاية من البرقيات، لا يهدوننا، لمساعدتنا، ولو ممشاطاً أو آلة لطحن الموز، أو مفك براغ. كلا، ولا حتّى هذا! مفك براغ لفك براغي شعورنا... الآن وقد... غراموفون مزود ببوق، هذا ما أريد، أنا، بوقاً مثل بوق يوم الحساب، لكي، عندما يرن مدوّياً، يقع جميع الناس، من دويّه، على مؤخراتهم...».

وفي حين كانت المرأتان تقرآن البرقيات، عاد هو إلى إلحاحه قرب مساعد موظف البرق: ولا حتّى محراث، ولا آلة لنزع اللبّ ولا طاحونة ولا ممشاط، ولا شيء من شأنه أن...

ـ ولا شيء من شأنه أن يحط من قيمتك، قاطعه المساعد، الذي ضاق ذرعاً بتلك اللائحة من الطلبات. ربّما أكون مخطئاً، لكنني أرى إنه ليس من الممكن إهداؤك هذه الأشياء التي لن تحتاج إليها في المستقبل، لأنّك، مع هذا الإرث، لن تواصل غرس الموز وزرع الذرة وتربية الأبقار في الساحل. وحتّى إذا، واصلت، فلسوف يكون ذلك على طريقة اليانكي الذين يأتون لمراقبة مستخدميهم وهم يعملون، ثم يذهبون.

ـ يذهبون بعد أن يتركوا الإزعاج... عاد السكير الأصهب إلى القول، وكان لا يكاد يتماسك في وقفته إلاّ أنه يتوصل إلى ذلك في الأخير. لأن اليانكي لا يقبلون إلاّ من أجل هذا: التخلّص من ضجرهم، ولو لم يكن الرحمن يرسل إعصاراً من حين لآخر، لكنّا قد متنا جميعا ومنذ زمن طويل بالسوداء، منذ زمن طويل. أعتذر عن هذه الكلمة الصغيرة، إيه؟ ماذا قلت؟ السوداء!...

ـ إنك من تلك العائلات التي ينتمي كل أخ منها إلى حزب مختلف، ولكنهم يظلون دائماً مع بعضهم رغم ذلك. أنت تهاجم اليانكي وابن عمّك، القاضي، يدافع عنهم. وهو لم يأت إلى الحفلة خوفاً من أن يسمع كلاماً يمسّ بسمعة «شركة الموز الاستوائية».

ـ اسكت يا «باستيان»، لا تحدثني عن ذلك النّائب، نائب موظف البرق الأبله!

تظاهرت «دونا غوديليا» بعدم السماع وانسحبت خلسة مع ابنتها «كوكيتو» والبرقيات (كومة من البرقيات التي أتت بها) وكذلك لتفسّح الطفل الذي كانت حبلى به.

كان «ماكاريو آيوك كايتان» يضحك للنكات السفيهة قليلاً وكان يرويها له عجوز ذو شاربين أشيبين، وجمجمة محلوقة. وكان ماكاريو يرى بأنه لم تعد ثمة حاجة للعمل في الساحل، أو في أي مكان آخر، وإنه سوف يستأجر العجوز صاحب الشاربين والمحلوق الرأس بالمجزّ، كي يضحكه بقصصه الطريفة...

«استئجار! قال الرجل، متظاهراً بأنه أُهِين. تستأجرني، أنا، العجوز «لاريوس بينتو»! تستأجرني؟... (كان يكشف عن صدره الهزيل اليابس ويشد شاربه بأصابع شيخ ضعيفة). إنما بسبب ذلك جئت من العاصمة، وغادرت المدينة، بعد أن درست كثيراً: كي لاأؤجر نفسي. لقد كنت أجده مشيناً ذلك الدور الذي يشبه دور الدابة، سواء أكان دور الموظف الحكومي أو المهني... إن مجرد فكرة تأجير نفسي تجعل قلبي ينخلع، وبدلة الرجال الأحرار، هي البدلة

الوحيدة التي يمكننا ارتداؤها. لقد جئت إلى الساحل مباعاً آه! ياللرفاهية! مباعاً لشركة أجنبية. إلى الشركة التي باعوا لها البلاد دون أن يبيعونا نحن أيضاً، الأمر الذي يبدو لي عملاً جائراً. لم يكن بإمكان «لاريوس بينتو»، أن يكون أقل قيمة من الوطن، ولهذا بعت نفسي».

كانت مجموعة من الحضور قد تحلقت حوله، وهو يتابع:

«كلا، يا رفيقي وصديقي «ماكاريو»، لا يمكن استئجاري، في ذلك إهانة لي. أنا، ينبغي اشترائي. العاهرات يؤجرن أنفسهن، أما غيرهن فيتم اشتراؤهن».

حيَّت مجموعة من الضحكات تلك الخطبة.

«أن أكونَ عبدك، يا «ماكاريو»، يا لها من سعادة! إنما يعني ذلك الكف عن أن أكون عبداً لهؤلاء اليانكي الملعونين... عفواً! لسادتي الإلهيين... الذين قيدوني إلى مزارعهم بحاجاتي ونقائصي: الحاجة إلى الأكل ونقيصة النوم! أنا ملك لهم وسوف أظل دائماً ملكاً لهم، مالم يدفع لي «ماكاريو آيوك كايتان» ما يعادل ثمني، مالم يشترني... في السوق، ويدمغني! يالها من مشكلة! لماذا عدم التكلم بصراحة والاعتراف بأن العبيد يتم دمغهم؟».

كانت المجموعة المحيطة بالعجوز المسلي قد أخذت تزداد عدداً.

«منذ وجودي هنا ـ ولن يصدقني أحد ـ وأنا سعيد: لأن العبودية هي مرحلة الأمومة، التي يبلغ فيها الإنسان ذروة السعادة. ولكن، بطبيعة الحال، شرط أن يخضع لها، وينسى القوانين التي تحميه من المستغلين، ويرضى بأن تظل تلك القوانين مخطوطة على الورق ولا تخرج منه، فلا يطالب بتطبيقها: لأنه حينئذ، لن يبقى عبداً وحسب، ولكنه يعرض نفسه أيضاً لأن يصلبه أحقر العسكريين.

ـ عاش الأحرار! صاح «بولو كاماي» الذي لم تسله خطبة «لاريوس» مطلقاً.

- عاش الرجال الأحرار! وجود العبيد لا يعني انتفاء مكان للرجال الأحرار. غير أن هؤلاء الأخيرين، سوف ينظر إليهم على أنهم فاسدون، كما هو حال السكيرين المدمنين اليوم، وسوف يشار إليهم بالبنان ويقال عنهم: هل ترى هذا الرجل: إنه رجل حر مدمن خمر».

تضاعفت القهقهات. شق «كاماي»، وهو رجل قصير القامة وصموت، طريقه حتى بلغ «لاريوس».

«أيها العجوز الكلبي البذيء! قال له. إن الذين سيشترونك، كما بعت نفسك لليانكي، هم الآسيويون!

- «كلبي»، أوافق على ذلك. أفضل أن أكون كذلك على أن أكون مهرجاً».

وانقض «كاماي» عليه.

«لا، يا «بولو» تدخل البعض. ليست خصومة...

- الخطر الأصفر؟ قال «لاريوس». أفضّل السير بذنب يشبه ذنب الصينيين!

- ولكن، لا، يا بولو. إنها مزحة. ومن عسى ترى يريد أن يكون عبداً؟

- هذا! أخذ «كاماي» يدمدم وقد أمسكوا به من أسفل ذراعيه وأجبروه على «مارش أريار» كما يقول سائقو السيارات في رطانة المهنة.

- الواقع إننا كذلك! صاح لاريوس

- أحتج! اتركوني، كي أبرهن له، لهذا الشخص، إن كنت عبداً أم لا! «بولو كاماي» ليس عبداً!».

تدخل السكير الأصهب متوسطاً:

«أعطيك زوجة، لا أعطيك أمَة!».

ثم معتذراً:

«المعذرة! أعتذر على مقاطعة العرس!... ولكن أين هي العروس؟».

وأخذ ينتقل من «لاريوس» إلى «كاماي» محاولاً أن يحزر من خلال بدلتيهما من الذي كان يرتدي ثوب الزفاف (كان من السكر بحيث يصعب عليه التمييز...) وهذا الالتباس أصلح ذات البين حتى أن الخصمين شرعا يضحكان.

«سوف نعيد الكرة ثانية!... صاح «ماكاريو» الذي كان يمسك بهما متعانقين... فليذهب أحد الحاضرين إلى قاعة الأكل ويطلب تزويدنا بجولة أخرى!

ـ لا أعترض! قال السكران.

ـ عمَّ لا تعترض؟ سأله «لاريوس».

ـ على إعادة الكرة!».

تقدم إلى الوراء، لأنه كان يخطو إلى الخلف عندما يمشي، أكثر مما يخطو إلى الأمام: وذلك دون أن يتأخر بما يعادل خطواته، لأنه كان يتقهقر، إذا صح القول، من الأمام... وأثناء انصرافه إلى هذه المناورة غير الثابتة، كان يقول:

«أفرغ الكوب... متذكراً أمه... وأخذ يبكي. أما أنا، بما أنه ليس لي كوب ولا أم، ولا أم ولا كوب، ولا ذكرى طعمها مر المذاق، لم أكن أبكي... أوقفوا الليل، هذا أمر في منتهى الصعوبة... عبثاً مددت ساعدي إلى الأعلى هناك، ما من وسيلة لإيقافه!... يبدو ذلك في منتهى السهولة، ولكن، لا، ما من وسيلة!... سأخرج... سأحاول منعه من أن يغدو صباحاً... لا تبذل الجهود سوى من أجل أشياء سخيفة... لماذا لا تواجه هذه الدائرة السماوية ذات الساعات الليلية بإرادة حديدية؟...» وأخذ يغني وهو ينزل الدرجات نحو الليل:

«آي! تيرانا!... تيرانا!... تيرانا!...».

لم يبق من المشاعل التي أضيئت حول سميرأميس سوى جمر

ورماد. وكان المستخدمون والشبان والصبية لا يزالون ماكثين بين أغصان أشجار جوز الهند، للاستمتاع بالحفلة... أيها كانت جوزات هند وأيها كانت رؤوساً؟... وفوقهم النجوم... أيها كانت الملائكة، وأيها كانت النجوم؟... الليل لا ينطفئ... نجمة الصباح... نساء العمال الليليين، يحككن قدماً على الأخرى. في انتظار الرجل الذي ذهب مريضاً إلى عمله. يلتهب من الحمى. وتنفسه الملوي كتنفس هيكل عظمي بارد. إن أي «سيرونو» هو دائماً جثة طيلة النهار. فلماذا يستخدمون الجثث؟... إنني أطالب بهم!... هم الذين عظامهم شفافة من الجوع، وعيونهم قطنية كليلة، وأفواههم ذات أسنان تشبه مشواة تشوي الصمت... وانتظار رغيف!... أعيدوا لي أمواتي!...

وعبر المزارع، حيث الحياة هي الإفراط بذاتها في فيض عنف لا حدود له، حتى الصدى لا يستجيب، لا أحد يستجيب للموت، عدا بضع آلات، هناك. بضع آلات صغيرة جداً بين أيدي العمال الليليين، لأن كلاً منهم يمثل رقماً، يوم عمل، عدداً...

«توبا!».

رنّ الاسم في العزلة. وبقي وحيداً. كان هلال من لؤلؤ يرتفع من الضبابات الدافئة بفعل رمل الشطآن حيث يغلي بحر المدار، ضبابة سخّنها الرمل واخترقتها الريح، ضبابة تَتَهَافَتُ على أجساد النساء اللواتي مثل توبا.

«توبا!...».

في أية رقعة من الهواء، في أيّة ثانية من الزمن، في أيّة لحظة من أبديّته كان يوجد خوامبو السمبيتو حين سمع هذا الاسم الذي نطق به الأخنّ لتوّه قريباً من الحرس المرافقين بين ضوء الحفلة المنتشر في الفناء وظلّ شجرة غواورومو.

«توبا!».

لغز الوجود أخاً وأختاً. كان قد صار أخاً لتُوبا قبل أن يكون هو ذاته. لم يكن يعرفها، لم يرها قط، غير أنهما خرجا من العالم

المائي نفسه، ذلك العالم الخفيف القليل العذوبة، ومن قطن اللحم نفسه، مثل دودتين، ذلك هو الألم الذي يتذكره الآن، وهو يسمع اسم أخته توبا. لغز الوجود أخاً وأختاً!...

وارتجف، كما لو كان سيمرّ بنوبته العصبية. كان الأخنّ ممسكاً بيدها كلها وعيناها مبيضّتان ومعطف مرمي على عجل فوق كتفيها مغطّياً أسفل ركبتيها، وقدماها في زوجي حذاء نعلهما من مطاط، وذراعاها الطويلتان، ذراعاها اللامتناهيتان تائهتان في الظلّ الذي يداعب جسدها، ذلك الظلّ الذي يشبه أيضاً بالنسبة له السجن الأمومي قديماً. لم يكن يعرفها. إذ إنّهم «أضاعوه» في الغابة كي يأكله النمر. أبواه فعلا ذلك!... ملأ لعابٌ مرٌّ فمه.

غير أن توبا عرفتْه. كان يشبه تلك الصورة القديمة التي بعثت بها إليها أختها أناستاسيا، وكتبت في أسفلها: «إنه أخوك خوامبو. وهو مفرط في الغطرسة. لا يبادلني الكلام. ولا أنا أبادله إياه» حدّقت عيناها، عينا الدمية السوداء، عيناها البيضاوان اللتان من كتان أبيض، ببؤبؤيهما السوداوين في وسطهما، حدقتا في وجه الخلاسي. مدّت إليه يدها بفرح بعد أن تركها الأخنّ، وقد أراد الاعتراض. إلاّ أن توبا منعته من ذلك. «أخي البكر، أوضحت له. أخ مولود في ساحل آخر». ثم أخبرت خوامبو وهي تمدّ إليه يدها:

«والدة حية. أب مات، مدفون هنا».

كانت الكلاب تنبح في البعيد. وكان عواؤها يرافق ضجة عجلات العربات التي كانت تؤم أماكن العمل.

- أين الوالدة، ياتوبا؟ أريد أن أطرح عليها سؤالاً.

- هناك! البيت... وأشارت إلى الليل... بيت هناك! هذا السيد، صديق... وقدمت له الأخنّ.

- جوفنتينو رودريغيث، في خدمتك! قال الأخير، ماداً يده إلى خوامبو.

ـ أصافحها بكل سرور، يا عزيزي. يد ناعمة. يد الصداقة ناعمة. ثمة أيد، عندما تمدّ لأول مّرة، تبدو مملّحة.

ـ لا وجود للدموع في يدّي. لا أحد بكى بسببي، قال جوفنتينو.

ـ هكذا أفضَل، أليس كذلك؟ توبا؟...

ـ وإذا ما ملأت امرأة باطن يد رجل بالدموع، أضاف جوفنتينو، ينبغي أن يطلب منها بعد ذلك أن تقبّلها، كي يذهب الملح وتعود إليها نعومتها دائماً.

ـ وإذا بكى المرء وحده على يديه؟ تدخّل الخلاسي قائلاً.

ـ خوامبو، سوف تقبلهما لك أمّي، وتصيران عسل قصب...

ـ لقد هجروني في الغابة كي يأكلني النمر.

ـ أوه! ليس ذلك صحيحاً يا خوامبو! لقد أهدوك إلى سيد أمريكا الشمالية.

ـ رجل أسوأ من النمر، جو ماكر تومبسون شرّ من النمر... لقد صار اليوم مسنّاً، أمّا قبل... (ورسم الخلاسيّ إشارة الصليب) أين الوالدة يا توبا؟ السؤال يحرق شفتيّ. أنا خوامبو السمبيتو، الذي احترق من أجل حياة السؤال نفسه.

ـ إذن فلنذهب معاً، يا خوامبو، إلى حيث توجد ماما. بيت هناك. سيد جوفنتينو دخل حفلة... سيد جوفنتينو رقص مع امرأة مصبوغة. نحن أيضاً دخلنا، دخلنا هنا وسيد جوفنتينو عاد من أجل توبا تبوسه. لا تعترض...

انطلق الخلاسيان عائدين. وكانت الكلاب تواصل النباح بملء حناجرها وبسرعة لأنها كانت تقتفي برؤوسها إيقاع دواليب عجلات النقل.

أخذ الأخنّ ينظر إليهما وهما يبتعدان، دون أن يقول شيئاً، وكأنما أصابه ذلك الكلام السحري بالشلل. ثم تسلق درجات «الحفلة» بحثاً عن زجاجة «كحول».

لم يحتس زجاجة واحدة من عرق قصب السكّر، بل ثلاثاً. فكان يسلّم ويضحك دون أن يتمكّن من إبعاد صورة توبا عن نظره. توبا التمثال، توبا التي أغواها، برائحتها الزنجبيليّة ونهديها الحجريين، وبطنها الأملس. توبا التي كانت تمدّ ذراعيها إلى النجوم في حين كان هو يداعب فخذيها. توبا ما بين ذراعيه، ذراعي رجل نزق، يطالبها بأن تستجيب لقبلاته من دون كلل. توبا بركبتيها المتصلبتين من طول ركوعها أمام تماثيل المذابح. توبا ذات الشعر الشبيه بغليان دم أسود، مزبد، متقصّف تحت الأسنان كعسل متيبّس. توبا بأظافرها المعفّرة بالرماد كما أظافر الموتى.

«برافو، يا باسكواليتو دياث! قال للعمدة الذي كان لا يزال مع البهلوانة.

ـ يا للشيطان من أين تراك خرجت يا جوفنتينو؟

ـ من الليل...

ـ من أرسلك؟

ـ أرسلوني أسألك إن كنت تريد أن تعطيني فَضْلة ولو ضئيلة...

ـ ذلك يتوقف عليها هي إذا...

ـ حسناً، قاطعه جوفنتينو، إذا كانت راغبة في ذلك، ويبدو عليها أنها راغبة، نرقص...

ـ إذا كان هذا لا يزعجك يا سيدي، سأرقص مع الشاب، قالت البهلوانة، متظاهرة بإغراء جوفنتينو، كي تغيظ العمدة الذي كان غيوراً، وربّما أعطاها بذلك التذاكر من أجل السفر إلى آيوتْلا».

وعندما شرعا يرقصان، سألته:

ـ ما اسمك؟

ـ جوفنتينو رودريغيث.

ـ اسم جميل!... ألم تأت إلى الميناء من أجل الحفلة؟

ـ كنت أمين صندوق أوركسترا «أزول بلانكو» ثم تجولت قليلاً هناك والآن سأمكث هنا كمعلم مدرسة.

كان يقول ذلك ويدوس قدم البهلوانة دون تمييز. فتركته فوراً. أمّا العمدة الذي كان ينظر إليها ترقص بعينين مشتعلتين غضباً، ومنْخرا أنفه الأحمر يتنفسان كمنفاخ حداد، فقد هرع إليها حالاً. حذاء، قدم، أرضية ما هَمَّ؟ تعلقت وهي تعرج، بذراع الدون باسكوالينو، مستأذنة من جوفنتينو بانحناءة من رأسها.

ـ ما الخطب؟ سألها العمدة. هل أساء احترامك؟ هل كانت له رائحة كريهة؟

ـ معلم مدرسة! هل تدرك معنى ذلك؟ أَمِنْ أجْله كنت لأستسلم!... معلّم مدرسة! أن أجيء إلى الساحل بحثاً عن مليونير وأجد معلّماً، تلك ثالثة الأثافي. يا لك من خبيث صغير! تتركني أذهب مع هذا الشخص! لقد كنت تعلم جيداً أنه معلّم!

وكما لو كانت تريد التحدث في موضوع آخر:

ـ متى أحصل على التذاكر؟

ـ غداً، بالتأكيد.

ـ اليوم إذن، إذ إن النهار بدأ يطلع.

ـ ولكن أولاً وقبل كلّ شيء، ينبغي أن تعطيني بضع قبلات صغيرة.

ـ وإذا لاحظت لكم بأنكم نسيتم أن تقبّلوني...

هكذا كانت تخاطبه أحياناً دون أن ترفع الكلفة. فعندما تكون في وضع دفاعي، تقول له أنتم، وعندما تمر إلى الهجوم بخصوص قضية التذاكر، تستخدم «أنت».

ـ كم شخصاً قبّل هذا الفم الصغير؟

ـ الكثير! ولكن أتى عليهم النسيان الآن. إلا أنه ليس من اللّطف من جانبك أن تدع عينيك مفتوحتين عندما تقبّل. إذ ينبغي الاختفاء عند التقبيل، ينبغي إسدال الجفنين.

ـ هذا ما كنت أفعله، لكنهم، ذات يوم، اختلسوا قلمي منّي. ولن يقنعني أحد أن ذلك لم يتم أثناء قُبلتي...

ـ حذار مما تقولون! إنكم تعاملونني كلصّة!

ـ لصّة؟ نعم. لأنّك سرقت مني قلبي! قبلة صغيرة؟

ـ كفى يا دون باسكواليتو، إنهم ينظرون إلينا. وحضرتك العمدة.

ـ قبلة صغيرة! قبلة صغيرة!

ـ هكذا، «على الماشي»؟ أنا لست فتاة!

ـ نقرة منقار صغيرة إذن...

ـ أنا لست طائراً، حتى يكون لي منقار...

ـ قبلة...

ـ بكلّ سرور. قبلة طاهرة على جبيني الحالم.

ـ كلا، الطهر لا أريده.

ـ إذن سوف أعطيك فيما بعد قبلة كما تشتهي. أمّا الآن فسنذهب للرقص. لا يروق لي البقاء في زاوية في حفلة، وخصوصاً مع رجل... ألا تعجبكم هذه الفالس؟ خذوني بين ذراعيكم... ذلك أفضل من القُبل... وقضية التذاكر من أجل السفر إلى آيوتلا، إنها لم تسوَّ بعد...

ـ غداً.

وعادا إلى الرقص.

كان بولو كاماي، عامل التلغراف، يرقص مع البهلوانة الأخرى منذ فترة. ولقد افتكّها من أحد آل صموئيل. وهي تحبّ القيثارة، لكنه رويداً رويداً وبفضل السهولة التي تنتقل بها المرأة إلى الاهتمام بما يفعله الرجل الذي يحدّثها عن الحبّ، تمكن من جعلها تهتمّ بالأبناء الآخرين الذين كانوا يبدون ما بين الأعمدة وكأنهم أوتار قيثارة مشدودة فوق المزارع.

ترك كاماي مراقصته بين يدي الآمر، الذي جاء يطلب منها أن تحتسي معه قدحاً.

«أتركك معها وسوف أعود، قال له. ولقد رسم خطة لإفشال لعبته وقتل «شاهه»، ثم ذهب يبحث عن جوفنتينو رودريغيث حتى وجده، كان يتحدّث مع دونيا لوبي، زوجة خوانشو لوسيرو...».

عندما عاد بولو كاماي إلى مراقصته، لم يشأ الآمر في البداية أن يتخلّى عنها، لكن بعد أن وعدته بالعودة إثر انتهاء الفالس الذي كانت تعزفه «الماريمبا»، تركها تذهب ولاشك أنه كان سينتظرها لولا أن جاء روزاليو كانديدو لوسيرو يدعوه للاستماع إلى أغنية أحد آل صموئيل.

ـ آه! نعم!... قالت البهلوانة وعيناها تلمعان في وجهها الأنثوي المتهتك والمبتذل... كما هي حال المليونير الذي ورثه سادة هذا البيت...

ـ أنت شديدة الحساسية...

ـ كيف عرفت؟ أنت مفرط في الذكاء! لا أحبّ ذلك.

ـ لأنّ ثمة علاقة بين الدغدغة والزغب. ثم إن لك فماً جميلاً جداً.

ـ ولكن حدثني عن شيء آخر، حدثني عن هذا السيد. هل هو مليونير يريد أن يتظاهر بأنه معلم مدرسة؟

ـ أوه! كلّ شيء ممكن!... لقد كان «كوسي» أقلّ شأناً منه عندما كان يجوب هذه المزراع بائعاً أدواته التافهة «من أجل الخياطة»، مرسلاً تلك القهقهات الحادة والحانقة، مثل النّباح، الذي يُسمع من بعيد.

ـ هل سبق لك أن سمعته؟

ـ أنا، لا. ولكنْ هناك أناس يتذكرونه...

ـ ولقد كان مليونيراً كبيراً...

ـ ولهذا السبب،، أشعر أن هذا السيد... لا أجرؤ على التأكيد ولا على التخلّي عن واجبي، ولكن...

ـ تكلّم! ألا تثق بي؟...

ـ لقد وصلتني إليه رسائل غريبة مثيرة للفضول، برقيات يستشيرونه فيها لمعرفة إن كان يرغب أم لا يرغب في بيع أسهم وسندات، لا شك أنها ملكه...

ـ وما مصدر تلك البرقيات؟

ـ من نيويورك. وحتّى تلك الطريقة في التكلم من الأنف...

ـ يتكلم وكأنه يأكل الرسائل...

ـ يقول إنه كوبي؛ ولكن مَنْ عساه يفك لغزاً بمجرّد افتراضات؟

ـ لماذا لا تقدمه لي؟

ـ بعد هذه الفُكستُروت(*)... إنك ترقصين الفوكس جيداً! بل إنك تجيدينها تماماً.

ـ ولكن الآن أفضل. هيّا!... إنه في فتحة باب قاعة الأكل... بحجّة الذهاب لتناول كأس... تقدمه لي ثم نشرب معاً، لأنّي أنا الأخرى عطشى.

ذكرتها أختها وهي بين ذراعي العمدة، في حين كان كاماي يقدّم لها جوفنتينو رودريغيث، بأنّ الوقت تأخّر وقد حان وقت العودة.

«الوقت متأخر؟ تريدين القول: مازال باكراً!... صحّح عامل التلغراف ساخراً منها وهو يطلع على الوقت في ساعة معصمه.

ـ سأرقص مع السيد، ثم نذهب...

ـ سترقصين مع هذا؟... سألتها مراقصة العمدة، وقد بدا عليها الضيق.

(*) fox - trot رقصة أمريكية متقطعة.

ـ ينبغي ألاّ تعرف أختي من تكون أنت، أسرّت البهلوانة المتطفّلة إلى رودريغيث وهي تراقصه... وعندما لم تسمع جواباً ابتعدت عن مراقصها، دون أن تدعه رغم ذلك، كي تراه جيداً وجهاً لوجه، كأن الأمر يتعلق بقراءة ملامحه وإيجاد مفتاح اللغز الذي يلتف به هذا الرجل القادر على كل شيء، عدا القيام بدور معلم مدرسة الذي ينسب إليه، يعلم الله لماذا.

ـ هو أنت؟

ـ أنا...

ـ أخبرني من أنت؟

ـ لماذا تريدين أن أخبرك من أنا؟

ـ لأنني مذ رأيتك، كنت أرقص مع عامل التلغراف، صار قلبي يدق دقات غريبة في صدري... إني استشعر من تكون؛ أثناء عملي في السيرك، أقرأ الورق. أنا ابنة امرأة غجرية وأعرف ماضي ومستقبل الأشخاص... صديقك، مثلاً، له علامة مأساوية...

ـ هيا بلا مزاح! باسكوال، ذلك الشخص الذي يزعج أختي المسكينة! ألم أخبرك أن له رائحة مدرسية؟».

وعندما اقترب من الثنائي المتكون من الأخن والبهلونة، تظاهر أنه يبتسم، وأطلق «إشارة خطر».

ـ علينا أن نذهب لقد تأخرنا كثيـ...

ـ اذهب أنت! قاطعته. أما أنا فسأبقى مع رفيقي.

عاد بولو كاماي بعد أن جهز الأشياء في مكتبه: كانت الخطة جسورة، إذ إن المرأة هي ملك الجسورين.

ـ لنخرج، إذا سمحت؟ الحرارة شديدة... صحيح أنها كذلك في الخارج أيضاً... ولكن على الأقل...، اقترح الأخن ذلك، عندما رأى كاماي قادماً.

ـ «نتنفس بطريقة أفضل» كما يقولون في «تينوريو»؛ عندما كنت صغيرة مثلت دور دونيا أنييس، دونيا أنييس روحي. هناك أسماء طريفة في إسبانيا... هل يوجد من يريد تسمية نفسه «روحي»!...

سارا عبر ممشى عابق بأوراق مشبعة بالندى وبالفجر. وفي الداخل كما في الخارج كانت الحرارة متشابهة.

ـ هل صحيح أنك رجل ملغّز؟... إلى أين تأخذني؟... هل لك كوخ مخفي؟... ماذا تبيع؟ هل تبيع أدوات للخياطة؟

ـ أنهم يقتفون أثرنا، قال رودريغيث، وهو يمسك بخصرها.

ـ نعم... أجابته متكورة بين ذراعيه.

ـ أرى مكاتب التلغراف... لنسرع... لنختبئ هناك...

تسللا مثل ظلين إلى قاعة التلغراف الصغيرة المضاءة بمصباح نفط وكانت ضجة آلات الاتصال تضفي عليها مسحة من الغرابة.

انقض سكين صمت ضارباً عنق الحفلة، صمت أعقبته جلبة عارمة أجبرت المليونير المزيف والبهلوانة على العودة إلى الـ «سميرأميس».

* * *

ومن ناحية عمال سكة الحديد، حيث تسكن توبا، انتبه الخلاسيان أيضاً إلى أن الحفلة قد انتهت سريعاً، رغم أن كارثة مرعبة أعقبت صمت «الماريمبا» والأصوات المبتهجة. كان لا بد للأمر أن ينتهي كذلك، فكر خوامبو. والسبب يعود أساساً إلى توزيع العرق والبيرة.

وقبل أن يعود الخلاسيان إلى منزل المزرعة دارا حوله ثلاث مرات في اتجاه، وثلاث مرات في الاتجاه الآخر. كان السمبيتو ينظر إلى الأرض، والعشب وحجارة رقعة الأرض السيئة التي كانت تتحرك تحت قدميه. أما توبا فكانت تنظر إلى السماء. من الذي قطع الأشياء يا ترى؟ سألت الله. لقد خلقتها سليمة فمن الذي قطعها؟

أدخلت توبا يدها في كوة صغيرة، رفعت المزلاج، وما أن فتح الباب حتى ولجت البيت يتبعها خوامبو. بلغا الغرفة. أشعلت أمام صورة مسيح أسود سراجاً لم يمكنهما نوره الضئيل من الرؤية في البداية غير أنهما سرعان ما اعتادا على الظلمة المرتعشة وبدأا يتحركان. تعرفت توبا على المكان. هنا في هذه الزاوية، خزنة من خشب أبيض مزينة برسوم حيات حفث صغيرة حمراء. وهناك عربة بناء مسندة على جدار القصب. سلتان مملوءتان بثياب منشاة ولكنها غير مكوية. خزانة واطئة. صورة كبيرة على شكل ميدالية. كتلة ثياب متحركة بحجم الخزانة الصغيرة تقريباً. كان الشيء الوحيد الذي يبدو حياً فيها هو الثياب، كما عند أي شخص متقدم في السن. الصدار أبيض، الرأس بشعره النادر على الجمجمة السوداء والعينان نصف محجبتين بجفنين ثقيلين لم تعد تقوى على رفعهما.

ـ ماما، ابنك...

ـ خوامبو؟... سألت بعد لحظة صمت وسبحة وردية في يدها...

ـ نعم، أنا خوامبو، قال الخلاسيّ بخطوة الغريب القاسية.

ـ ماما، ابن جاء يسالك شيئاً واحداً...

ـ توبا! ثم إن خوامبو شرع يبحث عن نظرة أخته بقلق... ليست لي القدرة... لست اتشجع... أنا...

ـ ماما ابن يريد يعرف إذا بابا وماما تركاه في الغابة كي يأكله نمر.

كان جبين خوامبو كله عرق. جبينه وكفا يديه، وكان يطأطئ برأسه، يطأطئ برأسه، وقد عذبه الصمت الذي تلا السؤال الذي صاغته أخته. صمت زيت خام، خثر، تملؤه الفقاعات.

من الذي غير، من الذي يغير الزيت في آلة الزمن في هذه اللحظة التي كم ود فيها خوامبو لو أن الدقائق تنساب فوق زيت الحنان الصافي وليس فوق هذا الشحم الفظ ذي الفقاعات والصمت؟

«بابا ضربوه، ماما جرحوها، يا خوامبو، سمبيتو صغير

صغير، تشوس ، تشوس، موايون، كون... صغير كثير... أنا جرحوني... بابا ضربوه بشراسة... مستر تومبسون يحب كثيراً سمبيتو... هو طلب خدمة... يحبه كثيراً... بابا وماما هربنا مع أناستاسيا... كانوا يقتلون... يحرقون... هنا قليلاً أفضل... محيط أطلسي، ألم كبير».

يغمر الزيت الصافي الآن دوامة خفقانه. الدم يثب من تجويف إلى آخر مثل لعبة مسلية. انقبض قلبه. كان عليه أن يتوقف وينضغط من الداخل.

«أدن مني رأسك حتى أباركه، يا ابني».

وركع خوامبو...

«باسم الأب تشوس! والابن تشوس! والروح القدس موايون كون! هكذا تعلمنا رسم الصليب، يا خوامبو، لكي يخلصنا الله من أولئك الهراطقة، البروتستانت، الإنجيليين، الذين قتلوا وأحرقوا في الشاطئ الآخر... الأطلسي، ألم كبير، ألم كبير!...

ـ لم أشأ يا توبا أن أقول ذلك لأمي، كان من الأفضل لو تركوني في الغابة كي يأكلني النمر.

ـ إنهم جهلة، يا خوامبو...

ـ ماكر تومبسون أشرس من النمر؛ لقد أكل مني أعزَّ ما عندي، ولقد خنت، يا توبا، خنت... والخائن حتى وإن ظل حياً، يفقد الجوهر. لقد خدمته بوفاء الكلب، خنت قومي. كم مرة فكرت أن أدس له السم في قدح الويسكي! كانت تشوس! تشوس! موايون! كون! تخضّ دمي.

ـ وماذا تعني؟

ـ تعني أنهم يقتلوننا! أيد أجنبية تقتلنا! «إنها صيحة الحرب التي يتعذر إخمادها، والتي خنتها».

عرق وندى. وبعد الصمت، جلبة الحفلة.

ـ توبا إذا ما أنجبت طفلاً ذات يوم لا تتركيه في الغابة كي يأكله النمر...

ـ كلا، يا خوامبو!

ـ ولا تهبيه لأي رجل...

ـ كلا يا خوامبو، طفل يأكلني أنا، الأم هي ذاك: غذاء ابنها».

* * *

ألقت زمرة المرافقين ظلاً ثقيلاً على الحفلة. وفي اللحظة التي كان الجمع يتأهب للذهاب أوعز الآمر إلى الملازم، بخطبة مملة، أن يواصل، مع تلك المفرزة من الرجال، حماية حياة الورثة السعداء وأملاكهم.

«ملازماً وجنوداً، واجبنا هو حماية هؤلاء السادة والدفاع عنهم! أنا عسكري وأعرف جيداً أن العسكر لا يخلون أبداً بواجباتهم المقدسة، ولو كان ثمن ذلك حياتهم نفسها! على العسكري، وهو الذراع المسلحة الوحيدة في الوطن، أن يكون أينما أرسل، دون رؤية أعز من يحب عندما يذهب ليترك جسده في جبهة القتال، دفاعاً عن أرض الوطن. (برافو! برافو! صاح البعض.) سوف يدافع رجالي عن السادة الذين نحن عندهم. هم بحاجة إلى مساعدتنا الباسلة، الصريحة، النزيهة، المترفعة، ونحن هنا من أجل ذلك. لا شيء يثنينا عنه، لاشيء يجعلنا نتخلى عنه. قفوا هناك! نقول نصرخ بالجمهور، فلا يذهب إلى أبعد، وإلا فتحنا عليه فوهات بنادقنا. لن يتجرأ أحد على الإقدام على أي شيء ضدهم ما دامت المفرزة والملازم يمنعان العابثين. مهما كان عددهم، لأن فريق العابثين، مع الأسف، يزداد يوماً بعد يوم. الجميع يريدون التحول إلى أغنياء، وهذا غير ممكن. ناموا مطمئنين، أيها الأصدقاء، قرب زوجاتكم وأطفالكم الأعزاء، سوف تسهر المفرزة عليكم؛ لاتخشوا شيئاً، لايزال عندنا عسكريون شرفاء للدفاع عن مصالح الشعب ومصالح الوطن!».

قبل نهاية التصفيق، وبينما الحضور يهنئون ويعانقون الآمر

تقدم لينو لوسيرو ليقول له بضع كلمات. سكت الجميع. لا شك أنه يتقدم ليشكره.

«سيدي الآمر... باسمي وباسم ورثة هذا الرجل العظيم الأمريكي الشمالي الذي يدعى ليستر ميد (وهو الاسم الذي كنا نعرفه به) وزوجته ليلاند فوستر التي نتذكرها كلما شاهدنا نجمة المساء؛ باسمنا جميعاً نشكرك سيدي الآمر، على حماسك في الدفاع عن أشخاصنا ومصالحنا. إلا أنه ليس من حقنا قبول الحماية التي توفرونها لنا باستعداد كبير. أولاً، لأننا لا نستحقها، إذ إننا عديمو الأهمية رغم الإرث، ثم لأننا لسنا في حاجة إليها».

نسّل الآمر شاربه بقسوة إلى حد أن شفته العليا ارتفعت كاشفة صفّ أسنان قديمة لوّثها النيكوتين.

«ولسنا في حاجة إليها، سيدي الآمر، لأننا لسنا إلى جانب أولئك الذين يستغلون العامل، ولا يعني حصولنا على ثروة كبيرة ونبيلة، إننا سنتحول بأسلحتنا وعتادنا إلى معسكر العدو. على الدوريات والقوات أن تحمي مصالح الاحتكارات، ومجسات البلوتوقراطية(*) النهمة، وليس نحن الذين تعلمنا من ليستر ميد وليلاند فوستر الدرس الوحيد الذي ينبغي ألا ننساه: التضامن مع الشعب. ما من خطر يتهددنا، سيدي الآمر، لن يأتي أحد ليقض مضجعنا، لأننا لم نسرق أحداً، لأننا لم نستلم من أحد ربحاً يمثل عرقاً أو دماً...».

صار الآمر لا يكاد يتمالك نفسه.

«نحن جزء من هؤلاء السوقة الأوباش الذين تريد أن تحمينا منهم. ولهذا سيدي الآمر، أود أن أطلب منك حمايتنا من المستغلين وتحويل فوهات بنادقكم ضد الأعداء الذين في بلادنا والذين يحاربوننا ونحن في بلادنا...

(*) ploutocratic سلطة الأثرياء.

ـ جحود! جحود! صرخت بعض الأصوات... تحويل البنادق ضد الأمريكيين الشماليين الذين ينعمون عليهم، ويتركون لهم ثروة!...».

وقاطع آيوك كايتان الأشعر لوسيرو:

«أعتقد، سادتي، إنه ليس على لينو أن يقول: «نحن» إذ بالنسبة لي على الأقل، لست أوافقه. نحن نقبل حماية الحرس!

ـ أما أنا، فلا، صرخ لوسيرو، ولا إخوتي!

ـ ما دمنا في الساحل، تابع الأشعر قائلاً، فنحن نريد حماية الآمر والحرس.

ـ ممن؟ سأل لوسيرو.

ـ كيف. ممن؟... أليسوا هم الذين يحمون «التروبيكال بانانيرا»؟ فممن عساهم يحمونها.

ـ من الشعب. ولكن الشعب نحن؛ إننا ننتمي إلى المجموعة التي يزعمون حمايتنا منها.

ـ أنا، على الأقل، أقبل الحرس إلى أن أرحل من هنا. أفكر في الذهاب مع عائلتي، لقد بلغ ابني ماكاريو سنّ الدراسة.

ـ عائلتي أيضاً وأنا...» تدخل باستيانسيتو كوجوبول قائلاً.

وعبر آل آيوك كايتان بدورهم عن موافقتهم.

«أيها الملازم، أمر الآمر قائلاً، على الحرس أن يغادروا الـ «سميرأميس»! سوف نتولى حماية هؤلاء السادة في بيوتهم. أما أنت، يا لينو لوسيرو، فلن أعاقبك لأن ما تقوله ليس طبيعياً، في حين نحن ندافع عنكم ليس ضد السوقة وحسب بل أيضاً ضد النصابين والمقترضين والشحاذين وكل الذين من شأنهم أن يطلبوا منكم صدقة...

ـ أصغ إلي، أيها الآمر!، أصغ إلي!... أطالب بالإصغاء إلي! صرخ لينو لوسيرو. لسنا في حاجة أيضاً، على الأقل فيما يخص

سكان «سميرأميس»، إلى تلك الحماية الأخرى التي تقدمها لنا السلطة العسكرية. لم يكن يوجد مجال في سيرة ليستر ميد للإحسان والورع، وذلك الإحسان الذي يوزع المال للمحتاجين على شكل صدقات. إن الإحسان الذي هدفه كسب السماء والذي يمارسه الجميع، هذا الإحسان عليه أن يندثر، يمحي، إذا رغبنا في إعادة الكرامة لشعبنا، لا مجال للصدقات! لن يتسلم أحدٌ فلساً واحداً مما ورثناه، أنا وأخواي خوان وروزاليو كانديدو. المال الذي ورثناه ليست له أية علاقة بالإحسان، إذ إنه يأتي من يدي شخص جدٌ كريم لم يسيء إلينا قط بتقديم أية هبة، ولم يذلنا قط بواسطة صدقة. فيما يخص ليستر ميد، ينبغي إعطاء فرصة للرجل، ينبغي إعطاؤه مناسبته، ظروفه. لست أدري كيف أوضح ما أقول. إلا أن ما ينبغي فعله، هو إعطاء فرصة لرجال آخرين، ينبغي تمكينهم من ظروف مؤاتية، ومناسبة للعمل...».

كان منهكاً، مرتجفاً، كابياً حتى الشفتين، وعلى مقربة منه خوان لوسيرو وروزاليو كانديدو.

حاول «خوان سوستنيس آيوك كايتان» وهو ينتصب على ساقيه المتفرعتين ساقي الخبث، أن يتكلم، لكنه لم يكد يتمكن من القول:

«إن لينو هذا، لم يتمالك رشده قط... إنه مختلّ... تذكروا افتتانه بحورية البحر، تلك المرأة ـ السمكة التي يشاهدها عندما يستيقظ وساعداه يحضنان جذع شجرة موز... كان يقول إن أشجار الموز نساء...».

وتعالى الضحك. وبدل أن يسيل الدم، سال الضحك. قوسان. هما قوسا ساقي خوان سوستنيس الخبيثتين المتفرعتين اللتين انفرجتا كي تسمحا بمرور نفحة من المزاح وسط ذلك الجو الثقيل.

ـ على أية حال، سيأتي القاضي هنا، من أجل...

ـ حامٍ آخر... قال خوان لوسيرو، وهو ينظر إلى الآمر في وجهه.

غير أن الأخير تظاهر بعدم السماع ونزل، يتبعه الملازم، على مرأى ومسمع المفرزة التي قررت حمل السلاح وحملته.

وضع عازفو الماريمبا آلاتهم في مأمن ومروا عبر باب خلفي. ترك آل صموئيل قيثاراتهم، وشرع عازفو أوركسترا السيرك بآلاتهم غير المدوزنة والحرارة التي نالت منهم وقد سال لعابهم، شرعوا يبحثون عن العمدة لتسديد الحساب، لكنه كان قد اختفى مع البهلوانات لأن الفضيحة التي حصلت، أفشلت خطة بولو كاماي، عامل البرق، وعادت البهلونة التي ذهبت مع المليونير المزيف إلى الـ «سميرأميس»، والقلق يتملكها على أختها.

«وداعاً! يا خوامبو!... همست توبا عند باب «الياردات» حيث كانت توجد مساكن ومكاتب وملحقات مستخدمي الصف الأخير.

ـ وداعاً، يا أختي توبا!

ـ ماما حية، بابا مدفون هنا، قالت أناستاسيا. أنت لست ضعت، لست أكلك النّمر، أنت هدية إلى المستر...».

تسلّل الخلاسي من باب الخدمة، باحثاً عن حذاء سيده. إذ له الآن ما يكفي من اللعاب لمسحه، بعد أن تحدث أخيراً مع أمه، مع أخته، مع نفسه، لأنه وهو يحدّثهما، كان يحدث نفسه... فردة الحذاء الأولى جاهزة: مرآة. والثانية سوف تصير كالأولى. في الحمام، يسمع صوت «الدش». لقد نهض السيد. لكن الوقت لا يزال باكراً. ماذا حدث يا ترى؟

«صباح الخير سيدي...

ـ صباح الخير يا خوامبو... هل كنت هناك؟

ـ نعم. ذهبت للتفرج على الرقص في ذلك المكان الذي يسمى سميرأميس...

ـ يبدو أن الحفل كان بهيجاً. لقد أطلقوا الكثير من المفرقعات...

ـ لقد كان بهيجاً في البداية نعم. لكن الحفلات تنتهي دائماً نهاية سيئة.

ـ المشروبات تفعل فعلها دائماً، يا خوامبو.

ـ كلا، لم تكن المشروبات هي السبب... إنما السبب خطبة ألقاها شخص على الآمر كي يرسله إلى... على كل أنت تعرف جيداً إلى أين...».

لكن ماكر تومبسون قاطعه، كي يطلب بالهاتف، كوباً من عصير البرتقال مع بيض نيء، وفنجان قهوة مع القشدة ونصف رغيف محمّص.

كان كل شيء حارقاً. نعم، كل شيء، والساعة لم تتعد الثامنة صباحاً. درابزين الدّرج يحرق المرء عندما ينزل. وكذلك الدرجات الخشبية، وإسمنت الصفائح الممدودة مابين البيوت، تحرق أيضاً. كان ثمة ما يشبه مراوح مائية ترش العشب. وكانت الطائرة التي أتت بهؤلاء السادة تنتظر، طائر عملاق يرتسم جانبيّاً على زرقة السماء الصافية.

كان رأي الشيخ ماكر تومبسون، الذي مازال يلقب بالـ «بابا الأخضر»، متعارضاً مع نائب رئيس الشركة، في هذا الإجتماع الصباحي المقلق مع الوكلاء والقاضي. عارض نائب الرئيس تدخّل الـ «تروبيكال بانانيرا. اس. آي» فيما يعتبره منتمياً إلى حياة المساهمين الخاصة. يعتبر واجبنا بعد تسليم الإرث، منجزاً. أما ما تبقى فهو يخصهم.

«إن التصرف المستقيم في هذا الصنف من الأعمال ـ واعتقد أن لي من التجارب أكثر من السيد نائب الرئيس ـ لا يؤدي إلى نتائج حسنة في أمريكا الوسطى، ولا أعرف أن كان السبب يعود إلى الجغرافيا أو المناظر الطبيعية، إلا أن ما يهيمن في أمريكا الوسطى

كما سترون، إنما هو الخط المنحني، في كل شيء. والذين يتبعون الطريق المستقيم يصلون إلى الإخفاق. إن تبني عقليتنا المستقيمة، وتصرفنا العمودي، ومشاريعنا بالفادن، كان، بلا ريب، أحد انتصارات شركتنا. وفي أمريكا الوسطى، ينبغي، من وجهة النظر الأخلاقية كما من وجهة النظر الجغرافية، سلوك الطرق الملتفة والمختصرة، مع البحث عن الخط المناسب، سيان تعلق الأمر بفتح طريق أو بـ... رشوة قائد. وفي الحالة الراهنة، نظراً لوجود سوء تفاهم بين الورثة، فإنه ليس علينا إلا تقويته، بمساندة من يناصروننا.

وصحح القاضي قائلاً:

- ليس دورك في إثارة سوء التفاهم هذا، إنه كامن دائماً بين الورثة، إنه أبدي. إنما دورنا نحن، ورجال القانون، أن نفهم الأمور... وما يمكن أن تفعله الشركة، هو الإفادة من ذلك، كما على المستويات العليا، الإفادة من سوء التفاهم الموجود بين البلدان الخمس التي تكون الجمهورية الفيدرالية. الميراث كما هو، وكلٌ يفيد من جانبه.

- دعوا الأمور بين يدي، اقترح وكيل مقاطعة الباسيفيكي، والشيء الذي بوسعي مع سيدي القاضي أن أضمنه للسيد نائب الرئيس، هو أن الورثة الذين يحملون اسم آيوك كايتان - إي - كوجوبول سوف يرتحلون إلى الولايات المتحدة ويقيمون هناك طويلاً.

- أما فيما يتعلق بآل لوسيرو، أضاف القاضي، فإن سيدي نائب الرئيس يمكنه أن يسافر مطمئناً، لأنني سوف أتولى أمرهم. أعني القوانين. هناك قوانين تتعلق بالميراث، والضرائب المتراكمة، والزراعة بالتوكيل (إذ حتى إذا لم يتغيبوا، سوف نجعلهم يتغيبون) والمساهمات التي لا يزال الوقت مؤاتياً لجعل الكونغرس يقرها. إذا كان ثمة غني يريد البقاء غنياً، فإن عليه أن يتصرف باعتباره غنياً،

وفي هذه الحالة، فإن الدولة تحميه، أما أولئك الذين، فضلاً عن كونهم أغنياء، يرغبون في لعب دور المنقذين...

ـ كانت تلك حالة ميد، قال ماكر تومبسون.

ـ نعم حالة ميد، كرر القاضي، إذْ لو لم يقض عليه الإعصار لمات مصلوباً...

ـ مصلوباً من قبلك أنت؟ سأله الوكيل.

ـ وهل كنتم لتصلبوه أنتم؟ سأل الوكيل.

ـ نحن أو غيرنا. صلباً، رمياً بالرصاص، أو شنقاً...

ـ كلا يا عزيزي، تدخل نائب الرئيس. لقد كان ستونر مواطناً أمريكياً شمالياً... المسيح لم يكن مواطناً أمريكياً. وبسبب ذلك صلبوه.

ـ لنضع أيدينا في العجينة![*] هتف ماكر تومبسون. وينبغي المناورة بعناية فائقة لأن الأمر لا يتعلق بالطحين، ولكن بالذهب، والذهب ينتهي إلى أن يصير شيئاً دقيقاً، في منتهى الدقة، بحيث يتحول إلى ريح شقراء، ريح تكون حارقة هنا ولكنها في البيت الأبيض وفي الكونغرس، عندما تبلغ شواطئ «بوتوماك» لا تبقى منها سوى نسمة ندية».

13

في الصباح المبكر، أعادت المكنسات ومنافض الريش والماء جو سميرأميس اللائق بعد أن أزالت عنه آثار الصخب الكئيبة التي بقيت بعد انتهاء الحفلة. فما أن غادر المدعوون حتى بدأت حملة التنظيف. بدأت المكانس ترقص فوق أرضيات المنزل التي بللت

(*) ترجمة حرفية تعني «الشروع في العمل» حافظنا عليها من أجل السياق.

مسبقاً لإزالة الغبار وإسقاطه في الفناءات، في الشارع، أمام المنزل، ثم التزمت المماسح بصرامة تنظيف الأثاث والأبواب والنوافذ والزجاج واللوحات والمرايا وأواني الزهور، فأعيد كل شيء إلى مكانه، وإيقاعه وصراعه اليومي، بفضل الخادمات ونساء أصحاب الملايين الجدد الذين كانوا قد خرجوا: إذ إن خوانشو ذهب ليشتري ثيراناً، بينما ذهب لينو مع ابنه البكر بيو أديلايدو، لقطع خشب الأرز.

كان النسيم يخفف من وطأة الحرارة، نسيم له رائحة فراشات، ونساء يتحدثن قليلاً، ولكنهن يتحدثن: «لوب» الشابة، زوجة خوانشو، ورأسها مغطى بوشاح أصفر ناري، و«كروت» السوداء كما يدعون زوجة لينو، ورأسها مغطى بوشاح أخضر ببغائي الخضرة.

قالت كروت السوداء وهي في أثناء ذلك تذعر بمكنستها دجاجة كانت تنقر بذور قرنفلة:

ـ المصيبة، يا لوب، أن يعمد بعض الناس إلى اقتلاع الفجلة من أوراقها. ليس لأنهم لا يفهمون في الأمر وإنما عن سوء نية. مثلما هي حال غوديليا التي ليست حمقاء فقط بل هي مجرمة.

ـ حمقاء مثل زوجها. لأن باستيانسيتو لم يخترع البارود. هؤلاء هم الذين أهينوا أكثر، كما لو أنهم كانوا أناساً حذرين دائماً.

ـ وخوان سوستنيس، يا لوب، خوان سوستنيس!

ـ آه! ذاك، لقد زاد الطين بلة بفظاظته. لأنه بكل بساطة هندي يملك مالاً. أما زوجته، فهي أينما حلت، تبدو حائلة.

ـ إنها لا تبرد... أنا لا يمكن أن أستسيغ امرأة تجلس متقاطعة الساقين وهي تؤرجح قدمها. الجميع يشعرون بالاختناق. يبدو لينو وكأنه يريد أن يفتك منهم شيئاً. أما أشدهم حنقاً فهو ماكاريو الذي كان يجد أعذاراً كثيرة للآمر.

ـ القذر! ماكاريو هذا مقرف. يعتقد أنه لن يصير أجنبياً، وإن

أبناءه لن يتحولوا إلى «مسترز»... ولكن، يا عزيزتي، إنها غلطة الشباب الصغار. لماذا توجب عليهم جمع كل أولئك الناس؟ كان يكفي عدد قليل منهم...

- إيه، يا لوب. ذلك هو ما كنت أفكر فيه ولكن باعتباره نوعاً من الارتباط والقوم يذهبون إلى حيث الأكل والشرب مجاناً...

- ولكن الذين كان من المفترض حضورهم لم يحضروا، عرابة «لينا» التي باتت مهملة طيلة الأيام الأخيرة...

- حقاً، لم تكن سارا خوبالدا حاضرة. كما أنني لم أشاهد السيد «هيخينيو بيادرا سانتا».

- لم يعلم بالحفلة، أو لا شك أنه إذا علم، قد فكر بأن الحفلة ببطاقات دعوة. القوم في منتهى الحساسية!... وبما أن العمدة جاء وهما عدوان تقريباً، فلا شك أنه فكر بأننا نفضل عليه باسكوال دياث.

- ياله من داعر، باسكواليتو، عندما أتى هكذا بعازفي السيرك والمفرقعات... كلا، لن أحدثك أكثر، ليس ثمة داع... كل شيء نظيف الآن... أوه! لقد حطموا أصيص الزهور هذا... ينبغي اقتلاع هذه «البغونية»(*) وإعادة غرسها في صفيحة بترول: لأنها لا تتكسر.

- عجباً! هذا الكرسي أيضاً محطم... توجد كومة حطام... بغض النظر عن الكؤوس...

«لنكسر كل شيء عند الآخرين ولتحترق طروادة!...».

* * *

لم يتمكن الأخن، الذي لم يغسل وجهه، من النوم بدوره. فبعد الحفلة قصد مكتب البرق من أجل جولة من المجون والمزاح مع بولو كاماي، ثم صعد باتجاه سميرأميس بحثاً عن أحد آل لوسيرو، ولم يكن ليحدث له شيء أفضل مما حدث فقد وجد لينو نفسه.

(*) من الأزهار ذات الفلقتين.

كان المنشار الملطخ بالشحم يروح ويجيء داخل الفتحة التي ينشرها في لوح خشب الأرز، تحت ضغط يد بيو أديلايدو.

ـ أرغب في التحدث إليك يا دون لينو.

فكر لوسيور أن الأخن جاء ليضربه: كانت رائحة العرق تنبعث من أنفاسه، وعيناه كدرتان، وهو لا يزال يرتجف من آثار سكر البارحة.

«تابع يا بني ـ أمر لينو ابنه بيو أديلايدو، الذي كان قد توقف ليمكن أباه من التفرغ للأخن ـ تابع، فلم يبق إلا القليل، تابع بنفس الطريقة، سيقول لنا هذا السيد أي شيء دهاه. لماذا هو غاضب. تكلم، يا صديقي، أنا وابني لسنا سوى شخص واحد!».

غمرت وجه الصبي العارق نفحة برد وحرارة. لم يكن يعرف، لأول وهلة، أين يتجه بنظره: إلى أبيه الذي يعتز به، أم إلى الزائر، أم على الخشب المنشور الذي اخترقه المنشار الساخن، أم على النشارة التي كانت لها رائحة الأرز وتشكل ما يشبه براكين صغيرة فوق الأرض.

«إنها قضية حساسة جداً، وأرغب أن أحدثك على حدة، وجهاً لوجه.

ـ لا يا عزيزي، تحدث هنا، أو لنتحدث في شيء آخر... ماذا حدث البارحة مع راقصة الحبال إنها لفكرة من بنات أفكار العمدة الذي أتى بتلك الأوركسترا والمهرجين والنساء!

ـ لا يمكنك التكذيب، يا دون لينو، بأنني علمت بما أريد أن أطلعك عليه من إحدى البهلوانات. لقد كان لعامل التلغراف حب عابر مع الصغرى ولقد رتب خدعة كبيرة حتى أخذها بعيداً عن الحفلة إلى جحره... جحر الصرصور...

ـ إذن علينا أن نشعل المصابيح! ما دامت القضية تتعلق بالنساء، فالصبي يمكنه أن يسمع. لقد بات شاباً.

ـ ولكن الأمر لا يتعلق بذلك. لقد ساعدت المرأة على كشف شيء آخر أكثر تعقيداً، وإذا جئت لأخبرك به فإنما ذلك لأنهم رووا لي ما خطبت به في الحفلة. أنا لم أسمع خطبتك، لأنني كنت في مكتب كاماي مع الراقصة، لكنه أقنعني عندما علمت بما قلته أنت. هكذا يتحدثون...

ـ أوه! يا عزيزي... أعلم أنني أحب بساطة ما... هو بسيط؛ تكلم هنا فلا وجود لشهود: المنشار من حديد، اللوح من خشب، أما أنا وابني...

ـ لقد مكثنا مع كاماي في مكتبه بقية الصباح نحتسي كؤوساً صغيرة ونناقش خطبتك التي، في نهاية الأمر، لم توقف الحفلة وهي في أشدها فحسب، بل أفشلت أيضاً الخطة التي وضعناها مع بولو للتمكن من البهلوانة. لقد أسرى ذلك المزاح إلى اعتقادها بأنني أشبه ليستر ميد ومتنكر في شخصية معلم مدرسة، وأنني مليونير. وأنه بإمكانها أن تصبح دونيا ليلاند. «هكذا لن أرتكب خطيئة» قالت البهلوانة، ثم غادرت الحفل معي كي نقوم بنزهة، نزهة امتدت حتى مكتب بولو، حيث كان هذا الأخير مختبئاً، ولكن... كر... كر... كر...! خطابك و... وداعاً للمتعة التي منينا بها النفس!...

ـ لا شيء يصد النساء إذا اشتممن رائحة المال!

ـ صحيح. إذن بعد انتهاء الطرب، قمنا مع كاماي إلى التلغراف، كما رويت لك ولقد تمكنت من الإطلاع (وهنا اقترب رودريغيث من مكالمه خافضاً صوته) على البرقيات التي أرسلت لاستنكار تصرفاتك. وأقل ما جاء فيها خطورة، أنك عدو للحكومة.

ـ إني أتابع محبة بساطة ما هو... بسيط. أليس كذلك؟ ياعزيزي».

احتار الأخن قليلاً ثم تابع:

«لا يذهبن بك الظن إلى أني أكذب، يا دون لينو. لا تظن أنني

جئت أخبرك بذلك لأحصل على شيء منك. إني أفعل بسبب إقناعك لي بالخطاب الذي ألقيته البارحة. هذا كل شيء. الشيء الوحيد الذي أرجوه هو ألا تنقل ما قلته لك وأن تنبه ابنك حتى يمتنع أيضاً.

ـ لا حاجة إلى إنذار الصبي... أليس كذلك؟ بيو أديلايدو...

وما أن خاطب لينو ابنه البكر الذي كان جسده الشبيه بقصبة بوص برية منحنياً على لوح الأرز والمنشار في يده، حتى انتصب واقفاً كي يجيب:

ـ طبعاً يا بابا. لم أسمع شيئاً.

ـ والآن علينا أن نترك العمل كي نصغي للصديق. لست تدري يارودريغيث كم أنا ممتن لك على تقريرك. من الأفضل أن يكون المرء على علم في مثل هذه الحالات، لقد كنت أتوقع ذلك تماماً، ويمكنني القول إن ما أخبرتني به، كافٍ في ظروف أخرى ليجعلني أحزم حقائبي، وأسرج حصاني باتجاه الحدود. أما اليوم فإنه لا يحرك فيّ ساكناً...

وبعد أن ألقى برماد السيجارة التي كان يدخنها، قدمها للأخن كي يتمكن الأخير من إشعال سيجارته التي كان يحافظ عليها مطفأة، في فمه.

ـ نعم، أنت الآن بأموالك، في حِمى من أشياء كثيرة، لكن عليك أن تذهب إلى العاصمة. لست أدري، ولكن الشخص له قيمة أفضل في العاصمة منه في هذا الريف. هناك ضمانات أكثر.

ـ ولماذا أذهب؟ والحال أن مصالحي وراحتي هنا.

ـ أرى أنك مبالغ في الاطمئنان. ثمة عدد كبير من الرجال الموسرين انتهوا نهاية سيئة. الحكومة قادرة على كل شيء...

ـ في حالتنا هذه، كلا... إنها قادرة عندما يتعلق الأمر بأغنياء البلاد، بأغنيائنا الفقراء، وليس ضد رأس المال، الذي يملك بواخر وطائرات وجنوداً ليدافعوا عنه، وسلطات عليا تحميه، وصحافة

قادرة، من أجل إنقاذ مشاريعه، أن تشهر حرباً. إلي بالبرقيات جميعاً! الصغيرة، لابأس!

ـ ولكن بعد رفضك للجنود المرافقين، البارحة، لا أظنك مقتنعاً بإمكانية مساعدة الدبلوماسيين والأساطيل لرأس المال هذا، الذي لا قلب له.

ـ في انتظار ذلك، يا عزيزي رودريغيث، لندع الله يفعل ما يشاء، وهو الذي، كما يشاء، يأتي بالمطر أو بالصحو...».

على مدى الخط المتموج في مزارع الموز، ذات اللون الأخضر الغامق، تحلق طيور البحر، لا تخفق بأجنحة، ولكنها تجذف، سحائب بحرية ليست بغمائم، ولكنها سفن؛ وفي الأسفل أولئك الذين يجوبون الأرض دائماً منغرزين فيها. إن جوفنتينو يتصورهم. لقد رآهم مراراً في حضن الخلاسية. ليسوا بشراً، بل، قالت له توبا، أشباح تسير، تسير. أشباح ذات أحذية من أوراق صفراء ذاوية، أشباح، تحت جناح المساء المخيم، أشباح ذات أحذية من أوراق رطبة...

توبا!...

وهاهو ذا الآن يفكر فيها. رفع الأخن رأسه باتجاه الظلمة الزرقاء الكثيفة التي كانت تغطي الأفق. هكذا كانت السماء، عندما صعدت توبا إلى الطائرة الفضية مع باقي الركاب، وحدها، ومن دون أمتعة، نصف عارية، وقالت له وداعاً بيدها التي تشبه ورقة تبغ.

تابع التوأمان دوزويل، برفقة ماكر تومبسون الشيخ، بعد أن جابوا المزارع على ظهور الخيل، الاقتراب من البحر، من المكان الذي كان يوجد فيه بيت ليستر ليلاند وعندما بلغوه، مد روبير، الذي سبقهما قليلاً إلى الشاطئ، ذراعه مشيراً إلى امرأة عارية تركض على الرمل، باحثة عن مخبأ لها بين الصخور. همز ألفريد حصانه قبل أن تمحي تلك الصورة.

ومن وراء الصخور، حيث كانت أمواج بحر الجنوب تصطخب، لاحت توبا، مرتدية ثوبها هذه المرة، إذا صح أن نسمي ثوباً تلك

القطعة البالية من القماش التى غطت ما شاهده الفرسان الثلاثة لتوهم من دون أي حجاب. نزلت، رافعة ذراعيها، وشعرها من الريح... وساقاها جزء من الريح...

«أيتها الخلاسية!

جعلها نداء ماكر تومبسون تقترب، ولكن قليلاً، توقفت قرب جذع شجرة، وخبأت وجهها خلفه كي تضحك من الهيئة التي كان يبدو عليها الأخوان دوزويل، إذ إنها عندما ظهرت وتفحصتهما بعينيها المائيتين الثقيلتين، استعادت جديتها ولياقتها ووقارها.

ـ اسمعي أيتها الخلاسية، هذان السيدان يسألان عن اسمك.

ـ توبا...

ـ أنت وحدك؟

ـ كلا؟ مع البحر!

ـ والآن هل ستتسلقين هذه الصفصافة؟

ـ إذا رغبت أنا، نعم؛ إذا لم أرغب، لا!

ـ لا أحد... يتولى أمرك...

ـ ماما، بابا مات، مدفون هنا... خوامبو، أخي...».

* * *

ولدى نطق الخلاسية باسم خوامبو، مرت بعيني جو ماكر تومبسون الكستنائيتين زوبعة عصر ذهبي، بات الآن خريفاً مصفر الأوراق؛ وملأ صخب الساحل الأطلسي أذنيه وحرك في داخل ذاته رجفة، كما لو أنه اقتلع قلبه بيديه، مثل قوقعة حلزون مفرغة، وقربها من أذنه كي يصغي إلى اصطخاب أمواج أخرى، إلى بحر آخر، زمن آخر، أسماء أخرى... ماياري... شيبو شيبو... ماياري بالما... فلورا بولانكو... التروخيلي... الجزيرة التي نادته فيها ماياري: «يا قرصاني الحبيب!...» جانجر كاند وأفكاره، ذراعه الاصطناعية وأفكاره، المزيفة أيضاً، أفكار المسيحي المتخلف...

مـاياري! مـاياري!... اختفت عن بيتهـا... اختفت عن الـحياة!... هل ارتمت في النهر بثوب الزفـاف؟ هل اختطفها شيبو شيبو؟... والدة خوامبو مـازالت تعيش... أغابيتا لويس... الأب، أغابيتو لويزا... مـات. هـذا التبـادل الـغريب فـي الاسمين جعـل من الـصعب نسيانهمـا...أبناء أغابيتو لويزا وأغابيتا لويس...

كان الأخوان دوزويل يحدثانه عن اصطحاب توبا من أجل تربيتها، لأنهم التقوها في المكان نفسه الذي أقام فيه ليستر وليلاند، لكنه بالكاد كان يسمعهما. كانت أفكاره مختلفة تماماً، ومختلفاً تماماً كان عصره... أغمض عينيه... «فويلتا دل ميكو» شارل بيفر... راي سالسيدو... أوريليا...

«توبا، الأخوان دوزويل يسألان إن كنت ترغبين في الذهاب معهما إلى نيويورك...

ـ إذا قالت أمي نعم. بابا مدفون هنا، بابا لايقدر أن يقول نعم أو لا.

ـ هل كان أبوك يدعى أغابيتو لويزا ؟

ـ نعم أغابيتو لويزا، مدفون هنا؛ وأمي أغابيتا لويس حية، لاتزال حية. ستقول...».

لم يضف الأخوان دوزويل ورفيقهما شيئاً. انهالوا بالسياط على أرداف الخيول و... ذهبوا! شاهدتهم توبا يبتعدون، ومثل بهيمة ترنو بعينيها، متسلقة ذروة الصفصافة، مستقبلة نفحات النسيم بوجهها، وعيناها محمرتان، وفي شفتيها طعم ملوحة. «تشوس، تشوس، موايون، كون!...» صرخت بهم. دون أن يسمعوها. كان أخوها قد فسر لها ما تعنيه هذه الصرخة.

* * *

عندما توقفت مطايا المتنزهين الثلاثة أمام بيت القاضي، لاح المجاز فيدال موتا، عاري الجذع، لا يرتدي سوى بنطاله وجوربيه.

لم يكن يتحمل حتى الحذاء. تعلل بتورم قدميه، محاولاً الاعتذار لتغيبه عن التجول بالخيول وعن حضور اجتماعات الشركة، لكن ماكر تومبسون لم يدع له وقتاً.

ـ تأتي إلى الساحل وتغلق الأبواب على نفسك وتلعب الشطرنج، هذه قمة المصيبة!... عليك أن تسبح في البحر، وتمتطي حصاناً، تشم الهواء... تتعرف على البلاد!...

ـ تلك عاداتكم...

ـ آه! حسناً! معرفة البلاد، هذا اختصاصنا!...

تناهى إليهم صوت القاضي يحلق ذقنه داخل البيت: «الشطرنج، والسحرة!».

ولم يكن ذلك مجرد دعابة من زميله. إذ إن المجاز فيدال موتا سافر مرتين أو ثلاثاً لرؤية «سارا خوبالدا». إلا أن عرابة لينو لوسيرو، من سوء الحظ، أصيبت، ليلة قراءة الوصية بصدمة انفعالية عنيفة وساءت حالها بعدها وهي عائدة إلى «سميرأميس»، ولم تكد تصل إلى منزلها حتى سقطت جثة هامدة.

أما السكير الأصهب الذي كان قد غادر الحفلة يتعتعه السكر أكثر من النوم، فإنه عندما أدرك استحالة إيقاف الليل، قام بإشارة رمزية، إشارة من يقتلع عينيه، ويضعهما في فمه ثم يلتهمهما ليتأكد أنه سوف يظل أعمى، وما همه، وقد ابتلع عينيه، أن تواصل الكرة المضيئة تقدمها؟ أما من وسيلة لإيقاف الليل؟ لقد توقف الليل بالنسبة إليه، وها قد شرع يبحث خبط عشواء بقدميه ومرفقيه، عن بيت السارا خوبالدا ليسألها ماذا تفكر بخصوص السماء المتوقفة، السماء التي مكثت في النقطة التي ابتلع فيها عينيه وما زال طعمهما في فمه يجعله يتجشأ. كان يتقيأ من عينيه، أشياء مرئية، رآها، وأشياء حلم بها... أوه! يا لهذا المرق الذي تملح فيه عيناه. إنه مثل ماء العقاقير. ماء دموع. الدموع عقار من العقاقير الطبية، تضاف، بالقطارة، إلى واقع الحياة...

ولكنه عندما بلغ المنزل وشم رائحة جسد السارا خوبالدا على الأرض، قبل باسترجاع عينيه: أدخل أصابعه إلى قرارة حلقه محاولاً الاستفراغ كي يتقيأ عينيه ويتلقفهما بباطن يده. بياض بيضتين «برشت» وكرتا كريستال. أمسك بهما، وأعادهما إلى موضعيهما حول الأنف وهكذا تمكن من التأكد أن الكومة المنهارة على الأرض كانت بالفعل ترتدي تنورة. وللحظة، قبل أن يعيد تركيب عينيه ويتمكن من الرؤية، ظن أنها كانت راسكون، نديمه الدائم، إلا أن ذلك الكوكب المنطفيء كان أكثر استغراقاً في نوم السكر.

صحا الأصهب من سكره فوراً. وفي الضياء الذي كان يبدو وكأنه ينبجس من الأرض، كانت المرأة تبحر: سمكة لها جسد حوت صغير، وخطم بقرة، ذيل بدل القدمين وذراعان قصيرتان بمثابة زعنفتين. وكان ثمة رف من خفافيش تطير حولها، وبعضها ينقرها. أما هي فكانت تدافع عن نفسها وتبعدها بجذوع تنمو في كل مكان من جسدها. لكن الخفافيش تصر على نقر فمها الذي يشبه هلالاً. فتأكل ضحكتها السائلة اللعاب. وعندما عاد إلى صحوه أراد أن يناديها:

«سارا خوبالدا!...».

لكنه لم يتوصل إلى ذلك. لقد صار فمه عظماً واحداً. من المستحيل أيضاً أن يحركها أو يفزع الخفافيش التي تناوشها. كانت المسكينة تجول ببؤبؤيها الشبيهين ببؤبؤي عجلة في كل اتجاه لكي تتوقف على حقيقة تلك الكائنات ذات الأجنحة السوداء والرؤوس الصغيرة الشبيهة برؤوس فئران مسنة، والتي تصرخ بصرخات الاستهلال لدى الولدان، وتشبه سحباً مزغّبة من دخان؛ ولم تكن تتوقف عن دورانها المستمر إلا لتمتص لها فمها بمصاصاتها النارية.

خرج صارخاً كمجنون، ولدى صراخه: «النجدة! ساعدوني! إلي! النجدة!» استيقظ راسكون. واتجه نحوه بضعة عمال كانوا

يتوجهون إلى عملهم وسواطيرهم جاهزة لأي خطر. لكنهم استمعوا إلى توضيح ثم واصلوا طريقهم. نوبة هذيان رعاشي!...

ساهم راسكون في حمل المريضة لوضعها على الفراش وانتظار طلوع النهار. ومن حسن الحظ، كانت توجد زجاجة نصف ملأى بعرق القصب خلف نبتة كونديامور(*).

«هيا يا كورنكو، اشرب قليلاً، أنت! قال لصديقه، لأنني كما ترى، غير قادر على الشرب!...

وقدم له زجاجة.

ـ من حسن الحظ أن لي هذه الزجاجة. لقد أفزعتني كثيراً!...

ـ أنا الذي فزعت...».

وكانت عيناه تلمعان من شدة الفواق. والعرق يتصبب منه فيرتعش. مسح فمه بيده قبل أن يدني عنق القنينة منه.

«وهذه العجوز التي تزبد!...

ـ لقد طلع النهار والمريضة لا تزال هنا إلى هذه الساعة...(بعد الكأس الدهاق، صارت نبرة كونور أشد صرامة). أسرع، واشرب كأساً أخرى، يا صديقي، لأنه سيء، سيء جداً... شد أنفك بإصبعين، وهكذا لن تشم ما تبلع، فيمضي...

ـ الرعب؟... نعم، لقد تملكني الرعب.

ـ كفى حمقاً هكذا! ما أصابك هو سكر لن يداويك منه سوى آخر!

ـ الذين هنا يعرفون أن بيت السارا خوبالدا كله ألغاز. لذلك تملكني الخوف. ذات يوم قيل لي أيضاً بأني مصاب بنوبة رعاشية، لأنني شاهدت الهواء الذي يملأ البيت وهو يتحول إلى ماء، تسبح فيه

(*) نبتة متسلقة ذات أزهار تشبه الياسمين، وثمر أصفر.

المئات من أسماك المياه الحلوة التي تشبه خُمراً وحشية صغيرة، والجميع يخبرونك بأنني عندما خرجت من الرؤيا، بدا شعري كله وكأنه حلق بمقص».

كان الضوء يلحق جثة الليل عندما لاح فيدال موتا من الباب المشرف على قن الدجاج. لم يذهب إلى حفلة سميرأميس ولم يشارك اليانكي في لعبة البوكر، إذ إنه ظل مع زميله أمام رقعة الشطرنج، ثم انتهز نوم القاضي في بداية الصباح، وأفلت منه كي يذهب لرؤية السارا خوبالدا، أفضل ساحرات الساحل.

عرفه كورنكو فوراً، لأنه رآه أثناء التبليغ بوصية الميراث. فصرخ به: «أدخل، أرجوك أيها المجاز!» ثم قدم له الآخر:

ـ صديقي بروليو راسكون.

ـ تشرفت. أنتما من أهل البيت؟

ـ هو، بروليو...

ـ نعم، أجاب راسكون، أنا مقيم هنا، لكنها هربت البارحة، عندما علمت أن ابنها بالمعمودية لينو لوسيرو ورث عدة ملايين، وفي هذا الصباح وجدها صديقي هناك، على الأرض، فاقدة وعيها.

ـ كنت أريد استشارتها ولكن...! لا شك أنكما تعرفان ساحراً آخر في الجوار.

ـ هناك سحرة كثيرون، ولكننا لا نعرفهم، قال راسكون.

ـ إلا إذا... نعم، ربّما يمكننا أن ننصحك برؤية بوشوت بواك، لكنه ليس سوى شاف مطبب، كاهن، عرّاف. إذا كنت تريد رؤيته من أجل معالجة أحد الأمراض... لست أدري إن كان يخدمك... (كان كورنكو يتحدّث بالحيوية التي بعثها فيه العرق، فاتقد ذهنه)... إنه بوشوت بواك أَوْ ريتو بيراخ.

ولدى سماعها لهذا الاسم الأخير، بدأت السارا خوبالدا تدمدم

وتنتحب، منقلبة على سرير مرضها. فعنف راسكون، وقد تملكه الذعر، رفيقه:

«كفّ عن الحماقات وذكر الأسماء!...

ـ وأنت، برفضك للشراب، يبدو لك مجرد وجودك هنا أمراً خارقاً للطبيعة!...».

ونظرا للاجدوى السارا خوبالدا (كان الأطباء قد شخصوا حالة فالج شقي) عمل فيدال موتا بنصيحة كورنكو وذهب يبحث عن بوشوت بواك خلف المزارع المتيبسة. كان بيت الكاهن ينطح السماء: ولم يكن مغطّى سوى بنصف سقف. كان بالأحرى يشبه حقل خيزران، يحيط به الكورانتشوشو ـ الذي تشبه ثماره حبات عنب وردية ـ والتين والصبار وأنواع من العليق.

«إن الأصهب هو الذي أرسلني!...» قال فيدال موتا الشافي، وهو يعالج صياغته كما نصحه بذلك كورنكو، فحياه بواك قبل أن يصغي إليه وطلب منه أن يجلس على حصير جديد من قصب دفأته الحرارة المزدوجة من الأرض ومن الهواء.

ولم تكن تسمع سوى زن... زن... زن! من الذبابات الكبيرة على جلد حيوان مسلوخ ومعلق...

نفخ فيدال موتا، ومسح وجهه ورقبته، كان كماه مشمرين حتى المرفقين، وهو يحاول الترويح على نفسه كي لا يختنق، دون أن يتوصل إلى وضع مناسب لجسده على هذا المقعد غير المريح بمستوى الأرض.

زن!... زن!... زن!... يطن الذباب، وهو يتكلم، ويعترف بعجزه الجنسي، الذي يجبره على مواصلة حياة الأعزب المنزوي في بيت ليس سوى مطهر بين أربعة جدران، فيه روح تسوم ألوان العذاب: هي سابينا جيل.

حدق فيه بواك بعينيه الشبيهتين بخلاصة البن.

زن! زن! زن! يطن الذباب، وسمع فيدال موتا نفسه وهو يتحدث في ذلك الموضوع الذي لم يجرؤ قط، حتى في حالة السكر، أن ينبس حوله ببنت شفة. بيته في سهل المربع.

الأطفال يلعبون «البيسبول». صراخهم. اللذة التي يشعر بها عندما يسمعهم يصرخون، وهو على فراشه يوم الأحد، ويداه مشدودتان بين فخذيه، وعيناه نصف مغمضتين، وهو يتنفس من أنفه وفمه. أما الآن فلم يعد يكفيه أن يسمعهم. صار يراقبهم من الباب. ويتابع حركاتهم التي تشبه حركات حيوانات صغيرة... بعضهم يغير ثيابه في الهواء الطلق، ويرتدي قميصه وبنطاله، وذلك يحدث فيه دغدغة مفاجئة في شفتيه ثم رعشة... زن! زن! يطن الذباب...

كان صياد يسدد طلقاته نحو يمامة

فبدد بارودَه سدى،

لأنه قد أطلق ثلاثاً

رصاصتين، في الهواء ضاعتا...

والثالثة لم تنطلق...

أحس فيدال موتا أنه يفقد ثقله، وقد جره طنين الذباب، على إيقاع الأغنية المدندنة في هذه الساعات الضائعة، إلى الحيز الصقيعي لمرآة حلاق، حيث رأى، وكان لا يزال طفلاً، فرج متسولة ينعكس عليها، كانت تنز برائحة شحم متعفن، فزاعة موبوءة سال لها لعاب الحلاق بعنف إلى درجة أنه كاد يجدع له إحدى أذنيه بمجز الشعر الذي كان يمر به على جمجمة زبونه...

نظرت اليمامة إلى الصياد

هازئة بالكدر الذي تملكه

قالت له وهي تطير:

«إذا أردت حقاً أن تصيدني،

فدعني أسقط من تلقاء نفسي...».

زن! زن! زن!... زن! زن! زن!

لم يفهم شيئاً مما قاله له بوشوت بواك؛ لكنه تحت عدم الفهم هذا، أدرك ما قال له عندما أغرقه في كلماته، عندما جعل كل مسام جسمه تمتص ناراً لا لون لها، انبجاس صقيعي لغياب بلوري، ظل منه على جلده إحساس بغبار أبيض، بحراشف أسماك قمرية...

ولمس بواك جبينه بأطراف أصابعه، كجذور الخشخاش، وبدأ خطبته:

«السيبا السوداء تسبب حلماً ملؤه الكوابيس، ينبغي القضاء عليها بالساطور، أين الساطور؟ في القمر، القمر يلقي حلم السيبا السوداء والكوابيس المتدلية من أغصانها، إلى الأرض... (سمع في قرارة أذنيه مرآة ضخمة شاسعة تتهشم.) أجول بأنفاسي المتنبئة في ليل شعرك، لأكنس الأحلام السيئة... أجول بأنفاسي المتنبئة في ليل شعرك...

ـ السيبا البيضاء تعطي أحلام الأطفال، وينبغي تغذيتها بحليب امرأة. أين هو ثدي المرأة الأبيض؟ في الجبل المحترق تحت السحب. ينبغي تغذية سيبا النهار حتى القمة، حيث ينتهي سقوط أغصان الشمس، حيث أفكار سعيدة كالأطفال تأتي على جبينها... أجول بأنفاسي المتنبئة على جبينك، وعلى جفنيك... الجفنان لايستسلمان للنوم، بل يطفوان في النوم، الجفنان يطفوان، إنهما من حجر خفان(*) فوق ماء النهر...

ـ السيبا الحمراء تعطي حلم حرب الحب، ينبغي تغذيتها بالدم. ينبغي إشعال نار معركة اللذة، نار الصراع الذي يتلاشى فيه المرء ليخرج منه متعدداً. وبأمر من الضريبة التي تستوجبها شجرة اللحم

(*) حجارة خفيفة نخرة توجد عند مرمى الموج.

المزهرة، فإن نبيذ البكارة هو من ياقوت أحمر سائل، والسرة خندق نكبات، كلب البطن يمسك عن نباحه ولب المرجان يمنح لونه الوردي لحلمات الأثداء، ومراوح الآذان، وأنامل الأصابع والقضيب المجنح، فراشة أسيرة في رغوة السيبا الحمراء...».

وبعد قوله هذا، نفخ بواك على صدر زائره، على حلمتي ثدييه اللتين بلون الفلين. ثم تابع:

«السيبا الخضراء تعطي حلم الحياة. ينبغي تغذيتها حتى تتواصل الحياة. ليس لها مغيب. الشمس تشرق لها من كل الجهات. ما بين أغصانها توجد بيت المطر. وهي شجرة تورق طيوراً. خفقان أجنحة عظيم. نشيد للأمل. موتى وأحياء يعملون. تتهشم أسنان الصاعقة على استدارتها الهادئة. وتبر صلب من حلم يثقل ضفائرها التي من عظام وصمت. جاءت الأرض لتجلس حول جذعها الذي ليس بإمكان عشرين رجلاً، مع كل أطفالهم محضونين إلى صدورهم، أن يعانقوه».

سكت العراف كي يضغط بيديه على كتفي فيدال موتا، وعندما ضغطهما، وضغطهما بشدة، تابع بنبرة قيادية:

«السيبا الحمراء، سيبا صراع الحب، أنا، الرجل صاحب الخصيتين الصفراوين، ملأت دمك الأحمر!».

«السيبا الخضراء، سيبا الحياة، أنا الرجل صاحب ردف الظلمات، ملأت دمك الأخضر!».

«السيبا الوردية، أنا الرجل صاحب الجمجمة الوردية، ملأت دمك الأبيض، فليكن من قضيبك أطفال وليتغذوا من حليب المرأة التي تسيل فيهم كي تجد في أجسادهم السائل الأبيض الذي تغذيت به عندما اقترن فيك حليب أمك بحليب جدك الذي غذى به أباك!...».

«ولتسقط السيبا السوداء، سيبا الكابوس والنفي، تحت ضربة ساطور القمر!...».

* * *

نفث السيد باستيان كوجوبول من منخزيه وفمه، وكأنها ثلاثة أنابيب يخرج منها الدخان، الجزء الأكبر من سيجارته ذات التبغ الثقيل والحاد مثل الفلفل وأحس أنه يصعد بدوره إلى السماء الخامسة مع سحابة الدخان التي كانت تعلو، وكل التجاعيد ممحوة من وجهه العجوز. لماذا يتذكر عدد السنين التي مرت؟ كان في عينه اليمنى نوع من التكثف الساد(*). خاطب زوجته قائلاً:

«غوديليا، إنها آخر مرة نتمكن فيها من تذوق هذا الصنف، لأنهم هناك، في الخارج، يدخنون نوعاً آخر من التبغ المعطر والمفرط في السلاسة.

ـ يتوجب عليك أن تودع الكثير من الأشياء، يا باستيانسيتو.

ـ ماعدا أنت يا غوديليا، إذ يقال بأن الرجال هم الذين سيذهبون في البداية ليختاروا بيوتاً.

ـ وينبغي أيضاً الاهتمام بالمدارس من أجل الأطفال...».

وبعد صمت طويل، كان يتخلله مص باستيان لسيجارة الذرة، أضافت:

«هل تذكر، يا باستيانسيتو تلك الأيام التي جئنا فيها من أراضي الساحل الباردة؟ كم كان كل شيء مختلفاً عما هو عليه اليوم!

ـ بسبب الشباب، قلتِ؟

ـ كلا. بسبب كل شيء. كل شيء. حقاً المال يسهل كل شيء... أنت، أنا الأطفال لقد غيرنا المال. هكذا تجري الأمور عندما يعقد المرء حلفاً مع الشيطان. ليكن الله معنا! ولست أدري إن كنت فكرت بأنه ليس علينا من اليوم فصاعداً أن نقول: «أريد ذلك الشيء» فإذا به «تحت تصرفنا». أما في السابق، آه يا باستيان! لقد كان كل شيء صعب المنال، في السابق، كنّا نلمح أبسط الأشياء ونتحدث عنها

(*) تكثف في عدسة العين يمنع الإبصار.

ونطمح إليها ونحلم بأن نحصل ذات يوم على قليل من الرفاه ونرى أبناءنا يملكون مزارع خاصة مغروسة بأجود أنواع الموز.

ـ من الأفضل عدم التفكير في كل ذلك يا زوجتي.

ـ لو كان بالإمكان التفكير المعاكس يا باستيان... في السابق، عندما كانت أمي ـ رحمها الله! ـ تحدثني عن الناس الذين وقعوا «حلفاً»، كنت أظنّ أن ذلك ليس سوى مبالغات عجوز ساذجة، وأساطير... وخرافات... ولكنّي، مع الزمن، اقتنعت بأنها الحقيقة الدامغة، وأن صاحب الحلف، ما عليه إلا أن يقول «أريد هذا، أيها الشيطان!» حتى يحصل عليه فوراً وفي رمشة عين. منذ أن أبلغوك بقصة ذلك الميراث المفرح، لا لم يعد يوجد شيء أطلبه ولا يعطونني إياه... أريد هذا، يقول الأطفال، فيحصلون عليه، أما أنت فلم تعد تعرف ما تطلب: هوى، نزوات... مصيبة الأغنياء، الأغنياء، إن رغباتهم تموت...

ـ إنما لهذا السبب يا غوديليا، لستُ أفهم موقف آل لوسيرو ولا أتوصل إلى إيجاد تفسير له... يريدون البقاء في أشغالهم مثل الفقراء، كما لو أنهم لم يرثوا، ويغلقون أبوابهم عن الصداقات، ويتخاصمون معنا لأننا سنسافر إلى الخارج ويدرس أطفالنا هناك في المدارس...

ـ إنه لأمر محيّر أن يكونوا كذلك... إلا إذا أصابتهم لست أدري أية قوة ـ عمليات السحر كثيرة في العالم وعليك ألا تنسى بأن لينو هو ابن السارا خوبالدا بالمعمودية ـ فصرنا نحن، ضحاياهم الوحيدين.

ـ ليس هناك سحر ولا أذى يا عزيزتي، الحقيقة أنهم أغبياء. هكذا أيضاً تصرّف الأخوة عندما هاجرنا إلى الساحل. لقد مرّ على ذلك زمن طويل ولكنني ما زلت أذكر. الشباب هو ألاّ يكون للمرء ذكريات؛ ولهذا السبب صرنا مسنين، مسنين جداً. الحقيقة أنه ليس بمقدورنا أن نجزل الشكر للسيد كوتشو، عرّابي عندما نصحنا

بصوت الرجل المريض، أن ننزل إلى الساحل. «لا تكن غبياً يا باستيانسيتو، كان المسكين يقول لي ـ ليقبله الله اليوم في فردوسه! ـ لاتبق هنا حيث الأرض لا تثمر شيئاً... مستقبلك على الساحل!...» لقد كان ثاقب البصيرة ذلك الرجل. يقال بأن المسلولين يسمعون أكثر منا، ولكن لا شك أن حاسة البصر عندهم أكثر نباهة أيضاً... لو أن عرّابي يرانا الآن ونحن نلم الملايين!...

ـ أنت محق تماماً! في ذلك الوقت، كان أهلي، أخوتي، عائلتي كلها يعتبرون السيد كوتشو، عرّابك، تجسُّداً للشيطان، وهذه الأراضي المخضوضرة بمثابة ضَيَاع الروح.

ـ لقد وصل الأمر بـإخوتك إلى مقاطعتي، بل إن خوان سوستيس فكّر في التبرؤ منّي لأنني، حسب زعمه، أحمل اللعنة. ورغم أنهم لامونا كثيراً على مجيئنا إلى الساحل، فقد ورثوا الملايين بدورهم!...

ـ لا تقل «الملايين» دون إضافة، لأنني عندئذ أفكر في «ملايين الشيطان»، وهذا ما يقشعر له بدني، ثم، اسمع، يا باستيان، لقد قلت لك أمس ذلك وأفهمتك إياه صباح هذا اليوم: منذ أن «أغنوك» بتّ تزدريني، وهذا لا يعجبني مطلقاً فظاظة أغنياء؟ كلا. كل الأغنياء يسيئون معاملة زوجاتهم، لأنهنّ يكلفنهم غالياً، وهنّ نساء للمتعة. ولكن فيما يتعلق بنا نحن الاثنين، لا يوجد شيء من ذلك القبيل، إذ إنّي ساعدتك في عملك، ثم إن درب الضغينة ليس بوسعه أن يأخذنا بعيداً. لقد تعرفت عليك فقيراً وأحببتك كما كنت: بلا كلام بذيء، بلا عجرفة، وبلا حيوانية. أنا لست مثل أولئك النساء الغنيات اللواتي يغفرن للرجال كلّ شيء، المهمّ أن يقدموا لهنّ الهدايا. يداي سليمتان، ورغم كوني مسنّة... فإنّ أحداً لم ينفق عليّ...

ـ سامحيني يا غوديليا!...».

ثم أضاف وهو يقترب من زوجته التي أخذت تنتحب ملاطفاً:

«لقد صرت عصبيّ المزاج بسبب المشاكل العديدة التي تشغل ذهني، لست أدري لماذا صرت مفرطة في الحساسية!

ـ الحساسية؟ إنها لقب الشرفاء. لقد كنت تهينني تقريباً ثم تأتي لتقول إنني تعيسة...

ـ تكلما بصوت عال، هيا! أنتما تتمتمان كما لو كنتما تصليان أو تعترفان في كنيسة! قال ماكاريو آيوك كايتان بصوت جهوري مرتجّ، وهو يدخل.

ـ ولكننا نتكلم هكذا دائماً. فلماذا الصراخ؟ أجابته غوديليا وهي تمسح دموعها بزغب ذراعها العاري الذي مرت به على عينيها.

ـ ينبغي ذلك، تدخّل باستيان قائلاً، لأنّ الأغنياء، حتّى إذا كانوا من البلاد نفسها، يتحدثون وهم يزعقون.

ـ لقد ولّى زمن تلك الطريقة التي كنا نتكلم بها بصوت منخفض كما لو كنا نمضغ صُغَباً(*)، قال ماكاريو. في بلاد اليانكي يتحدّثون كما لو أنّ الجميع مصابون بالصّمَم، وهكذا سوف نتكلم... إنما الأعراق الدنيا وحدها هي التي تتكلم كما كنا نتكلم، بخوف، مثل «بدرو» في الزوايا.

ـ لست أدري ما أقول يا ماكاريو، اعترضت المرأة، لكن الناس المهذبين لا يرفعون أصواتهم أبداً.

ـ كان ذلك قديماً، عندما كنّا صغاراً. ولكن اليوم يا غوديليا أن يتكلم المرء يعني أنه يأمر ويجعل الآخرين يمتثلون لأوامره بقدر ما...

ـ متى ستسافر يا ماكاريو؟

ـ ليس هناك تاريخ معين يا باستيان، ولكن ذلك سوف يكون حالما أخلص من بعض الأشياء، ومنها مسألة الأرض. ولهذا جئت.

(*) بيض القمل.

سوف نجتمع في بيتي، إذا أردت، كي نرتب مع العمدة والقاضي ما عسى أن نفعل بالأراضي التي نملكها. سواء تلك التي كانت ملكاً شخصياً لنا من قبل، أو تلك التي ورثنا وهي بدورها ملكية خاصة تماماً.

- وفي أية ساعة سيكون هذا الاجتماع؟

- لقد تعينّ في العاشرة مساء، ولكن تعال قبل ذلك ولتأت غوديليا أيضاً كي تلقّن درساً في الأخلاق لزوجتي.

- ماذا حدث لـ كورونا؟

- المسكينة، يا باستيان عيناها...! مثلك أنت بهذه الوَدَقَة(*). ما من وسيلة للتحسّن.

- ولكن الآن، لا مجال للاكتراث بذلك... إذ يوجد في الولايات المتحدة أطباء كبار للعيون. أنا أفكر في إجراء عملية للتخلص من السادّ(**)، إذا حان الوقت.

- لا تريد الذهاب إلى هناك أبداً. على كلّ سوف تريانها. مرضها من البكاء أكثر ممّا هو من الداء الذي تعاني منه. إنها تبكي، وتبكي!...

- أقدّر موقفها، قالت غوديليا. لأننا، نحن عندما لا نندم فإنّ ذلك يشبه معركة كلاب في داخلنا.

- ازدراء ما وفّرته لنا الثروة هو شر الخطايا، هتف ماكاريو.

- ليس بسبب الازدراء أو ماشابهه.

- سوف نأتي يا ماكاريو، في السادسة، وسوف تعمل غوديليا على مواساة زوجتك العزيزة، إذ لا شك أن الإثباط أصابها بسبب تفكيرها في الحالة التي سوف تكون عليها هناك... أقول لزوجتي:

(*) نقطة في قرنية العين.

(**) تكثف في عدسة العين.

علينا ألاّ نفكر كيف هي الحال هناك، ينبغي على المرء التصرّف كما عند دنوّ الموت: يطبق عينيه ويسلم روحه إلى الله!

ـ الهم الوحيد، قال ماكاريو، هو أننا نبدو مسنّين و... تالفين قليلاً.

ـ كم أنت بذيء!» احتجّت غوديليا.

ثم أخذ الثلاثة يضحكون؛ وتناول ماكاريو، بعد أن اقترب من خزانة، كأساً كي يشرب ماء. أفرغ الكأس حتى آخر قطرة وقال:

«حسناً. سوف ننتظركم هناك».

كانت قاعة الأكل في بيت ماكاريو طويلة مثل نفق، وفي وسطها مائدة خشب أبيض طويلة بدورها. وللنظر في أمر الأراضي اجتمع حولها: العمدة، القاضي، الأخوة آيوك كايتان والسيد باستيان كوجوبول وهو آخر القادمين جاء لتوّه من بيت كورونا (زوجة ماكاريو) التي استقبلت أخت زوجها غوديليا، إذ إنها أخت آل كايتان.

ـ بيتك معتم، يا كورونا.

ـ أفضّل ذلك.

ـ يا عزيزتي المسكينة!...

ـ آلام عيني لا تبارحني يا غوديليا، أحسّ وكأنني أُقذف بالنّار، وفي أطراف جفنيّ التهاب أشد من لذع الفلفل.

ـ لماذا لم تجربي الماء الفاتر يا كورونا. بل ربّما كان ماء الخبّازى أفضل. ثم إن البكاء يؤلم: ملح الدموع هو الذي يسبب أشد الالتهابات. عندما نفرط في البكاء لا يبقى مجال للدواء. أمّا إذا كنت مريضة فإن المرض يزداد تفاقماً. وما جدوى الدموع؟

ـ ليكن ذلك لوجه الله، يا غوديليا، لوجه الله!

ـ للدموع فتيل. وعندما يبالغ المرء في البكاء، يغدو مريضاً... لحظة... لابأس. ولكن أن يكون ذلك كلّ يوم... أتعلمين؟ الحزن في

القلب، وهو يشتعل فيه مثل الفتيل، وذبالة الفتيل هي التي تخرج من العينين، وتقطر مثل دموع شمعة مشتعلة... ألم تَريْ يا عزيزتي سيدة الآلام السبعة؟ ألم تلاحظي أن دموعها تبدو وكأنها تسيل مثل قطرات شمع؟

ـ أنا حزينة جداً كلّ هذه الأيام يا غوديليا! أتكدّر من كلّ شيء، كلّ شيء يهيجني فأبكي... أبكي لأن البكاء هو الشيء الوحيد الذي يخفف من وطأة الغمّ الذي أحسّ به.

سكتت لحظة ثم تابعت بصوت خفيض أكثر:

«أتكدر لرؤية ماكاريو، الذي كان حسن الطباع، يلقي بكلّ شيء من النافذة، لا الأشياء المادية فحسب، وهي بعد كلّ حساب، كما من عادتي أن أقول، لا يحمل المرء معه شيئاً منها عندما يموت، ولكنه يلقي أيضاً بكل ما يجسّدنا؛ عادات وجودنا البسيطة، حبّنا للعمل وحتّى معتقداتنا المقدّسة.

ـ هذا بالضبط ما قلته لزوجي بتعابير أخرى. نسير في طريق الضلال كما لو كنّا مسحورين.

ـ والأخطر من ذلك ـ وليبق سراً بيننا، لأنني لا أريد أن تنقلي ما سأقوله لك ـ الأخطر من ذلك، هو أن زوجتي خوان سوستنيس وليساندرو هما أسوأ من الزوجين الأخيرين. لقد فقدتا الرشد تماماً. إنهما تنويان اعتمار قبعة.

ـ ماذا تقولين؟ لم أرهما منذ مدّة ولا علم لي بذلك... قبعة! سوف تبدوان وكأنهما زوجتان للشيطان... ومع ذلك فإن ماريا إنياثيا، زوجة ليساندرو، تبدو سليمة العقل.

ـ اعلمي إذن إنها الأسوأ! لأنّ أرسينيا، زوجة خوانسوس، كما يسمونها، لا تضع قبعة، على ما يبدو، إلاّ إذا كان اعتمارها إجبارياً، كما هو الحال عند الدخول إلى الكنيسة، حيث ينبغي تغطية الرأس.

ـ أرسينيا... ولكنني التقيت بها أمس مع بيادرا سانتا، رجل

الفندق الكائن خلف الدّغل، فاستوقفتني لتقول لي أن آل لوسيرو قالوا لها بأن علينا أن نستخدم أسماء أناس مرموقين لأن أسماءنا أسماء فقراء معدمين، أو على الأقل لكي لا نهان بأسماء غير معقولة. إذ إنّ أرسينيا هو اسم كلبة وغوديليا اسم مهرة.

ـ واسمي أنا كورونا يناسب ماذا يا ترى؟...

ـ يناسب الخبز...».

وأغرقتا في الضحك بحنجرتين متسعتين... من الخبز الطازج.

في قاعة الأكل كان الرجال يتحدّثون وهم يدخنون سجائر السشترفيلد ويحتسون الويسكي بلا ماء. إذ إن طريقة شربه ممزوجاً بالماء هي طريقة اليانكي بالإضافة إلى كونها تسبب آلاماً في مبولة المثانة. شرب الكحول ممزوجاً بالماء يشبه تناول داء الكَلَب ودوائه معاً.

«قضية قِطَع الأرض ستحدث خصومة» قال ماكاريو، وعلى وجهه تلوح ملامح شيخوخة.

انبسطت أسارير العمدة قبل أن يجيب: «ولماذا الخصومة؟».

قال ماكاريو:

ـ لأننا، كما قلت يادون باسكواليتو، نجهّز أنفسنا دون طائل، والإزعاج الأكبر سوف يأتي من الآمر الذي حذّرنا من كلّ ما قد يحدث بلبلة.

تدخل خوان سوستنيس بساقيه المعقوفتين ورأسه الكبير:

ـ ولكنّي تحدثت في الأمر مع الملازم وقال إنه لا يرى ضيراً في أن نقوم ببيع عمومي لقطع الأرض... لأكبر المزايدين.

ـ هذا هو عين الصواب، قال القاضي. ومن يريد الشراء ما عليه إلاّ رفع المزاد والدفع نقداً. ولا مجال لأولويات أخرى.

ـ لا أرى ذلك بهذه السهولة، أوضح السيد ليساندرو وهو واحد من آل كايتان، أرى أن البيع ينبغي أن يتمّ على حدة كما قال السيد

باستيان. وفضلاً عن ذلك فإن زوجتي تفكّر بالتنازل عن جزء من أرضنا للخوري حتّى يبيعه وينجز بثمنه بناء الكنيسة.

ـ هذا مستحيل قانونياً، أوضح القاضي، لأن القانون لا يسمح بالوقف.

ـ وإذا بدأنا بتقديم الهدايا، قاطعه خوان سوستنس، فإننا سوف نفقد كلّ شيء.

ـ لكلّ واحد الحق في التصرف بأملاكه كما يشاء، أعتقد.

ـ أنا لا أنفي ذلك يا ليساندرو، ولكننا نحاول التوصل إلى ما يناسب الجميع، ثم إن الأمر لا يتعلق ببيع الأراضي ـ إذ يكفي الاتصال بمحام وتكليفه بترتيب ذلك ـ بل بإسكات آل لوسيرو عبر القيام بعمل جيّد...

ـ دعهم يتكلموا، يا خوان سوستنيس! قاطعه مكاريو.

ـ صبراً! المسألة ليست متعلّقة بالكلام. أردت أن أقول لليساندرو إنّه بإمكاننا مساعدة الكنيسة من ثمن الأراضي.

ـ موضوع نقاشنا، عقّب العمدة... أرجوكم! أرجوكم! لحظة!... ليس هبة الكنيسة. بل معرفة ما إذا كنّا سنجري بيع الأراضي بالمزاد في الساحة أم لا، وذلك لكي يستفيد الجميع وتبقى الأراضي المذكورة بين أيدي من يدفعون أكثر.

ـ ذلك هو الأسلوب الذي ينبغي توخّيه، ألحّ خوان سوستنيس، لأنّه منصف ويلغي آثار ما تركته خطبة لينو الذي رفض خدمات المرافقين.

ـ حسناً! قال السيد موافقاً، إذا كان الأمر يتعلّق بإعادة آل لوسيرو إلى صوابهم، لابأس! فليتمّ البيع في الساحة العامة، أمام السلطة المختصّة.

* * *

النور يخفّ والحرارة ترتفع، حرارة ظهيرة لها لون الإسفنج، حرارة تخفي عاصفة في ضوئها الذابل، الذي صار ناراً بلا نور، ذابت في لون الزرقة وهطلت بزخات مطر، وبرودة عابرة تنذر بعاصفة.

«إنها تمطر ثم تتوقف... آه! يا غوديليا! أشعر بالاختناق! لست أدري كيف أبدو... لم يعد بإمكاني احتمال هذه الأغلال...

- صدارك! يا كورونا! صدارك! إنه يبعث على الضحك... ولكن يقال بأن علينا أيضاً أن نتكلم بصوت مرتفع؟».

وخلال إحدى الفترات انفرج الجوّ، أقبلت الكِنّتَان.

«لقد أبتللنا بالكامل!» قالت السيدة أرسينيا زوجة خوان سوستنيس وهي لا تزال عند الباب، وفي نفس الوقت تقريباً سمع صوت إنياسيا الحنجري، زوجة ليساندرو:

«كيف حالك يا كورونا؟... يا للطوفان! نحن أسوأ حالاً من دجاجتين مبلولتين! ثم أية معجزة أتت بغوديليا إلى هنا؟...

- جئت مع الرجل...

- نعم، لقد رأيتهم هناك جميعاً في قاعة الأكل مع العمدة والقاضي.

- لماذا لا تذهبان لتجفّفا ثيابكما. ادخلا! اطلبا من البنات شيئاً تنشفان به شعركما وثيابكما... ليحفظكما الله من التهاب الرئة!

وعندما سمعتاهما تبتعدان بحثاً عن مناشف وعن موقد لتجفيف حذاءيهما، أبدت غوديليا هذه الملاحظة:

- قريبتانا، مختلتا العقل أكثر من زوجيهما.

- مختلّتان وغبيتان!...

- عندما تحين لحظة حمل الميت، يصير ثقيلاً كالرصاص.

- إنهما بهيمتان! بهيمتان تماماً! منذ أن قيل لهما بأنهما غنيتان

وهما تتصابيان. تعتقدان إنهما في الخامسة عشرة وتتصرّفان كالرضّع!

- أقرب صورة شبهاً بالشيطان هو المال. إنه الشيطان ذاته، بذيله وقرنيه وكل شيء وهما أيضاً عَقَدَتا حِلْفاً معه.

- يا يسوع مريم! ليكن الله معنا!

- أبنائي يشكون المرض، لو رأيتهم!

- وكذلك أبنائي يا غوديليا... ومع ذلك فإن زوجي ماكاريو يلحّ على الصراخ في الحديث!...

- وذلك لتقليد أولئك القوم، اليانكي، الذين يتكلمون مثل المشعوذين ويزعقون مثل من تنقصهم التربية...

- في رأيي إنهم لا يتكلمون بل ينبحون. أي عمل شاق بالنسبة لأناس مسنّين مثلنا أن يتعلّموا النباح!...

- ولكن، حسب الأنبياء، ينبغي رؤية كلّ شيء، يا كورونا.

- إذن فأنا أرى، يا عزيزتي، أنّ علي أن أحضر دروس تقوية عند القديس سانت يهود - تاي.

- عجباً! قال باستيان مازحاً إثر دخوله. أنا أفضل يهوذا بالأحرى.

- ها قد عدت بصراخك! احتجّت غوديليا. على الأقل عندما تكون معنا تكلم مثل سائر الناس، وليس كما يتكلم اليانكي...أمّا بالنسبة ليهوذا فنحن لا نصلّي له، لأنه سيدكم الحقيقي أنتم الإشخريوطيين(*) الذين تريدون بيع الأرض... يا لكم من متوحشين! تبيعون الأرض من دون داعٍ، ورثتم ثروة وبقيتم أدنياء. لو توقف الأمر علّي لتركت الأرض للبائسين كي يعتنوا بها.

- الأرض، أوضح باستيان، سنبيعها بالمزاد في الساحة العامة

(*) نسبة إلى يهوذا الأسخريوطي.

لمن يدفع أكثر من دون أفضلية، وهكذا يمكن للأغنياء والفقراء أن يرفعوا المزاد.

ـ بل للأغنياء فقط، يا باستيان، إذْ كيف تريد من الفقراء أن يزايدوا!

ـ أين أنياسيا وأرسينيا؟ سأل باستيان.

ـ لقد ابتلّتا، أجابت كورونا، وهما تتدفآن في المطبخ.

ـ سنذهب يا باستيان، قالت السيدة غوديليا وهي تقوم من على السرير الذي كانت تجلس عليه، إذ إن المطر قد يفاجئنا ثانية.

ـ آه لقد نسيت سيارتي!» أجاب الأخير.

وهي جملة شددت عليها السيدة كورونا بسعلة معبّرة.

«سيارتك التي لا تقدر على سحق ذبابة...

ـ كل ما في الأمر أنني لم أتعوّد عليها بعد يا كورونا.

ـ ستذهبين... شكراً إذن على هذه الزيارة الممتعة. سوف نذهب إلى هناك مع مكاريو لمعالجة عينيّ.

ـ بل عليك أن تستعملي ماء الخبازى الفاتر. الرمص يتكوّن من ذبالة الدمعة التي تخلف قشوراً على الجفنين.

ـ ماذا! ماء الخبازى!... كفّي عن البكاء ففي ذلك علاج لك. إن غيرك من النساء يكنّ سعيدات جدّاً بنصف ما تملكين.

ـ واحسرتاه! يا باستيان. لا يهمّني المال. ماذا يعني لي كلّ ذهب العالم إذا تعلّم أطفالي هناك وجعلوهم «إنجيليين»؟... لأنهم متى ما تحوّلوا إلى إنجيليين أو بروتستانتيّين أو ماسونيين، لن يبلغوا السماء، والموت في هذه الحال هو انفصال كامل، والذي يحتفظ في قلبه بقليل من الأمل الكاثوليكي، عليه أن يحتفظ أيضاً بأمل تفادي الجحيم.

ـ ما تفكرين فيه يا كورونا...

ـ هذا هو شغلي الشاغل يا باستيان. سواء كنتُ غنية أم فقيرة، ما يشغلني هو أن أوصل أبنائي إلى الجنّة، وهذا ما أطلبه من الله كلّ يوم، من الله ومن العذراء، هنا في الدنيا يمكننا أن ننفصل عن بعضنا. ولكن في الآخرة، حيث السعادة الأبدية، لا أريد أن يعذبني الشوق إلى أي واحد منهم.

ـ والآن، أين هم؟ لست أسمع أصواتهم.

ـ يتعلمون الإنكليزية يا غوديليا. ينبغي أن يذهب أبناؤك أيضاً.

ـ نعم! أراد باستيان أن نذهب إلى المدرسة نحن أيضاً، ولكنني قلت إننا متى كبرنا يصعب علينا تعلم أية لغة أخرى».

ولدى خروجهما التقيا ماكاريو في الرواق، في إحدى يديه زجاجة ويسكي وفي الأخرى طبق عليه كؤوس.

«ستغادران؟ لقد جئتكما بقدحين... إذن ستحتسيانهما واقفتين.

ـ لكي لا تستاء، قال باستيان. أوافق، ولكن غوديليا لا تشرب أبداً.

ـ إذن خذ أنت. أمّا أنا فسأذهب لأرى كيف تسير الأمور في الداخل.

ـ إنهما في المطبخ، أوضح ماكاريو. سنذهب إليهما جميعاً كي نمازحهما بسبب كل ذلك الماء الذي أترعهما...».

وبعد أن أتى باستيان على قدحه، ذهب الاثنان خلف السيدة غوديليا لتحية «المبتلتين».

كان خوان سوستنيس وليساندرو أيضاً هناك، ليس بسبب المرأتين بل من أجل طبخة كروش منعشة توشك أن تكون جاهزة.

«أنتما لا تضيعان الاتجاه مطلقاً، قالت لهما غوديليا وهي تدخل. كنت أفكّر بأنكما هنا من أجل زوجتيكما ماريا إنياسيا وأرسينيا. حسناً. وأنتما يا سيدتيّ، إنكما مبلّلتان. إن خوانسوس

هو الذي يفضّل اللحم المحمّر أكثر من غيره. فهو لا ينقطع عن مراقبته. أنا أحبه لكني لا أستطيع هضمه. كان عليكما أن تشربا قدحاً. لأن له مفعولاً حسناً عندما يكون المرء مبتلاً.

ـ لقد ابتلّتا لأنهما لا تلبسان سوى سروالين...

ـ ماذا؟ سروالين؟ احتجت أرسينيا مندهشة.

ـ نعم لقد قلت: سروالين. لأن ما ترتديانه ليس ثياباً، تابع ماكاريو، ليمازحهنّ. قميص مقور حتى السرة والتنورة فوق الركبتين...

ـ كفى مبالغة، ياماكاريو!» صرخت السيدة إنياسيا غاضبة. ثم استعادت نبرتها الطبيعية: «سواء رضيت بذلك أم لا، علينا أن نتعود على هذا النوع من اللباس، وإلاّ فإن الناس، إذا ما سافرنا إلى هناك، سوف يعتبروننا من الغجر.

ـ أشك في أن تتمكّن إحداكنّ من أن تنفذ من خاتم... لا أنت ياغوديليا، ولا السيدة كورونا... أشك في ذلك...» قال باستيان، مازجاً المزاح بالجدّ، محاولاً أن يلفت انتباه ماكاريو، زوج الأخيرة، الذي وافق بإيماءة من رأسه ملاحظاً:

«زوجتي كورونا ـ إلاّ إذا أعيد تكوينها! ـ تشبه الهنود الحمر الذين يغطسون عارين تماماً في حمامهم البخاري. والآن لأنها لم تتمكن من رؤيتهما بسبب مرض عينيها، أو بسبب كونها صدّقت فعلاً أن المرأتين عاريتان إلاّ من السروالين...

ـ كلا، ولكننا أتينا معنا بجهاز يسمعنا صوت المطر» قالت السيدة أرسينيا ساخرة كي تبيّن أن إلحاح ماكاريو على المزاح في موضوع السراويل يوحي لها بالأثر الرتيب الذي يحدثه المطر وهو ينزل. ثم عقّبت قائلة:

«بالنسبة لكورونا، كلّ ما ليس صلاة أو نوماً هو الجحيم.

ـ لكلٍّ معتقداته» تدخل خوان سوستنيس دون أن يشيح بنظره

عن الطبخة، ولقد توجب عليه أن يبصق حتى يواصل الكلام، لفرط ما كان لعابه يسيل، لرائحة الطعام؛ «ولكن إذا كان الأمر يتعلّق بالموضة هناك، فإن زوجتي على حقّ، كيف عساهن يظهرن بتنانيرهن الفزّاعة في بلد كلّ نسائه يرتدين فساتين قصيرة؟».

وبينما كان ماكاريو يملأ الكؤوس من جديد، فكرت غوديليا بأن الفرصة قد حانت لاستهداف أرسينيا بالمزاح بعد أن استهدفت الأخيرة كورونا المسكينة بالتهكّم:

«لا ينبغي تقصير التنورة فقط وإنما الشعر أيضاً... ينبغي قصُّهُ بطريقة جيدة... أليس كذلك!... وكذلك الأسماء... لأن أسماءنا لاتتماشى والمجتمع الراقي... أرسينيا مثلاً، ينبغي أن تُنادى سونيا، وماريا أنياسيا ماري، باختصار.

- وهل تعتقدين أنك تثيريننا بذلك؟... ردّت أنياسيا فوراً... نعم سوف أكون ماري وأرسينيا سونيا، اسم روسي كما في الفيلم...».

* * *

لمسة ذهبية هنا وأخرى هناك، في السماء المغيّمة والحرارة تزداد ارتفاعاً، هكذا يكون الطقس دائماً بعد وابل من المطر. بخار يرتفع من الأرض كما يرتفع من جلد دابة لا تبرد. ضجيج آليات القطار على السكة. نوافذ البيوت مضاءة. لذة العودة إلى أرجوحة النوم... موسيقى، موسيقى تنبثق من الصمت، موسيقات إنسانية صغيرة، أسطوانات، أجهزة راديو... الأمر الذي لا يعني شيئاً وسط التناغم الموسيقي العظيم للأنواع التي تحدث ضجيجاً وهي تعيش، لأن دمها، لأن حبها، لا يعيشان إلاّ بالتحول إلى موسيقى... كلّ هذا التشابك من الأنغام...

انتشر الخبر المتعلّق بقضية الأراضي... انتشر... وجنّ جنون القوم... من كون الأراضي ستوزّع عليهم... ستعطى بالتساوي أشدهم فقراً... ستعطى لهم مقابل إيجار زراعي... طويل المدى...

ونزيه... لن يدفعوا كثيراً من أجل ذلك... ستباع لهم بثلث الثمن... بربع الثمن... كان أقارب وأصدقاء ومعارف آل كوجوبول وآل آيوك كايتان يتناقلون الخبر، وبعضهم يعتقد أنه سوف يحابى أثناء توزيع الأراضي التي لم يعد أصحابها في حاجة إليها لأنهم أصبحوا أثرياء وسيسافرون ليقيموا في الخارج. ستوزع عليهم... ستعطى لهم... من دون أن يكلفهم ذلك شيئاً... هكذا... ينبغي دفع أجرة كاتب العدل... ولكن ذلك هيّن. ثم إنها أرض جيدة، مزارع خصبة في أوج عطائها.

«لقد أزعجني المدرّس بقضيّة البيع» قال تشاشو دومنغيز وهو يدخل إلى دكان «بيادرا سانتا»، حيث كلّ شيء يباع حتّى الأطعمة. إنه نوع من «الكانتين».

كان قد دخل من الباب مبتهجاً وهو يدخّن سيجاراً فخماً اشتراه من المفوضية.

«ولكن من دون وشاح، تبدو ضربة الساطور عليك يا عزيزي، قال بيادرا سانتا وهو يلوح خلف «الكونتوار»، ليسأله عمّا يقدم له.

ـ لاشك أن هذا الإزعاج الجديد لا يضفي عليَّ جمالاً!

قال الرجل وهو يمرّ بأنامله على ندبة تمتد من رقبته إلى وسط خدّه، كانت قد تركتها ضربة ساطور خصمه.

ـ نعم. لكن ذقنك يغطيها، بما فيه الكفاية...

ـ أوه يا بيادرا سانتا... إنه إزعاج صغير في الحياة... وأنا أريد أن أشرب في صحتك قدحاً من العرق، هل عندك مانغا خضراء من أجل المازة؟

ـ ثمة شيء ما، يا تشاشو. هل تريد جبناً؟

ـ إذا كان من «زاكابا»... نعم، لأنني أنا أيضاً من هناك، وهكذا تكون كأنك تناولني لقمة من أرضي...».

أخذ قدح العرق، وقبل أن يبتلعه:

«حتّى هذا العرق المقدّس، يجفّ في قصبه على الساحل!... إنه مدهش!...

- والآن هل حان البتّ في قضيّة الأراضي؟» سأله بيادرا سانتا، بينما الزبون يشرب وهو يجهّز له صحناً من الجبن الأبيض.

«هذا ما يقولونه. أنا جاهز للمزاد. إذا لم يرتفع كثيراً، سوف أشتري قطعة من الأرض» دخل زبائن آخرون. كانوا جميعهم يبدون من نموذج تشاشو. جرعة في الحلق وبصقة على الأرض، ثم تنهدة ضعيفة مع وضع اليد على الزنار حيث تتدلى الجعبة والمسدّس، لترك المجال حرّاً للذراع كي تتناول الرصاصة الثانية قبل الثالثة، الثالثة قبل الرابعة والرابعة قبل الخامسة، كما أوضحوا ذلك، «أنا، قال تشاشو، لا أدع مجالاً لمثل هذه الحسابات عندما أطلق بسرعة. كلّ الرصاصات متشابهة. وليس هناك رصاصة أخيرة...».

كانت الساحة متألقة من أشعة الشمس، شمس قاسية، شمس منشّاة وحادة. جماعات من القرويين ذوي قبعات عريضة، وبناطيل وأردان قمصان؛ فرسان يقبلون ويحاذرون دعس أحد ممن كانوا يروحون ويجيئون هنا وهناك حفاة أو منتعلين صنادل جلدية، في انتظار التوزيع... وبالنسبة للفلاحين، حسب سماعهم، فإن الأمر يتعلق بتوزيع مجاني، ونظراً لكونهم لا يجيدون القراءة فإنهم لم يفهموا ما يقوله الإعلان الملصق على باب العمدية والذي يبدأ بهذه الكلمات: «بيع أراضٍ بالمزاد». وحتى لو تمكنوا من القراءة، لما صدقوا شيئاً، لأن تصديقه لا يناسبهم. وما هو مكتوب، عندما لا نريد تصديقه، مهما كان معناه، لا يعني شيئاً.

وصل آل آيوك كايتان على الخيول، وباستيان كوجوبول في سيارة طويلة مثل قاطرة، غطاؤها مسدل ودواليبها بيضاء، ومفضّضة في مواضع كثيرة. كان القاضي والعمدة في انتظارهم، وكان للأخير عكّاز ذات شرابات سوداء ومقبض فضّي.

قاطع حصان بكامله الخطبة التي كان يلقيها القاضي حول منافع تقسيم الأراضي للقضاء على الـ «لاتيفونديا»(*)... فبعد أن كشر الحيوان عن أسنانه كبرق من عاج ومن زبد، تجمّع مثل رعد في سحاب جلده الجميل اللماع، كي يثب بكل حزم، حيواني مثل الرغبة، على فرس، صيحات، هتاف، صخب، زعيق، وعمال يقفزون مثل الأسماك الطائرة المجنّحة ليوقفوا الحيوان المهتاج...

«هذه بداية سيئة! قال بيادرا سانتا لزوجته، وهما أمام باب دكانهما المشرف على الساحة، قريباً من العمدية. وسوف يستفحل الأمر أكثر. سمعتهم يصرخون.

ـ قسموا الأراضي! وزّعوها! ينبغي توزيعها! التوزيع! التوزيع!...».

ولم يعد يوجد شيء يتعارض مع مطالب الفلاحين. إذ تم إسكات القاضي. ولم تبق للعمدة أية سلطة. وانهالت الأحجار الأولى مرتطمة على السيارة السوداء والفضيّة التي كانت عائلة كوجوبول في داخلها...

«التوزيع! التقسيم! قسموا الأراضي! وزعوها! التقسيم! التقسيم!».

الأفق، الساحة، السطوح، البيوت، الأرض، السماء، الجموع، الجموع الهائجة، كلّ ذلك لم يعد سوى أمر واحد، صرخة جماعية عظيمة:

«التقسيم! التقسيم! التقسيم!...».

دامت المعركة أقل من عملية الفحل والفرس، ولكن أيّ خراب! حفنات تراب مثل سحب من غبار، ضرب هراوات، قذف حجارة، وجوز هند فارغ وقوارير بيرة...

(*) الملكيات الزراعية الكبيرة.

«لقد كان الحصان مهتاجاً! قال تشاشو وهو يعود إلى حانة بيادرا سانتا وعيناه مرحتان مما رأى... أمّا كلّ واحد من هؤلاء الفلاحين فهيجانه مضاعف.

ـ من حسن الحظّ أن الدورية تدخلت! هتف صاحب الحانة.

ـ من حسن الحظ أو لسوئه، لقد سحقوا سيارة ذلك الأحمق كوجوبول!

ـ ولكن ذلك يا عزيزي يشبه قلع شعرة واحدة من قطّ...

ـ ذلك أفضل من لا شيء على أية حال! يريدون بيع الأرض التي ينبغي توزيعها مجاناً!... هذا تحدٍّ كبير لم نرَ مثله قط... هم الأغنياء جدّاً، جاؤوا ليشتموا أناساً فقراء جداً! ولكن هذا هو الاستغلال!... هيّا! ناولني كأساً كي أزيل هذه المرارة من فمي!... عرق القصب لذيذ عندما يشربه المرء ليتغاضى عن الظلم، لأنّ لا شيء يا عزيزي بيادرا، أمرّ من الظلم».

14

في تلك الليلة كان الآمر ملغّزاً أكثر منه في أي وقت، وكان أهلاً بلقبه. كانوا يلقبونه بـ «التثاؤب». ولقد تحدّث عن الحرب بكلام مبهم، رغم أنها هذه المرة ليست حرباً ضد الآسيويين الذين يزحفون في سيل دائري على العالم مثل الجراثيم ـ بملايين وملايين ـ ويغيرون مباغتة بجماهير بشرية منضبطة وانتحارية، كلا. هذه المرّة يتعلق الأمر بحرب واقعية أكثر، مباشرة أكثر، وداخلية أكثر...

كان الملازم أول مضطجعاً على أرجوحته يحاول النوم. لكن الحرارة تزعجه وتمنع نومه... ليته ينعس قليلاً... ليته يغفو! ليته يجد وضعاً مناسباً لجسده!

الحرب. في كل مرة يقدم استقالته، يذكره «التثاؤب» بقصة الحرب. ولكن هذه المرة، جدَّ جديدٌ في جوابه. من يطلب الاستقالة في هذه الظروف يُعدمْ. يفتح عينيه ثم يغمضهما. إنهم يعدمونه من

الخلف. العاصفة تقترب. وهذا هو سبب الحرارة الشديدة مثل تلك الحرب التي ستفاجئهم. ستائر ذات تشكيلات متراصة. ومن السقف والجدران الخشبية يتسرب رذاذها. أدرك معطفه وتغطى به. الحرب. الآسيويون، يمكنهم الإبحار في المطر ثم ينقضون عليكم وكأنهم ينزلون من سفن المطر. وكما هو الحال سجاداتهم المزينة بتنّينات ومحاربين ـ لا يعرف من منهم الأكبر سنّاً: بشواربهم وأنيابهم وخناجرهم ـ بوسعهم أن يلوحوا في خيوط المطر... نام، «هدهادة» المطر تهزهز قرميد السطح. معركة صاخبة، نائية، نائية باعتبارها صارت حلمه المتعلق بالحرب. كان يحلم أنه مستيقظ، مستيقظ ويعود إلى النوم، وفي نومه، كان يحارب ضدّ أولئك الذين في ساعات الشدة تصدّوا لمطالب الفلاحين الإنسانية، مطالب الجذور التي لا تربة لها. وبسبب تغيّر في إيقاع الساعات الأبدية، صار الآن يقاتل إلى جانب الناس الذين سبق وأن صدّهم دفاعاً عن مبادئ السلطة، آمراً جنوده بتلقيم بنادقهم؟ ولقد كان من شأنه أن يصرخ: أطلقوا النار! لو أنّ هؤلاء المجانين المسعورين لم يتوقفوا أمام تهديد البنادق. أطلقوا النار!

لكنه الآن يقاتل من أجلهم ومعهم. سيفه ينبثق من بين الحشد البشري الحارق، من اندفاعة المعوزين التي لا تقهر، من بين الشعب الذي يطالب بالأرض، وهو يأمر بتسديد السلاح ضدّ الذين كان بالأمس يدافع عنهم.

أخرج ذراعيه من الأرجوحة، محاولاً التشبّث بشيء آخر غير الفراغ.

يداه ترفرفان كأنما يجذبهما ضوء القنديل، الذي ظلّ مضاء. لمستاه مرتين ثم ثلاثاً مثل يدي أعمى يتحسس النور عبر حرارة الشعلة. عندما اصطدم المصباح بالحاجز، استيقظ. رأى يديه كفراشتين. ولمّا سحبهما، بعد أن أدرك أنهما أطفأتا النور، أحسَّ أنهما فراشتان، إلاّ أن إحداهما كانت تمسك بشيء ما. السيف. سيف لم يعد الآن سوى حلم محطّم.

وما أن استيقظ تماماً حتى نزل إلى المدينة. حذاؤه يؤلمه، كما أنه يشعر بألم خفيف في رأسه، كان بيادرا سانتا عند باب دكانه، مشعث الشعر، يرتدي قميصاً وبنطالاً أبيضين. أنفه متدلٍ على شاربه الذي يخفي شفته العليا. وتكلم:

«لا يذهبنّ بك الظن أني كنت أراقبك. لقد شاهدتك مقبلاً وانتظرتك كي أدعوك لاحتساء كأس بيرة.

- ليس دوري في الخدمة، ولقد خرجت لأتفسّح قليلاً.

- هذا ما افترضته عندما شاهدتك تقبل بلباسك المدني...

- وكيف الوضع هنا؟

- جيّد.

- جيّد فقط... أم جيّد تماماً؟

- والسيد الآمر ألا يزال يشكو من الروماتيزم؟

- إن ذلك يزعجه كثيراً.

- كان هنا في السابق مطبّب مناسب لمثل هذه الآلام، لكنه ذهب إلى الشاطئ الآخر. بالمناسبة، سيدي الملازم أول، يبدو أن هناك اضطرابات في الشاطئ الآخر.

- لا توجد إلاّ هنا، عندكم، البيرة المبرّدة جيّداً...

- إنني أعمل دائماً على أن تكون مثلجة... إيه، نعم، سيدي الملازم أول، كما قلت لك، يبدو أن ثمة نزاعاً مع جيراننا يتعلق بمشكلة حدودية...

- هذا ما يقولونه، أجاب الملازم أول، الذي روى له بيادرا سانتا حوار الآمر القائد الملغّز.

- إذا اندلعت حرب سوف يكون الانهيار. إذا كان الوضع سيئاً من دون حرب... يوجد الكثير من الأموال، ولكن ينبغي معرفة ماذا يفعلون بها!... يمكن أن نحكم على الأمور من خلال دكاني. شركة

الموز تعطي آلاف الدولارات للناس الذين يعملون عندها؛ ولكن، وكأنما ذلك بفعل السحر، لا يكاد القوم يقبضون حتّى يُنهب منهم المال فيظلّوا من دون فلس. كما لو أن الذهب يأتينا بحجم ثور من جانب وتلتهمه مضخّة من الجانب الآخر.

ـ الأمر يتعلق أيضاً بحرب مع اليابان، قال الضابط، كي يجعل بيادرا سانتا يتحدّث...

ـ حرب مع اليابان؟ لن تكون خطرة. الخطر يأتي اليوم من حرب الجوار. لقد بدؤوا بالتجنيد. جنود ومؤن. يا للإزعاج!... لا ينقص سوى تجنيد الناس الذين هنا. عندئذٍ وداعاً للأعمال! حالياً الصمت يخيم على الأخبار! الناس يختبئون، وهم على حق. إنهم يخشون أن يُقتلعوا من بيوتهم ليذهبوا للموت. إذ إنّ الجنود الفقراء في نهاية المطاف لا يصلحون إلاّ لهذا: الموت.

ـ المضاعفات كثيرة.

ـ مشكلة حدود، حسب ما تقول الجريدة. يبدو أنّ الآخرين يريدون توسيع الخط الفاصل الذي يمرّ بالنسبة لنا عالياً جدّاً فوق الجبل. ولكن ما هو مثير أن المشكلة أُثيرت هكذا، فجأة وبطريقة عدائية. مشاكل الساحل تسئمني. أشكو من سعال مؤلم، ولكن مَنْ أدرَاك أنّني لن أعود وقد ترقيت برتبتين من الحرب، نقيباً على الأقل؟...

ـ كلا. إلاّ إذا كانت معركتنا «مع دجاجات مبتلّة». التحدّي يقابله التحدّي، كلنا نرغب في شمّ رائحة البارود... وهذا يستحق كأس بيرة آخر.

ـ أنا الذي سوف أدفع ثمنه، قال الملازم أوّل.

ـ إنها أول مرّة أدعوك فيها للشرب، يا صديقي العزيز. ثلاثة كؤوس للجندي. ونحن لا نزال في الثاني.

ـ إذن سوف أدفع ثمن الثالثة.

ـ التفاهم يأتي عبر التحادث. الثالثة على حسابك إذن. كان عليهم أن يستشيرونا لحلّ مشكلة الحدود، من دون حرب.

ـ وكيف أحصل على ترقية إذن؟...

ـ لقد حصلت على الترقية، بفضل الحرب التي تشنونها علينا في وقت السلم.

ـ لوجه الله!... وأنتم ألا تربحون شيئاً من الأعمال التي تقومون بها في زمن المجاعة؟... في صحتك! أشربُها قبل أن تتلاشى الرّغوة.

ـ احلق شاربك كي لا تكون بحاجة إلى تكوين شارب من الرغوة.

ـ إنك تزعجني!... أعلم أنني فحل سواء كان لي شارب أم لا، هه! وأنا مستعد لأن أنقض على أيّ شخص يعترض سبيلي... مهما كان!...

ـ ما تريده هو أن نـ... هيّا لنتناول كأساً آخر!

ـ الذي يحكم لا يطلب. أنا الذي سأدفع ثمنه».

ملأ بيادرا سانتا الكأسين. السائل العنبري يطفح مثل ربطة من زبد، منعش... اعتَذَرَ وهو يضع الكأسين على حافة المشرب:

«مع العلم أنني لم أهنئك بأثريائك الجدد!...

ـ اخرس! يا لهم من جبناء! من حسن الحظ أنهم ذهبوا؛ وأخشى أن يعودوا!... آه! يا للمصيبة إن النساء هن اللواتي كنّ يتبعنهم أكثر. يأتين إليهم كالجراد، القحاب! وليس لأنهنّ نساء عاهرات، كلا، إنهن نساء شريفات يرغبن في التعهّر من أجل المال. ولكن لنتحدّث في موضوع آخر، لأني أستاء من التفكير في أولئك البائسين الذين صاروا أكثر بؤساً وهم أغنياء!... لقد بثت فيهم قضية الأرض الرعب، وإلاّ لعادوا في أقرب فرصة.

ـ هل تعرف من سيحصل على تلك الأراضي؟

ـ ليست لي أدنى فكرة.

ـ لينو لوسيرو، الذي كان شريكهم...

ـ ذلك الرجل يعجبني، قال الضابط، وهو يثبت عينيه اللتين بلون البندق في عيني بيادرا سانتا، كما لو كان يسبر أفكاره.

ـ أنا أيضاً أجده رجلاً مستقيماً. الأراضي تناسبه لأنّ أغلبها مجاور لأرضه. يشتريها لأنه يريد زيادة الإنتاج، وحسب ما يقال، فإنه سيستخدم ثروته في زراعات تصدير إلى بلدان أخرى. لقد اقتنص الفرصة، عندما حانت».

في أثناء ذلك، نزل لينو من على صهوة حصانه وشده إلى إحدى نوافذ بيت بيادرا سانتا وأسرع بالدخول لأن الشمس كانت محرقة.

«إنها تمطر ناراً، يا دون بيادرا! إنها النار تمطر في بلادكم! قال وهو يدخل الحانة ـ الدكان.

ـ ولهذا السبب لا توجد مظلاّت يا دون لينو... ماعدا تلك التي تبيعها محلات الصينيين...

ـ ذلك هو الشيء الوحيد الذي ينقصني، عدوّ الحكومة! ومع تلك المظلّة: الخطر الأصفر!

ـ دون لينو، أقدم لك الملازم أول في الحامية.

ـ بيدرو دومينغو سالومي، أكمل الضابط وهو يصافح يد القادم الجديد.

ـ لينو لوسيرو في خدمتكم، أنا أسكن في الـ «سميرأميس» الذي كان حتى الساعة بيتي وهو الآن بيتك.

ـ كأس بيرة يا دون لينو؟...

ـ بيرة مع شراب ليمون غازي. إنها الشيء الوحيد الذي يذهب عني الظمأ. وكذلك أنت سيدي الملازم أول، بعد أيام عديدة من التعب...

ـ وكيف!

ـ ولكنك تستحق هذه الهدية، أنت والدورية المرافقة.

ـ لم يشكرونا حتّى...

ـ هيا!... في صحتك أيها الملازم أول!... في صحتك يا دون بيادرا!

ـ وهل سمعت بخبر اليوم؟ سأل صاحب الدكان. هناك إشاعات عن حرب...

ـ هذا ما قرأته في جرائد المساء. عناوين كبيرة على الصفحات الأولى، ثمن كل كلمة عدد لابأس به من «البيزوات» الذهبية... هذا ما كان يقوله ليستر ميد، وذاك الرجل كان يعرف نقطة الضعف جيداً... لكن الملازم أول سالومي يعرف أكثر منّا من دون شك...

ـ لست أدري عمّا تتحدّث».

وبعد أن شرب كأس البيرة الذي لم يكن كافياً لإزالة العطش، طلب لينو من بيادرا سانتا معلومات حول أراضي شركائه السابقين، وكان يفاوض عليها بوساطة شخص مسخّر. كتب ملاحظات على ورقة. اعتذر من الملازم أوّل ثم... إلى أتون النهار! رافقه بيادرا سانتا حتّى الشارع.

«إذا حصلت اضطرابات يا دون لينو، يكون الوضع قاسياً. التجارة حالياً كاسدة.

ـ عندئذٍ سوف تكون الكلمة المتداولة صحيحة بالنسبة لك: «بيادرا سانتا يصطاد الذباب!».

ـ عافاك الله! هوذا كلام معزٍّ!».

أظهر سالومي، الذي كان واقفاً أمام بضائعٍ معروضة، علبة سجائر وعلبة ثقاب لمستخدم صاحب الدكان متهيئاً لدفع ثمنهما، إلاّ أن بيادرا سانتا أمسك بيده متظاهراً بالغيظ:

«ألا تدري أنها جريمة، يا عزيزي! الدفع جريمة!».

رفض سالومي بشدة أن يتقبل علبتَي السجائر والثقاب هدية.

«لا أجد أية متعة في ذلك، ثم إنني لن أدخن إذا لم أدفع لك الثمن. وهل تظنّ أنيّ سأقبل التدخين والشرب مجاناً لكوني عسكرياً؟ إذا كنت تعتقد ذلك فأنت مخطىء.

ـ لا تغضب. إنها مزحة.

ـ حتى لو كانت مزحة فأنا لا أتقبلها.

ـ لنعلب عليها بالنّرد إذا شئت.

ـ أوافق ولكن بشرط أن نلعب على كل ما شربنا أيضاً.

ـ هات نرداً وجاماً(*)، أمر بيادرا سانتا مساعده، وقدم لنا كأسي بيرة أيضاً لأن جنرال المستقبل هذا... أعاد لي العطش».

لاحت مجموعة من السكان، معظمهم من الرجال، من زاوية الشارع المؤدي إلى المزارع، وتقدموا باتجاه وسط المنزل. كان على رأسهم القاضي وحوله بضعة صبيان يحملون علماً أزرق وأبيض. وصلوا بسرعة أمام مكاتب البلدية، وعندما خرج العمدة توجه إليه القاضي بخطاب مؤثر طالباً منه أن يدعو الشعب إلى اجتماع مفتوح وذلك لجعل تضامن المواطنين في نظر السلطات العليا جلياً، في الحادثة الحالية.

«... الوطن في خطر!... العدو بالمرصاد!... هبوا جميعاً كرجل واحد، للدفاع عن أراضي أجدادنا!...».

وتعالت كلمات القاضي الأخيرة وسط التصفيق والهتاف.

«ناولني قدحاً! طلب كنور الأصهب وهو يدخل، وهو الذي لم يعد إلى رشده تماماً منذ تلك المرة التي لم يتمكن فيها من توقيف الليل. قدح من نفس المشروب، من أجل التنويع! كرر قائلاً وهو

(*) وعاء صغير يوضع فيه النرد ثم يخض ويرمى.

يقترب من الملازم أول ومن الدكاني وكانا يلعبان النرد على المشروب والسجائر وعلبة الكبريت.

ـ «روم» أم «كنول»؟

ـ لا فرق عندي».

وعندما كان واقفاً أمام المشرب والكأس بيده، سالت من فمه بصقة طويلة لم تكن لتنتهي، وبلغت الأرض تقريباً دون أن تنقطع.

«هل تريدان أن أقول لكما شيئاً؟ سأل اللاعبين وهو يقترب منهما أكثر، بعد أن شرب وضرب على صدره بيد مرتعشة وذات براثن، وذلك لكي يمرر ما احتساه. إيه إذن، قاضي السلام، يا ابن عمي، ليس سوى الـ... خادم الأمين لليانكي. وللحرب رائحة كريهة إذا وصلت إلى هنا... إنها تفوح برائحة اليانكي».

وفي أثناء ذلك، كانوا في العمدية يحررون نص بيان لإشهار الحرب يطالب الشعب بالتوقيع على الوثيقة المؤثرة التي تطالب الحكومة باستخدام السلاح دفاعاً عن تراب الوطن «القدوس»، وتدعو كل عمديات الجمهورية إلى اتخاذ نفس الموقف وفي أقرب الآجال.

دخلت التويانا وهي تمضغ علكة، نافرة الصدر، جميلة الوجه ومتصنعة، لقد جاءت تبحث عن الأصهب.

«اسمع يا كورنكو، قالت وهي تمسك بذراعه، إذا كنت ستذهب إلى الحرب، أريد أن أجهز لك حاجياتك ومؤونتك، ماذا تحتاج؟».

أجاب الأصهب بعد أن تخلص منها بقوة وهو نصف ساخط:

«وهل تعتقدين إنني سأتطوع لأنني أحب الشراب؟ هل تعرفين ما هذه الحرب؟ أنا أعرف المنطقة ولهذا أتكلم عنها. من هذه الجهة من الحدود ألية، ومن الجهة الأخرى ألية أخرى، والأليتان هما ملك الشركة. أما نحن، فلم يبقوا لنا سوى الأست، حتى نخرج مثل ديدان الأرض ونقوم بحربهم. الأمر لا يتعلق بأرضنا. فليتحاربوا، هم!...

ـ آه! أنت طبعاً خسيس! هذا ما توصل إليه الخمر! أما أنا فانني أشعر بحكة في يدي للإمساك بسلاح، رغم أنني لا أرتدي بنطالاً. جبان! ينبغي إعدام من هم مثلك!

ـ كل ما هنالك، أنه مصاب بالهذيان الرعاشي، قال بيادرا سانتا بصوت خفيض للتويانا وهو في أثناء ذلك يهتم بالزبائن الذين يدخلون، في حين كانت زوجته والمستخدم يهتمان بالنساء اللائي يأتين لشراء المؤن، والثرثرة حول الاضطرابات.

ـ هل علمتم بالخبر الجديد؟ سأل الأخن وهو يدخل. لقد خصصت الشركة سكة من أجل القطارات، وهم الآن يوزعون الثياب في المفوضية. لقد بدأت الحرب.

ـ مستحيل»، هتف الضابط.

ثم أضاف: «من حسن الحظ أنني توصلت بفضل هذه «الآسات» الأربعة إلى التخلص مما ينبغي علي دفعه ثم... و...، سكت، حرك قطع النرد مرة آخرى في جامها ورماها، سادتي كل شيء جاهز! خمسة «آسات»!...

ـ حماك الله يا عزيزي!... حسناً! يا سيدي الملازم. ليكن في علمك أن هيبوليتو بيادرا سانتا ينتظرك من أجل الأخذ بالثأر، قبل أن يتم تجنيده».

عاد بيدرو دومينغو سالومي إلى الثكنة قبل انتهاء إجازته، ولم يكن قد حدث شيء هناك. «ما وراءك أيها الملازم أول؟ سأله «التثاؤب» من مكتبه.

ـ هل تسمح سيدي الآمر؟

ـ أدخل!...».

أخبر رئيسه بما يحدث في الساحة، حول الاجتماع المفتوح الذي اقترحه القاضي والعمدة.

«كل ذلك يبدو من صنع الشركة!...» سمع وهو يجيب بين تثاؤبتين.

روى له أيضاً أن الشركة وضعت القطارات تحت تصرف الحكومة، في حالة تعبئة عامة، وكذلك بأنهم يوزعون الثياب في المفوضية.

«هنالك أيضاً موظف التلغراف الأحمر الذي حاول الانتحار، ولكنه لم يتوصل إلا إلى إلحاق الضرر بنفسه... ينبغي الاتصال بأحد العمال الميكانيكيين المختصين... ولكن لا يمكن أن يكون من الشركة ولا من سكك الحديد.

ـ لا حاجة إليه. سيدي الآمر. لقد عملت في التلغراف سابقاً، وأعتقد أنني أجيد استخدامه مثل بولو كاماي.

ـ أنت؟

ـ نعم، أنا

ـ لقد ذهب نائبه إلى المستشفى ليرى كيف حاله. يقال إنه ترك رسالة للسلطات، إذن ما دمت أخبرتني بأن ذلك القاضي السخيف في العمدية، لتحضير الاجتماع الذي تحدث عنه، فلا شك يا سالومي أن الرسالة الآن على مكتبه. اذهب إلى هناك. إذا كان الباب مغلقاً، أدخل من النافذة. خذ الرسالة وجئني بها».

عاد الملازم أول وركض تقريباً كي يصل قبل عودة القاضي إلى مكتبه. هناك، تحت مرفقة الورق، كانت رسالة بولو كاماي مخبأة، لم تكن ملوثة بحبر أحمر، بل بالدم. دمه الذي انبجس من وريده المقطوع ورش ظرف الرسالة بختمه المميت.

افتكها الآمر من بين يديه، وقبل أن يدخل مكتبه ليطلع على ماتحتويه، تثاءب وقال لمرؤوسه إنه قرر توقيفه بسبب ارتدائه لباساً مدنياً.

* * *

«يا للمحاميين الجميلين!

ـ عجة بيض بالجبن!

ـ فلفل محشو!

ـ ليمون!

ـ فطائر ذرة!

ـ «فطائر لوروكو».(*)

ـ منغا!».

على جانبي القطار المتوقف، وفي الطقس الأتوني الحارق في ريو برافو، كانت الهنديات النظيفات كماء الينابيع الذي اغتسلن فيه لساعتهن، يعرضن بضاعتهن على المسافرين.

«أتريد أرزاً؟... دجاج بالرز!

ـ بيض مسلوق...

ـ أنشيلادا!...(**) أتشتري مني أنشيلادا؟

ـ رز بالحليب!...

ـ قهوة! قهوة بالحليب! قهوة ساخنة!».

وكانت أيدي المسافرين الممدودة من بوابات القطار، تقتني من البائعات ما يوده أصحابها من هذا السوق الذي تمتد ضفّتاه تحت عيونهم من جانبي السكة الحديدة.

«بيرة طيبة!

ـ جوز هند!

ـ خبز ذرة!».

(*) بذور تأكل مخلوطة بالأرز أومعدة مع الزبدة والدقيق والبيض.

(**) فطائر ذرة محشوة بمواد غذائية أخرى ومتبلة بالفلفل.

وعلى أغصان الأشجار اللامعة ذات الأوراق الكبيرة على أشكال قلوب خضراء، كانت «الغواكامايات»(*) ذات ألوان قوس قزح الاستوائي، تثرثر كما لو أنها تكرر أصوات بائعات الثمار والمأكولات. ولم يعد يعرف المرء ممن كانت العروض متأتية: من تلك الببغاوات أو من الهنديات المرتديات تنانير داخلية قصيرة من حرير فاقع الألوان.

«شراب اللوز! بخمسة فلوس الكأس!

ـ فطائر الموز!».

وكانت الأصوات تختلط وكأنها مضفورة ببعضها البعض: «بطيخ! بباي! جوافة! كوروسول! آنون! كيميتوس! برقوق بري! زعرور! موز غينيو! موز غينيو مرقش! موز غينيو ذهبي!».(**)

وأخرى تنادي على المرطبات:

«تيست!(***)

ـ قويسة!...».

كان بعض الباعة يصعدون إلى المقطورات ثم ينزلون منها والقطار على أهبة الرحيل محركاً ذيله في منعطفات ذلك الطريق العجيب، مثل درج لولبي، يتسلّق من الساحل إلى المرتفعات.

«ببغاوات!

ـ ببغاوان متلازمان!

ـ سلطعون!».

وكانوا يعرضون سلاطعين مشكوكة في ساق نبتة معترشة، سلاطعين ذات عيون ثابتة، وملاقط متحركة.

(*) ببغاوات فاقعة الألوان طويلة الأذناب.

(**) من ثمار المناطق الاستوائية.

(***) عصير من دقيق الذرة المشوية والكاكاو والسكر

سعال، غثيان. سعال بلا تفال. قهقهات. كلمات بذيئة. أعقاب سجائر. سجائر فاخرة. بصاق. والقطار في انتظار إشارة الانطلاق.

إذا تأخر أكثر فلن يصل.

«صباح الخير سيدي الملازم أول! حيا أحد المسافرين سالومي.

ـ صباح الخير! أجاب الآخر وهو يتسلق المرقاة.

ـ أسرع! أسرع! وإلا فإنه سيتأخر أكثر.

ـ لقد تأخر الوقت!

ـ لم تبقَ سوى دقائق على الانطلاق... سينطلق...».

وسمع بخار الماء وهو يمر تحت المقطورات في الأنابيب.

«هل نقلوك إلى هناك، سيدي الملازم أول؟

ـ آه! إن شاء الله!».

اجتاز القطار الهضبة الممتدة بلا نهاية على الجانبين. وكانت سحب بيضاء خفيفة تنزف لتكنس الأعشاب. وغير عبور جسر على أحد الأنهار من السرعة الرتيبة للقطار الذي كانت عجلاته تحدث ضجة مكتومة وهو يتقدم بسرعة كبيرة.

كان بيدرو دومينغو سالومي، الملازم أول في سلاح المشاة يحمل معه الرسالة التي كتبها بولو كاماي قبل أن يعمد إلى قطع وريده ، في ظرف مختوم كبير من مكتب قبطانية المرفأ.

«يقال بأن نزاعاً سيحدث، جاء ليقول له ذاك الذي حياه لدى وصول القطار. الشائعات هناك تتحدث عن الحرب... لقد جئت لأن عائلتي في الساحل الآخر، ومن الأفضل أن أكون معهم. لا ينبغي أن تفاجئنا الأحداث والعائلة مشتتة: أليس هذا رأيك أيضاً؟ أما إذا حدثت البلبلة، فلتحدث مرة واحدة نهائياً. يجب قطع أجنحة تلك الإشاعات...».

لمح سالومي بيو أديلايدو لوسيرو بعيداً عن مصطبة المقطورة.

ولم ينتبه الشاب الذي كان منحنياً باتجاه السكة، قبعته في يده وشعره يتطاير مع الريح، إلى أن اقترب الضابط منه كي يدفعه ويتلقفه في نفس الوقت.

«الرجال لا يخافون.

ـ أما أنا فقد خفت، اعترف الشاب وقد تملكه الشحوب وأخذ قلبه يخفق بقوة في صدره.

ـ وأبوك؟

ـ إنه يملك سيارتين، الآن.

ـ بلغه سلامي... ولا تعد إلى النوم ورأسك إلى السكة، لأن في ذلك خطراً. قد تكون هناك صخرة أو عارضة عامود، قاتلة في حالة الاصطدام».

عاد سالومي إلى مكانه. وأشعل سيجارة كي يخلد إلى التفكير. القطار يصل في السادسة والنصف مساء. من المحطة إلى وزارة الحربية. الوقت المطلوب لتسليم الرسالة ومن ثمة إلى الفندق. ثم النوم مباشرة، من أجل العودة غداً. إنها الأوامر. كان الظرف المختوم تحت صدرية بزته يشعره بأنه يحمل فيه عاصفة.

كان لينو لوسيرو هناك، برفقة ابنه. تركهما يقتربان ثم وقف وحياهما.

«تشرفنا!».

وتهيأ للذهاب عندما شد لينو على كتفه بيده اليسرى ليمنعه من الذهاب، ويصافحه بحرارة بيده اليمنى.

«إلى أين أنت ذاهب؟ سأله لينو ، وفي الوقت نفسه كان الملازم يتنحى قليلاً عن مقعده لكي يدع له مكاناً للجلوس إلى جانبه

ـ إلى العاصمة، وأنتما؟

ـ هل أنت في مهمة؟

ـ هذا ما قالوه».

انتهز بيو أديلايدو انشغالهما بالحديث وصعد إلى المصطبة كي يتلقى الهواء بوجهه. لو كنت طياراً على الأقل. فأمضي هكذا، أمضي كما أنا الآن، ولكن بين جناحين. كان يغمض عينيه من شدة الريح ولا يفتحهما إلا بعد ثوان. ولكن لا ينبغي إغماض العينين عندما يكون المرء طياراً. كان يجهد نفسه كي يحافظ على بؤبؤيه معرضين للريح. للغبار، وللدخان. رائحة الهواء أثناء سير القطار في منطقة منبسطة ومكشوفة، تختلف تماماً عن تلك التي يتنشقها عندما يدلف إلى أنفاق الصخور. هبوط. المشهد يمحي. الطريق المرسوم، ثم القطار الذي ينطلق، البرية من جديد، القطار بلا سكة، بلا عجلات، يطير مثل دودة يحملها جناحان صغيران لفراشة من دخان.

«لقد رووا ذلك عند الحلاق، قال لينو لسالومي. من؟ لا أذكر، ولكن هناك سمعت به. كنا كثيرين. لست أتذكر من الذي رواه. مع كل التفاصيل. لقد شوهدت الغواصة وهي تلوح في عرض البحر كان ذلك يوم الإثنين. ثم عادت إلى الظهور يوم الأربعاء. وعلم، فيما بعد، أن هناك معلومات دقيقة تم تسريبها إليها وتتعلق بالدفاع عن الباسيفيكي في قناة باناما.

ـ هذا أمر خطير، لاحظ الملازم أول. وإذا كان بولو كاماي قد فعل ذلك فإنه...

ـ لهذا السبب أقدم على الانتحار...

ـ نعم، قلت إذا كان بولو كاماي قد فعل ذلك، فإنه يكون قد عمل لحسابه الخاص، دون ترخيص.

ـ إذن، لحساب من؟

ـ هنا اللغز...».

كانت رسالة المنتحر تهتز تحت بدلته، كما لو أن، داخل ظرفها المختوم بأكبر ختم في القبطانية، كانت توجد عظام حاملها نفسه.

وتابع لوسيرو قائلاً:

«باختصار، لا شك أن الحكومة الآن في وضع حرج جداً. إذ إن التهديد يزداد من الجانب الآخر للحدود، ومن الطبيعي أننا بحاجة إلى مساعدة اليانكي. سوف يساعدوننا ذات يوم عندما يعلمون أننا متواطئون مع الغواصات اليابانية!...

ـ يا له من حادث سيء!... صدق من قال: يوم يغسل الفقير سقفه، تنزل الأمطار.

ـ ويقال، فضلاً عن ذلك، إن كاماي ترك رسالة، رسالة كانت على مكتب القاضي ثم اختفت. الأحمق! سوف يتعلم من ذلك كيف يكون ماكراً في «اجتماعاته المفتوحة».

ـ وماذا تعتقد يا سيد لوسيرو؟

ـ ما يعتقده الجميع: إن موظفاً سامياً في شركة الموز هو الذي اختلسها؛ ولكن هذا التفسير بالنسبة لي يدع مجالاً للدّحض...».

ثم تهيأ للوقوف كي يبحث عن ابنه. وعندما رآه مقبلاً، عاد إلى مقعده ليكمل جملته وهو يضرب بكف يده على ركبة الضابط الشاب:

«نعم، يترك مجالاً للدحض، لأنه، إذا كان القاضي يعمل لحسابهم فليس هناك ضرورة لإخفاء الوثيقة، وليس هذا كل شيء. ومن دون اللجوء إلى اختلاسها، كان بإمكانهم تعويضها بوثيقة أخرى لتبرئة أنفسهم، إذا لم تناسبهم تلك. تصور مثلاً أن كاماي اعترف بأنه استلم مبالغ باهظة من شركة الموز مقابل بثه لتلك المعلومات...

ـ ولكن أصحاب الشركة من أمريكا الشمالية...

ـ ليسوا من أي مكان... المال ليس له وطن... وإذا كانت المعلومات كاذبة، من أجل تلفيق تهمة خطيرة بموظف حكومي؟...».

أحس الملازم أول سالومي الذي كان يحمل الرسالة في صدره، أنه منتفخ كبرياء لفكرة كونه حال دون وقوع هذه الوثيقة، الفائقة الأهمية على ما يبدو، بين يدي أحد موظفي الشركة، أو بين يدي القاضي نفسه. كانت شفتاه تلتذان بنسيم الهضبة الناعم. لقد تمت مغادرة الملوحة الثقيلة على الساحل للدخول في جو له مذاق السكر...

وفي هذه الأثناء، جاء بيو أديلايدو وانتصب أمام والده ليقول له:

«بابا، أريد أن أصير طياراً».

أمسك لينو بيد ابنه وضربه عليها ضربات مداعبة صغيرة، على إيقاع سير القطار، ولكن دون أن يجيبه.

«بابا أريد...

ـ نعم، سنرى...

ـ هل جئت من أجل بعض الأعمال؟ سأله الملازم أول.

ـ نعم، من أجل بعض الأعمال. أحتاج إلى عدد من الآلات الزراعية لأكثف زراعتي. لا شك أنك سمعت بـ «ليستر ميد»؟

ـ ما يروى عنه في المزارع، سيدي لوسيرو. حقاً لقد كان رجلاً عظيماً.

ـ بالنسبة لي، هو أطيب من عرفت قلباً كان يحلم بمجموعة من مزارعي الموز، يستطيعون، بفضل التعاون في رؤوس الأموال وفي العمل، أن يحرروا أراضينا من الاستغلال المشؤوم الذي تعانيه.

ـ وأنت، على ما اعتقد، تفكر في بعث هذه اللحظة...

ـ نعم، ولهذا السبب رفضت السكن في المدن الكبرى، كما هي حال كوجوبول وآل آيوك كايتان.

ـ لقد أغروهم بذلك فطار صوابهم.

ـ كلٌّ يفكر برأسه.

ـ سوف تجد كثيرين يساعدونك. لو أنهم أعطوني إجازتي، لعملت معك مغمض العينين.

ـ أجد أو لا أجد... شكراً جزيلاً على ثقتك... لقد آمنت أن من واجبي، بعد حصولي على هذا الإرث، أن أرضى في الوقت نفسه بالمعدن البارد، والنار، وبشغف الحياة الذي كان يحرك ليستر ميد ودونيا ليلاند».

ظل الاسم على شفتيه: ليلاند... وكان يرى خصلة شعرها التي من الذهب الأخضر، في حين كان القطار يسير بهدوء، بلا ضجة، في مقبرة أشجار موز مقلوبة... وإنها لميتة الآن...

«بابا هل ستأخذني هذا المساء إلى السينما؟

ـ إذا كان لنا متسع من الوقت...

ـ وعليك أن تشتري لي دراجة، وتشتري لي مزلجاً أيضاً...».

كان المسافرون يشعرون بالبرد، والجوع، والنوم، كما كانوا يحسون بأن الإرهاق قد سحقهم، إذ كانوا لا يزالون بعيدين عن الوصول.

«بابا هل ستأخذني إلى السينما؟...

ـ وماذا ستشاهد في السينما؟... سأله الملازم أول.

ـ كيف؟ سنشاهد ما يعرضونه. مناظر...».

كان النور يخفت، ماحياً وجوه المسافرين قليلاً قليلاً. ولم تعد تميز سوى أشكالهم على المقاعد... وهذا الإحساس بعدم الوصول إلى أي مكان... وهذه الحاجة إلى معرفة الساعة، في كل لحظة...

«بابا، هل ستأخذني إلى السينما؟

ـ لماذا تريدني أن أرافقك إلى السينما، وأنت تستطيع أن ترى من هنا، الشوارع المضاءة، الناس، السيارات، كما لو أنك في السينما...».

وكان ذلك صحيحاً: كان القطار يمر بسرعة أمام مشهد سينمائي للمدينة.

كانت ريح الشمال تكنس المدينة، بحر من جليد في أعتم الرسوم سواداً، مدينة مقفرة معرضة لريح الشمال وللصمت، لابدة في بيوتها الواطئة ونومها العميق. السماء ليلكية. ليلة من تلك الليالي الليلكية حيث النجوم اليتيمة تزيد في اتساع اللانهاية. ومن جهة الغرب، البراكين، غير مكترثة بما يحدث عند البشر، البراكين المرتفعة حتى الغيوم الكبيرة.

استقل الملازم أول سالومي سيارة كي يذهب إلى وزارة الحربية. كان وكيل الوزارة ينتظره في مكتبه ثم أدخله فوراً، دون أن يسلم عليه تقريباً، إلى الوزير، الذي سلم إليه سالومي ظرف الرسالة التي كتبها المنتحر. لم يعره الوزير جواباً ولا تحية ولا نظرة. وما أن أمسك بالرسالة بيده الصغيرة السوداء ـ كانت أكثر سواداً وأصغر حجماً عندما لاحت من كمه المزين بشرائط جنرال ـ ما أن أمسك بالرسالة حتى انسحب بخطاه الهندية القصيرة، وشاربيه الأبيضين كشاربي عجل بحري، انسحب عبر الأورقة المضاءة والمطلية بلون البرنيق، على سجادة حمراء، ما بين جنود وصفاء ذوي أوشحة وبوابين حجّاب يحثون الخطى...

أوضح وكيل الوزير إلى سالومي بأن عليه البحث عن فندق صغير لتمضية الليلة ومن ثم العودة لانتظار الأوامر. فندق صغير، إذ من يدري متى سيحتاجون إليه؟...

«الغرفة رقم 14» قال صاحب «فندق القطار» الذي كان يبدو عصبياً وهو يبحث عن نظارتيه بين الأوراق وكتب المحاسبة... ثم تقدم خادم ذو بشرة سوداء مخضرة مثل القطران، وتناول حقيبة سالومي وحاجياته.

«هل ستلتحق بالحرب؟» سأله بصوت خفيض.

انزعج الملازم أول من رفع الكلفة ولم يجب. واكتفى الخادم بابتسامة.

الغرفة 14... لم يلجأ حتى إلى إضاءة النور. كانت الغرفة تُشعر بالنوم المُقاطع لمئات آلاف المسافرين الذين تم إيقاظهم ضرباً بقبضة اليد على الباب حتى لا يفوتهم القطار. هذا النوم المتقطع، المبتور الذي ليس لأحد، والذي لم يكن سوى رغبة عميقة، رغبة واسعة في عدم الاستيقاظ مطلقاً، رغبة في إغماض العينين، وعدم رؤية الفجر أبداً...

انتظر الخادم الذي كان يتلمس الأشياء في العتمة والحاجيات إلى جانب السرير، ثم خرج وراءه (لم يكن يحدث أية ضجة وهو يمشي على قدمين حافيتين) كي ينزع المفتاح من ثقب الباب في الخارج حسب أعراف وطقوس المالك المؤقت...

كان الشيخ، الذي كان منذ فترة يبحث عن نظارتيه، قد وجدهما أخيراً في دليل الهاتف واعتبر نفسه أسعد إنسان في العالم. دعا سالومي إلى مكتب الاستقبال ليقول له:

«اسمع سيدي الملازم أول. ينبغي ملء هذه البطاقة باسمك ولقبك وعمرك وجنسيتك ومهنتك، مكان الولادة، المسكن، ورقم الهوية التي معك

ـ و... لماذا كل هذه الإجراءات؟

ـ كانت الأمور دائماً هكذا، أما الآن، وبسبب ما يروى عن الحرب المتعلقة بالحدود، فقد ازداد الأمر سوءاً...».

كانت ريح الشمال تواصل هبوبها وتبدو أحياناً كأنها إعصار، ولم يكن الضابط ليتمكن من التقدم إلا مواربة كي يقطع كتلة الريح التي تجبره أحياناً على التوقف والتراجع وكأنه يرقص.

«وداعاً أيها الملازم أول! سوف تطير مع الرياح!...» صاح به صوت أنثوي خلف أحد الأبواب...

كان الناس الذين يسيرون في اتجاه الريح، ينطلقون وكأن الريح هي التي تنفثهم. وكان الغبار يمنع الرؤية. غبار، أوراق، كل شيء كان يطير نحو السطوح، في اهتزاز المصابيح الكهربائية

المرتجفة عند زوايا الشوارع وفرار الكلاب المزمجرة التائهة التي كانت «تستجمع نفسها» لتجتاز مفترقات الطرق.

وفي منأى عن الريح، في المنازل، خلف الجدران والأبواب والنوافذ، كانت زوبعة أخرى تثور، زوبعة الحرب، على شكل أنباء تتكرر وتتكرر، دون أن تبلى، رغم أن السكوت كان يبدو أحياناً أسوأ من الكلام. لأن الحرب نفسها كانت صامتة صمتاً مميتاً. وبينما الأسر تتأهب للنوم سمعت ريح الشمال تعول عويلاً يكاد يكون بشرياً، حاملة بقايا جرائد اليوم، وكلها داعية إلى الحرب، (كانت الريح تجرها على الأرض، وتدفعها على الجدران، وتدعها في أكياس النفايات، وتدفنها في قيعان الحفر بهيجانها، الذي يشبه هيجان عملاق مائع) وكأنما تعني بذلك بأن لا شيء صادقاً في كتاباتها. كانت الريح تقبل من الشمال، من أراضي النزاع ولم تكن قصص النزاع والحقد صادقة... بالعكس، فهناك كان يتواصل غزل السماء والأرض، غزل الأرض والإنسان، لذة الحياة في معامل السكر، الدخان حالم فوق المزارع، أراجيح النوم وحلب الأبقار، القيثارات، فحول الخيل وإناثها، دموع الأماسي الجنائزية، الأحاديث الجنونية في الحفلات، النظام في كل مكان، عذوبة الحياة... وكانت الريح تقبل من الشمال مثل رسول جاب المدينة ولم يسمعه أحد، فأخذ يهدم كل شيء في حنق. ولو أنه تمكن من الاجتثاث لاجتث المدينة من جذورها، هذه المدينة الصماء مثل جدرانها، مثل لياليها، هذه المدينة العمياء.

توقف الملازم أول سالومي ثانيةً... سيجارة!... ولكنه لم يجد سوى بقايا تبغ في جيوبه. سوف يشتري سجائر وهو في طريقه شرط أن يجد محلاً إذ إن كل المحلات كانت مغلقة. في وسط المدينة إذن. ما أشد انزعاج المرء عندما يظل هكذا غير قادر على التدخين! حث الخطى كي يصل بسرعة لأن السير السريع يدفئ صاحبه. أن تجيء من الساحل وتصادفك ليلة مثل هذه! كان من شأنه أن يتجمد لولا معطفه وزهوه بفعل اختلاسه لرسالة بولو كاماي من مكتب القاضي. شعور بالزهو متأتٍ من جريمة؟ إيه نعم! سيدي، جريمة

لخدمة الوطن. الحرب هي الحرب، وفي الحرب يشعر المرء بالزهو وهو يقتل، الأمر الذي يعد جريمة رغم ذلك، جريمة أشد من اختلاس وثائق.

وإلى أبعد قليلاً، في شارع عرضاني، نور حانة مفتوحة. «حانة كنت سعيداً».

«هل توجد سجائر؟ سأل وهو لا يزال عند العتبة.

ـ من أي نوع تريدها؟ استعلمت صاحبة الحانة وهي امرأة في الأربعين كانت تملأ بكلتا يديها كؤوس العرق من جرة قربها لتقدمها إلى مجموعة من الزبائن الصامتين.

ـ سجائر «شابان» وكبريت.

ـ تريد علبة ثقاب أيضاً؟

ـ نعم.

ـ وبوزك الصغير؟» قالت المرأة بصوتها الأبح.

واصلت في مرح وابتسام، ملء العرق بكلتا يديها، ثم:

«قرب كأسك!» قالت لأحد الزبائن الذي استجاب بحركة تشنجية ملازمة له، بعد أن أخرج يده من جيبه. ثم استدارت ناحية العسكري مجدداً، علقت قائلة:

«مقابل دورقين، سيدي الملازم أول، لا مجال للعطش!».

وعندما رأى العديد من المأكولات الشهية مرتبة على المشرب داخل كلة ناموسية، وكانت رؤيتها مغرية أكثر من رائحتها، شعر بالجوع فجلس إلى طاولة في فناء صغير. وطلب بالإضافة إلى السجائر وعلبة الكبريت، كأس بيرة وخبزاً محشواً وسردينا.

«ألا نقدم لك شيئاً آخر؟» سألته فتاة سمراء، كبيرة الثديين تشبه مهرة، كانت تنعس ثم نهضت كي تخدمه، جاءته وهي تترنح بما طلب.

«تسألينني إن كنت أريد شيئاً آخر مع هذه الرائحة الجميلة التي أشمها منك؟

ـ هيا! أجابته بحدة عدوانية. لم أصفعك لأنني لا أريد مشاكل.

ـ إذن، يا صغيرتي، مادمت تعرفين ما تقدمينه لي، لا تعودي إلى السؤال. وبما أنك سألتني وأنا أتناول الخبز والسردين، فقد أجبتك.

ـ أبله!

ـ اقتربي! أريد تذكر اسم المحل. كنت سعيداً!... كنت سعيداً.

ـ وإلى أين أنت ذاهب؟

ـ أحقاً سأكون سعيداً؟.

ـ أين تذهب؟ الوقت متأخر... ولم تشرب كأسك بعد.

ـ هل تريدين شربه أنت؟

ـ رفعت الكلفة بهذه السرعة... النصف... سأشرب إلى هنا. ألا أقرفك؟... لأني مصابة بأمراض عديدة...

ـ ما اسمك؟

ـ أحزر وسوف أقول لك».

أفرغت الكأس. فتح الملازم أول معطفه ليبحث عن ساعته. لقد حان الوقت. يمكنه أن يطلب خبزاً آخر وكأساً أخرى.

ـ خبز مع مقانق. أخيراً سوف تأكلين شيئاً مناسباً.

ـ المقانق مناسبة لك أنت ربما، وليس لي.

ابتعدت وهي تترنح، وقبعة على شعرها الغزير الأسود. وقف الملازم أول من على كرسيه ليصيح بها:

«كأسي بيرة وليس واحداً!» ودون أن يشيح بنظره عن تلك المشية التي تشبه «الفندنغو»(*). «يا لها من حية!...».

«لم تخبرني باسمك...

(*) نوع من الرقص.

ـ اشرب في صحتي أولاً.

ـ إذن، في صحتك!

ـ عندما تفعل ذلك بطريقة ألطف سوف أخبرك باسمي... في صحتك سيدي الملازم أول. وحظاً سعيداً!

ـ حسناً سوف أغادر قائلاً: «كنت سعيداً!...».

ـ لا يكفي كأسان من أجل ذلك، أو بالأحرى كأسان ونصف لأنني شربت النصف من كأسك الأول. ولكن عندما تعود مرة أخرى، سوف نشرب عشرين كأساً كبيراً من البيرة، عندئذٍ وحين تمشي على أربع، أؤكد لك أنك سوف تغادر الحانة وأنت تدندن مثل العصفور: كنت سعيداً! كنت سعيداً...».

* * *

عشرة أصابع متحمسة تدق على آلة راقنة في وزارة الخارجية. نسخة من رسالة بولو كاماي وترجمتها إلى الإنكليزية، ينبغي سحب نسخ مصورة عنها في الغد. وفي المكتب الوزاري كان المستشار موثق العقود كهيكل عظمي من بلد ميت والوزير الأمريكي، نموذجاً للـ carpet-bagger ووزير الحربية، وقد حنته السنون، وهو أخرس يهرّ مثل القطط يتحادثون.

صار سفير الولايات المتحدة أصفر اللون مثل قميصه عندما شرع يقرأ رسالة بولو كاماي مع ترجمتها إلى الإنكليزية. ويُعتبر اطلاعه على مضمون الوثيقة قبل الإجراءات الرسمية، من قبيل الائتمان والود.

أخذ الكلمة وزير الخارجية... كان يحرك فكه بطريقة تبرز معها عضلاته تحت الجلد، كما في اللوحات التي تستخدم في دراسة التشريح، قال:

«من السهل إثبات الزعم المتعلق بالمبالغ الطائلة التي تسلمها

موظف التلغراف، الأوراق المالية في حوزتنا، ويجري حالياً التحقيق فيما إذا كانت الأرقام متطابقة مع الأرقام المتتابعة التي دفعتها الشركة هذه الأيام لتسديد دفوعات أخرى».

كانت الإعلانات التي تضيء ثم تنطفئ فوق مباني الشوارع الرئيسية، تغطي الملازم أول بيدرو دومينغو سالومي بألوانها ثم تجرده منها، أضواء مخططة لم ير مثلها إلا في الألعاب النارية. توقف كي يتأمل الحركة المتوهجة الزاهية لتلك الأضواء، مناوشاتها، سباقاتها، صداماتها، التي كانت انعكاساتها على معطفه تجعله أحمر، بنفسجياً، مخضراً، ثم أسود عندما تنطفئ الإعلانات. كان يمحي عندئذ ويمحي معه كل شيء. كما لو أن تفريغاً كهربائياً تركه فجأة في ظلمة أبدية، واصل سيره كي يتحاشى ساحة السلاح ويبلغ وزارة الحربية.

هذه المرة بدا وكيل الوزير ودوداً أكثر، ولكي يقول شيئاً، سأله إن كانت تمطر في الساحل.

«ثمة زخات، لكن الشتاء لم يبدأ. لأنها متى ما أمطرت هناك فإنها تمطر بشدة.

ـ أعرف قليلاً عن ذلك، سيدي الملازم أول، لأنني قضيت شبابي وأنا أحترق في ذلك المناخ... يا للمناخ السيء، يا إلهي! أشعر بالبرد لمجرد تذكره، ومن حسن حظي أن حمى المستنقعات التي أصبت بها كانت هينة. لكن الظروف تغيرت الآن كثيراً. أما في السابق، كانت...».

وبعد صمت أتى أثناءه على علبة كبريت كاملة تقريباً كي يشعل عقب سيجارة، تابع: «لم يعد السيد الوزير... لن تسافر غداً... وما داموا لم يسمحوا لك، عليك أن تبقى أيضاً».

كانت دقات ساعات الحائط، التي يقطعها امتصاص وكيل

الوزير لسيجاره، متطابقة مع تفكير الضابط: «كنت سعيداً! كنت سعيداً». كان يفكر في نادلة الحانة، مكتنزة، امرأة سهلة، وعندما علم أنه لن يسافر قريباً، فكر في تغيير الفندق، للبحث عن مكان آخر أفضل ـ كان طعام تلك الفتاة السمينة شهياً ـ مكان مركزي في وسط المدينة لأنه نزل في مكان يبدو فيه كل الناس وكأنهم متأهبون للسفر بالقطار، ولهذا السبب كان الفندق يحمل ذلك الاسم، ثم إنه لم يكن ليرغب في دعوة تلك المرأة إلى «فندق القطار» ولو فعل ذلك لكان ذلك أشبه بدعوتها إلى كتاب هجائي، إذ إن كل أبواب الغرف في الفندق تطل على الشارع. وعلى كل باب حرف، ولكل حرف عاشق يدخل وآخر يخرج...

قطع وصول السيد الوزير حلم اليقظة عند كِلا الرجلين اللّذين كانا يحصيان الدقائق، أو لا يحصيانها بما أنّها كانت خارج الزمن: وكيل الوزير ماصّاً عقب سيجاره المبتلّ باللعاب، والملازم أول متخيلاً أشياء لذيذة برفقة نادلة الحانة... «كنتُ سعيداً...». أعلن رنين سيوف المرافقين ومهاميزهم وأصوات الحرس، عن حضور الوزير الصّموت. عجّل وكيل الوزير بإلقاء عقب سيجاره في المبصقة، قبل أن يدخل، عبر باب اتصال، إلى المكتب الوزاري.

ثم عاد بهدوء بالغ كمن يخرج من غرفة مريض.

«سيناديك خلال لحظة، قال للملازم أول. انتظر قرب الباب... قف هنا، قرب الباب. هنا. هنا...».

هنّأه الجنرال المسنّ، وزير الحربية، لتمكنه من اختلاس رسالة كاماي الذي وصفه بأنه «موظف غير جدير»، رغم أنه اختار أن يوقّع هذه الوثيقة وينتحر، أمام فداحة جريمته المتمثلة في خيانة الوطن.

أعلمه بأنه سيرقّع إلى رتبة نقيب وأن عليه أن يظلّ في العاصمة في انتظار التعليمات. وسوف يكون موضع اهتمام وعناية نظراً للخدمات الخارقة التي بذلها من أجل الوطن في زمن الحرب.

أحسّ الكابتن الجديد قلبه منتفخاً من كلّ هذه الأشياء اللّامرئية: الشرف، الجدارة، المجد، وإذا كانت يد الوزير ترتعش بفعل الشيخوخة، فإن يده كانت تهتز من الانفعال عندما تصافحا، وسط صمت الخرائط المعلقة على الجدران، خرائط تشبه ألسنة في تثاؤبات كبيرة...

لماذا فكّر آنئذٍ في الآمر؟ نعم، لقد فكّر في الآمر وهو يصوغ شكره وامتنانه، للآمر الذي قد يرقّى هو الآخر...

هنأه وكيل الوزير أيضاً، ولكن في مكتبه الخاص، وكذلك رفاقه في السلاح: إذ إنّ باب السيد الوزير أُغلق من جديد.

ولم يقض إلّا بداية الصباح في «فندق القطار» لأنّه خرج مبكّراً ليبحث عن فندق آخر.

«الغرفة 14 خالية، قال الشيخ، المكلف بالمكتب. وبعد أن نادى الخادم كي يحمل الحقيبة والحاجيات؛ رفض استلام ثمن الإقامة في الغرفة ليلة البارحة:

ـ كلا يا سيدي الضابط، بلا إلحاح... لو كنت شاباً وقادراً على المشاركة في الحرب... كيف تريدني أن أقبل الثمن...»

ورفض الخادم بدوره استلام «البقشيش».

«أفكّر في الالتحاق هذا الأسبوع، وآمل أن يأخذوني في سَرِيّتك. وسوف يكون «بقشيشي» عندئذٍ، هو القتال إلى جانبكم».

ثم صافحه بيده التي كانت أشبه بجذر جاف اقتُلع لتوّه من التراب...

15

«سلّم! هيّا لا تخجل... ألحّ لوسيرو على ابنه.

- هل أكلت الفئران لسانه ولم تترك له قطعة صغيرة ليسلّم؟ سأل السيد ماكر تومبسون وهو يقترب منْ بيّو أديلايدو، مادّاً يده.

- كيف حالك مستر تومبسون؟

- كحالك قبل أن تصير مساهماً يا عزيزي... وهذا الشاب ماذا يقول؟ لاشك أن بوبي في الشارع. هنا تبدلّت الأدوار، الكلاب في البيت والولد في الشارع. إنه ابن شارع، ولكن ليس مثلك، فأنت حسن الأخلاق من دون شك.

- حتّى الآن، نعم، يا مستر تومبسون...

- هيّا لنترك بابا هنا ونبحث عن بوبي كي تتعرف عليه.

- لا تزعج نفسك يا مستر تومبسون، لأننا لن نطيل البقاء هنا...

- هذا بيتك يا عزيزي لوسيرو ونحن لا نرضى بالزيارات القصيرة!».

ثم غاب وبيّو أديلايدو في آخر القاعة التي كانت تبدو أكثر اتساعاً بسبب نقص الأثاث: صوفا ومقعدان في جانب، ومائدة طويلة في الجانب المطل على الحديقة، وعلى المائدة صحف ومجلاّت وكتب وعلب سجائر، وفي أطر فضيّة صور: ماياري، ودونيا فلورا وأوريليا. نفس تلك التي احتفظ بها على مكتبه في المزارع، هي لا تزال باقية بفعل معجزة: إذ إنّ بوبي أتى على كلّ شيء قابل للكسر بأكَرِهِ، وحتى على الجدران كانت تبدو آثار الضربات المباشرة وكأنها آثار قذائف.

كان ضوء الصباح يغرق الغرفة في صفاء مياه شفافة، في صفاء لم يحتفظ إلاّ بصفاء اللجّة... ما أشد الفرق بينه وبين ضوء الساحل الذي يملأ كلّ شيء؛ من الفضاء السماوي إلى أصغر غرفة، حالما تشرق الشمس، فإذا بكلّ شيء، والمرء نفسه، يشعر أنه سجين التألق المتموّج لكلّ ذرة مضيئة، ومضطرّ إلى التغلب على ثقله النوعي كي يتمكن من التحرّك. أمّا هنا، كلا، هنا في المدينة، وعلى ألفي متر فوق مستوى البحر، فإن الشمس تشرق في الأفق ولا تملأ شيئاً؛

الفضاء الأجوف يظلّ مثل مرآة، وكلّ شيء مثل حلم، حلم في فراغ حلم، لاشيء ملموساً، لاشيء حقيقياً، كلّ شيء لا وجود له في ضياء غير مباشر بل منعكس.

«لقد تركته مع بوبي حتى يصيرا صديقين، قال ماكر تومبسون متابعاً الحديث، لكن ابنك لم يرغب حتى في مصافحته... كيف حالك يا دون لينو؟ هل أنت بخير؟ لنجلس... تفضل... لست أدري إن كنت تدخن...».

دخل بوبي وبيّو أديلايدو، عندما كان لوسيرو وماكر تومبسون قبل جلوسهما، يشعلان سيجارة؛ أو بالأحرى عندما كان ماكر تومبسون يتهيأ لإشعال السيجارة التي تناولها ضيفه ووضعها بين شفتيه، بقدّاحته الذهبيّة الزاهية.

سلّم بوبي على لينو ثم اقترب من جده ووشوش له في أذنه بشيء، أعاده الأخير بصوت مرتفع حالما سمعه، ولاحظ له أن الهمس بأسرار في جلسة جماعية علامة على التربية السيئة.

«لقد ترجاني أن أطلب منك السماح له بمرافقة ابنك في نزهة، أوضح قائلاً، لكن دون جدوى، إذ عندما كرّر ما همس به حفيده، كان لوسيرو قد سمعه.

- المشكلة الوحيدة، اعترض لينو، هي أنني لن أطيل البقاء، لي أعمال أخرى سأقوم بها...

- إذا كان هذا هو السبب، فلا تهتم: ليذهب الولدان للنزهة، وعندما يعودان سوف أرسل السائق ليوصل ابنك...

- في هذا إزعاج لكم...

- أبداً... ليس للسائق ما يفعله طيلة النهار. نعم يا بوبي اعتنِ به.

- هل منديلك معك؟ سأل لوسيرو ابنه، وهو يقترب منه، مناولاً إياه منديلاً وبضعة «بيزوات».

ـ إنه عمر السعادة! هتف ماكر تومبسون بعد أن خرجا. سعادتهم وسعادتنا. حياتي، يا عزيزي لوسيرو، ليس لها أي معنى من دون هذا الحفيد. ولكن لندَع الوتر العاطفي وندخل مباشرة في الموضوع الذي حملني على دعوتك إلى هذا البيت».

كانت بضع خصلات بيض تلمع على رأس ماكر الشيخ مثل نور دودة حباحب في شعره النحاسي الأشقر. رفع يده اليمنى، وجعل الإبهام والسبّابة مفتوحتين على شكل كمّاشة ثم أحنى رأسه ووضع إصبعيه على جفنيه المسدلين كي يحكّ عينيه ثم قرن إصبعيه على أرنبة أنفه.

رفع رأسه بحزم. وثبّت حدقتيه الذابلتين، وكأنما أبلاهما الزمن، ثبتهما بلطف في وجه ضيفه ذي السحنة الملفوحة، ولم يعد يناديه «دون لينو» بل «سيدي لوسيرو» كان ذلك أقرب إلى «مستر لوسيرو» في حين أن «دون لينو» هي تسمية يغلب عليها الطابع المحليّ والفلاحي.

«إن مشروع مواصلة عمل الزوجين ستونر أو ميد كما يُعرفان عندكم، يا سيدي لوسيرو، وهو الأمر الذي غلب على تصرّفك وتصرّف أخوتك، لهو مشروع جدير بالاحترام... تكوين تعاونيات إنتاجية...».

أوْمأَ لينو موافقاً، دون أن يتخلّى عن حذره الشديد تجاه الشيخ وتجاه كل ما عساه يقول. «إلاّ أن أية ثروة يا سيد لوسيرو، هي من سوء الحظّ عبارة عن ربطة من أحلام الطموح، ربطة مهينة دنيئة وقابلة للتسليك كما هو حال المشط عندما يعزل خصلة من الشعر. إنها تُبعد ظاهريّاً، ولكنها في الحقيقة، تواصل المشاركة في كل ما يغذيها من جلدة الرأس، وبكل ما هو جيد سليم أو سيء في جذورها. الأسهم التي تمتلكها يا سيد لوسيرو، أنت وأخوتك، حاولتم استبعادها، بحماسة نبيلة، للاقتداء بـ ليستر ميد، ولكن ذلك كان في الظاهر فقط، لأنها في الحقيقة والواقع واصلت التغذّي بما

يغذّي كل الأسهم الأخرى. سكت قليلاً ثم تابع: ودونها هذه الأيام، يا سيد لوسيرو، صراع مميت ضارٍ على وشك أن يشعل نار الحرب بين بلادكم والبلاد المجاورة، ويورطهما في نزاع مسلّح.

ـ ولكن هل تعتقد يا مستر تومبسون بأن الأمور ستصل إلى هذا الحدّ؟ لقد اتصلت بمحاميّ هذا الصباح وهم يفكرون بأن حادثة الحدود سوف تسوّى سلمياً بفضل تحكيم واشنطن.

ـ وهنا بالضبط يكمن خوفي، إذا ظلت الأمور هكذا، أخشى أن تخسروا القضية، وإذا خسرتم فإننا، نحن، سوف نظلّ في «التروبيكال بانانيرا» تابعين للـ «فروتاميل كومباني» التي هي في الكاريبي، أكثر المجموعات عنفاً وضراوة. إن «الفروتاميل كومباني» هي التي أثارت نزاع الحدود، دون أن تكترث البتّة بالمصالح الإقليمية للبلاد المجاورة. أما قصدها فهو مختلف تماماً، إنها تريد التغلب على التروبيكال بانانيرا كي تستفرد بالتحكم في مصير الشركة».

كانت عينا مزارع الموز القديم السمراوان تستعيدان حرارتهما وبريقهما المفقودين بمقدار ما كان وجه لوسيرو يُظهر تأثير كلماته.

وتابع:

«ثمة مجموعة من المساهمين المتنفّذين يحاولون تفادي الأزمة الأسوأ، ولقد طلبوا مني، بوساطة ابنتي أوريليا، أن أعود إلى شيكاغو. يجب علي أن أتحرّك ببراعة حتى لا تخسر تلك البلاد في التحكيم جزءاً كبيراً من أراضيها، ولكي لا نقع تحت هيمنة «الفروتاميل كومباني» هذا كلّ شيء.

ـ إذن ستعود إلى شيكاغو؟...

ـ حسب... هذا يتوقف على...».

استجمع عضلات وجهه ثم بسطها، لأن الحديث عن مسقط رأسه

أشعره بحنين حاول إخفاءه كي يظل وجهه كما كان دائماً: عقدة من النشاط. وعاد إلى الهجوم:

«لقد أخذت حريتي، يا سيد لوسيرو، في مطالبتكم بالمجيء فوراً، لأننا سنحتاج إلى أصواتكم في الانتخاب باعتباركم مساهمين، وذلك لكي أُنْتَخبَ رئيساً للشركة، مع التأكيد أنني سوف أحاول تحاشي الحرب، تحاشي الحرب قبل كل شيء، ومن ثم أحاول أن يكون التحكيم لصالح بلادكم».

وقف لوسيرو كي يصافحه: لقد تلاشى حذره السابق، وهو الآن مفعم بالحماس.

«لا ينبغي التبشير بالنصر قبل الأوان، ولا التحدث بذلك إلى محاميك، قال ماكر تومبسون وهو يقدّم له يده ليصافحه. إنّ أيّ إفشاء للسرّ من جانبك يمكن أن يكون قاضياً على مناورتنا، فتخسر بلادك جزءاً كبيراً من أراضيها ونقع تحت تبعيّة «الفروتاميل»...

ـ من اليوم يمكنك الاعتماد على أصواتنا. يا لها من مشكلة!... سوف أتحدث مع أخوتي وأطلعهم على كل شيء حالما أعود إلى الساحل.

ـ نعم، هذه الأمور، من الأنسب معالجتها شخصياً وبكلّ حذر نظراً لكون هدفها هو ربح المناورة المتعلقة بالحدود أمام الفروتاميل إذا تم حلّ النزاع بالتحكيم، وتفادي الحرب بكل ثمن. أما فيما يتعلّق بمحاميك، إذا سألوك، أجبهم بأني دعوتك إلى بيتي لأعرض عليك شراء أسهمكم.

ـ وهذا بالضبط ما افترضوه...

ـ حسن إذن!

ـ ومتى تسافر إلى شيكاغو؟

ـ لا انتظر سوى مكالمة هاتفية، والآن بما أنك أوحيت لي بالثقة ـ وإنّك لكريم مثل يدك الممدودة ـ من المناسب أن تعلم بأن

الرئيس الحالي للشركة يشكل خطراً على قضيتنا. إنه يناصر جماعة الفروتاميل، ولا ينبغي أن ندعه يخدعنا. أنسب الحلول أن تأتي معي أنت أيضاً إلى شيكاغو، ولكن من بمقدوره اقتلاعك من الساحل؟...

- لاوقت لدي لذلك يا مستر ماكر، ولكن إن شاء الله، عندما نربح القضية سوف أذهب إلى هناك؛ وأقيم معكم في خلية النّمل: لأن تلك المدن مثل الأرض المسودة بزحام النمل المتدافع...

- وماذا يحدث في الساحل؟ عمّ تخبرني؟

- الشيء الوحيد هناك، هو قصة موظف التلغراف الذي انتحر. يقال إنه متواطئ مع غواصات يابانية. هذه على الأقل الإشاعة التي يُراد نشرها. ولقد ترك رسالة يتهم فيها شركة التروبيكال بانانيرا بأنها دفعت له أموالاً كي يقترف هذه الخيانة.

- إذا كان هناك من دفع له، فلا شك أنها الفروتاميل كومباني.

- ولكنها في الدولة الأخرى...

- إنها في كل مكان... تلك الشركات ذات نفوذ واسع وهي تتحرّك حتّى في أقل الأماكن توقعاً. سوف ترى بكلّ يقين أن المسؤول على ذلك أصحاب الفروتاميل.

- سأخرج قبل أن تطردني... هذه لم تكن زيارة بل يوم اصطياف. كل ما تبقّى هو أن تعلمني كيف تبلغك أصواتنا.

- سوف تصلكم برقية... ولا تهتم بخصوص ابنك. سوف أرسله لك حال عودته مع بوبي من النزهة، في سيارتي مع السائق... ألف شكر... وإلى اللقاء...».

لاح في الحديقة زائر آخر كان ماكر تومبسون في انتظاره ذاك الصباح. كان يتقدم على ممشى من رمل أبيض يلتمع في الشمس، بين جنبات أشجار للزينة، وأزهار، ومروج أعشاب خضراء. ومن قريب تميّزت ملامحه أكثر، رجل بلا قبعة، طويل القامة، بدين، ثياب رمادية فاتحة اللون، حذاء بنيّ، قميص أزرق ذو خطوط أفقية عند

الصدر وياقة اصطناعية بيضاء بالغة الارتفاع حتّى أذنيه. وبسبب الثفن(*) في قدميه، كان يمشي وكأنه على مزلج ذي بكرات...

«لا تسرع، يادون هربرت، لا تسرع! صاح به جو ماكر ممازحاً وهو يحيّيه من بعيد، بعد أن أشعل سيجارة بقدّاحته الذهبية الرائعة.

- أخبار مؤاتية!» أعلن الزائر وهو يدخل. كان يمشي وكأنه جالس، محاولاً ألاّ يقف سوى على كعبيه وبحركات من ذراعيه للمحافظة على التّوازن. «لقد عاد ابني إيزيدُورو في يخته بعد تجواله في بحار الصين، وليس وحده بل مع أصدقائه وأصدقاء أصدقائه أي إنّ كل المساهمين الرئيسيين في كاليفورنيا سوف يصوّتون لصالحك.

- رائع، يا دون هربرت!... ألا تجلس؟

- إنّي أستفظع الجلوس».

وبالفعل لم يكن يُرى إلا واقفاً وماضغاً: سواء كان يجتر بعض ضربات بجسر أسنانه، على إيقاع سلسلة ساعته التي كان يلفّها ويمدها على سبّابته وهو يديرها بشكل لولبيّ، أو وهو يطحن بذوراً جافة الأمر الذي يستخدمه ذريعة لذلك التحريك المستمرّ لفكّيه.

«سوف نتصدّى بك أنت، ياجو ماكر تومبسون، لهجوم الفروتاميل كومباني. ينبغي تفادي عزلنا من إدارة الشركة. لقد أضعنا الفرصة في المرة السابقة، عندما تخليت عن الرئاسة...

- كان ذلك منذ سنتين، دون هربرت، ولا حاجة إلى التذكير به...

- بالنسبة لي أرى كأن ذلك كان بالأمس. ولهذا السبب ورغم الزمن الذي انقضى، مازلت أسأل نفسي لماذا تخليت. أعرف جيّداً المبرّرات التي سقتها ولكن ماذا تريد؟ يطيب لي التفكير بأنّ هناك

(*) يبوسة في الجلد وخصوصاً في الأصابع.

سبباً آخر. احترام الذات لا يكفي لتبرير مثل ذلك القرار. ربما لأن احترام الذات، بالنسبة لنا لا وجود له، ويكفي أن يكون موجوداً عند أحدنا حتى نصرخ: «اصلبوه!» فيُصلب...

ـ السبب الوحيد، رغم ذلك...

ـ لاتقل لي ذلك، يا ماكر تومبسون. كنتَ على وشك تتويج مهنتك المرهقة برئاسة المشروع، كنت ستأتي من بحر الكاريبي بلقب قرصان، وفضّلت عليه لقب مزارع موز، هذا اللقب الذي صاح به بائعو الجرائد في شيكاغو، تلك الأيام، في شوارع مدينتك التي ولدت فيها... البابا الأخضر!... فكيف تكون قد تخليت عن الرئاسة بسبب احترام الذات؟... كنتُ في ذلك الوقت أعمل في مكتب صاغة ألماس في بورنيو، قوم كانت لهم رائحة رؤوس السندان الحارة والزجاج المقطوع. أتذكّر ذلك وكأنه يحدث اليوم. كانوا يهتفون: «Green» «Pope!» «Banana's King!...» «Green pope!» «Banana's King!...» كثيراً ما أتقلّب في الليل على فراشي البارد وأسمع حتّى يراودني النعاس تلك الهتافات: «ملك الموز!...» «البابا الأخضر!» دون أن أشك بأنّ الثروة هي التي تناديني بتلك الهتافات. ولقد اشتريت أسهمي الأولى بفضل ما ادّخرته من أموالي، وليس بمقدورك أن تدرك أيّ يأس أحسست به، عندما سمعت الخبر القائل بأن سيد المدارات الأسطوري انسحب إلى حياته الخصوصية. لقد لعنته، بصقت على صورته، وأجهدت رأسي لأتوصّل إلى سبب ذلك الموقف...

ـ فشلي في مشروع ضمّ تلك البلاد هو الذي جعلني أتخلّى. لم يكن باستطاعتي أن أفعل أكثر. ولكن، يا دون هربرت، لماذا التذكير بأشياء لم تعد حتّى مجرّد ذكريات؟

ـ تواضع على قاعدة النسيان، أليس كذلك؟ كيف تريدنا أن نسكت على هذه الظاهرة: ما أن وضعت قدمك على الساحل الأطلنطي حتى انبثقت تلك الأراضي المهملة «أُمبُوْرْيُوماتْ» حقيقية؟».

نظر الشيخ ماكر تومبسون العجوز إلى دخان سيجارته وهو يرتفع راسماً فوق جبينه عرقاً هوائياً... استعاد برؤية محاها الزمن، وجه جانجر كاند الأصلع، والأكتع... الذي كان يكاد يبدو فزّاعة؛ وانفرج فمه بنصف ابتسامة غير مرئية تقريباً، وهو يتذكر ذلك الحوار الذي وضع له حداً بجناس طريف، عندما قابل كلمة «أمبورياليين» بكلمة «إمبرياليين».

«كيف تريدنا أن ننسى، يا ماكر تومبسون، حيويتك وتصميمك في صراعك ضدّ الأهالي، وهم أسوأ مصيبة في تلك البلدان؟ كانوا يريدون منافستنا في تصدير الموز. أنت وحدك الذي استطعت ترويضهم وفرض اللغة الإنكليزية، والدولار بدل عملتهم المحلية، مع إهمال العلم الوطني».

أخرج دون هربرت كريل منديله وهو من قماش إيطالي يتمخّط، شدّ به على أنفه الضخم المتدليّ وتمخّط بقوّة إلى حد أن بعض الحبوب التي كان يمضغها خرجت من فمه، ثم تابع:

«كيف ننسى سياسة مالية، فائقة الامتصاص، حيث لم تعرف جرأتك حدوداً؟ كل الناس يتذكرون ذلك. نعم فائقة الامتصاص... سلموا لك سكّة حديد البلاد من دون أن تدفع أي فلس: الأمر الذي أمّن النقل السريع والرخيص لثروتنا من الموز، من المزرعة إلى مرفأ الشحن، لمدّة تسعة وتسعين عاماً، وكما لو كان تسليم السكة الحديدية أمراً غير ذي شأن قدموها لنا بذلك الشرط الفريد من نوعه في العالم! أي عندما نعيد السكة بعد استعمالها تسعة وتسعين عاماً، إلى الحكومة، فإن الأخيرة تشتريها منّا بسعر... على فكرة، بأيّ سعر؟ بما أن السكة لم تكلفنا شيئاً، ولو كان مجرّد كلمات شكر، ثم إننا لم نرجعها، بل لن نرجعها... وفي النهاية، سوف يكون لنا أن نبيع لهم ما أهدونا إياه... إنها قصة لا يصدّقها الخيال».

ظلّ دون هربرت كريل منهمكاً في الثرثرة ومضغ حبوبه، ولفّ سلسلة الذهب المُصْمَت حول سبّابته ثم فكها من دون أن يلاحظ الانزعاج والضيق والقلق على ماكر تومبسون وهو يستمع إليه.

وحتّى إذا لاحظه فإنه لم يكن ليعيره اهتماماً، كان متأهباً لاستقبال رفسة منه على ألاّ يقطع ثرثرته وتحرّيه في ذكريات صديقه ليتمكن من أن يقرأ في عينيه، في حركاته، في أنفاسه، في اضطرابه، ما دفعه، منذ سنين عديدة، إلى التخلي عن رئاسة الشركة، في حين لم يكن هو عندئذٍ سوى مجرّد مستخدم لدى بعض الصاغة في بورنيو، «ملك الموز!...» «البابا الأخضر!...» «ملك الموز!...» «البابا الأخضر!...» سُؤَلة بسبب الفراغ؟... ثرثار بطبعه؟... عنيد بسبب الخَرَف؟

كلاّ بل هو مخطِّط «على البارد»، وهل يعتمد على القيمة المعتبرة لشخص مثل جو ماكر تومبسون، هذه القيمة التي يكتنفها غموض كبير؟ وفي البورصة، حيث أسهم الجريمة ترتفع وتنخفض (أفضل الأسهم هي أسهم الحرب؛ أفظع الجرائم، وحيث أسهم الانتحار تنخفض مثل عملة ساقطة القيمة، كما هي الحال مؤخراً، بالنسبة لموظف التلغراف)، لاشك أن لهذا الجدّ المحبّ لحفيده أسهمه وأسهم الآخرين، وهذا ما يتقصّاه هربرت كريل الذي ينهي اسمه إلى الأذهان (حتى هو يعترف بذلك) اسم ذلك النوع من الأسماك الصغيرة التي يقتات منها الحوت الأزرق.

كلاّ. الأمر لا يتعلق بجرم بسيط... قرصان وزارع موز، بزيادة واحد... أو نقصانه... شيء ما أكثر غموضاً... وأكثر عمقاً، كان السُؤَلة الخبيث يشتمّ رائحته (وأمضغ، وأمضغ لك رغماً عنك حبوباً!... وأدير، وأدير رغماً عنك سلسلتي، وأعزف على كل الأوتار، بلساني، ملمس البيانو الصغير) وهو السبب الذي دفعه للانقطاع إلى حياته الخصوصية، وإلى المجيء للإقامة مع حفيده في هذا المنزل الهادئ حيث كل شيء يبدو نائماً.

إلاّ أن الرجل أغاظ جو ماكر الذي انفجر:

«إننا نكابد مشقة الحياة مثل الدواب... لا ينبغي أن نتذكّر ذلك... لا أذكر شيئاً ولا أريد أن أذكره، لا وجود لمصفاة في الذاكرة حتى نفرز الذهب عن الشوائب، والمجد عن الدناءة، وما هو عظيم

عما هو بائس؛ خصوصاً وإني لا أرغب في أن أرى نفسي مكرهاً على تذكر ما لم أستطع تفاديه».

شرع كريل، غذاء الحوت الأزرق، يمضغ بكلّ سرعة، دون أن يبتلع ريقه، ووثبات فكيه متناقضة مع هدوء عينيه الجامدتين مثل الكافور.

«وما الذي لم تستطع تفاديه إذن؟ سأله وقد أوقف حركة فكيه المجترّين، كي لا يعطي أهمية لسؤاله.

- ثمة أشياء كثيرة لا يستطيع المرء تفاديها!» أجاب ماكر تومبسون معمِّماً؛ وكان يفكر بأن تلك الأشياء إذا كانت كثيرة، فإنّ أشدها إيلاماً طيلة الحياة، ومن يدري؟ طيلة الموت، هي تلك التي يسخر فيها القدر من الفانين، ساعة يكونون في أوج قوتهم، كما كان هو نفسه عندما كان يُسمع وقع قدميه لدى دخوله إلى مكاتب الشركة في شيكاغو، ثم خروجه منها بلا ضجة ليتيه في شوارع مدينته التي وُلد فيها، بعد أن تخلّى عن كلّ شيء.

لقد تسكّع أياماً وليالي ويديه في جيبه، أو بتعبير أدق تسكع وجيبا بنطاله مملوءين بيديه غير النافعتين، غير القادرتين على حلّ أي شيء، ولو كان حلّ كل ما عقّده القدر الأعمى. كان يدع لحيته تطول ويأتي على آخر سجائره وعلى نعل حذائه. فلم يعد يشعر بالجوع ولا بالنوم. لا بالنوم ولا بالعطش. أكوام نفايات، وجوه، شوارع قذرة، يمشي، دائماً يمشي. ريتشارد ووطن... الـ «فويلتا دل ميكو»... الجريمة المُحكمة... كان يستحق تمثالاً في شيكاغو لأنه نجح في تنفيذ الجريمة المُحكمة، مثل القرصان فرانسيس درايك الذي له تمثال في إنكلترا وقد أراد تقليده. لكن زَهوه بإتمام الجريمة المحكمة تلاشى أمام القدر الذي، بقهقهة تشبه اللدغة، غيّر ضحيّته، واضعاً أمامه شارل بيفر مكان ريتشارد ووطن... الأمر الذي من شأنه أن يُفقد المرء رشده... ولكن ذلك لم يكن كلّ شيء... لقد تواصلت سخرية القدر... والرجل الذي لم يقتله صار والد الثمرة التي حملتها ابنته في أحشائها... يداه تتحركان في جيبه مثل

سلطعونين سجينين؛ كان يمشي بخطى واسعة بين أكداس من النفايات وبيوت مهدّمة، مبلّلاً بابتسامة هي بالأحرى لعابه، شفته السفلى المثقلة بوزن السيجارة المطفأة، الرطبة والمتدلية... أن يكون ذا نفوذ، ويملك تلالاً من الدولارات، ويسمع صدى انتصاره يدوّي في الشوارع: «ملك الموز!...» «البابا الأخضر!...» دون التمكن من الاقتراب من باب المقبرة أو مطالبة الموت، ومع دفع الثمن الذي يريده، أن يعيد له شارل بيفر!... فليعده لي حيّاً وسوف أعطيه الكثير وإذا لم يرض الموت بالمال، إذ إن هذا الأبله يمكنه أن يزايد، سوف أعرض عليه مبادلة الجسدين، وألتزم بأن آتي له بجثة ريتشارد ووطن في جنازة عظيمة.

وكما علبة موسيقى تكرر عزف اللحن نفسه لدى تعبئتها، تذكر ذلك التسكّع بلا غاية في شوارع شيكاغو، من يا ترى، من الذي سخر منه؟ ريتشارد ووطن؟ كلاّ. لقد تنكّر في شخصيته عالم آثار منتحلاً اسم راي سالسيدو، فلم يعلم شيئاً مطلقاً عن يوم «فويلتا دل ميكو» ذلك الحادث الذي خرج منه بيفر مشجوج الجمجمة، وحتى لو علم به، ما كان ليعيره أي اهتمام، خصوصاً وأنه كان منهمكاً في إنجاز مهمّته: التقرير الذي أفشل خطته التوسّعية لضمّ تلك البلاد، خطته هو، ماكر... وبعد ذلك حدث ما يشبه اللغز: حبلت ابنته. كل ذلك دفعة واحدة. لا أحد ليوقفه. عاد إلى الرصيف، مجرجراً قدميه، وقد أنهكه التعب حتى الشيخوخة، ضئيلاً، صرصوراً بين ناطحات السحاب، بين عجلات السيارات وأمواج البحيرة الكبرى التي كانت تعود من الضفة مذعورة من صخب المدينة الهائلة.

خرج مرتاعاً من أعماق ذكرياته. لقد ترك وراءه شوارع كثيرة ولا تزال أمامه أخرى بحيث كان متردداً بين التوقف والمتابعة، مثل كلب تائه. حديد، فحم، حبوب، فرو، لحم، وهو هناك بلحيته الضبابيّة...

تكفي مرّة واحدة ليضيع المرء من دون أن يجد نفسه.

خرج من ذكرياته... مضاعفاً من حدّة زفرته وسأل دون هربرت:

«ماذا تمضغ يامستر كريل؟

ـ قطع فستق... ولكنني تأخرت... عندي موعد في «النادي»... لاشك أنك لاحظت بأننا، ندعم حملة الحرب في الجرائد حتى لا نسقط تحت هيمنة الفروتاميل...».

وانسحب من دون أن ينقطع عن المضغ والكلام:

«لم يعد العالم منظّماً، يا صديقي العزيز، نحن ندفع للجرائد ثمن الإعلانات عن آلات الحرث والخياطة ومضخّات الريّ، وقوارير الرضاعة واللعب، ومع هذه الإعلانات، هناك أشياء أخرى تخدم العيش أو تجعله ممتعاً، لأننا نعلن عن آلات بيانو، وأكورديون وقيثارات ونغطّي أسعار الأعمدة التي تملأها دعايتنا عن الحرب، على شكل أخبار وتعليقات وكاريكاتور...».

وعند خروجه عبر الحديقة وهو يتزحلق على ثفنات قدميه الكثيرة، صادف بوبي وبيّو أديلايدو اللذين سلّما عليه.

«هذا هو الرجل الذي يدعوه أبي اليهودي التائه» همس بوبي في أذن صديقه.

وعندما دخلا البيت:

«من المؤسف أنك لن تستطيع المجيء معنا في الظهيرة إلى منحدر التلّة. سنخوض مواجهة حاسمة. سينقسم الناس إلى معسكرين في هذه المقابلة الكبيرة. أنا أحب الكرة المستديرة جيّداً، المضغوطة جيّداً والتي تكون بهذا الحجم انظر! (ورسم حلقة مفتوحة بإبهامه وسبابته)... إنها قوية، لا أفعل سوى هكذا... و... زووووم م! زووم م! تقول عندما تغادر اليد وهي تمتاز بدقة التصويب إلى حدّ كبير...».

كانت النزهة ركضاً باتجاه كل الأمكنة. أراد بوبي أن يقدمه لأصدقائه. «إنهم أصدقائي»، كرّر له في كل مكان، وأن يكونوا

أصدقاءه فإن ذلك شيء مهم جداً. ونظراً لكونهم أصدقاءه كان يجب أن يصيروا أصدقاء بيّو أديلايدو، كي يحكي لهم الأخير كيف هي الحياة هناك، على الساحل. سيسألونه أسئلة كثيرة وينبغي عليه أن يجيبهم، ويختلق الإجابة إذا دعت الحاجة ولم يعرف الجواب، ولكن أهم شيء هو ألا يتركهم يفاجئونه. «من يسكت، يمت، يا عزيزي. هكذا هي قوانيننا، إنها قوانين العصابة الصغيرة. والذي ينقصه الاختلاق في حالة جهله، يخدّر بضربة من اليد اليسرى وإذا سقط فإنه يعدّ ميتاً. ولهذا السبب، إذا سألوك مثلاً: هل توجد حيّات في الساحل عليك أن تجيبهم بأنّ هناك الكثير، وإذا سئلت ما طولها، إيّاك وأن تنسى! إذا لم يكن طولها عشرين متراً على الأقل. فإنهم سوف يعتبرونها ديدان ترابية...».

ولكن، لم يكن بالإمكان رؤية الأصدقاء. كانوا في مدارسهم. ولم يكن يوجد منهم سوى مانسيلا أمام باب منزلهم. لقد تناول مسهّلاً ولم يرغب في الكلام. أما في الظهيرة فسوف يكون الأمر مختلفاً، والموعد في منحدر التلة هو من أجل «المعركة». ولا يذهب بوبي إلى أية مدرسة، كما فسّر، لأنهم سيرسلونه إلى الـ United States. إنه يريد أن يصير طياراً، طياراً مدنيّاً...

«كم عجلاً يملك أبوك؟ سأله بوبي.

ـ ثلاثمائة تقريباً» أجاب بيّو أديلايدو.

فاغتاظ بوبي:

«آه! كلا لا تبالغ معي أنا. لقد نصحتك بالاختلاق، ولكن... كيف يمكن أن يكون لك ثلاثمائة أخ؟

ـ آه! أخوة إذن!

ـ طبعاً أخوة يا عزيزي. لأننا في شلتنا ندعو الأخوة عجولاً ، والأمهات بقرات، والآباء ثيراناً.

ـ ولكن الثيران لا تنجب عجولاً، صحح له أديلايدو... وها أنك أنت الذي تبالغ الآن.

ـ ربما لا، في الساحل، لأن هناك ثيراناً مخصية أما هنا فنحن ندعو الآباء ثيراناً وهم الذين ينجبون عجولاً... كم أخاً لك؟

ـ أربعة... أما أبناء العم فهم كثر... أنا أكبر إخوتي... أما أبناء عمي ففيهم من هو أكبر مني: إنه ابن عمي جون».

ثم شربا ماءً. شرب كلاهما ثلاثة كؤوس. ورن صدراهما مثل طبلين من كريستال.

«لو أنك تأتي معنا إلى منحدر التلة فإن ذلك سوف يكون ممتازاً. هناك، شيء مختلف تماماً لو تعلم.

ـ لاشك أن الحرارة هناك مرتفعة جداً.

ـ نعم مرتفعة جداً، ولكن ليس مثلما هي الحال هنا، حيث كل شيء مفرط في الفساد والبرودة والحزن!...

ـ لو طلب أبوك الإذن من والدي، ربما سمح لنا. أنا، أريد معرفة ذلك المكان، ثم نشكل مع أبناء عمك وأصدقائك فريق بيسبول.

ـ ونلعب لعبة حرب...

ـ سوف ترى كيف سيكون الأمر هذا المساء في منحدر التلة. لا تظن أنه عادي... بل رائع... ولكني أفكر بأن من الأفضل القيام بلعبة الحرب في الساحل!...».

وعندما توقفت السيارة أمام باب الفندق هتف بوبي:

«الحياة جميلة!».

كان أديلايدو الأب في البهو مع أحد زواره. ذلك ما أعلمهم به البواب. ولكن أية زيارة! إنه الملازم أول.

«إنها زيارة، قال له بوبي الذي دخل لتحية السيد لوسيرو وليطلب منه السماح لابنه بالمجيء إلى منحدر التلة، إنها زيارة، ولكنها من هنالك، من الساحل.

ـ إنها زيارة في جميع الأحوال» أجابه بيو أديلايدو، وهو

يحرك ذراعيه بشدة كي يتشجع على اجتياز البهو المزدحم بالناس وبأحواض كبيرة للنباتات.

تقدم بوبي لتحية دون لينو، الذي كان يتحدث مع الملازم أول بيدرو دومينغو سالومي، وليطلب منه السماح لبيو بالخروج معه بعد الغداء.

«كما يشاء، أجابه لوسيرو.

ـ شكراً قال الفتى، شكراً لموافقتك على ذلك من أجلي أنا! سنخرج».

اعتذر بوبي للخروج، ثم أدرك أنه لم يخلع قبعة «الكسكيت» الخاصة بلعبة البسبول، وهي ذات واقية للوجه تنتهي بشكل مدبب مثل صرصور كبير.

ـ ابق للغداء معنا، ألح لوسيرو رغم رفض الملازم أول. سيصعد بيو أديلايدو إلى غرفته بينما نتناول قدح ويسكي آخر... يابني، اطلب المفتاح، اصعد إلى غرفتي وجئني بالأقراص التي أتناول منها...

وبينما انسحب ابنه مومئاً بذراعيه ليتشجع (إنه لا ينتهي حقاً هذا البهو المزدحم بالقوم)، كان لوسيرو يضرب على ساق الضابط مربتاً براحة يده ويقول:

«يا لها من شيء جميل! يا لها من شيء جميل هذه الترقية! هكذا يصل المرء، يا عزيزي، هكذا!

ـ لو علمت، يا دون لينو، أنني أفكر في الاستقالة...

ـ الاستقالة، وأنت تحصل على ترقية!... هيا بنا إلى قاعة الأكل».

«نبيذ جيد للاحتفال بترقيات!... بيرة؟... آه كلا! أبداً... لا مجال للبيرة في المناسبات الكبرى: أي أنك اليوم صرت نقيباً.

ـ فيما يتعلق بالموضوع الذي حدثتك عنه، تابع سالومي، أريد أن أطلب التقاعد ـ بعد هذه الاضطرابات ولا تعتقد أن ذلك لكي أوفر

على نفسي الذهاب إلى الحرب ـ وأشتري بعض الأراضي الصغيرة هناك، معك وأزرع موزاً.

ـ كل هذا ممكن، لكن عليك ألا تترك مهنة السلاح. الترقيات أفضل من غرس الموز. إنهم يدفعون للعسكريين حتى من أجل البصاق، ثم إن نجمك بدأ بالصعود.

ـ وهذا الفتى الصبي، ماذا يفعل؟ سأل النقيب الجديد الصبي الذي عاد بدواء أبيه، بعد أن أجبر على اجتياز البهو مرة أخرى.

ـ لقد ذهبت مع بوبي تومبسون لزيارة أصدقائه. فلم نجدهم ومررنا أمام بيوتهم فقط.

ـ تلك نزهة ساعي بريد يا بني. هذا هو معنى أن يكون المرء صبياً، سيدي النقيب. إنه يكتفي بالمرور أمام بيوت أصدقائه. لامجال للصداقة بين الصبيان وهم في هذا العمر، بل يبدأ عندهم نوع من الحب، ألم تلاحظ ذلك؟

ـ كلا، ليس كما تقول يا أبي. لقد توقفنا فترة من الزمن، وكان بوبي يصفر لهم ليعرف إن كانوا موجودين أم لا».

بعد الغداء، صعد بيو أديلايدو إلى الغرفة ليرى الهدايا التي اشتراها أبوه لإخوته وأمه وأبناء عمه وأعمامه وأبنائهم. هدايا ومشتريات. واسترخى النقيب ولوسيرو في مقعدين مريحين في البهو. واضطر الصبي النحيل صاحب الرأس الكبير الذي كانت تقلقه فكرة المعركة على منحدر التلة، مثل حكة تحت لسانه، اضطر من جديد إلى اجتياز القاعة الواسعة، التي فرغت الآن تقريباً.

استجاب سالومي لتناول كأس من الكحول الممزوج بالكاكاو، وطلب لوسيرو قدح كونياك وأشعلا سيجارين.

«وهل يوجد ما هو حقيقي في قضية الغواصة اليابانية وموظف التلغراف؟ سأل لوسيرو، وهو يغطس طرف سيجارة في قدح الكونياك قبل أن يشعله ثم يضعه في فمه ويحركه بين أسنانه المنفرجة.

ـ يا له من مسكين!

ـ لقد أخبروني اليوم، سيدي النقيب، ولست أدري إن كنت على علم ، بأنه اعترف في رسالته باستلام أموال هامة من موظف سام في الشركة مقابل إرساله لبرقيات التواطؤ تلك.

ـ سيدي، إن المال يجعل من الرجل الشريف خائناً!

ـ ولكن، يقال بأن لا وجود لغواصات يابانية، ولقد تم بالأحرى الدفع لبولو كاماي لتوريط الحكومة، والحال أننا الآن في نزاع بسبب الحدود.

ـ وكيف يورطها؟

ـ بالقول إنها متحالفة مع اليابان. لقد كان يرسل برقيات كما اتفق... من دون أن يستقبلها أحد... ولكن كل هذا، من يؤكده؟

ـ الرسالة...

ـ نعم، الرسالة، من حسن الحظ أنها وقعت بين أيدي السلطات، وإلا أية مشكلة لنا! وليس هذا كل شيء يا سيدي النقيب: يبدو أن أرقام الأوراق النقدية التي استلمها كاماي ستستخدم لتأكيد الحجة بأن كل ذلك ليس سوى من عمل التروبيكال بانانيرا».

طعم الكونياك والكحول الممزوج بالكاكاو، نكهة السيجارين، النور الأبيض الباهر والباعث على النوم في الثانية بعد منتصف النهار، والهدوء المخيم (بالكاد كان يسمع صوت كؤوس في البار وطنين ذباب في قاعة الأكل)، كل ذلك تغلغل فيهما قليلاً قليلاً بخدر لذيذ إلى درجة أنهما بدل القيلولة، فضلا أن يظلا مستيقظين، مواجهين بعضهما من دون كلام ورأس كل منهما مقلوب على مسند المقعد.

كان النقيب الذي شبك ساقيه، يؤرجح إحداهما بحركة متباطئة تدريجياً. وعيناه نصف مغلقتين. كان يحاول استرجاع صورة المرأة التي عرفها تلك الليلة في حانة الشارع الصغير... شارع الـ ... لقد نسي اسم ذلك الشارع... عندما يغادر الفندق سوف يذهب

لرؤيتها لا يتذكر سوى اسم المحل، ذلك الاسم الساذج: «كنت سعيداً»...

أما لوسيرو المستند بمرفقيه إلى ذراعي المقعد، فكان يتذكر نبوءة العراف ريتو بيراخ بعاصفة حشود بشرية سوف تكنس شركة التروبيكال بانانيرا... جماهير بشرية متحولة إلى مئات، آلاف، ملايين من الأيدي تحركها أهوال الزوبعة تقتلعها من سواعدها الثابتة وتدفعها ضدّ، ضدّ، ضدّ، ضدّ، ضدّ، ضدّ...

نام بيو أديلايدو. لم يذهب لحضور المقابلة الرياضية (وكان بوبي قد بقي في الفندق) وعندما نودي من الغرفة لم يبدر منه جواب. كان ممدداً بين ألعاب أخوته (مسدسات، سيوف، مدافع) وهدايا الكبار، ثم نام، وعندما دخل أبوه الغرفة وجده يشخر. فوضع له مخدة تحت رأسه وخلع نعليه ثم غطاه قبل أن يخرج.

نام الصبي حتى وقت متأخر من الظهر، وجاءه بوبي مرة ثانية حتى الغرفة وأيقظه بضربات خفيفة. أيقظه كي يخبره بأن الشلة الصغيرة تنتظره في الشارع، قرب الفندق، وكلها ترغب في التعرف عليه، وليبلغه بخبر انتصار فريقهم في مباراة التلة. أما أفراد الفريق المقابل فقد تم طردهم ضرباً بالحجارة وفرّوا منهزمين. كان خواريز «السلحفاة» كالأسد. لكن ضربة بحجر سحقت له أذنه. لم يعد يسمع وكان الدم يسيل منه. لو تمكنا منه مباشرة كنّا قلبناه من مركز المراقبة، آه! كان شجاعاً قاوم وحده في انتظار التعزيزات. أما ليموس الزنجي فقد تصرّف أيضاً بروعة...

وكاد بيو أن يسأله... «وأنت ماذا فعلت يا بوبي؟» عند نزولهما إلى الشارع حيث تنتظرهما الشلّة الصغيرة. لكنه لم ينه حك عينيه من النوم، عندما حاول بوبي أن يفسر له أنه، باعتباره من اليانكي، لا يمكنه المشاركة في هذا النوع من المباراة المحلية، لقد تابع بوبي المباراة مستخدماً يديه كأنبوبين حول عينيه، أما في الغد، سوف يحين دوره، لأن في الغد بعد الظهر، وبعد المدرسة، سوف يكون موعد الحرب ضدّ اليابان.

«هل يجيد لعب البيسبول؟ سأل الأرمص بوبي.

ـ اسأله هو...

ـ نعم، حقاً، كم أنا أحمق! لقد نسيت أنه يتكلم الإسبانية... هل سبق لك أن لعبت البيسبول؟

ـ كلا، لكن بوبي سيعلمني، أجاب بيو أديلايدو.

ـ أيها الصغار، قال فلوفيو ليما، أقترح عليكم إجراء مباراة شرفية له. يمكن أن تكون غداً مثلاً، بدأت الحرب ضدّ اليابان.

ـ لا تأت أنت بهذه الـ...، كفى! كل هذا لأنك خائف... لقد ترنّحت اليوم، لا يبدو عليك أنك رجل...

ـ لكنه لا يستطيع المشاركة في حرب. وهل يأتي من مكان بعيد ليتلقى ضربات سيئة؟ أما نحن فمتشابهون في الوحشية.

ـ حسناً أوافق على إجراء مباراة كبيرة غداً إكراماً لصديقنا»، أعلن بوبي...

وفي غضون ذلك كان الوقت يتأخر... لقد حان موعد الرجوع إلى الفندق. سوف يتأخر بيو أديلايدو إذا لم يعجّل... عليه أن يخرج مع والده، الساعة الثامنة مساء، تغيير الثياب ثم الخروج. إنهما ذاهبان إلى طبيب أسنان من أقرباء دون ماكرايو آيوك كايتان، هاهوذا اسمه بحروف برونزية ناتئة على لوحة مذهبة في الباب الخارجي: الدكتور سيلفانو لاريوس.

ما إن اجتازا عتبة عيادة الدكتور لاريوس حتى تغير كل شيء وبدا للزائرين كما لو أنهما بفعل السحر، انتقلا إلى نيويورك. كانت الإضاءة غير مباشرة تعكسها المساحات الناعمة (الجدران، السقف، الأرضية، الأثاث) وكأنّ طابة تنس ترتد بطيئة بعد لمس الأرض. وكان كلّ شيء في ذلك الضوء يبدو وكأنه يتحرّك ببطء. الضيوف، الخدم، والموسيقيون الذين كانوا يعزفون على التوالي فالسات وألحاناً من هاواي.

اقتربت مجموعة من الصبيان من بيو أديلايدو، ثم رافقوه إلى الحديقة. كان يرتدي بدلة جديدة تفوح منها رائحة «الدُّهنين»، وشعره ملتصق بجلدة رأسه لكثرة دهن التجميل الذي وضعه له أبوه، وكان لأول مرة يحمل ساعة وربطة عنق.

«تفضل هنا يا سيد لوسيرو، قال الدكتور لاريوس. أريد أن أحدّثك في مسألة هامة جداً». قبِل لوسيرو السيجارة التي قدمها له الدكتور ثم تناول أحد كراسي غرفة الانتظار التي قاده إليها ذاك، دون أن يكف عن وضع إصبعه على شفتيه، في كل لحظة، ليطلب منه الصمت.

«اجلس هنا، يا سيد لوسيرو، واقرأ هذه الرسالة. سوف أعود حالاً». أخرج لينو الرسالة من الظرف الذي قدمه له الدكتور لتوّه، وعندما أنهى قراءتها، مكث هناك بلا حراك، وكأنه قطعة واحدة ثابتة، دون أن يدرك ما يفعل أو يقول. أراد أن يعيد قراءتها، لكنه تراجع. مرّة واحدة تكفي.

كان ماكاريو آيوك كايتان يطلب منه في الرسالة أن يدلي بصوته، خلال انتخابات رئاسة الشركة، لصالح الشخص الذي ـ إذا تكرّم لوسيرو وإخوته بالقبول ـ كُلِّف الدكتور لاريوس بتسميته لهم، وهذا الشخص هو في مقدمة المساهمين في «الفروتاميل كومباني» كما أنه يدعمهم.

عاد لاريوس بقدحي ويسكي ـ صودا وطلب منه أن يشرب نخباً في صمت فصيح... وكانت تتناهى إليهما من بعيد الموسيقى وضحكات المدعوين الجذلى. وبعد الويسكي الذي عبّر الدكتور عن تذوقه له من لسانه، سأل ضيفه عن رأيه في رسالة ماك.

«رسالة ماك؟... كرّر لينو آليّاً...

ـ نعم، رسالة ماك.

ـ رسالة ماكاريو.

ـ أوه! يا عزيزي، في أوساط البورصة والمالية، لا يعرف ذلك الرجل إلاّ باسم ماك هيتان.

ـ ولكن هل... (كان على وشك أن يقول «ماكاريو...» ولكن بدا له بسبب الاسم الجديد، أن الأمر يتعلق بشخص آخر) هل يعلم هذا السيد أن «الفروتاميل كومباني» هي عدوّ وطننا إذ إنّه من هنا، ولد هنا، وتربى هنا، وهو من هنا.

ـ هذه الطريقة في الحديث، يا صديقي العزيز، لم تعد مستعملة، صرخ الدكتور لاريوس، وهو يقوم بحركة رمي شيء لا قيمة له من يده. حكايات الوطن، تجاوزتها «الموضة».

ـ ولكن إذا كان الوطن، في نظر ماكاريو...

ـ انتبه. إنه ماك. ماك هيتان.

ـ عفواً، مكاريو. هذا هو اسمه. إذا كان الوطن، في نظر ماكاريو قد تجاوزه الزمن، فمن المستحيل أن يكون قد نسي تعاليم الشخص الذي ترك ثروة، جعلت منه سيداً... يا للشيطان!

ـ ذلك الشخص؟ إنه أكبر مجنون وجد تحت السماء.

ـ دكتور لاريوس، لو لم نكن في بيتك لما سمحت لك أن تتكلم هكذا عن ليستر ميد.

ـ عفوك كنت أظن أنك تكرهه مثل ماك وإخوته وكوجوبول.

ـ هل قلت يكرهونه؟

ـ إيه! بلى، يقولون بأنه وزوجته كانا غير متوازنين ويحبان تعقيد الأشياء، كانا ثائرين. ولكن كلّ ذلك قصة قديمة. وما يريده ماك وكوجوبول، وكذلك نحن جميعاً، هو أن تمتص «الفروتاميل كومباني» أسهم «التروبيكال بانانيرا» التي شاخت وخفّ نشاطها، وأن تأتي لتعويضها هنا وتعمل معنا، هل فهمت؟ إن «الفروتاميل» هي ذراع من أذرع الشركة، وهي ضليعة أكثر من «التروبيكال بانانيرا»، هل فهمت؟ وفي حين أنهم هنا يسحقوننا بالضرائب، فإن الفروتاميل هناك، نجحت في الحصول على إعفاء سنوي قدره تسعة ملايين دولار، ونظراً لكون ذلك الإعفاء يسري على أكثر من عشر

سنوات، احسب: إنها تقريباً مائة مليون دولار تقسم على المساهمين، هل فهمت؟ هكذا ينبغي أن تكون الأمور في البلاد!... أفرغ كأسك. هنا مع التروبيكال بانانيرا، بدأنا بداية حسنة: أهدونا، منحونا سكة الحديد وسوف يشترونها منّا بعد تسعة وتسعين عاماً، أعطونا أيضاً الأرصفة، ساحات المحطة، ولكن الأمور الآن تسير من سيء إلى أسوأ. ومن الأنسب أن يتولّى رئاسة هذه الشركة رجل من «الفروتاميل» وأن تصير كل المزارع التي نملكها هنا، وكيفما كان ذلك، سواء بالحرب أو عبر قرار المحكمة التحكيمية، ملكاً للفروتاميل، مع الحصول على مساحة الأراضي المتنازع عليها لصالح من هم في هذا الجانب. وهكذا نحصل جميعاً على نفس القدر من الامتياز... هل تعبت؟ أنت متعب؟

- قليلاً. في كلّ مرّة أترك فيها الساحل، أصاب بالتعب.

- بسبب الارتفاع.

- نعم في الحقيقة لست أشعر أنني على ما يرام.

- ماذا قررت بخصوص الرسالة؟... ينبغي أن تقرر حتى أجيب ماك، إن كنا سنعتمد على صوتك. وفي هذه الحالة، فأنا مكلف بأن أبلغك باسم المرشح.

- أليس هو السيد ماكر تومبسون؟» سأل لوسيرو. كان يشك بأن ذلك الرجل يلعب على خطين، وكان قلبه يدق بقوة فائقة وهو يصوغ سؤاله.

«أبداً... البابا الأخضر المسكين! لقد بات طعاماً للحيوانات المفترسة! مرشحنا رجل حازم».

تنفس لوسيرو الصعداء، لكنه أخفى رضاه بدفع رأسه إلى الخلف أثناء رفع كأسه لتقريبه من شفتيه اللتين لامسهما الكأس المعطّر برائحة الويسكي، بلطف.

«ستعلن التزامك الشرفي، ثم أعلمك بالاسم فوراً.

- كلا يا دكتور.

ـ في هذه الحالة، من البديهي أن تعدني بشرفك أن يظلّ هذا الحديث سرّاً بيننا.

ـ يمكنك أن تتأكد من ذلك، يا دكتور لاريوس، سواء وعدتك أم لا. سوف يتملكني الخجل بمجرد ذكر ما تقول هذه الرسالة أو ما سمعته منك. أي صنف من الرجال هو ـ سيتساءل الأشخاص الذين قد أروي لهم ما سمعت ـ حتى يترك الرجل الذي دعاه إلى خيانة وطنه من دون عقاب، ذلك الرجل الذي دنّس ذكرى الزوجين ليستر ميدو وليلاند فوستر في حضوره؟

ـ فيما يتعلق بالكتمان. كن واثقاً بذلك يا سيد لوسيرو. ولكن ليست هناك خيانة للوطن: هذه الخيانة لا وجود لها... دعني أتكلم، انتظر حتى أنهي كلامي. إن أراضي الحدود التي يتنازع عليها البلدان ليست ملكاً لأحد، ليست لمن هم هنا ولا لمن هم هناك. إنها للشركة، أي أنها حتى اليوم لا تزال ملكاً «للتروبيكال بانانيرا» وغداً سوف تصير ملك الفروتاميل، إذا ربحنا القضية. المسألة ليست مسألة أوطان، ولا حدود، كما تعتقد، لأنّ رأيك غير واقعي. هذه الأراضي المتنازع عليها في الحدود، هي ملك الشركة والنزاع ليس بين وطنين، بل بين مجموعتين رأسماليتين جبارتين.

ـ ولكن، لماذا يتحدثون عن الحرب إذن؟

ـ تلك مسألة أخرى... هناك أناس يتاجرون بالسلاح وهم ينتهزون الفرصة لوضع النار بالبارود. تثار الفوضى والاضطرابات... وتتحدث الجرائد عن المسألة كل يوم وبكل اللهجات، ولكن كل ذلك ليس إلا متاجرة، ولا شيء آخر، الأغبياء وحدهم هم الذين يهولون في المشكلة بحديثهم عن الاستشهاد في سبيل الوطن، ولفظ النفس الأخير تحت الراية الوطنية ، والدفاع عن الأرض المقدسة حتى آخر قطرة من دمائهم. هذا غباء... منتهى الغباء: إذ، في نهاية الأمر إذا اندلعت الحرب فإنهم سوف يذهبون للقتل من أجل القتل، ولن يذهبوا للدفاع عن أي شيء، لأنهم لا

يملكون شيئاً. وسواء انتصر هؤلاء أم أولئك فإن مالك الأراضي لن يتغير. فإذا انتصر الذين هناك تظل الأرض لنا تحت سيطرة الفروتاميل كومباني. وإذا حدث العكس وانتصر الجيش الذي هنا، فإن الأرض تبقى ملكنا أيضاً تحت التروبيكال بانانيرا.

- إنها محاكمة سيئة تقدمها لي يا دكتور لاريوس لإقناعي. والنتيجة الوحيدة التي يمكن أن تحصل، هي كون النهاية سوف تكون سيئة.

- ولماذا ترى؟ إنها ليست دعوى، بل قضية تجارية. فالأرباح، والفوائد والإزدهار ليست هامشية بالنسبة لأي رأسمالي... سيجارة؟... إن لليانكي كلمة لوصف هذا العصر: «Prosperity» «Prosperity» وبالنسبة لي إنما يعني ذلك: على أصحاب الرخاء أن يظلوا في رخاء، وعلى الآخرين أن يذهبوا إلى الشيطان! ليس للإنسان العصري من وطن غير الـ «Prosperity» لقد ولدت في بلاد البحيرات، لكنني مواطن من هذا الوطن الذي يدعي الرخاء والرفاهية. ينبغي، ينبغي الحصول على هذه الرفاهية... لكننا نتيه في حماس الاندفاع، ومن الأنسب أن نحدد الأشياء.

- لا شيء يتطلب التحديد، يا دكتور لاريوس، لقد كان جوابي واضحاً. لن ندلي بأصواتنا لصالح مخططات الفروتاميل.

- ولكن بإمكانك الإمساك عن التصويت، بالاقتراع على البطاقة البيضاء».

لم يجب لوسيرو. توجه نحو الباب الرابط بين المكتب وبقية المنزل. كان في الإشاحة بظهره جواب كافٍ. حاول لاريوس أن يستبقيه.

«كلا يا دكتور، لقد أخطأت».

وسحب ذراعه التي أمسك بها الآخر، كما لو كان مثل ذلك اللمس يشعره بالغثيان. وما أن تخلص منه حتى صادف صديقة قديمة لزوجته، فأقبلت بعد أن رأته:

«منذ متى وأنت هنا؟ ما أسعدني برؤيتك مجدداً! تعال لأقدمك إلى بعض الأصدقاء. زوجي، طبعاً تعرفه. سادتي أقدم لكم أحد الورثة المشهورين في الساحل، واحداً من أصحاب الملايين ممن لم يغرهم السفر والإقامة في الخارج... لم نعد نتحدث عنك. لا شك أن ذلك يثير غضبك...

ـ لستَ أدري كيف يتمكن أناس «ممكنون» من العيش هنا!... قالت ذلك وهي تتنهد بنبرة متراخية واهنة، امرأة ذات بشرة بيضاء، ترتدي الأسود، ولها خال قرب فمها خال اشتد سواده بفعل لمسات المكياج الذي كانت تضعه على خالها لتجعل منه نوعاً من «مومو تومبيتو»(*) حِداد. وكان شاعر من بلادها قد قال لها مرة بنبرة تآمر: «وخالك على محياك، مومو تومبيتو حداد...»».

ـ دونيا مرغريتا من بلاد الدكتور لاريوس، وأوضحت تلك التي كانت تقوم بالتعريف. إنها أرملة دبلوماسي.

ـ دبلوماسي كبير، تنهدت السيدة، وهي تمر بمنديل من الدانتيلا على أنفها الجميل الشبيه بأنف تمثال إغريقي، وهي صاحبة الخال على الخد الأيسر.

ـ أخبرني يا لوسيرو. كيف حال كروت؟ لم أرها منذ فترة طويلة!... كنت أظن أنهم سينتقلون على الأقل إلى العاصمة. لأن مواصلة العيش، كما تعلم، مثل المساكين في الساحل...

ـ مثلما لا يرغب حتى المساكين...!» تدخل الزوج، وهو رجل ذو نظارتين من صدف، أصلع الرأس، ورقبته غارقة في قبته الاصطناعية القاسية. تبدو بقية الشعر القليل الموزع على جمجمته كنسيج عنكبوت، وكان يفتخر به نوعاً ما، مدعياً إن من له مثله يجد نفسه في منجى من الذباب، لأن الذباب يخاف الوقوع بين خيوط نسيجه.

(*) اسم بركان صغير في بحيرة نيكاراغوا.

«إنما هو الذي عليه أن يأتي مراراً إلى العاصمة» قالت دونيا مرغريتا.

كانت تترك كلماتها تسقط وكأنها تدفعها بعينها، كأنها تضربها بعينيها السوداوين. المتعلقتين، المائلتين، الساخرتين خلف جفنيها الطويلي الأهداب.

«أجيء عندما تتطلب الأعمال ذلك، ولكنني أعود بسرعة. ولايرتاح المرء عندما يكون بعيداً عن بلاده.

ـ واليوم، هل جئت وحدك؟ سوف أسأل كروت ماذا تعني بتركك تأتي بمفردك. رجل مثلك صاحب ملايين كثيرة هو دائماً مغرٍ. بفضل الله، نحن متزوجات... آه لكن دونيا مرغريتا أرملة... ويا لها من أرملة جميلة وصغيرة!...

ـ لا أجيء وحدي أبداً، واليوم جئت برفقة ابني البكر.

ـ على الأقل سوف يسافر هو إلى الخارج، لاحظت الأرملة بخبث. ينبغي على المرء أن يعيش حيث الحياة هي حقاً حياة، وليس في تلك المدن الصغيرة حيث الخمول. أنا، مثل زوجي، تعودت على عدم رؤية كل ذلك البؤس... كنا نسكن في واشنطن. وكان في السفارة بيت محاط بأشجار اللوز... لوز... وأزهار لا يحلم بها المرء!

ـ نعم! أما أنا فقد حلمت، ثم استيقظت، قال الأصلع، في حين كان الخدم يوزعون طاسات من الحساء المبرد، تمهيداً للعشاء الذي كان ينتظر المدعوين.

ـ لم أفقد الأمل في العودة إلى النوم، في العودة إلى الخارج. عندما يجد المرء نفسه خارج بلاده، يحلم بأشياء جميلة، تخالجه مشاعر رائعة.

ـ عجائب حقيقية، باختصار، تدخلت زوجة الأصلع، دون أن تشرب شيئاً من حسائها.

ـ ألا تشربين؟ سألها لوسيرو.

ـ أحبه كثيراً. ولكني أفضل أن يشرب منه زوجي. إذا كان اثنان يحبان بعضهما جيداً، يكفي أن يشربه واحد فقط. أنا لا أحب الحساء المبرد. هذه موضة جديدة. أفضل ما هو ساخن. الحرارة، هي الحياة.

ـ تعالي معي إلى الساحل إذن...

ـ ولكن هناك لا توجد حرارة بل هو الجحيم بالأحرى...

ـ الجحيم أكثر مرحاً من الجنة، قال الأصلع وبين أسنانه تلمع قطع الزيتون الصغيرة التي كان يمضغها.

ـ لم تجبني، يا سيد لوسيرو، عما إذا كنت سترسل ابنك للدراسة في الخارج. أسألك عن ذلك. لأنه لا يهمني أن أعهد به إلى شخص يعتني، مثل مربية، بالأبناء الذين يرتادون المعاهد والمدارس والجامعات.

ـ فيما بعد، نعم. أما الآن فلا. ينبغي أولاً أن يتجذر في تربة أرضه. الذين يسافرون وهم صغار جداً لا يتجذرون هنا ولا هناك. إنهم مثل نباتات بلا حياة، وذات أوراق جميلة، يدهنونها بلون ذهبي كي تستخدم للزينة. لا أريد أن يكون ابني نبتة للزينة، مثل العديد من أطفال الأغنياء. انظروا، ها هو ذا، أقدم لكم بيو أديلايدو لوسيرو.

ـ إنه يشبه كروت تماماً. لا يمكن لقطرتي ماء أن تتشابها أفضل».

لم يكترث الأصلع بما قالته زوجته الشرعية عن الشبه الذي بين بيو أديلايدو وكروت، وما أن انتهى من العشاء حتى أدار رأسه داخل ياقته الاصطناعية ليبحث عن الخدم المكلفين بتقديم القهوة ـ التي شم نكهتها من بعيد ـ والمشروبات الروحية والسيجار.

«وأنت أيها الصبي، ماذا حدث لك؟ قالت دونيا مرغريتا وهي تمسك بيده بحنو.

ـ بابا لا يريد الذهاب، وأنا أريد ذلك.

ـ ولكن من قال لك بأني لا أريد الذهاب؟ سنودع هؤلاء الأصدقاء الطيبين، نحن في «سانتياغو دي لوس كاباليروس» ويسعدني أن أراكم هناك، إذا جئتم للغداء أو للعشاء ذات يوم. نحن نفكر، بالبقاء حتى يوم 20. تعالوا في أي يوم تستطيعون المجيء فيه. ولكن أخبروني في الوقت المناسب لكي أجعلهم يجهزون شيئاً ما خاصاً بكم.

ـ لست أصدق وجود مثل هؤلاء الفلاحين! صاحت الأرملة، بينما كان لوسيرو وابنه يتبعدان.

ـ مسكينة كروت! لزواجها من رجل كهذا! هندي أصيل رغم مظهره الإسباني، إنه لا يفكر مثلنا.

ـ أنا، قال الأصلع، أنا أرى أنه، سأقول لكم ذلك، إنه «مطابق ـ للمقام ـ النايي...».

ـ يا للشيطان من أين أتيت بهذه الكلمة؟...».

تابعت دونا مرغريتا بعيونها (الخال والعينان = ثلاث عيون) لوسيرو الذي توقف للحديث مع مدعوين آخرين.

«إن العيش في الساحل شذوذ من جانبكم. اعذروني على التحدث إليكم بصراحة، ولكن نيتي أن أفتح عيونكم على الأعمال التي يمكن القيام بها في أمكنة أخرى عندما تكون القاعدة صلبة كما هو شأنكم».

والذي تحدث هكذا، هو أحد أقرباء آل آيوك كايتان، وكيل نوع من أنواع السيارات المعتبرة.

«هل راسلك ماكاريو؟... انتظر يا ابني، سوف نذهب، دعني أتحدث.

ـ بل عليك أن تقول «ماك». لقد غير اسمه أيضاً. من اسم ماكاريو السوقي إلى اسم ماك الجميل. لم يعد مزارع الموز المعتل الساكن في الساحل، وإنما مستر ماك مجرد مواطن من «ريفر سايد»

في نيويورك. لقد ترجاني ماك أن أتصل بك كي لا تواصل تبذير أموالك، أنت والأطفال الذين حان وقت تربيتهم.

- سوف تجبره الحرب مع الجيران على مغادرة الساحل، لن يطول ذلك! قال مزارع بن ذو عينين زرقاوين ولهجة توتونية(*).

- كلا، لأن الحرب على الساحل الأطلسي والمستر لوسيرو مقيم في الساحل الباسيفكي، أوضح وكيل السيارات والمحركات بصفة عامة.

- نعم، من الأفضل أن تقوموا برحلة صغيرة، قال الألماني، ولكن ليس إلى الولايات المتحدة فقط. برأيي عليكم أيضاً أن تزوروا ألمانيا: ما دامت الزوبعة مستفحلة في تلك المناطق البحرية.

- الولايات المتحدة أولاً. في بداية الأمر، نعم. لكن ليس إلى ألمانيا مطلقاً، ينبغي تحسين الوضع مع اليانكي». صحح قريب آيوك كايتان.

«بابا أريد الذهاب، تدخل بيو أديلايدو.

- ولكن، أجاب لوسيرو بصوت مرتفع حتى يغطي صوت ابنه، أن يكون المرء على علاقة حسنة مع شخص آخر، وأن يكون صديقه، فهذا شيء؛ أما أن يكون مرتهناً بغيره مثل رجل بلا شخصية أو مثل خادم فهو شيء آخر.

- بابا أريد الذهاب!

- حتى الآن لا مجال للصداقة. منذ كان العالم عالماً والأصدقاء لا يبقون أصدقاء إلا إذا كان لهم نفوذ متساوٍ: بالقوة أو بالمال. كيف يمكن لفيل أن يكون صديق برغوث؟ لا يحدث ذلك للفيل إلا لكونه يتحمل البرغوث، أو مثلما هي حالنا نحن، يا مستر لوسيرو، إذ نظن بأن الفيل ليس موجوداً إلا ليكون للبرغوث دم يمتصه. وذلك لأن عقليتنا عقلية برغوث، برغوث، هل تسمعني جيداً، برغوث.

(*) نسبة إلى التوتونيين سكان جرمانيا الشمالية.

- فليأتِ الفيل إذاً لينجز حربه وليدع السلام لنا، نحن البراغيث!

- نعم، لأن هذه الحرب، قال الألماني، هي في نهاية المطاف، حربكم أنتم، وسوف تكون حرب براغيث.

- أريد أن أذهب الآن!... يا بابا، أريد أن أذهب يا بابا!

- نعم سنذهب. إلى اللقاء سادتي!

- لا تذهب قبل أن أطرح عليك سؤالاً! قالت الأرملة وهي تدنو منه، عدني بأنك سوف تجيب... أتحرق شوقاً لمعرفة من كانا الزوجين ميد. لأنه من النادر وجود يانكي مثلهما، يندفعان جسداً وروحاً إلى جانب أطفال البلاد!... جسداً وروحاً، ومالاً، طبعاً، إذ ما نفع الروح والجسد يا سيد لوسيرو من دون هذا العنصر الثالث المقوم؟ يمكنك أن تكون أفضل الرجال وأكثر الرجال تحلياً بالفضيلة والموهبة في الكون، وأنا أجمل النساء بجمال جدير بالنحت، ولكن لا قيمة لذلك إذا لم يعلم به الناس، ولا أحد سيعلم به من دون دعاوة، والدعاوة هي المال.

- بابا أريد الذهاب الآن!

- بالنسبة لي، كان الزوجان ميد (ويقال إن اسمهما ستونر أيضاً) يفعلان كل شيء بالدعاوة. وإذا كانا قد أوصيا لكم بالثروة فما ذلك إلا ليذيع صيتهما، دون أن يخالجهما أدنى شك بأن الموت كان قريباً منهما. لا شك أنهما قالا لبعضهما: «لنوصِ أولاً بالإرث وبعد أن تتحدث عنا الجرائد التي هناك (إذ إن الجرائد التي هنا لاقيمة لها) نلغي الوصية». لقد كانا يريدان تقديم نفسيهما كقدوة، كي يدخلا التاريخ، ألا ترى كذلك؟

- كلا يا سيدتي...

- اسمي مرغريتا.

- كلا يا دونيا مرغريتا.

- إنك تزيد في سني!... جازاك الله! لا تنادني دونيا.

- كلا يا مرغريتا.

ـ كلا، كلا، كلا!... ولكن اسمي مرغريتا ويمكنني أن أرد عليك بمثلها وأقول لك: بلى، بلى، بلى!

ـ بابا أريد الذهاب!... الآن أريد الذهاب، الذهاب!

ـ هذا الصبي يكاد ينهار من النعاس».

ووضعت الأرملة يدها المغطاة بالخواتم، يدها المرنّ معصمها بالأساور على كتف بيو أديلايدو الواهي الهزيل.

«نعم سنذهب...

ـ ولكن بما أنك مدين لي بالجواب، سوف أمر عليك في فندق سانتياغو دي لوس كاباليروس، على ما أعتقد، سأبحث عنك لتخبرني كيف كان الزوجان ميد. أناس من كوكب آخر!...»».

قبة السماء، قطعة واحدة من بازلت أزرق داكن، تتوزع فيها مناخل الذهب النجمية، نسيج معدني يمنع الحشرات البشرية من الذهاب لإزعاج نوم الإله، ارتجت ارتجاجاً بدوي طائرة. لقد بدأت السفن الفضائية بالخروج نحو ارتفاعات أخرى، بركابها المسافرين منذ أول الصباح نحو أحلام أخرى، نحو أحلام أخرى.

16

قام المدير العام للشرطة ـ وجه دائري، شعر حليق، ووسام واحد أسمر تشوبه خضرة سم ـ متخلصاً من كومة أوراقه التي كان يوقع عليها ـ وهي بريد اليوم ـ ليستقبل السيد لينو لوسيرو، في جلسة بدأت بين الدقة الخامسة والدقة السابعة من جرس ناقوس الساعة الثامنة صباحاً، ناقوس يدق في ساعة حائط عالية ذات ثقّالة جامدة ظاهرياً، لكن وقعها كان يأتي من زمن الأبدية المتعاقب دون التمكن من ملاحظة تحركها وراء حركة البندول المستمرة ذهاباً وإياباً.

على المكتب، وفضلاً عن رزم الأوراق التي كانت توجد فوقها، وبقياسات أصغر، أوامر إخلاء السبيل، ثمة ستة تليفونات، ملامس أجراس كهربائية، مصباح ذو كمّة عاكسة للنور خضراء اللون، ومحبرة ضخمة مع تمثال للعدالة معصوب العينين ـ عينان لا تريان وقلب لا يحس ـ يسند كفتي ميزان، حاول الموظف، عند اقتراب زائره، أن يعيدهما إلى حالة التوازن، بضربة خفيفة من ريشته التي أعادها بعد ذلك إلى المحبرة.

كفّتا العدالة في صعود ونزول، آخر دقات ناقوس الساعة ترنّ رنيناً متلاشياً بين الجدران وستائر المخمل الأزرق، والكمّ الكبير المزين بشرائط ممدود لمصافحة لوسيرو.

تخلص من طاولة المكتب. كان المقعد اللولبي يشده إليها. فوجد صعوبة في إدارته للخروج منه، أعاد تشبيك زناره وهو يمرّ بين التليفونات، خطا بضع خطوات وكأنما فعل ذلك لينتعش بعد طول جلوسه. وبعد أن أحكم إقفال أزرار فتحة بنطاله ورتب مسدسه المتدلي من زناره، تقدم برشاقة فوق السجادة الخمرية اللون ثم انهار على الأريكة، منفرج الساقين: عندئذ دعا زائره إلى الجلوس على أحد المقاعد.

«لقد جعلتك تستيقظ باكراً، يا سيدي، لأنني أردت التحدّث إليك في أقرب وقت ممكن، ومن حسن الحظ أنك موجود في العاصمة، وإلا كنت طلبت حضورك وأزعجتك بالمجيء من الساحل. اجلس: سوف نتحدّث مثل صديقين. لا تنظر إليّ باعتباري موظفاً. لقد أعلم رجال «شركة التروبيكال بانانيرا» الحكومة السامية بأنّك بصدد تحريض الناس في الساحل، وهذه أمور لا يمكن التجرؤ على القيام بها خصوصاً ونحن اليوم بحاجة إلى دعمهم لنا في مسألة الحدود».

حاول لينو لوسيرو أن يتكلم.

«ليس مطلوباً منك أي توضيح. إنما بسبب ذلك صرت لا أطيق

الجلوس على ذلك المقعد أمام مكتبي طيلة ساعات النهار وساعات الليل. لست أبالغ. هل تناولت قهوة؟ سوف أقدم لك فنجاناً، أنا أعمل هنا، كما تراني، منذ الساعة الخامسة صباحاً».

وقف متثاقلاً، فرنَّ مهمازاه، وكانت جزمتاه المبرنقتان تشدان أسفل بنطاله ذي اللون الداكن. ضغط بإصبعه على زر جرس...

«قهوة بالحليب! أمر الخادم الذي دخل بفطور الصباح... أوه! يا للتمييز! يا للتأديب! لقد خدمت نفسي قبل أن أخدم ضيفي... إنما هذا، يا عزيزي لوسيرو، هو بسبب التعود على تناول الفطور بمفردي!... كيف تفضلها؟ كثيرة الحليب أم قليلة؟ أنا أفضلها مع قهوة أكثر. هذا يذكرني بالضيعة، يا عزيزي. سقى الله تلك الأيام! أحياناً أحرك أصابعي لأتذكر عملية الاحتلاب.

ـ لا شك أنك تملك أراضي واسعة... جازف لوسيرو قائلاً.

ـ بضع قطع... أوه! لا شيء البتة... أريد أن أشتري الآن.

ـ ألم تفكر في الساحل؟

ـ التفكير؟ التفكير؟... نعم! أحياناً.

ـ للملكية قيمتها في الساحل.

ـ إذن أكلفك، يا عزيزي لوسير، بالمهمة، مزرعة لا تكون مرتفعة الثمن.

ـ من الممكن ذلك. ولكن المسألة مسألة بحث.

ـ إذن أكلفك بذلك... وليس هذا كل شيء... فالحديث ذو شجون: يمكننا أن نشتريها معاً...».

شرب آخر جرعة من القهوة بالحليب، متلافياً تلويث شاربه.

«نشترك ونشتري المزرعة. يسعدني أن تفكر في الأمر.

ـ أنا منشغل جداً بمزارعي وأعمالي هناك. لست أدري إذا كنت سأجد وقتاً...

ـ كان أحد جدَّيَ يقول: «الاحتطاب لا يضر بالماشية» ويعني بهذه البلاهة أن بإمكان المرء أن يكون في الغابة ليحتطب وفي السهل ليرعى بالدواب...».

بعد الانتهاء من تناول الفطور، شرع مدير الشرطة ينظف أسنانه بطريقة عسكرية. الطابور الأمامي الأول، الطابور الثاني، المدفعية الثقيلة، وأخيراً طاحنات المؤخرة. ثم التفت نحو لوسيرو قائلاً:

«سنقوم بتسوية أمر يناسبنا معاً».

وخاطب الخادم الذي دخل من أجل التنظيف:

«سجائري وقداحتي على الطاولة التي قرب السرير... (دخل الرجل إلى الغرفة المجاورة ثم عاد بعدَّة التدخين)... عليك أن تنظف قبعتي جيداً، سحقاً! لا أحد يقوم بعمله على ما يرام».

وأخيراً التفت من جديد ناحية ضيفه ليقدم له سيجارة:

«أرأيت كيف يتوجب علي أن أصارع من أجل تنظيف قبعتي!... الخطة هي أن نشتري مزرعة جيدة معاً وتهتم بها أنت.

ـ ليس بوسعي الالتزام بذلك. لقد خططنا، أنا وأخوتي، لزراعات أخرى بالإضافة إلى الموز: ليمون الأترج، الشاي مع الليمون... وصناعة طحين الموز؛ لكن الفكرة ليست سيئة: تربية حيوانات في الساحل، فكرة ليست سيئة، حتى الكلمات توحي بذلك.

ـ أتدري ماذا تمثل سلطتي مع أموالك المهددة؟ أما بالنسبة لشكوى الشركة، فسوف أتغاضى عما يقال ضدك، ضدك وضد أخوتك. على هذه المحاورة يتوقف قرار ما إذا كنت ستظل سجيناً في المدينة.

ـ ينبغي مطالبة التروبيكال بانانيرا بالخضوع لقوانين البلاد. هذا كل ما في الأمر.

ـ الكلمة تخرج من الأسنان إلى الشفتين! يا عزيزي لوسيرو،!

لكن ما هو ضروري يدخل من الأسنان إلى الحلق! من السهل على المرء أن يتكلم ولكن من الصعب عليه أن يملأ بطنه. ولو أن الله بعد أن منَّ على الإنسان بالكلام، لم يترك له فراغ المعدة، لما نبح، بل تكلم. ملكته في الكلام، لكن غريزته لا تسمح له بذلك: ولهذا فإنه ينبح؛ ينبح كي يرمى إليه خبزه اليومي، أولئك الذين يمسكون بخناقه، الأقوياء.

ـ ولكنه ذات يوم، بدل النباح، سوف يعض.

ـ بدل النباح؟ تريد القول: بالإضافة إلى النباح. ذات يوم لن يرضيه النباح فيعض، هذا ممكن جداً، حتى وإن كان ذلك لمجرد تكذيب المثل: الكلب الذي ينبح لا يعض.

ـ وليفوض الأمر إلى سيده المقدس!...

ـ من الأفضل يا صديقي العزيز، ويا شريكي قريباً، أن يتظاهر المرء بعدم رؤية أي شيء... إذ في النهاية... أتظن أننا نحن الموظفين لسنا عل علم بكل الـ... الانحرافات التي يقومون بها؟ ومن دون الاستطراد طويلاً، تعال... لقد جمعت من عجوز محتضرة... تعال من هنا، سوف أريك، اقترب كي ترى أفضل: في هذا الجارور احتفظ برزمة الأوراق المالية التي سلمت لموظف التلغراف الذي انتحر في الساحل، مقابل لست أدري أية برقيات بثها لغواصات. لقد باع نفسه كي تحصل أمه على ما يسمح لها بالذهاب إلى أمريكا الشمالية لإجراء عملية جراحية، بسبب ورم خبيث تركها بين الموت والحياة. هل تعتقد، يا عزيزي لوسيرو، أنهم وفروا حيلة لمعرفة مدى الحب الذي يكنه ذلك الابن الوحيد لأمه، قبل رشوته؟ إنما بسبب إلحاحه سافرت العجوز إلى الساحل وعرضت نفسها على أطباء الشركة. ماذا بقي لذلك التعيس أن يفعل عندما توجب على أمه أن تعود إلى العاصمة بخيارين كلاهما مأساوي: إما أن تجري العملية الجراحية في الولايات المتحدة وإما أن تموت؟».

رفع لفة green-backs ثقيلة بثقل جزء من بَكرة صائحاً:

«إنما بهذه يخضع الناس، وما أسعدكم أنتم الذين ورثتم ملايين الدولارات!

ـ وملايين الأفكار! لأننا، نحن آل لوسيرو، لا نقبل الإرث مثل شركائنا السابقين، مع الاحتفاظ بحق المراجعة.

ـ لقد عرفوا كيف يتصرفون. أغلقوا الكتاب المقدس الذي دلهم عليه ذلك «المستر» ليعيشوا بالدخل. النبوءات هي من شأن الفقراء والسذج من أمثالكم ـ عفواً على هذا الاعتراف ـ الذين يعتقدون بأن العالم سيتغير... لكن من حسن حظكم أن الإعصار حمل معه النبيء وزوجته.

ـ لكن الإعصار ظل في قلوبنا، الإعصار الذي سوف يكنس التروبيكال بانانيرا وكل ما تمثله من ظلم...

ـ لا أريد أن تصير المدينة سجنك، ولكن، يا عزيزي، عليك أن تسكت! اسكت على الأقل حتى تسوية مشكلة الحدود التي تقربنا من الحرب.

ـ ذلك شيء أخر على حدة. بالنسبة للسكوت حالياً، أعدك بذلك، دون أن يعني ذلك تخلينا عن الصراع في المستقبل. لكن كلمة صراع لا تعني العنف، ذلك أن انتصار ليستر ميد وزوجته كان لمقاومة الشركة الواسعة النفوذ بوسائل سلمية.

ـ كما هو شأن «أبناء عمنا» في الشمال.

ـ أريد أن أقول لك أيضاً: لن تصير العاصمة سجناً لي بسبب الخوف، بل بسبب قناعتي: مهما كانت كلتا الشركتين، «التروبيكال بانانيرا» و«الفروتاميل» سيئتين، فإن الأسوأ هي الفروتاميل. إن النزاع على الحدود ليس سوى نزاع على الموز، وإذا لم ندعم «التروبيكال بانانيرا» فإن «الفروتاميل» هي التي سوف تستولي على المزارع الموجودة في الأراضي المتنازع عليها... وهكذا نخدع نحن!...».

وعندما تهيأ للانصراف، أمسك به الآخر قائلاً:

«لن يكون ذلك سيئاً؛ ومن جانبي سوف أقول بأني تحدثت إليك وبأنك وعدتني بتحاشي أية مشكلة مع الشركة ما دامت مشكلة الحدود قائمة، لكنني لا أعتقد أن الفروتاميل هي «الأسوأ» إلى هذا الحد!... طبيب أسناني يرى بأنها هي الأفضل... لا شك أنك تعرفه: الدكتور لاريوس.

ـ كنت عنده البارحة، كان يعد حفلة.

ـ وهل جرى حديث حول موضوع الحدود؟

ـ بطريقة غير مباشرة».

احتفظ لوسيرو بأفكاره لنفسه وهو يصافح يد مدير الشرطة، السمراء.

* * *

«سوف نأتي لنأخذك معنا إذا شئت أن تعرف ما هو «سهل المربع» إنه الحقل الذي نلعب فيه البيسبول، قال بوبي تومبسون إلى بيو أديلايدو مغادراً الفندق. أما هذا فقد غاب عن دروسه ليرافقنا.

ـ اسكت أيها اليانكي، لا ترفع صوتك! احتج فلوفيو ليما الذي كان يسير ماسكاً بذراع بيو أديلايدو. وكان ليما يخفي دفترين وكتاب الحساب تحت قميصه وقد شدها إلى بطنه بزناره. المشكلة هي أن خالي ريخينالدو قد يعاقبني إذا ما ذهبت إلى «سهل المربع» وسوف يسألني لماذا... قال ذلك وكأنه يطلب نصيحة من بوبي.

ـ إنه يذهب إلى مكتبه الآن. والخطر عليك أشد في الشوارع الرئيسية.

ـ من الأفضل عدم الذهاب إلى «سهل المربع»، لنذهب للنزهة في أي مكان ما عدا ذاك. ولا تخطئ يا عزيزي بوب: حتى إذا لم يكن موجوداً في البيت وذهب إلى مكتبه، فإن هناك سابينا: إنها أسوأ.

ـ من الأفضل، عقب بوبي وهو يخلع قبعته ليحك رأسه دون أن يخفف الخطى، من الأفضل الذهاب إلى «المربع» دون أن نتحاشى سابينا، إذا أردت، نذهب ونسلم عليها بكل بساطة.

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ بلى، لأنها إذا رأتك تحاول الاختفاء منها، سوف تفكر بأنك غبت عن الدرس، أما إذا ذهبنا إليها وسلمت عليها باطمئنان، فسوف تفكر بأنك طلبت الإذن من خالك ولن تقول شيئاً.

ـ بوبي على حق، تدخل بيو أديلايدو الذي كان صمته صمت القروي الصغير يفسح كل مجال المناورات الكلامية لأصدقائه، أبناء العاصمة.

ـ سنفعل ما يلي أيها الفتيان، قال ليما وقد استعاد الشجاعة. إذا رأتنا سابينا، نقترب من المنزل وكأن ليس ثمة شيء، حتى لاتشك بأني لم أذهب إلى المدرسة، أما إذا لم ترنا، فسوف أتسلل».

وصلوا الآن إلى السهل الأخضر المحاط ببيوت بيضاء، وزرقاء، وردية، وبأسيجة زهور حمراء وصفراء، وبمواضع أخرى ليس فيها سياجات ولا بيوت، وإنما الأفق حيث جبال الآند بتلالها المتعاقبة. كان لون تلك الجبال المزرقة قريباً من لون الدخان الذي يتصاعد من المطابخ. رف من الطيور «الزوبيلوت» تنقر على رأس حصان، وقد خرجت عينه، ولاحت أسنانه ملوثة بدم جاف.

قال مانسيلا «الأرمص» بعد أن جاء للقائهم، مشيراً إلى رأس الحصان:

«أقدم لكم عم فلوفيو...

ـ لا تبادر بهذا النوع من المزاح أيها «الأرمص» إنك تضجرنا!...

ـ ليست مزحة، إنها الحقيقة!

ـ سابينا!» صاح بوبي.

تمنى فلوفيو لو اختفى تحت الأرض، كانت العجوز عند عتبة

بابها تضع يدها على جبينها لترى بطريقة أفضل، وتراقب كل الذين يرتادون السهل في يوم عمل، للمرح.

«أيها الأحمق لماذا تختبئ؟ همس به بوبي. لو كنت مكانك لذهبت إلى البيت بحجة طلب كأس ماء.

ـ ربما لم ترني؛ وهكذا أتمكن من... التنكر.

ـ تتنكر في شخصيتك ذاتها! صاح بوبي.

ـ إذن رافقوني جميعاً وأشرعوا في محادثتها. ينبغي أن تحدثوها عن تماثيل القديسين في الكنائس، وعن الزيّاح والتطواف المقدس...».

سلمت عليهم سابينا التي كانت مستندة إلى باب المدخل، أي أنها لم تسلم إلا على فلوفيو:

«كيف حالك؟... إذن لم تكن هناك دروس اليوم؟... سوف أشكوك إلى أمك، وأخبرها أنك دائماً تتسكع مع هذه الزمرة من المشردين...

ـ لقد أعطونا عطلة...».

كان فلوفيو يتكلم برباطة جأش رغم ضحكات بوبي و«الأرمص» الصغيرة.

ـ ولماذا أعطوكم عطلة؟ أي نوع من المعلمين يوجد في مدرستكم... يعطون بمناسبة كل شيء... إذن فهم لا يريدون العمل، بدورهم؟ عليهم أن يخجلوا من أنفسهم!...

ـ أعطونا عطلة بمناسبة يوم القديسة...

ـ القديسة، باتريسا، أكمل بوبي.

ـ باتريسا... العصا، نعم، هذا ما تستحقه، يا صغيري.

قهقه الجميع، وجاراهم بيو أديلايدو. وكان اليانكي الذي أحمرّ أكثر من الشوندر، يحاول أن يخفي حذاءه الضخم.

«وهذا الذي بلون الطماطم من أين جاء؟ سألت فلوفيو، عن لوسيرو.

- من الساحل، يا سابينا، أجاب مانسيلا.

- من أي ساحل؟... أعتذر عن كثرة الأسئلة. ولكن ذلك يهمني.

- من الساحل الجنوبي، قال بيو أديلايدو.

- وهل هو بعيد؟

- نذهب إليه بالقطار.

- لست أدري، ولكن كلما تقدمنا، ابتعد كل شيء أكثر. الأمر يهمني لأن السيدة فينانسيا دي كاماي هي والدة شاب انتحر هناك، في الساحل الجنوبي.

- آه! نعم، أعرف ذلك، قال أديلايدو فرحاً بإعلام سابينا بموت موظف التلغراف، ولكسب إعجاب أصدقائه أيضاً.

- هكذا نسمع الأخبار، تذمرت العجوز مسندة يديها النحيلتين وكأنهما من خشب، على بطنها، بطن العجوز العانس المنتفخ تحت تنورتها.

- اسمه بولو كاماي، وكان صغير الحجم وودوداً وكانوا يقولون عنه بأنه يشبه سنجاباً مذعوراً. إنه المسؤول عن التلغراف. وكان كلما وضع إصبعه على الآلة ليرسل بعض البرقيات، يمضغ علكة «الكوبال»، فتتناوب تك، تاك التلغراف مع صوت الـ تك، تك، تك من فمه.

- ولماذا قتل نفسه كما يقال؟

- ندماً، حسب ما يقول عمي خوان.

- قليلاً من اللياقة!... من سوء التربية أن تتكلم هكذا عن شخص حاكمه الله!...».

سكت بيو أديلايدو مدهوشاً، لكن بوبي تومبسون وضع يده على كتف الآخر معيداً إليه رباطة جاشه. ثم أمر:

«اذهبوا الآن!

ـ انتظروا! قالت سابينا، لم يعد لكم وقت للعب في السهل، وقبل أن تذهبوا، أريد أن أسأل هذا الصبي إن كان تواطؤ ابن السيدة فينانسيا مع اليابانيين صحيحاً، أم هو كذب؟

ـ مع اليابانيين؟ سأل بيو أديلايدو، متردداً.

ـ نعم، أظن ذلك، تدخل بوبي بالقول، يبدو أنه كان يبيعهم أسراراً.

ـ يا لأمه المسكينة!... لقد تناقل الناس أخباراً من هذا القبيل. ولهذا من الأفضل لكم أن تتصرفوا بطريقة جيدة... لأن الذي يتصرف تصرفاً سيئاً ينتهي نهاية سيئة. وقل لي من تعاشر...».

قالت ذلك بسبب فلوفيو عندما كانوا يبتعدون نحو السهل... وبعد أن أغلقت الباب بدعامة ودفعته لتطمئن أكثر على انغلاقه، أخذت تكرر:

«قل لي من تعاشر... يا للسيدة فينانسيا المسكينة! يا للسيدة فينانسيا المسكينة! هي التي كانت تعيش في رخاء!... كان ابنها يربح أموالاً لا بأس بها... وكانت تحصل على مبلغ ما، من إيجار بيتها الذي تسكنه بلا ثمن تقريباً... ولكن كل شيء حدث بسبب ورمها، ورمها الخبيث. كان من الأفضل لها أن تنتحر! هناك أمراض ينبغي على المرء عدم معالجتها لأنها أمراض موته، أمراض موته الشخصي، ينبغي عليه أن يتركها تتفاقم وتؤلمه ثم تأخذه معها... لهذا وجدت الأمراض، لكي تحمل من هم زائدون منا... آه! ولكن الأطباء!... الأطباء لم يعودوا كما كانوا في الماضي... أطباء اليوم يريدون معالجة كلّ شيء دون أن يكونوا هم الله، وما ذلك إلاّ لأنهم تعلموا أن يحصلوا على المال... إنهم لصوص... إذ إن الدراسة شيء، والله شيء آخر. لا يعرفون سوى إجراء العمليات الجراحية!

وحقن سمّ الأفعى، الأشعة الكهربائية، حجر الراديوم، كلّ ما خلقه الشيطان لإطالة عمر الفانين أكثر ممّا ينبغي، كي يذهب المرء ركضاً لا مشياً إلى جهنم!... أمّا في هذه الحالة، فقد لحق القصاص بابنها؛ نزلت الصاعقة على المخلوق الذي تحبّه أكثر... يا لصديقتي القديمة!... آه! يا لها من مشكلة!... أفضّل عدم بلوغ الشيخوخة، رفض الموت أكبر كارثة تلحق بالعائلات... وعندما يصير الإنسان قريباً من القبر، لا تبقى له سوى إدارة وجهه إلى الحائط وإغماض عينيه قائلاً: ليحمني يسوع!».

خرجت ترتدي شالاً أبيض ورمادياً يعود إلى طفولتها، في حين كان الصبيان يصيحون بعيداً في السهل، وحرارة الشمس المتفاقمة تطرد آخر الظلال، قبل منتصف النّهار، لتلقي بها عند قدميها، نائمة.

«اليابانيون!... همست لنفسها وهي تحث الخطى. ليس ثمة من هو «أكثر يابانيّة» من ذلك الدكتور لاريوس... لأنه كان المدبّر الأساسي... هو الذي جاء ليقول بأنه عليها أن تذهب للمعالجة في الخارج، وهناك سوف تبرأ، وبأن الأمر لا يتطلب سوى ذهاب وإياب... وهو في منتهى السهولة... وها إنهم الآن، وكما لو كان الأمر مصادفة، يسترجعون من السيدة فينانسيا الأوراق التي تركها لها ابنها، وما ذلك على ما يبدو إلاّ من أجل مقارنتها في حالة التزوير، ثم دسوا إليها بأوراق نقدية أخرى غير متشابهة، لأن الأوراق الأولى كانت من أموال اليانكي أما التي أعطوها إياها فيما بعد عوضاً عن الأولى فهي من أموال البلاد. نفس الكمية، نفس العدد من الأوراق، ولكنها من أوراق البلاد النقدية... أوراق من هنا، بدل تلك التي من هنالك وهي الوحيدة ذات القيمة... استولوا على تلك التي من هناك. لقد جاء مدير الشرطة بنفسه مع ذلك الدكتور لاريوس لاسترجاع الأوراق النقدية... وهو ليس دكتوراً، إنه مجرّد طبيب أسنان. ذلك مكتوبٌ على لوحته. لوحة حجّام... يا للسيدة فينانسيا

المسكينة!... أمّا ذاك، فلا أريد حتى أن أنطق باسمه، لم ينتبه إلى خطورة حالته عندما جاء ليستلم الدراهم! مات الابن، انتهى السفر! صدق من قال: مات الكلْبُ، انتهى الكَلَبُ! ومن يدري إن كان مبلغ الأوراق النقدية المحلية سيكفي لدفع ثمن الدفن والقداس الذي ينبغي القيام به!... من حسن حظّه أنهم صلّوا عليه! قال الأب إنه بعد أن قطع وريده، بقي له وقت من أجل التوبة... وهكذا تعزّت السيدة فينانسيا بشكل من الأشكال... إذا كان ابنها قد تاب فمعنى ذلك أنه سوف يلتحق بالجنة، أما هي فلأنها كابدت الجحيم في الدنيا بسبب ورمها الخبيث، فسوف تلتحق به في أيام الغبطة...».

كانت ذاهبة إلى بيت السيدة فينانسيا. وفي يدها الساخنة كانت تشد على صرّة صغيرة من البخور لتشعله في غرفة المريضة وتطرد قليلاً، تلك الرائحة الكريهة التي باتت لا تطاق بسبب ورمها...

* * *

«كنت سعيداً!...» هذه اللافتة الملعونة صارت هاجساً عند النقيب سالومي يلاحقه في كل آن ومكان. «كنت سعيداً» قال وهو يدخل الخمارة، عدّة مرات، بعد قراءة اللافتة، باحثاً عن تلك المرأة المدهشة التي خدمته أول ليلة دخل فيها إلى الخمارة. لم يكن يعرف اسمها. كان يتذكرها دون أن يسمّيها. كما أن صورتها أخذت بالتلاشي من ذاكرته هي الأخرى. جسيمة، سمراء ضاجّة...

«ولقد مللت هذا النوع من الطيور! قالت صاحبة الدكان، خلف المشرب وقرب جارور الأوراق النقدية، خلال دخول الزبائن وخروجهم مرات عديدة. إنهم يدخلون ويصطدمون بالأثاث... ثم يذهبون. إذا دخلوا عليهم أن يبقوا وإذا ذهبوا فعليهم ألاّ يرجعوا أبداً! أما الذين تمت خدمتهم فإن عليهم أن يمكثوا هادئين! عليهم أن يمكثوا هادئين! عليكم أن تفهموا جيّداً بأن هذا المكان ليس مبولة عامة!... إنكم تُتْلِفُون الباب من كثرة الدخول والخروج...».

ردّ النقيب وقد أزعجته تلك الثرثرة:

«علقي لافتة على الباب تنص على أن الدخول والخروج يتلف الباب، وقدّمي لي قدحاً مضاعفاً.

ـ ماذا قلت؟

ـ ما سمعته لتوك.

ـ هوذا المشروب. ماذا ستأكل؟ هل تحبّ الفجل؟... توجد نقانق مطبوخة... وسِلاء خنزير... كل ما تريد...».

وبعد أن قدمت له فجلاً، استندت على المشرب بذراعيها العاريتين، السمينتين مثل فخذي يسوع الطفل، ثم سألت:

«هل أنت في الخدمة هنا؟».

قام سالومي بإشارة غير محدّدة، يمكن أن تدلّ على الموافقة ثمّ أفرغ كأسه بطريقة تسمح له بتذوّق الفجل اللاذع مباشرة بعد حرقة الكحول. فأشعرته الجرعة بعذاب متنقل حتى أحشائه.

«أعيدي هذا!

ـ قدحاً آخر مضاعفاً؟

ـ نفس الشيء.

ـ ما أسوأ مزاجك! لعلّك حملت محمل الجدّ ما قلته لأولئك الحقيرين الذين يدخلون ويخرجون. لم أكن أقصدك أنت، بل ذاك الذي يذهب ويعود بحثاً عن شخص ما، دون أن يلقي السلام... وأنا أعرف عمّن كان يبحث. لقد طار العصفور، يا عزيزي، لقد طار...

ـ إلى أين يا ترى؟

ـ إلى أين؟ لست أدري... لقد طار... من هنا...

ـ هل يعلم بذلك أم لا يعلم؟

ـ من المؤكد أنه لا يعلم.

ـ هل كانت جميلة؟

ـ ولطيفة، أيضاً...

ـ حسناً سوف أشرب نخبها. إلّي بقدح مضاعف. وإذا أردت أن تشربي فأنا أدعوك.

ـ أفضل شراب الأنيسون.

ـ ما اسمها؟

ـ منْ؟

ـ هي...

ـ آه! المرأة؟... كلارا ماريا... الحقيقة لقد فضلت طردها لأنها خطيرة. عندما تكون واحدة من هؤلاء الفتيات جيّدة ينبغي توقّع «لكنْ...»... لأنّ لهنّ جميعاً شيئاً ما... يا لها من مشاكل!... لست أجد أحداً للعمل... هل يهمك أن أخبرك؟... لقد علمت بأنها ليست من هنا، من معلم مدرسة كان يزورها من بلادها، لقد قلقت عندما أدركت بأنه كلما جاء تظاهرت الفتاة بأن أسنانها تؤلمها وطلبت مني الإذن بالذهاب من أجل العلاج... لقد لمست النقطة الحساسة وطردتها. ليس من المناسب الاحتفاظ بها في محلّ يرتاده الكثير من العسكريين... أنتم الرجال، أغبياء، وهذا الصنف من النساء هو في غاية الخبث!

ـ هل تتوقعين إلى أين ذهبت؟

ـ ربّما إلى الساحل. لقد جاء معلم المدرسة، ذلك اليوم إلى هنا وشرب كأس بيرة، لكنني لم أره ثانية. وإذا أردت نصيحة أبعد تلك الفتاة من رأسك.

ـ كلا. لم أرها سوى مرّة واحدة، لكنّها جلبت انتباهي كثيراً...

ـ إذن من المؤكد أنها وضعت لك شيئاً فيما شربته... هذا أيضاً هو سبب طردي لها بكلمات فظة وراتب شهر مسبق... كانت معتادة على البصاق في كؤوس الزبائن. «هكذا أرسل لهم بقبلة سائلة!» أجابتني، تلك القذرة، في اليوم الذي أمسكت بها وهي تفعل ذلك...

وهذا هو ما حصل لك، سيدي النقيب... قبلة كلارا ماريا تسري في دمائك. الوحل يكوّن غباراً، كما يقال؛ ولكن في الحبّ، يتم ذلك بالعكس. الغبار، والتراب هما اللذان يكوّنان الوحل...

ـ حسناً، فأنا أيضاً سأذهب إلى الساحل.

ـ لكن تلك الفتاة من ساحل الهوندوراس.

ـ أنا ذاهب إلى هناك أيضاً.

ـ طزْ!... لقد وصلوا... في هذه الساعة... والآن أنا التي أقدم المشروب. هل تريد قدحاً مضاعفاً؟

ـ حتى لا أزعجك مرتين، أريد قدحين... ما اسم الأستاذ الذي كان معها؟

ـ معها... بدأت تشعر بالغيرة أيضاً!... لست أدري إنْ كان معها. ولكن الأمر المؤكد هو أنه كان يزورها... كانت تناديه «مُوا» عندما لا أكون بقربها و«دون موازيس» حالما تراني مقتربة. أما اسمه الثاني، أي لقب العائلة فإنه «غاسبر». موازيس غاسبر. ذات مرّة نشرت الجرائد صورته، يبدو أنه وجد في المحفوظات لست أدري أية أوراق مجيدة في التاريخ.

ـ في صحتك!

ـ في صحتك سيدي النقيب، النّقيب من؟

ـ النقيب بيدرو دومينغو سالومي.

ـ من آل سالومي!... من أي سالومي أنت؟... كنت صديقة سالومي ذاك الذي أعدموه...

ـ إنه عمّي...

ـ إذن، إن كنت مثله ـ كان طيباً وشجاعاً! ـ سوف تذهب بعيداً. إن سبب ضياعه هو استماعه لأصدقائه... كان من شأنه أن يكون رئيساً عظيماً للجمهورية. يلذ لي أن أحدّث نفسي بذلك... إن آل

سالومي كثيرون ومنتشرون... لكن لقبك أبان لي كل شيء، إنك عاشق امرأة مستحيلة.

ـ ليس إلى هذا الحدّ...

ـ بالنسبة لرجل طيب ووطنيّ، وعسكري مرموق، تلك المرأة أكثر من مستحيلة!».

كانت صاحبة الخمارة تتكلم بتلك الطريقة من التفخيم وهي في غضون ذلك تحدّق في وجه سالومي بعينين لهما لون عرق الكاكاو، محاولة استشفاف أفكاره. وكان لها ما يشبه عيوناً أخرى تلمع من بعض الخواتم والقلائد والأقراط التي كانت تتزين بها. يا للجسد الهرم، يا للجسد الموشك على ليلة تلاشيه تحت الكثير من الحجارة الكريمة!... كم كان جميلاً هذا الجسد الذي أثار العمّ الذي أعدموه، عَمُّ هذا النقيب الأحمق؛ سحنة ذهبية كامدة لهذا الوجه البيضوي، وأذنان كأنهما من دانتيلا، وهذا العنق الناعم، والكتف الشبيهة بكتف تمثال، وثمرتا الثديين الناضجتان، والبطن بجماله المثير، والفخذان بلون الزنابق المذهبة...

ابتلعت كأس شراب الأنيسون في جرعة واحدة، وتهيأت لملء كأس أخرى:

«هل تريد أن أحكي لك؟... عمك (زفرة)... عمك كان كلّ شغفي. ومن أجله هربت من بيتنا... وهجرت أهلي، فعشت كالصراصير... ولم أتمكن من تحاشي عقاب إخوتي... أحدهم أطلق عليّ الرصاص قائلاً إنه يفضل رؤيتي ميتة على رؤيتي أعيش بتلك الطريقة... ولا يزال أثر الرصاصة تحت شعري... لقد لامستني فقط... عليّ أن أقول... على كل حال... لقد كان عليّ أن أختلق قصة انتحار للتمويه... وهل تنتحر من هي مثلي!... أنا منتهى الرقّة! كلاّ لقد أردت نحر أخرى... وباختصار، بعد كلّ ما حدث، وبعد أن تركني ليتزوج بتلك التي صارت زوجته، صار لي أنا الأخرى رجال آخرون؛ ولكن لماذا تراني أروي لك هكذا؟... عندما أعدموه كنت قد أعرضت عن جسد الشيطان الذي هو الرجل... أوه! طبعاً، ليس نهائياً، لأنّ ثمة

أحياناً نداءات يستجيب لها القلب... كنت أحتفظ تحت وسادتي بصورة عمك، ولا أزال أحتفظ بها إلى الآن قرب «قلب يسوع» في غرفتي ـ ويمكنني البوح لك ـ في كل مرّة «أخونه» فيها منذ إعدامه، مع رجل آخر، كانت صورته تتحدّاني، كان ينظر إليّ بعينين قاسيتين، ويغضّن أنفه كما لو أن صورته تشم عفونة الآخر على جسدي... مساكين هم الذين يعتقدون أن صور الناس الذين عرفناهم وأحببناهم، لا تعيش بعد موت أصحابها!... إنها تعيش ياسيدي الطيب! لها رغبات وآلام... إيه، ربّما لستَ تصدّق ذلك، أمّا أنا، فعندما صرت غير قادرة على رؤية وجهه المغتاظ في الصورة، أقلعت عن ممارسة الحبّ... ها!... ها!... ينبغي أن يكون المرء قد بلغ حدّاً من الشيخوخة حتى يتكلّم عن تلك الأشياء!».

كانت كلمات صاحبة الخمارة تنزلق من لسانها إلى لعابها، ومن لعابها إلى شفتيها، في حين كانت عيناها ـ الجميلتان في الماضي ـ تغرورقان بدموع كبيرة.

«لماذا أطلقت على محلّك اسم «كنت سعيداً»؟ هذا خطأ فادح. أنت مخدوعة، وتخدعيننا أيضاً. «أنا سعيد» هكذا كان عليك أن تكتبي. الحاضر بدل الماضي.

ـ أنا سعيد؟... كلا يا سيدي النقيب، لا أحد يشعر بالسعادة، وما من أحد كان ليدخل كي يشرب كأساً في محلي لو سميته «أنا سعيد»... السعادة الحقيقية بالنسبة لنا، نحن البشر، هي دائماً شيء مضى، وبالتالي لا نتحدّث عنه... والكحول مناسب للحنين الذي تركته اللحظات السريعة الزائلة، في أرواحنا».

تجشأت مراراً من الأنيسون، وبدت عيناها مرتخيتين، ويداها بطيئتين، وكانت تجرّ حذاءها على الأرضية قبل أن تخطو خطوة... لم يتبق منها سوى خوف... خوف تحت شعرها الذي بلون البهار والملح، خوف من الضحك، خوف من البكاء...

«كلارا ماريا سوي... ـ تمتمت في حين كان النقيب يخرج

حافظة نقوده ليدفع ـ ... ذات يوم كان منتشياً وأراد، برفقة ضباط من الحرس الشرفي، أن يقتلع اللافتة وأخذ يصرخ، كما قلت أنت، «ليس لهذه الخمارة الرديئة الحق في أن تدعى كنت سعيداً»...».

ثم غيرت من نبرة صوتها:

«ينقصني النقد!...».

كانت عيناها ثابتتين على الجارور، وهي تحسب النقود التي يتوجب عليها ردها إلى سالومي، دون أن تحتفظ ببقية ورقة المائة بيزو التي قدمها لها...

«ينقصني النقد والزبائن، طيلة الوقت الذي أمضيته هنا، لم يدخل ولو هرّ ليشتري علبة سجائر وعلبة كبريت... وهما أكثر مبيعاً لأن القوم قد يتخلون عن الأكل لكنهم لا يتخلون عن التدخين.

ـ كنت سعيداً. يا كلارا ماريا سوي!... صرخ سالومي... سيدتي احتفظي بتلك الورقة الحقيرة؛ وقدمي لي كثيراً من عرق القصب بكثير من النقود وبأحزان حبٍّ، عليّ أن أغرقها في النسيان!

ـ ألست من سلاح المدفعية؟...

ـ بل من المشاة فحسب!...».

* * *

كان معلّم المدرسة موازيس غاسبر يخرج كعادته من قسم المحفوظات الوطنية، محمّلاً بأوراق وجرائد وكتب ودفاتر، بعد أن قضى كامل النهار مثل جرذ مكتبة، في الاطلاع على أكداس من الأوراق، ونسخها، مع اختلاس بعض الأوراق التي تهمّه. وكان لطول إقامته داخل الأرشيف، يعدّ واحداً من سائر موظفي الأرشيف الذين، على عكسه، لم يكن لهم من شاغل سوى مراقبة ساعة الحائط للهروب قبل حلول الساعة من مقبرة العث تلك، مقبرة العناكب والأحلام المصفّاة عبر الحواجز الشبكية، التي تدلف منها الأمطار أيضاً في الشتاء.

ومن الأرشيف، توجه المعلم غاسبر إلى دكّان قليل الإضاءة في تلك الساعة المتأخرة ثم اشترى ثلاثة أرغفة من خبز بلا ملح، وقطعتي جبن طازج، إذا كان هناك جبن طازج، ثمّ شمعة، علبة سجائر ذرة وعلبة كبريت. وضع كلّ ما اشتراه في الجيوب العميقة لسترته الوسخة التي كانت تصل حدّ ركبتيه.

كان يستأجر ما يشبه سقيفة بيت في حارة كابوتشيناس. وكان السلم يتصل مباشرة بالباب الذي أغلقه بقفل. أمّا أهل البيت، وهم من العمّال الشرفاء، فقد استمعوا إلى خطوات دون موازيس وهو يصعد السلم درجة درجة حتّى غرفته، كعادته كلّ يوم وفي نفس الساعة، يعود، يأكل ثم ينام؛ كان ذلك الرجل ساعة حقيقية، ينزل صباحاً ليلقي دروساً في المعهد القومي ثم يعود بعد الظهر إلى أبحاثه في المحفوظات.

فما الذي جعله يغير وجهته في ذلك اليوم، فيشتري خبزاً وجبناً وكبريتاً وسجائر ويعود عند الساعة الثامنة مساء بخطواته على الدرج؟

ما الذي جعله يخرج من الأرشيف في جنون الظهيرة المشعّ، تاركاً صمت الموتى للأوراق والسجلات القديمة، ليلقي بنفسه في حمّى الشوارع ويتيه في جميع الاتجاهات مثل سائر في نومه، ثم ينتظر خروج كلّ نجوم المساء، وارتسامها على اردواز السماء، كلّ نجوم المساء؟

توقف كي ينصت إلى دقات قلبه، أحسّ أنه عاشق يفقد فضيلة العاشق ثم يسترجعها، بدفع الدم العفن ثم جذبه داخل شرايينه وأوردته الدموية بدءاً بالعروق الوداجية عروق العنق الكبيرة، السهلة القطع، وصولاً إلى الأوعية الشعرية الدقيقة في الأنامل. كان يرتجف بكامله، في عينيه دمعة، وفمه جاف ثم رطبٍ. إذ إنه كان بين الحين والآخر، بين الفكرة والفكرة يشرع في بَلِّهِ باللعاب كي لا يختنق من اللذة.

بين قميصه الخشن النسيج وصدره الأشعر توجد مخطوطة رَقّ دهني رطب...

أغمض عينيه... كلا... كان ذلك مستحيلاً... في شرجه حكّة معتمة... أن يتوقف ويتركه هناك، أن يكتفي بتصويره والتّبليغ عنه، سوف يكون ذلك أكثر إقناعاً. من الأفضل العودة، ولكن أية حجة يقدمها للموظّفين؟ فتح ياقة قميصه، لكنه عاد إلى شدها فوراً، رقبته تشبه أنبوباً تلفه ربطة عنق... لم يكن هو المطلوب لحلّ هذه المشكلة بل الدكتور لاريوس. سوف يطلعه إذنْ على هذا الاكتشاف الكبير، أما إذا كان الأجدى أن يظلّ البرهان في جوارير الأرشيف، لا بين أيدي الحكومة، عندئذٍ سوف يعيده إلى كومة الأوراق.

عندما كان يقترب من عيادة لاريوس، لاحظ، من الضوء والأصوات، أن هناك زبائن كثيرين في غرفة الانتظار، وعلى الفور تناول منديلاً من جيبه ليضغط به على خدّه، ثم دخل متأوهاً وإحدى عينيه مغمضة من شدة ألم الأسنان وهو يتظاهر بالارتعاش. ولم يكد يجلس حتّى خرج الدكتور الأنيق لاريوس، وقد سمع تأوهاته، ثم أدخله، معتذراً من الزبائن الآخرين بحالة هذا الشخص الاستعجالية، نظراً للألم الذي يحس به.

ولم يوافق الزبائن على ذلك فحسب، بل إنهم أشادوا بأخلاق طبيب الأسنان الكبير هذا، الذي تربّى في أمريكا الشمالية. يا للإحساس! يا للتهذيب! يا للمبادرة! يا للعناية! يا للتفاؤل!

تلاشى تأوه المريض بعد لحظة. وفي قاعة الانتظار كان كلّ واحد يحسّ بأنه لن يجلس على كرسي طبيب أسنان بل على كرسي كهربائي، ويتخيل عملية القلع المؤلمة (عندما يشتد صراخ المريض من الألم يتم الالتجاء إلى المسكّنات) وما أن يتلاشى صوت الألم حتّى يُخيم الارتياح على الحضور، ويحصل كلّ واحد منهم على حصّته، مثل ماء فاتر ومعطر بمطهّر، في كأس من ورق.

اختطف لاريوس الرقّ من بين يدي المتألم الزائف الذي واصل التأوه متظاهراً بأن مرحلة اقتلاع الضرس قد حانت، في حين كان

الآخر يتفحص الوثيقة بعدسة مكبّرة بشكل دقيق خطاً خطاً، ختماً ختماً، حتى حبيبات الورق ولطخات القِدم عليه. لم يعانقه البتّة. بل كاد يخنقه. رفعه من على المقعد ليقبّله. بالاكتشاف!...(«أنا، الملك...» مذكرة فالادوليد الشهيرة) رنّ الهاتف، وخرج غاسبر من دون أن يكفّ عن الشكوى، وجهه في منديله، شاحب من شدة الانفعال وعيناه صغيرتان كالفلفل، وحزينتان.

«إلى اللاّحق!» أعلن الدكتور لاريوس، بابتسامة عريضة، فوقف رجل إسباني بطقطقة عظامه. كان يرتدي بدلة من قماش إنكليزي، مزرق الذقن، قوي الأسنان، معقوف الأنف، أجلسه على المقعد، وضع له صَديْرة بيضاء ثم ابتعد لحظة كي يردّ على الهاتف الذي كان يواصل رنينه. ثم عاد.

«ما هنالك يا دون ساتورنينو؟» سأله وهو يقترب من المقعد ويحنيه إلى الخلف. وبعد ذلك غسل يديه. والحنفيتان مفتوحتان، مقلّباً الصابون المخضرّ الذي كان يخلّف كثيراً من الرغوة في الحوض.

«ماذا حدث وماذا لم يحدث؟... لاشيء، إذْ عندما أجلس على هذا المقعد أشعر بأنّني على كرسي كهربائي. أنتم أطباء الأسنان لستم سوى جلادين! ألا يتملككم الخجل؟ بالنسبة لي الدخول إلى هنا يشبه حسد أفقر دركي في قريتي. هذا يسبب لي الـ...

ـ وأنا الذي أشعر بسرور كبير لرؤيتك هنا ولأنّي قادر على أن أقول لك بأني لا أرى أعظم من ملوك إسبانيا!...

ـ ولماذا تقول لي ذلك؟

ـ لأنّهم يؤيدوننا في نزاع الحدود الذي أخبرتك عنه.

ـ طبعاً...» همهم الإسباني في مقعده، بشرود، لأنّه لم يكن يشعر بارتياح كامل وكان يرفع رأسه لينظر إلى النور الأزرق الشبيه

بفراشة سجينة داخل المصباح، أو إلى حزام جلد القرد الذي يحرّك الآلة الصغيرة التي يدعوها لاريوس مخرطة.

رفع طبيب الأسنان قبضتيه في الهواء ليجففهما بمناديل من ورق، ورق إسفنجي كأنه من لِبْد، ثم رفعِ بطرف حذائه الأحمر المبرنق غطاء سطل حيث ألقى بالورق، وظلّ ينتظر يديه حتى تجفّا.

أمّا الدون ساتورنينو فإنه كان يتململ في مقعده وهو ينضح عرقاً وقلة تهذيب.

«يا عزيزي، إن كنت تحدثني عن الملك كي أتحمّل هذا الخزي، فأنت مخطئ تماماً... اللعنة على أسناني! طز في الـ ملك إذا تعلق الأمر بأسناني».

حثّ غاسبر الخطى نحو حيّ خُوكُوتينَانْغُو، من دون أن يبعد المنديل عن خدّه. ولقد انتهى بالتألم من قلع ضرسه لطول ما تظاهر بذلك. كان متيقناً من رؤية كلارا ماريا في طريقه. وعلى الأرصفة كان الصبيان والكلاب وتحرك الناس يضفي ألفة على المدينة النظيفة مثل إناء من فضة تحت سماء مجزّعة بنجوم ذهبية.

«كلارا ماريا ـ صرخ بها عندما رآها تلوح في زاوية شارع تغمره أشجار وارفة الظلال ـ يا ابنتي، يمكننا أن نعود الآن. لقد وجدت الوثيقة أخيراً وأوصلتها إلى لاريوس... فكّرت بتصويرها ثم إعادتها إلى الأرشيف، لكنّ الدكتور بالعكس، رأى أن للوثيقة قيمة كبيرة بحيث لا ينبغي أن نجازف بإضاعتها أو بأن يتظاهروا بإضاعتها في الأرشيف، الأفضل أخذها والاحتفاظ بها لدينا لتقديمها، عندما تحين الفرصة، إلى واشنطن».

كان الهلال يضيء الشارع. وما لبثا أن دخلا ظلّ أحد المنتزهات حيث للماء خرير في الأحواض وحيث شجرة سيبا مدعومة بالإسمنت لتفادي سقوطها، شجرة مئوية ربّما كانت الريح

تبحث بين أوراقها، كما في أرشيف، عن براهين أخرى لتثبت الحدود بين السماء والأرض.

«ما أغبانا نحن البشر! صاح غاسبر رافعاً رأسه نحو الشجرة الضخمة، قبّة كاتدرائية ذات خضرة رمادية تحت القمر، منتصبة تحت السماء الفضية الخالصة... ما أغبانا نحن البشر الصغار مثل النّمل! ما نحن، أنت وأنا، بالنسبة إلى هذه السيبا المعمّرة؟... ماذا نمثّل؟...ولكن عظمة الإنسان هي بالتحديد متأتية من ذلك، عظمة الإنسان الكبرى: إنه لا شيء، ذرة متناهية في الصغر أوشكت أن تسيطر على كل شيء. إنه لأمر مدهش أن نفكّر في ما استطاعته تلك الكتلة البسيطة داخل الجمجمة!...

ـ بابا!، حدثني عن الوثيقة.

ـ هنا سوف تسمعنا الظلال، الأشجار، التماثيل، الماء، المقاعد. عندما تجاوزنا رأس مانابيك.. كنت أحدّثك عن غباء البشر، لأنّنا بسبب وثيقة سوف نستلم غداً قطعة ورق، قطعة ورق واحدة مكتوب عليها «واحد» وبضعة أصفار: ربّما صفران، ربما ثلاثة، ربما أربعة ربما خمسة أصفار... لقد كنت أحلم دائماً ببيت في كومياغوا... إنه أجمل مكان في العالم... بيت من طابقين، ورديّ اللون مع شرفات مدهونة باللون الأخضر... وديكة، اثنان منها أسودان، وأخرى مبرقشة، وأخرى بلون الحبّار.

ـ وإذا اندلعت الحرب، ألن يقبضوا علينا هناك؟

ـ لماذا هذا السؤال؟ أتراك عشقت ذلك المرتزق؟

ـ كلا، سيدي. سألتك لأنّ هذا هو السؤال الذي يتساءله الجميع.

ـ إذن، إذا اندلعت الحرب. من الأفضل أن يقبضوا علينا هناك. لقد بقيت أبحث عن تلك الوثيقة منذ 1911... فترة طويلة... لكننا تجاوزنا، في عودة سعيدة، رأس مانابيك... أريد القول مبارك هو ملك إسبانيا الذي وقّع على تلك الورقة، ذلك الملك الإلهي، ذو لون

البسكويت بالعسل، مرتدي الأسود من رأسه حتى قدميه... ما أريد أن أعلمك به مرّة واحدة (خفض صوته لينظر في جميع الاتجاهات) هو أن تلك الوثيقة الأصلية، الأصلية بما لا يقبل الجدل أمام أية محكمة، سوف تمكن شركة الفروتاميل من مدّ مزارعها إلى أبعد من المزارع التي تستغلها الآن شركة التروبيكال بانانيرا... «واحد» وأصفار كثيرة، بعدد النجوم الموجودة في هذه الساعة في السماء حالياً... ما أجمل الله عندما يتحول إلى دولارات!...».

* * *

من دون سابق إعلان، دقت الدونيا مرغريتا جرس الغرفة 17 في فندق سانتياغو دي لوس كاباليروس، مبيضة البشرة بمسحوق الأرز، مرتدية فستان حداد أرملة جذابة، بل أكثر سواداً من الوموتومبو، وهو الخال الذي يجعل وجهها أكثر لطفاً، كما إنه مثل عين ثالثة ضائعة في خدها.

فتح لوسيرو مرتدياً كمي قميصه، وحمالات بنطاله متدلية، وقد انتعل خفين ولم يكن له متسع من الوقت إلا لتحيتها ثم تركها تجلس جانبياً على حافة السرير، بين شفتيها سيجارة، متقاطعة الساقين.

«لا تظن أنني جئت كي تخبرني عن ليستر ميد وزوجته. أنا أكبر سناً من أن تسليني الحكايات. جئت لأسألك كم تعطيني مقابل أن أطلعك على وثيقة في منتهى الأهمية بالنسبة لك، لن أطلب منك الكثير. صداقتك تكفيني».

ثم مدت إليه يدها، يد ذات أصابع بيضاء كالرغوة، يد لبثت فترة طويلة، في مكان ما من الفضاء، سجينة في يد لوسيرو، فترة كافية لأن تنتهي من التدخين وتزرع سكين نظرتها المهيبة، العميقة، في روحه...

«هاهي ذي... إنها نسخة مصورة».

تناول لينو الورقة السميكة التي رسم على إطارها الرصاصي كتابة مخطوطة وأختام تعود إلى القدم.

«اتركها لك كي تقرأها، ثم نتحدث عنها فيما بعد. سوف اتصل بك هاتفياً بعد الظهر».

وقفت ومدت يدها مجدداً لمصافحة مضيفها.

«لست أرى ابنك، أين تراه ذهب؟

ـ إنه يذهب إلى كل مكان، ذلك الشيطان، كيف عساني أجيبك». وعندما بلغت الباب، توقفت كي تنظر إلى لوسيرو وتتأكد إن كان سيلاحقها بعينيه، وهي الآن تبتعد في الرواق القليل الإضاءة الذي يعبق بعبير المغنوليا والياسمين.

لم يفهم لوسيرو شيئاً ذا بال من تلك الوثيقة، إلا بعد أن قرأها مرات عديدة. جلس على منضدة قرب السرير، متسائلاً إن كان عليه أن يستدعي محاميه أو السيد هربرت كريل الذي عينه الشيخ ماكر تومبسون مساعداً له، في حالة احتياجه لمشورة، بعد أن سافر إلى الولايات المتحدة لخوض المعركة ضد «الفروتاميل كومباني». وقر عزمه على «كريل» لكن الأخير لم يكن في منزله. سمع دقات على الباب من جديد. وضع حمالتي بنطاله على عجل وأنزل كمي قميصه ليقفل أزراره عند معصميه ثم فتح الباب. كانت الأرملة مرة أخرى.

«نسيت أن أقول لك، أوضحت دون أن تدخل، إذا أردت بعد قراءة الوثيقة أن تبيع أسهمك في «التروبيكال بانانيرا» فإن ثمة من يشتريها منك، شريطة أن يكون الثمن مناسباً وفق الظروف، لأنها في الوقت الحاضر ليست ذات قيمة كبيرة. وألف شكر! اعذرني على إزعاجك. سوف اتصل بك هاتفياً».

كان قد أوشك على تناول سماعة الهاتف بسبب تلهفه على الاتصال بالدون هربرت كريل، كي يستخبر عما إذا كان صحيحاً أن قيمة أسهم التروبيكال بانانيرا بدأت تنخفض.

رفع رأسه ليرى ابنه داخلاً. لم يعد كريل إلى منزله. صورة الوثيقة قرب الهاتف مطوية، مسالمة. نعم، كان للوثيقة شيء ما

مسالم أكثر وهي على ذلك الشكل. التقطها كي يضعها في الخزانة... وتهيأ الصبي مرة أخرى ليفسر له كيف تلعب مباراة البيسبول.

17

بنفس النبرة، وبصوت يشبه صوت ملامس آلة حاسبة حيث للفكين إيقاع عتلة، أنهى رئيس الشركة تقريره أمام مجلس الإدارة، وهو مجموعة صغيرة من مساهمين كبار متحلقين ضمن نصف دائرة في الظليل المريح. ومن كل مقعد، يجلس عليه أحدهم، كان دخان سيجارة يتصاعد بتموج برقي.

«... أربعة وأربعون مليوناً وسبعمائة واثنا عشر ألفاً وخمسمائة واثنان وثمانون قرط موز!...

- أكرر... أربعة وأربعون مليوناً وسبعمائة واثنا عشر ألفاً وخمسمائة قرط موز!...

- أضيف... أربعة وأربعون مليوناً وسبعمائة واثنا عشر ألفاً وخمسمائة قرط موز بسعر خمسة دولارات للقرط الواحد! الربح الصافي...».

صوت. صوت مساهم له قرنفلة في عروة سترته:

«وهذه الجمهوريات الصغيرة، كم دُفع لها؟

- حوالي أربعمائة وأربعة وسبعين ألف دولار.

- إلى هذا الحد!...

- أكرر... دفعنا للبلدان الثلاث التي نجني فيها هذه الثمار، ضريبة قيمتها أربعمائة وأربعة وسبعون ألف دولار، مع العلم أننا لاندفع لبلدين من البلدان الثلاث سوى سنت واحد من الدولار على كل قرط يتم تصديره، وندفع للأخرى سنتين اثنين... تتمة التقرير... أكرر (طرق هذه الكلمات بتأتأة آلية صماء). تتمة التقرير!...».

ـ جو سللو لويد، بارد وضبابي، حيث في نورٍ من اليود يسبح الأثاث والقوم...

ـ الجمهورية المذكورة داخل الظرف «أ».

(هسهسة أوراق تتصفح بعجلة... أعمدة صغيرة من دخان سجائر تتمدد ثم تتجمع كالنوابض).

«أكرر... الجمهورية المذكورة داخل الظرف «أ» ترفض منحنا بعض التنازلات للسماح لنا بالعمل علانية على أراضيها، وثمة مضايقات كثيرة في الساحل الأطلنطي تعترض ممارسة سيطرتنا. وعلى السادة المساهمين اقتراح الحل. الجمهورية المذكورة داخل الظرف «ب» ـ (تقليب صفحات، تقليب صفحات) ـ والتي نملك فيها أيضاً مزارع مجاورة للجمهورية المذكورة: الظرف «أ» وبين الجمهوريتين نزاع حدود إقليمية».

جو سللو لويد بارد وضبابي حيث يسبح، في ضوء من اليود، أثاث وأناس، أناس وأثاث، يتنفسونه مع دخان السجائر.

الحل. استغلال هذا النزاع بين الجمهوريتين، وقد ساهمنا أخيراً في تأجيجه بدق طبول الوطنية، وهو حالياً يقترب من أجواء الحرب. عملاؤنا يناورون بمهارة. ونحن نحتجز برقية مورطة للجمهورية المذكورة ـ الظرف «أ». وهذه البرقية سوف تساعدنا في الضغط على حكومة هذه البلاد، كي تقدم لنا التنازلات التي نحن في حاجة إليها. والبرقية المحجوزة تبرهن على أن الجمهورية المذكورة متواطئة مع قوة آسيوية. وإذا لم يقدموا لنا التنازلات التي نطلبها، سوف نهدد بتقديم البرقية إلى وزارة الدولة كي تدعم الجمهورية المذكورة ـ الظرف «ب»، في النزاع الحدودي».

في الصمت العميق، حيث لم تعد هناك مقارعة أوراق بل سيوف، سمع صوت شيخ رمادي السحنة، وقد صارت زرقاء تقريباً عندما بدأ بالكلام. كانت عروق زرقاء تخدد جبينه.

«أطلب تقديم التقرير المتعلق ببيع الأسلحة.

ـ هناك عملاء من الجمهوريتين، تابع رئيس الشركة، جاؤوا إلى أمريكا الشمالية لشراء أسلحة، وقد وقعوا بين أيدينا. تم كشف بعضهم في نيو أورليانز، والبعض في نيويورك، ثم تمت ملاحقتهم بعد ذلك.

ـ نا... نيا... نيا... صأى الهاتف بغرغرة رضيع يرضع ثدياً... نيايايا... نياااا... نياااا!...».

رفع الرئيس سماعة الآلة ذات اللون الأخضر الزمردي وقربها من أذنه الضخمة الحمراء والغليظة. صوت امرأة. ما أن سمعه حتى لاحت المرأة في عينيه اللتين لهما لون زفت ضارب إلى البنفسجي تحت جفنيه الأشقرين. تملكته رجة، أو أنه بالأحرى تظاهر بابتلاع شيء ما، شيء ما مثل تجعدات عنقه التي لا يمكن ابتلاعها.

«أحتج، سادتي، أحتج، (إنه الشيخ ذو الوجه الرمادي الضارب إلى الزرقة، وعروقه الغليظة تهدد بتفجير جبينه). احتج. مكالمات هاتفية بينما نحن في أوج اجتماع مجلس الإدارة!...

ـ خط مباشر! أوضح الرئيس بصوت خفيض، وعيناه اللتان من زفت بنفسجي تتحركان تحت جفنيه الأشقرين... أسلحة... أسلحة. يطلبون أسلحة...».

ثم عاد إلى الكلام في الهاتف:

«آلو! آلو! نيو أورليانز!... آلو! نيو أورليانز!... أتوقف. أنا في اجتماع لمجلس الإدارة».

ولكن ما أن أعاد السماعة، حتى رن الجرس من جديد: «نا!... نيا!... نيا!... نياااا!...!...

ـ نيويورك! أوضح الرئيس بصوت خفيض. أسلحة!... أسلحة!... أسلحة!...» وخاطب العميل الذي يخابره من نيويورك قائلاً وكل تجعداته منبسطة وعيناه تخفقان ببطء: «ولكن هذين البلدين ينويان إنهاء وجودهما من على الخارطة!... كل هذه

الكميات من الأسلحة؟ كل هذه الكميات؟... ولكن مستحيل!... كلا، كلا!... حتى إلى أوروبا لم نرسل بمثل هذه الكميات من الأسلحة!... الأشجار؟... لن تبقى سوى الأشجار؟... قضية سيئة للشركة، قضية سيئة بالنسبة لنا، لأننا بحاجة إلى عمال زراعيين!... آلو... آلو... نعم، نعم، سوف يكون في ذلك فرصة للتخلص منهما معاً، أي، فليفنوا بعضهم البعض بأنفسهم، عندئذ سوف نأتي للمزارع بأقوام ملونين... سأنهي المخابرة... سأنهي المخابرة... أنا في اجتماع مجلس الإدارة!».

سقطت سماعة الهاتف ساحقة الصوت البعيد، الهوائي... كان ذلك كما لو تم قتل كائن بشري، بينما كان كل شيء، المساهمون، الأيدي، الأوراق، يتحركون في دخان السجائر.

«الهدوء! الهدوء! تابع الرئيس وسط الجلبة التي هدأت قليلاً قليلاً، ينبغي أنهاء التقرير. ينقصنا القسم الذي يخص ورثة ليستر ستونر، الذي يدعى ميد في المزارع. إن المعلومات الأولية التي وصلتنا، مرضية... ومن مجمل الورثة ظل المساهمون وهم: سيبستيان كوجوبول، ماكاريو آيوك كايتان، خوان سوستنيس آيوك كايتان وليساندرو آيوك كايتان، مقيمون حالياً في أمريكا الشمالية. ولقد تم تسجيل أبنائهم في أفضل المدارس، وأهاليهم طرائد مؤاتية لوكالات الأسفار. أما الورثة الآخرون: لينو، خوان وكانديدو روزاليو لوسيرو، فقد رفضوا المجيء إلى الولايات المتحدة ويعملون في المناطق الاستوائية تحت اسم «ميد - لوسيرو وشركائهم، الورثة».

نا... نيا... نيا... نياا...! نيااااا... الهاتف مجدداً بغرغرة الطفل الرضيع... نااا نياا...نيااااا...!

«واشنطن!» أعلن الرئيس بصوت خفيض.

ثم ألصق فمه بالآلة حتى يتكلم بأكثر اقتراب ممكن:

«إيه!... تحكيم؟... إخضاع مشكلة الحدود لتحكيم؟... انتظر! إن مجلس الإدارة مجتمع هنا».

ترك السماعة معلقة قرب آلة الهاتف التي بلون الأمل. ومن فتحة السماعة كان يسمع طنين بعيد لصوت يضيع في الفضاء، دون أن يستمع إليه أحد، مثل زجاجة يغلي الماء فيها قبل أن يدفع بسداداتها.

«أيها السادة المساهمون، اسمحوا لي بمقاطعة التقرير. أُبلغت في هذه اللحظة من واشنطن، أن النزاع الحدودي بين هذين البلدين سيخضع للتحكيم. ولئن كانوا هم الذين يدفعون ثمن الحرب، فإننا نحن الذين سوف ندفع ثمن التحكيم غالباً. مع ذلك، إذا لم ينقطع بيع الأسلحة وأنجزنا المهمة، سوف يتوافر هامش كاف حتى نتمكن من الدفع إلى المحكمين وذلك لكي يكون حكمهم متطابقاً مع مصالحنا».

واصلت ذبيحة السماعة اختلاجاتها في حساسيتها المعدنية. اختلاجات ألفاظ مشوشة تعلن اقتراب النزاع الدبلوماسي بين جمهوريتين أمريكيتين.

كان العجوز ذو الوجه الرمادي والعروق الزرقاء الغليظة في صدغيه يلفت انتباه الرئيس إلى الهاتف ليفهمه بأن المتصل لا يزال يواصل حديثه، لكن الرئيس لم ينتبه إليه ورفع الجلسة. كان الصوت يضيع، حاداً تارة وأجش طوراً، مثل صوت مجرد، بينما كان أكبر المساهمين سناً يجرون أقدامهم على الأرضية المصقولة من خشب نفيس، وأصغرهم سناً يتقدمون أكثر خفة، كان البعض يرتدي بدلات فلانيلا قطنية عصرية، والبعض الآخر بدلات غامقة اللون، ومنهم من اعتمر قبعات لبدية ثقيلة.

«تكلم! تكلم! أيها الأحمق القذر! قال الرئيس الذي ظل وحده، للصوت الأجش في التلفون... ها إنني ألتذ أخيراً بعدم سماعك... ها! ها! ها!... كر، كر، كر، كر... ها أن ثرثرتك المتوعدة تتحول إلى مجرد كر، كر، كري، كرا، كرا، كرو،... أيها المدعي اذهب إلى الشيطان!... ببغاء... ببغاء... ببغاء!...».

وفعلاً كان للآلة الخضراء، حقاً هيئة ببغاء يتكلم وحده. التفتت عيناه بلون الزفت الضارب إلى البنفسجي تحت جفنيه الأشقرين، صوب الباب. ثمة قادم ما. لاشك أنه أمين السر. رفع السماعة بحركة ملكٍ يرفع صولجانه ليكلم الله. ولم يدنها من أذنه بل من شفتيه وتظاهر بأنه يبصق. كم مرة جعلته فتحة السماعة يشعر أنها بالوعة، مبصقة يقذف فيها المرضى بأحشائهم المتحولة إلى بصاق عليل! هذه المرة لم يعد مخبره سوى حقارة مهملة تحولت إلى ذبذبات صوتية. فلم تعد ثمة سوى لغة تيار كهربائي، اختلاجات سائل مجهول.

كان طوق تجعيداته يبدو وكأنه جزء من ضحكته التي تحولت الآن إلى ضحكة بلهاء، وكان اهتمامه موزعاً بين خطى أمين السر الذي يمشي خلف الباب ولا يصل، وخرير التيار حيث يضيع في الفراغ صوت الصديق النزيه الذي كان يخبره كل يوم عن خطر المراهنة بوضعه في لعب ورقة الفروتاميل كومباني. وهذه المرة مع الإعلان عن التحكيم كان ذلك متوقعاً. بالتأكيد، ولكن ليس على صورة محكمة ملتئمة في واشنطن دون جدوى. حسناً. ليس هناك سوى الفروتاميل التي تستطيع دفع ما يستوجبه هذا التحكيم المفاجئ وحتى قروضها من أجل اشتراء الأسلحة، تؤكد إلى أي مدى يمكنها أن تصل حتى يميل التحكيم لصالحها.

أعلمه أمين السر بأن خادماً قد وصل لتوه بقفصين. ولقد أدخله دون أن يتركه يقترب. «هذان الفأران نظيفان، صرخ فاقداً رشده تقريباً، وبصوت ساخط. طلبت فأرين وسخين، ألا يوجد فأران وسخان في شيكاغو؟».

ضحكة امرأة، تشبه ماء مرشة ثقوبها من جلاجل، سبقت دخول أوريليا ماكر تومبسون اجتازت عتبة الباب دون سابق إعلان غير ضحكتها تلك.

«هل من الممكن، يا أوريليا، ألا يجد المرء في شيكاغو كلها فأرين وسخين؟ هذان اللذان في القفصينْ مرّا بالحلاق، ثم بالمدلّك

ولست أدري من أيضاً!... فأران أبيضان لهما عيون كالياقوت الأحمر وآذان صغيرة وردية، كان من الأفضل لو أتوني بطيور كناري... طلبت زوجين أسودين أجذمين، لهما وبر وعيون هائجة، وذنب رطب وآذان مقروضة... ولكن أحقاً لا يوجد في هذه المدينة فأر واحد مقزز، واحد فقط؟... أو فأران... لقد طلبت اثنين... هذان ليسا ما كنت أريد، أنهما لا يصلحان للدعابة التي كنت أنوي مباغتة أبيك بها... إنّه هنا حالياً... أوه!... يا لها من متعة!... يا أوريليا !لم تقولي لي أنّكما ستأتيان معاً!...

ـ لم تفسح لي مجالاً للكلام...

ـ وهذه الحيوانات الصغيرة؟...» سأل ماكر تومبسون بعد أن صافح رئيس الشركة وعانقه. لقد فوجئ بوجود قفصيْ طيور بقضبان مذهبة وقد تحولا إلى قفصي فئران، فوق مكتب قطب الموز هذا.

«كنت أنوي إجراء رهان: أردت أن أعرف إن كنت ستحزر أم لا معنى هذين القفصين وقد فكرت في فصلهما بخط مدعوك بالجبن، ولكن ليس بفئران مثل هذه... لقد طلبت فأرين كريهين كئيبين، وسخين يكونان صورة أكثر دقة عن هذين الشعبين اللذين يريدان، داخل أقفاصنا المذهبة، أن يقتتلا من أجل قطعة جبن...».

مرّ العجوز ماكر تومبسون بيده على جبينه العريض الخالي من الشعر، وشرع يضحك مقهقهاً. ثم أجاب وقد لاح بريقٌ في عينيه الكستنائيتين:

«حسناً، إذا كان الأمر كذلك، سوف أقترح أنا اللغز. ماذا يمثل هذان الفأران الأبيضان؟... لنقرب القفصين ممّا دعوته خط الجبن الفاصل... انظر إليهما كيف يتململان، وكيف تنشط غريزة الشم عندهما، كيف يتقدان رغبة في التقاط القطعة، يخرجان الخطم عبر القضبان، وجسماهما يخفقان... فكّر، فكّر، فيما يمثلان وإذا لم تعرف، إذا أقررت بالهزيمة، سوف تدفع ثمن كلّ ما سنأكله ونشربه هذه الليلة... لقد حزرت ذلك. لكنك لا تريد قوله: إنهما يمثلان

شركتين في حالة حرب من أجل الهيمنة على المنطقة الحدودية المتنازع عليها.

ـ هل سمعت آخر خبر؟ لن تندلع الحرب. سوف يخضع النزاع لتحكيم.

ـ ما هو وضع التروبيكال بانانيرا؟ جئت لأنّ لي بعض الأسهم ـ وهي بالأحرى أسهم أوريليا ـ لكنّي أريد أن أستشيرك حول الأراضي.

ـ لقد راجعتني أوريليا ونصحتها سريّاً، ببيعها لاشتراء أسهم من الفروتاميل. لقد فعل العديد من المساهمين الشيء نفسه، ليس لأنّ الفروتاميل أقوى، بل لأن لها كل إمكانيات الانتصار في مشكلة الحدود، إنها تعمل بفاعلية أكبر وتوزع أموالاً أكثر. ثم إنّ التروبيكال بانانيرا فقدت الكثير من الاعتبار بسبب الاتهامات ووصية ليستر ستونر الشاذة. لكن من حسن الحظ أننا نجحنا في استمالة الورثة. لم يبق منهم سوى آل لوسيرو: ليون، خوان، والآخر... ولكن سوف تسنح الفرصة لنتحدّث في هذا الموضوع. أما اليوم فإننا سنحتفل بالقدوم السّري للبابا الأخضر.

ـ أشعر بالرضى في شيكاغو، عندما ينادونني هكذا. أحسّ أنني مازلت شاباً، وقادراً على أجرأ المشاريع! مثل اشتراء كلّ الأسهم التي تستطيع «البانانيرا» أن تضعها تحت تصرّفي كي أنطلق من أجل التصدّي للفروتاميل.

ـ سيكون ذلك جنوناً.

ـ نعم، نعم، أعرف أن ذلك سوف يكون جنوناً للقرصان العجوز، ولكن ماذا تريد أن يفعل رجل عجوز عائد إلى مسقط رأسه، إن لم يحلم بمشاريع جنونية كي يشعر أنه لا يزال في مقتبل العمر؟».

فتحت أوريليا المجال للخروج بأن أمسكت بذراع كلّ من الشيخين. كانت تدندن بإحدى أغاني النوتيّة في نيو أورليانز، وظل

القفصان المذهبان داخل الغرفة فوق المكتب، مع الفأرين المنتحبين والمكدّين بكل قواهما للاقتراب من قطعة الجبن. إلاّ أن الهاتف جمّد حركتهما. هذه الأصوات التي لا انسجام بينها؟ هذا الرنين الغريب؟... نا...نيا... نياا... كان الرنين متقطعاً، وعندما يتوقف، يتحرّك الفأران من جديد، نا... نيا... نياا...!... صمت. لا أحد يتحرك، لم يبق سوى بريق عيونهما، أربع شرارات ياقوت أحمر، في حين كان يواصل نداءه. انزلق أحد القفصين، ذاك الذي كان يتململ فيه أسمن الفأرين؛ سقط التلفون، لا يسمعه سوى الفأرين، لا يسمعه سوى الفأر السمين الذي بعد أن سقط، بقي قرب السمّاعة، وكان يعطي للمتكلّم انطباعاً بأن أذناً تسمع ملتصقة بالسماعة، إذن شخص ما يسمع دون أن يجيب، ودون حتّى أن يتنفس.

«... سيان عندي إن كنت لا تريد الإجابة. حسبك أن تسمعني. إنني أسمعك تتنفس بوضوح وكأنك تتنفّس قريباً مني، واسمع أذنك تحتكّ بالسمّاعة بينما أنت تسمع ما أقول: «أنا، الملك...».

(وهنا لم تعد تسمع سوى ألفاظ غير منسجمة، كان الفأر الثاني قد بقي على المكتب واقترب من قطعة الجبن...).

«... الذي، اطلع عليه مجلسنا... مع الخرائط المشار إليها... منح هذا السند المكتوب في مدينة فالادوليد في اليوم التاسع من شهر أيار، عام ألف وستمائة وستة وأربعين... هل تسمعني جيّداً؟... هل فهمت كيف تم، بمرسوم ملكي، تحديد غير نهائي، بوضع ضُوى على أراض لم تعد قابلة لتقسيم آخر غير التقسيم الجزئي إلى جهات تابعة لمملكة واحدة؟... «ونوعز إلى الجميع بعدم الاعتراض وعدم السماح بالاعتراض على فحوى مرسومنا المذكور...» ولكن من يعترض اليوم ومن يسمح بالاعتراض؟... الذين لهم مطلق الصلاحية، إنهم يأتون للإنصاف، مستخدمين أقوى الصفات والوثائق، هم في المجال الأول وفي المجال اللاحق، هم في المجال الثاني وفي المجال اللاحق، ولكن ليس لهم فعالية مرسوم فالادوليد».

«حسناً... ولكن أجب ـ أجب! إني أسمع أنفاسك ومع ذلك لا تردّ. صوت مجهول يطلعك على الوثيقة التي سيدافع بها أصحاب الصلاحية في هذين البلدين عن حقوقهما في قضية الحدود أمام المحكمة التحكيمية التي سوف تعلن عن حكمها ذات يوم. حذار! هوذا رجل يرتدي بزّة حمراء! إنه يمسك في يديه المرتديتين قفّازاً أبيض بلفّة رق تحمل ختم البحرية البريطانية. فإذا بسطهما، سوف يطير يمام الموجة المزبدة، وترتعد هندسة صارمة لخطوط أبلاها الزمن تحت أنظار المحكّمين. وأبعد منه قليلاً أسقف يرتدي ثوباً وقفازين من لون بنفسجي، يُبدي خريطة خورية انعكس عليها إشعاع من حجر الجمشت المرصّع بصليب من نار يتدلّى على صدره. لقد دخلت روائح البخور والمسك إلى المحكمة في نفس الوقت مع الوثائق الدنيئة التي تخصّ ملكية أرضٍ سُرقت من الهنود...».

من المخبر، ومنْ عساه يخبر، بواسطة هذا التلفون الأخضر، بلون الأمل، الساقط قرب قفص يتخبط فيه فأر بائس؟

أي فم كان يتكلم، وكأنه في حلم، عمّا كان يحدث في واشنطن، كي يسمعه فأر سجين في قفص مذهّب، متوهّماً أنّ رئيس الشركة هو الذي يسمعه بأذنه الكبيرة الباردة وتنفسه الذي يشبه تنفس القوارض ذات الوبر الأبيض؟

... أنا، الملك، تابع المخبر، هي أهمّ الوثائق المشروعة، وجدها معلم مدرسة في «محفوظات الأمّة» واختلسها من أجل الفروتاميل كومباني، مرسوم ملكي قابل للتأويل، كما لو أن العاهل توقّع في فالادوليد، منذ ثلاثمائة سنة، بأنّ شركة ثمار مستعدة لأن تدفع مقابل امتلاكها لكل حقوقها، ثمناً من ذهب أخضر.

... وماذا تفعل التروبيكال بانانيرا، ماذا تنتظر كي تكفل هذه الوثيقة بملايينها؟

... ماذا حل بالبابا الأخضر؟

سمع المخبر المجهول ضجة غريبة... (إنّه أمين السّر جاء يلتقط الهاتف)... ثم صوت أبله يصرخ:

«اللعنة!... لقد سقط كل هذا».

ألقى الخادم بالفأرين إلى الشارع (فأران إضافيان في شوارع شيكاغو القديمة، لن ينتبه إلى ذلك أحد) وقام شحاذ بالتهام قطعة الجبن التي وضعوها في منتهى القرب من خطمي الفأرين الورديين وفي منتهى البعد عنهما.

على الشرفة، كان ماكر تومبسون المشيح بظهره عن ضجيج المدينة المتدفق، يتحاشى رَشَاشَ لعاب الدون هربرت الذي يبصق وهو يتحدّث. وكان دون هربرت الذي يخشى دوار الارتفاع، يجلس حذراً قرب الحافة ويمضغ حبوب الفستق وهو يزعق ضدّ شراء أسهم التروبيكال بانانيرا، التي تدل لامبالاتها وسلبيتها حيال مشكلة الحدود، في رأيه، على الانتصار المبين للفروتاميل كومباني. وكان قد جاء إلى شيكاغو، رغم معارضة أطبائه، ليطلع «جُو» على صورة الوثيقة الشهيرة التي وجدت في الأرشيف، وهي نفس الصورة التي قدّمتها دونيا مرغريتا إلى لينو لوسيرو، حجّة دامغة حسب أقوال الخبراء، على أن التروبيكال بانانيرا هي التي ستخسر القضية نهائياً. غير أن ماكر تومبسون وجّه الحوار وجهة أخرى:

«ها أنت ذا سعيد، يا دون هربرت، في بلاد ميام ـ ميام... لأن الجميع هنا يفهمونك، الجميع يتحدّثون لغتك. يمضغون، يمضغون، ويعيدون المضغ، في كلّ آن ومكان. إنها صورة باهتة عن آكلي لحوم البشر. كان الأجداد يأكلون الهنود الحمر، أمّا الأحفاد فإنهم يمضغون العلكة، وفي الوقت نفسه، يلتهمون ويمزّقون، على المستوى الاقتصادي، بلداناً وقارات...».

نسي كريل التفكير في الدوار. كان متلهّفاً لإقناع القبطان العجوز بأن العصر الحديث لم يعد يستجيب إلى أي إيقاع آخر غير

تواتر العنف والكوارث. قفز في الفراغ، انفصل عن الجدار كي يجلس فوق الشارع، حراً، طائراً، منصرفاً، إلى صديقه يلمسه، يفتش جيوبه، يتعلّق بأذياله، بقفاه، يُلصق أنفه بخدّيه، كما لو كان هذا الاقتراب للجسدين قد يسّر له إقناع صديقه بعدم الإسراع إلى إفلاسه وإفلاس الجميع، بعدم الإمعان في شراء أسهم من التروبيكال بانانيرا.

ورغم أن الدون هربرت لم يكن في الفراغ، بل على أرضية الشرفة، فإنه مكث كما لو كان معلّقاً، بينما كان يسمع نداءات باعة الجرائد تعلو في الشارع: «البابا الأخضر!...» «البابا الأخضر!...» «البابا الأخضر!...» «ملك الموز!...» «ملك الموز!...».

نعم، كان من شرفة شيخوخته يتأمل حلم شبابه، الذعر العميق والتافه من الحياة المحتّمة، ذلك الزمن القديم الذي كان الاستيقاظ في صباحاته يحطم النوم، ذلك الزمن الذي لم يملك فيه سوى فرشاة أسنانه، قطعة صابونه ومنديله... أمّا اليوم فإنه يستطيع التلاعب بكل جواهر أشهر صاغة الألماس في بورنيو.

... «البابا الأخضر!...» «البابا الأخضر!...».

ماذا يعني كل هذا؟ فتح عينيه، حدّق في العجوز تومبسون كي يحصل على الجواب... ماذا يعني كل هذا؟

آه! الغرق... الغرق مع السفينة والركاب...

نعم، جو ماكر قادر...

لكن، إذا كان قد فقد صوابه، فإن الآخرين لم يفقدوا صوابهم.

دخلت أوريليا وفي يدها صحيفة.

«لقد انفجرت القنبلة!».

ولم تضف شيئاً. لأن التكملة كانت موجودة في الجريدة التي أفتكها منها كريل، بلهفة امرئٍ قصير النظر، كي يقرأ على الصفحة

المطوية الحروف المصفوفة في عمود؛ جيش نملٍ يمرّ إلى الهجوم وسلاحه أخطر من البارود.

جميع... جميع ما توقّعه. الكبرياء، الكبرياء البسيط. زهو أبله عجوز. ولكن هذا النوع من الزهو يمكن الشعور به حتى عند الحلاق حيث يمكن للمرء أن يشعر بالشباب بفعل لمسات التجميل والزينة، وتوزيع بقية الشعر خفية على الصلعة. كبرياء عجوز عند حلاق... (وتملكته قهقهة كانت بالأحرى غمغمة يائسة)... عند ذلك الحلاق الذي عوض المرآة، يعلق لوح مغطاة بالأرقام اسمها «وول ستريت»...

* * *

لقد أفلسوا... كانت الساعة الحادية عشرة مساء... أمضوا كامل النهار في التدخين. البيرة والمشروبات المثلجة كاملة في أطباقها، لم تمتد إليها يد، الكؤوس الفاترة يرتادها بعض الذباب، كان المستر ماك. آيوك كايتان (ماكاريو) أحد الأخوة كاوجيبل (كوجوبول) قد دخلا مندفعين ليسألا جو ماكر إن كان عليهما أن يبيعا أسهمهما. ومن دون تردد نصحهما بذلك.

«ولكن أنت، أنت تشتري...

ـ أنا، نعم. أما أنتم فعليكم أن تبيعوا.

ـ سوف نبيعها.

ـ لا أعتقد أنهم سيعطونني إياها كما هي، إنه الإفلاس.

ـ سيكون الأمر أسوأ إذا احتفظنا بها، لأنها سوف تفقد كل قيمتها.

ـ بلى! سوف تبقى لها قيمة. ولكن ليس مثل قيمتها سابقاً».

كانت شوارع شيكاغو تعجّ بالقوم وكأنهم حروف في جرائد ضخمة تلوح من الشرفة التي كان فيها جو ماكر تومبسون يخوض

معركته، من دون ابنته، من دون صديقه، وحده، وبين يديه حفنة أوراق وبضعة أقلام.

ما إن خرج كايتان وكوجوبول بعد أن تفاوضا معه حول الثمن الذي يريد دفعه لاشتراء الأسهم، حتّى انسحبت أوريليا والدون هربرت مذعورين. لقد كان مجنوناً. بما أنه حصل على أسهم هؤلاء الاثنين، لماذا رفض اشتراء أسهم الأخوة لوسيرو، وهي عملية يتمتع فيها كريل نفسه بسلطات خصوصية؟

واصلت قيمة أسهم الفروتاميل ارتفاعها. المستقبل لها. ولم يكن أحدٌ ليرتاب في الشكل الذي سوف يتخذه حكم القضاة في قضية الحدود. كانت بورصة نيويورك نفسها تقول ذلك. في حين كانت أسهم الفروتاميل كومباني (أَشتري!... أَشتري! أَشتري. لم يعد يسمع سوى هذا الصوت) ترتفع دائماً. كانوا يعلنون عن أرباح هائلة للأسهم. وكان الجميع يتوقعون بين لحظة وأخرى، انهيار «التروبيكال بانانيرا»، الشركة التي لم يعد مرتبطاً بها سوى ماكر تومبسون، وهو شذوذ قابل للتفسير على طريقة البحّار العجوز الذي يعود إلى سفينته كي يغرق معها. لقد انبجست من يديه هذه الثروة التي يلعبون بها اليوم في البورصة وفي التحكيم. يالبؤس الشيخوخة. لو لم يكن في هذا السّن لأمسك بخناق كل حَكَم كي يجبره على إعلان الحُكم لصالح شركته. لكن الشيطان عميق المعرفة لأنه كبير السّن، وبدل اليدين تحركت عند أقوى كائنات الخلق قواها الأشد تهديداً.

الساحل... التحكيم... التسليح...

غادرت أوريليا وكريل فندق ستيفنس (في إحدى غُرفه التي يبلغ عددها ثلاثة آلاف غرفة، كان يوجد كائن محموم، مجنون سبق وأن كان قرصاناً) دون أن يخرجا منه تحديداً، إذ إن الفندق كان من الضخامة بحيث أن المرء وهو خارجه، يظلّ داخله، ليبحثا عن كرسي في مقهى مهمل بين مئات المقاهي الأخرى، بين آلاف ممن يشربون القهوة.

تكلم كريل دون أن يكف عن مضغ الفستق:

«لو كان الأمر يتعلق بشحنات بارود فحسب، ولكنه أخبرني أنهم طلبوا منه أسلحة أيضاً.

ـ إنهم عملاء من الفروتاميل، أوضحت أوريليا، وهي تحرّك السكّر في فنجانها.

ـ وهل العلاقة جيدة؟

ـ ممتازة.

ـ قد يكون في ذلك خلاص والدك: المراهنة بأسهم التروبيكال بانانيرا، إذا أراد ـ لكل شخص الحرية في شنق نفسه ـ لاشتراء أسلحة من الفروتاميل كومباني التي لها كل حظوظ الربح حتى في حالة اندلاع الحرب بسبب ما أنفقوه وما ينفقونه على التسلّح.

ـ لم يرغب أبي حتّى في سماع رأيي حول المسألة.

ـ نعم، لأنكِ كنتِ في منتهى الحماس والعزم...

ـ لقد تلافى النظر إليّ، بل لعب لعبة «التخبئة» مع عينيَّ ثم طلب منيّ الجلوس. «كما عندما كنت طفلة» قال لي. وبكل انقياد تمددت عند قدميه، مثل طفلة ساذجة، ولقد شعرت كما لو أننا عدنا، أنا وهو، إلى المزرعة، رائحة التربة المبتلة، وأشجار الموز تحت الحرارة... الضجّة البعيدة المذهلة في ليالي الاستواء».

شربتْ قهوتها. وظلت آثار شفتيها على الفنجان مثل نفلة ذات ورقتين تفصل بينهما حافة الفنجان.

«وعندما جلست على تلك الطريقة، شرع يحكي لي قصة.

ـ أمر لا يصدّق!... ونحن في هذه الزوبعة!...

ـ أشعل غليونه... ـ وهو دائماً يدخّن تبغ النوتية المتعفّن ذاته ـ ثم سألني إن كنت أعرف حكاية أولئك الناس الذين يتحولون إلى ذئاب.

ـ الإنسان الذي هو ذئب الإنسان؟ إنها قصة قديمة.

ـ ظننت أنه كان يعني ذلك. ولكن كلا. كان يلمح إلى الإنسان الذئبي، أولئك الناس الذين يتحولون في الليالي المقمرة، إلى ذئاب، ويرتكبون بتلك الصورة كل الأعمال الفظيعة. إنه اعتقاد شعبي. مجرّد وهم. أمر لا يمكن حدوثه وهو رغم ذلك موجود ليس في القرى والضياع الصغيرة فحسب، بل في قلب نيويورك، في كابيتول السلطة، حيث يوجد أناس يتحولون، في ضوء الذهب، إلى... ذئاب بشرية.

ـ موضوع مناسب لـ «شارلو»...

ـ لقد سبَقْتني إلى قول ذلك. هل ترى شارلو متحوّلاً إلى ذئب، إلى ذئب بشري، وهو يعوي لدى مرور الشيوخ في أروقة الكونغرس!...

ـ ولكن، يا أوريليا...».

توقف كريل عن الكلام ليتناول من جيبه بضع حبوب فستق، إذ إن المادة الخام كانت قد نفدت من فمه. ثم تابع:

«لست أفهم ما تعنيه، إلا إذا كان هناك بعض «ذئاب الأوْس» تهتمّ بتجارة الأسلحة.

ـ لست أدري. إن الرئيس الحالي للشركة هو الذي يحدّثني عن ذخيرة، ويبدو أن طلبات الأسلحة تخضع له.

ـ وهل هو ذلك الشخص الذي لعينيه لونُ سطل تقيأ فيه عشرة آلاف سكّير؟ أوريليا، حكاية «الذئاب البشرية» في كابيتول السلطة هذه تتطلب مني تفكيراً عميقاً. سأصعد إلى غرفتي.

ـ سوف أنتهز الفرصة لقراءة رسالة ابني. لقد أرسل إلي أخيراً بصورته. إنه صبي مدهش. يكبر في غيابنا، وعندما أذهب لرؤيته يبدو لي رجلاً صغيراً».

قام كريل بحركة ودية وغاضبة في آن واحد. ثم أشاح بوجهه دون رؤية صورة بوبي قائلاً:

«إنه يصفني بالثرثار النّمام...

ـ اعذره. فالببغاء لا يُعدُّ مسؤولاً! إنه يعيد أقوال جدّه. ولا شك أن الجدّ على حقّ. أنا مستعدّة للمراهنة (طرة أو نقش) بأنّك تصعد الآن إلى غرفتك لتفكّر إلى من ستشي بحديثي عن «ذئاب الكابيتول البشرية» بواسطة الهاتف.

ـ ليس لديّ متسع من الوقت. سأتصل بعملائي ليشتروا أسهماً من التروبيكال بانانيرا.

ـ أنت لست أقل جنوناً من أبي!

ـ نعم... نعمْ مْ مْ... لست أقل جنوناً من أبيك!» صرخ ببرودة، وبنظرة باردة من عينيه الشبيهتين بالكافور؛ ثم ابتعد بخطى حثيثة، وهو يعرج قليلاً إلى جهة الأقحوانة التي كانت تزيّن عروة سترته، يعرج بساقه اليسرى، ولكن دون الانتباه إلى تشنّجه...

«هاي! هاي! هاي!... وثائق مَلَكيّة... مرسوم صاحب الجلالة المحرّر في فالادوليد... هأ! هأ! هأ!... تواطؤ هذه الحكومة مع اليابانيين، من أجل الهجوم على الخط الفاصل لعام 1821، لصالح «الفروتاميل»... هأ! هأ! هأ!... ينبغي الاحتراس... ارتفاع الأسهم في البورصة وهبوطها...».

لم يصعد إلى غرفته. وبعد أن ترك أوريليا تتأمل صورة ابنها، أغلق على نفسه في غرفة هاتف وأخذ يتصل ويتصل ويتصل. وأخيراً حصل على أحد عملائه. ضاقت أنفاسه. خطىً قصيرة في موضع واحد، كما لو كان مراوحاً. أنهى المكالمة. أوف! بسرعة! بسرعة، بسرعة!... لقد ذهبت أوريليا، أين يجدها؟... في الفندق؟... ها! ها! ها!... هو ذا التشنج من جديد، العرج من جهة الأقحوانة. شاهد في مرآة امرأة عجوزاً مقبلة. وفي مرآة أخرى شاهد فتاة مدبرة. الأعمار! كل هذه الأعمار!... أسعار بورصة. أعمار الناس مجرد أسعار في البورصة. لاشك أن البابا الأخضر ناور من أجل خفض قيمة أسهم «التروبيكال بانانيرا» كي يتمكن من الاحتفاظ بها، أي كما يمكننا أن نفهم، ليحتفظ بأكبر قسم منها، لأنه سوف يوزع

الباقي على شكل أوراق مالية، وسندات وصكوك وقسائم دفع، بين «ذئاب الأوس في الكابيتول»، الحكام، المحامين، مدراء شبكات الصحف - يا للاسم الجميل! - شبكات صحف تحجز الحرية في شباكها باسم الحرية... أوريليا!... أوريليا!... أريد أن أجد أوريليا كي أشكرها. لقد نجوت بفضلها. بفضلها نجا هربرت كريل، كريل السمكة الصغيرة غذاء طعام الحوت الأزرق، وها هو ذا يبحر على متن الباخرة المبحرة في البحر الكاريبي الإلهي ناقلة الملوك، والرؤساء مدى الحياة والرؤساء المؤقتين، وخبراء الخطط الحربية وكذلك خبراء خطط البورصة، القضاة الذين تتشكل منهم محكمة النظر في قضية الحدود الشائكة، ووزير الدولة العظيم قلب - الجاموس... يبحرون... يبحرون... يبحرون... يبحرون... ولكن من دون خطر لأننا جميعاً، نحن القراصنة وصيادي الثور البري، نحن المغامرين، جميعاً داخل السفينة... آه! يا بحر الموز الأزرق وزوابع الذهب، يا بحر الأراجيح المنوِّمة أكثر من عرائس البحر، يا بحر الجزُر التي إذ يقتل المرء فيها يتدفق دمه ألحاناً، وموسيقى...

أمسك عن المضغ، وعاد إلى المضغ...

«كريل، لقد نجوت بفضل حكاية البشر الذين يتحولون إلى ذئاب في ضوء القمر. ما من خطر الآن. كلّ الذئاب في السفينة. الذئاب والقراصنة. ولم يعد خارجها سوى الشعوب، من أجل التصفيق، من أجل العمل. لا شيء يمنح الكرامة سوى العمل. فوق أعلى الصواري رُفع علم البابا الأخضر... («البابا الأخضر!...» «البابا الأخضر!...»).

والحال أنني كنت في مقتبل العمر هنا في شيكاغو، واشتغلت حتّى سمعت هذه الصيحة السحرية: ...Green Pope! Green Pope! في مكتب أولئك الصاغة في بورنيو، من دون أن أفكّر بأنّ تلك الجواهر أقل قيمة بكثير من الألماس الذي ينبت في جباه عمّال الموز، ذلك العرق الذي له قيمة الماس ووزنه... في أيدينا نحن... كما نفهم جيداً، في أيدينا نحن، لأنه في أيديهم لا يساوي شيئاً. راية خضراء

فاتحة تخفق على قمة الصاري الكبير، راية قراصنة: «وعليها بدل قصبتْي العظم التقليديّتين، جذعا شجرتي موز. أما جمجمة الميت، قاتلةُ آمالِ الشعوب التي تصفّق وتعمل، فليست ضد بلد معين، إنها ضد الأمل عند الذين لا تزال عندهم بقية أمل... قتل الأمل... أوه! نعم، قتل الأمل. مشروع هائل، لأن كلّ كائن بشري هو آلة صغيرة تصنع الأمل.

- يتكلم، يبصق، يمضغ... ماذا تفعل هناك يا دون هربرت؟».

كان صوت أوريليا هو الذي فاجأه.

«لست أتكلم، لست أبصق، لست أمضغ، أنا أحلم!

- آه!

- كنت أبحث عنك، قال لها وهو يجفف عرق جبينه بمنديل. لقد خلّصتني من نيران الجحيم يا أوريليا! لقد أقنعتني حكايتك عن «ذئاب أوس الكابيتول» باشتراء أسهم من التروبيكال. شركتنا التروبيكال بانانيرا! واعلمي أن قيمتها حاليّاً قد تم تسعيرها مجدّداً. لولاك لأفلست، لانتحرت و... إلى الجحيم!».

لم تعد أوريليا قربه. لقد اختفت مرّة أخرى. دفنت نفسها حيّة في غرفة الهاتف، وكانت تصرخ:

«بيعوا!... بيعوا!... بيعوا كلّ ما عندكم من أسهم الفروتاميل كومباني... نعم كل أسهمي في الفروتاميل، بيعوها!... أوريليا... أوريليا ماكر تومبسون... نعم، ماكر تومبسون، إسمي أوريليا ماكر تومبسون... أو...ريـ... ليا... ما... كر... تومبـ... سون...».

* * *

أراض بكر. جبال كالأصداف عملاقة لا يزال البحر يصطخب فيها. مناجم، ورشات لنشر الخشب، قطعان، أنهار عليها سدود من أجل الصيد، عزلة سماء زرقاء مخيّمة، سماء على الصنوبر، سماء على الأرز، سماء على القمم المضرّجة بالشفق. صفوف لا تنتهي

لعصافير نائمة على خطوط التلغراف في مدخل هذه الضيعة المعتادة على النجوم أكثر منها على الظل. ماذا حدث؟ لماذا طارت العصافير؟ من هذا السائر على هذه الطريقة وهو يطلق الرصاص من مسدّس؟ ما هذا التراشق بالرصاص؟

«لقد أضأت، لقد أضأت النور. يجب الاختباء» قال صوت امرأة تنام قابضةً يديها للتعوّد على الموت، ليس لأنه يعجبها. فلو كان الأمر متوقفاً على رغبتها لما نامت مطلقاً، ولكن ينبغي التعوّد على النوم الأبدي، ومن الأفضل البدء باعتياد النوم المطوّل... وبعد طلقات المسدس والبندقية، والأجراس. هذا مدعاة للخلط. هذا مدعاة للتفكير في ليلة رأس السنة. قدّاس الديك، أيتها الجدّة الصغيرة! أيّ قداس ديك - إذا لم يكن الأب هناك، فكل شيء أقل قداسة - يُدقّ جرسه لدعوة الناس؟ عندما يخرج المرء إلى الشارع، برودة، برودة الأرض الرطبة غير المبلطة. الشوارع معبّدة في المدن فقط. أما هنا فهي مكشوفة تماماً. تراب. تراب لأقدام الشعب الحافي. الدفء بين جدران أربعة. الباب الموصد بالرتاج. الأجراس. طلقات الرصاص. مشاعل الأوكوت(*) أمام مقر القبطانيّة. قائد النّاحية يشرب وهو بين رجاله. سيُقرأ الإعلان بين لحظة وأخرى. الجنود متأهبون. والجندي الذي سيتلو الإعلان ينشط نفسه. أما آن لهم أن يمسكوا عن القرع! هذا الجرس لا يكفّ عن الدوي. بل هكذا أفضل حتى يستيقظ الجميع. الرجل الذي سيحمل الفانوس ينشط بدوره. سوف يحمل الفانوس كي يتمكن الآخر من قراءة ورقة الإعلان. نورٌ، خلف زجاج النوافذ، ليلٌ في الخارج وهم جميعاً في الليل. من حسن الحظ أن الحرب لن تندلع. لن يمس الوادي الذي هنا ولا الوادي الذي هناك. بل بين بين... لقد أحسنوا التوفيق. كان يمكن للأمور أن تكون أسوأ. وفي المدن كانت صفارات الإنذار تدّوي. وكانت مرافئ الأطلنطي على ساحل البحر الكاريبي تعجّ بالناس. جميعهم تحت علم أبيض. زنوج، مولدون، آسيويون وأوربيون، الجميع يرتدون

(*) صنوبر لونه أحمر وخشبه كثير الصمغ. يستخدم لإشعال النار وتصنع منه مشاعل.

الأبيض. هناك من يدفعون ثمناً من أجل العطسة. فلتعطس جوقة البلدية طوال الليل وطوال النهار... لكم تأخر وصول النبأ! وفجأة! عبر جهاز الاستقبال. آه! يا للنوم الدّنيء! لا يبدو أنّ ثمّة نائمين بل موتى. افتحوا أيها الحمقى، لقد ربحنا الحدّ الفاصل. ربحنا؟ خسرنا؟... ربحنا السلام. هذا شيء جميل!... عاش الوطن وطن أجدادنا. معلم المدرسة نشوان. وكلما مرّ، سوف أصرخ: «عاش الوطن الأم!» وقبل الإرساء، سوف نتفق مع اليابسة لنقول متباكين: «عاشت أمريكا والملكة التي أنجبتها!»... شيء آخر. لا يعلمون شيئاً في الشركة. يبدو عليهم أنهم غرباء عن الحكم الذي أصدرته محكمة التاريخ العليا. من الذي يصوغ جملاً رنانةً. الجميع يصوغون جملاً رنانةً. أصعب ما يفعله المرء هو أن يتبوّل عندما يكون مصاباً بالسفلس. وحدها أرواح المطهر تتألم بنفس المقدار عندما تفعل ذلك. طالب الطب البسيط يتظاهر بأنه طبيب ويلقي محاضرات حول «موضوع الزُّهري المزدهر»... وعلى الملأ وما بين الحشد، يحلل حكم قرار المحكمة، على أنّه نتيجة صراع مالي بين اتحادين جبّارين لشركتي موز. ولكن لا أحد يستمع إليه. وثمة شخص ما. أحدهم يرميه بعلبة سردين فارغة على رأسه. كاد يُجرح. وبقيت له بشاشته ومتسع من الوقت كي يصرخ بالمجهول: «لن أفقد الأمل في تشريح جثتك مجاناً!» الضفادع المستيقظة تنق «بعد! بعد! بعد!» بين ما حدث وسوف يحدث. هل فهمتم؟ من الذي سيتجرأ على معارضة السيد «نيمبو» مناجي الأرواح، المتزوج من أضعف وأنحل وسيط على وجه الأرض، الوسيط الذي حسب رأيه، كان نحيلاً أيضاً في مصر، نحيلاً في بابل، نحيلاً في الجليل، الأمر الذي يؤدي إلى التفكير بأن السّمان ليسوا سماناً مما يأكلونه اليوم بل ممّا أتخموا به في مأدبة نبوخذ نصر. تلك هي الوليمة الوحيدة التي عرفها «نيمبو». ولكن لكي نعود إلى الموضوع الذي يشغلنا، تحدّثت الحية إلى الضفادع وأضاءت بكبريت عينها نزهة الأسماك في مياه السماء الفاترة، المرتعشة زبداً. ذلك أن الثعبان يعالج هذا الموضوع أيضاً، وكذلك الغيمة، والحداة والسبعة الذين يلمعون في تلك النقطة في

السماء التي يمكننا أن ندعوها تحديداً قمّة رأس الرب. لقد أدلى عالم الطبيعيات الإنكليزي، السِّير براكبان، برأيه. الهدايا الوحيدة التي يقدمهم الإنكليز لأوطانهم المختارة هي آراؤهم. أمّا كلّ ما تبقى فإنهم يقدمونه للمتحف البريطاني... إنّه يضحك... إنه يضحك ضحكة ذهب كاثوليكي. لم يقدم إليه القربان فحسب، بل معرض القربان المقدس أيضاً، لكي يبتلعه، ولقد احتفظ بمجموعة أسنانه. مظاهرات، مشادات، هيجان جمهور يتخاطف الصحف. الخبر! الخبر! قرار محكمة التحكيم في قضية الحدود. لم يكن هناك إطلاع إلا على القليل الذي بثته الوكالات البرقية. وما من خبر رسمي. الموظفون في دواوين القنصليات المشرعة الأبواب يلوكون الفراغ. الساعة الأخيرة. ستتولى الحكومتان الإعلان عن قرار التحكيم النهائي خلال الأربع والعشرين ساعة القادمة. بلا استئناف. لقد تشاور مندوبو القضاء مع المحامين. لا استئناف... الولايات المتحدة ستضمن التنفيذ الفوري للقرار من قِبل الحكومتين. مستخدمو الوظائف العمومية ينتظرون النبأ بين لحظة وأخرى. سوف يكون يوم عطلة! عطلة! لا يهم إن تم ذلك بالاستئناف أو من دونه، ما دام هناك يوم عطلة!... لقد امتلأت الشوارع بالناس، وزينت واجهات المنازل بالأعلام الوطنية، وفي السيارات ووسائط النقل الأخرى المزينة بالأعلام والأزهار والقيثارات والقناني، يمر صبيان وبنات وهم ينشدون المارسييز، بينما تلاحقهم زمر من السوقيين المسلحين بهراوات كي يطفئوا المفرقعات ويستولوا على تلك التي لم تتفرقع... ابتهاج!... ابتهاج على الأقدام وعلى صهوات الخيول!... ابتهاج على العجلات الصغيرة!... ابتهاج في كل مكان!... حفلات راقصة في الساحات!... تسبيح الشكر في الكاتدرائية!...

* * *

تحجر رئيس الشركة عندما أحيط علماً بانهيار سياسته في قضية «الفروتاميل». أما جو ماكر تومبسون المساهم الرئيسي حالياً في أضخم شركات الثمار فقد حل محله. كان يسمع خطاه. خطى زارع الموز. على أرضية الخشب الثمين اللماعة كانت

تنعكس، من أسفل إلى أعلى، صورة البابا الأخضر. كان يدخل متأبّطاً ذراع أوريليا... يتبعه الأصدقاء والأعداء، وبينهم هربرت كريل. كريل آخر سمكة من الأسماك الصغيرة التي يقتات منها الحوت الأزرق.

بيونس آيرس 10 كانون الأول 1952

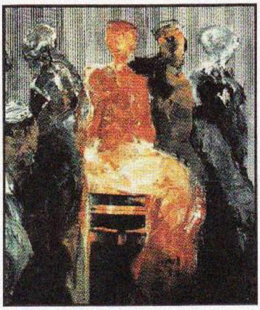

البابا الأخضر

في مناخ إستوائي يتوزّعه الواقع والسحر، أسرار البحر وأسرار اليابسة، قوة الواقع وشاعرية الحلم، يتغلغل الروائي الغواتيمالي أستورياس، الحائز على جائزة نوبل، في حياة شخوصه متنقلاً من الأحداث الحميمية الساذجة إلى الأحداث الكونية بأسلوب يمزج بين النثر والشعر والأغنية في رائعته «البابا الأخضر»، حيث بطل الرواية قرصان أمريكي أشقر يجوب البحار متاجراً بالأسلحة والنساء. ثم يتردد بين مهنة القرصنة وطموحه إلى أن يصير زارع موز ينشر «الإخضرار» أينما حلّ. وعندما يحسم أمره، يتقدم بخطى مدمّرة زارعاً الرعب في السكان الأصليين، حارقاً مزارعهم بحجة استئصال الأوبئة. مجابهة مذهلة بين العقلية الأنكلوسكسونية الوضعيّة والروح الهندية الحالمة في لحظة انكسار حلمها ولجوئها إلى مُدَّخَرِهَا السحري حيناً، وانتقامها الصامت أحياناً.

ويتابع «جو ماكر تومبسون» مسيرة التدمير والنهب والقتل، إلاّ أن كبرياءه يصاب في الصميم عندما يمتلك كلّ شيء، لكنه يعجز عن الحبّ. حب مايار ي الخلاسية التي فضّلت أن تتزوج النهر، في طقوس سحرية غريبة يرسم بها أستورياس لوحات حبُ رائعة. حب يهزمه الواقع فيتعلّق بالمستحيل، بينما تشتدُ وتيرة الأحداث ويواصل قرصان البحر رحلة القرصنة برّاً تحت اسم تبشيري: البابا الأخضر، ملك الموز.